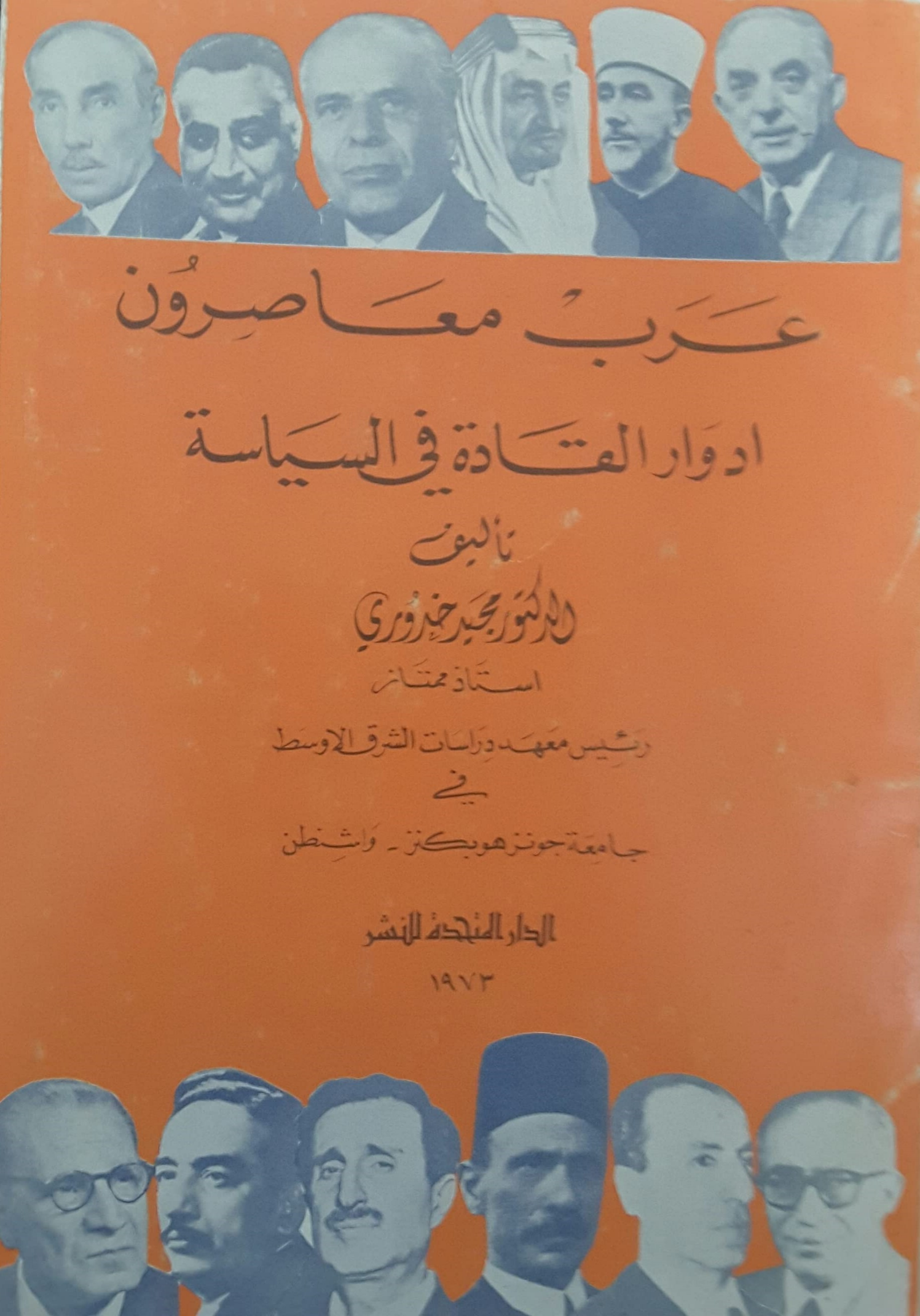


عرب معاصرون

ادوار القادة في السياسة

تأليف

الدكتور مجيد خدوري

استاذ ممتاز

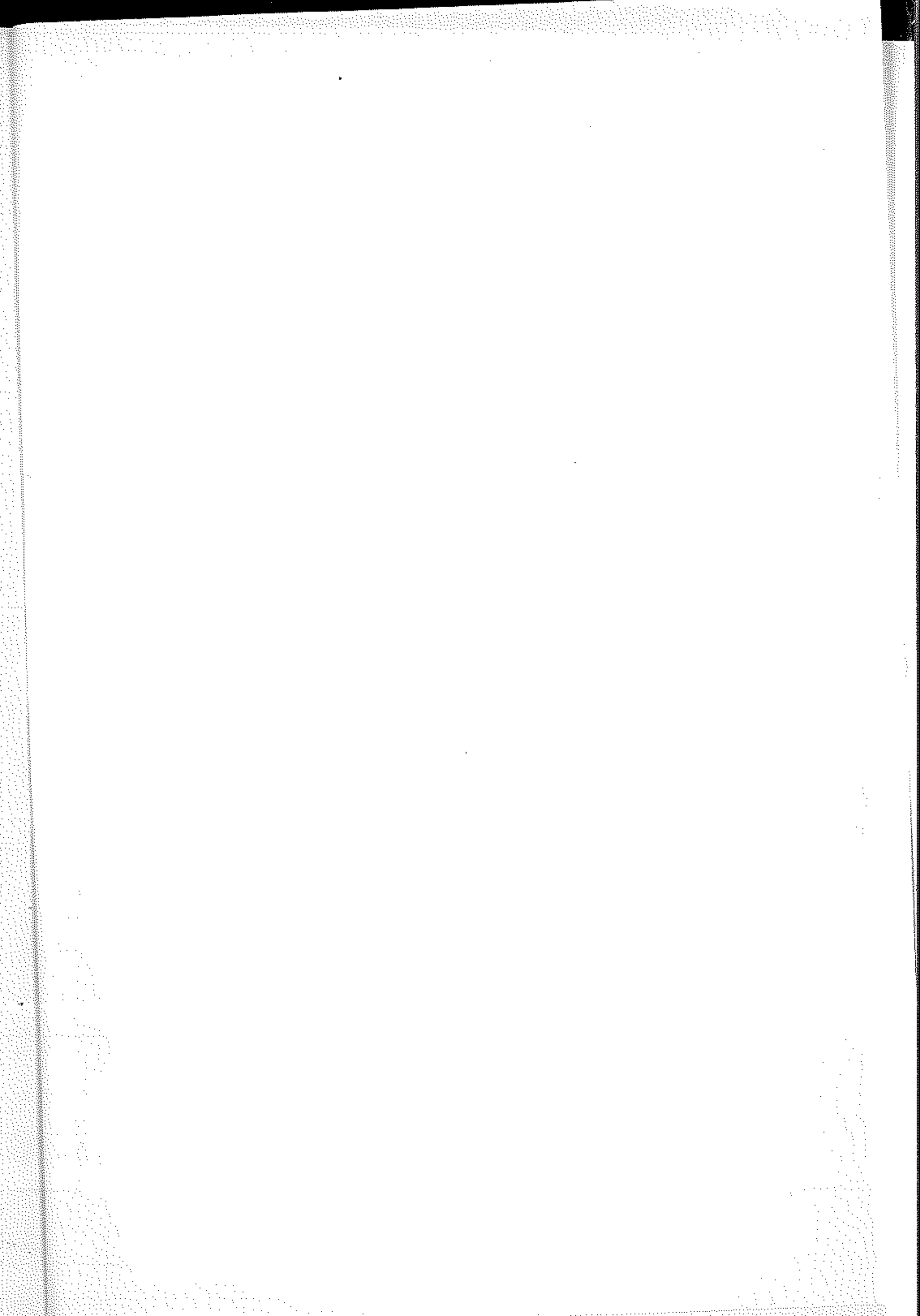
رئيس معهد دراسات الشرق الاوسط

في

جامعة جونز هوبكنز - واشنطن

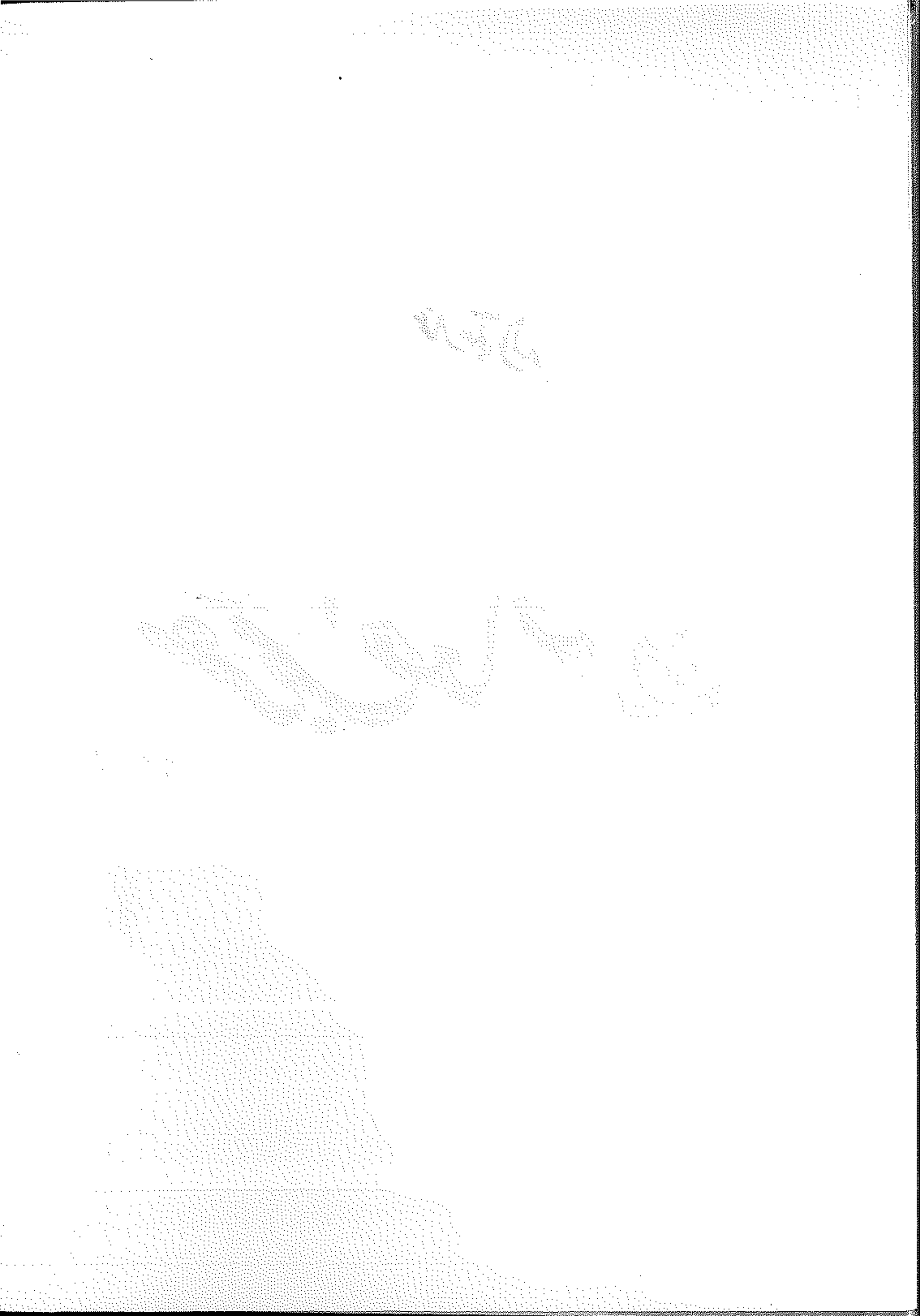
الدار المتحدة للنشر

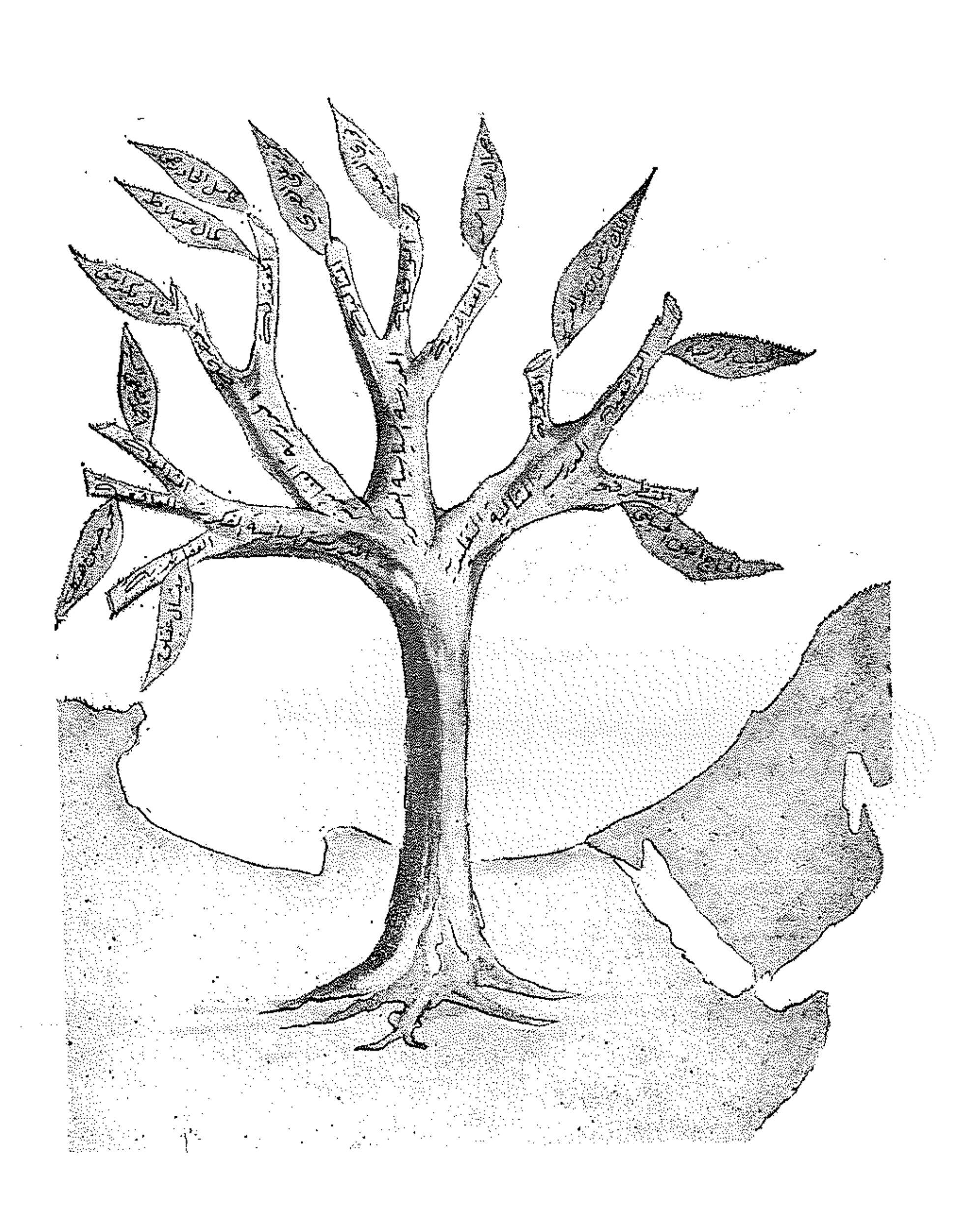
١٩٧٣

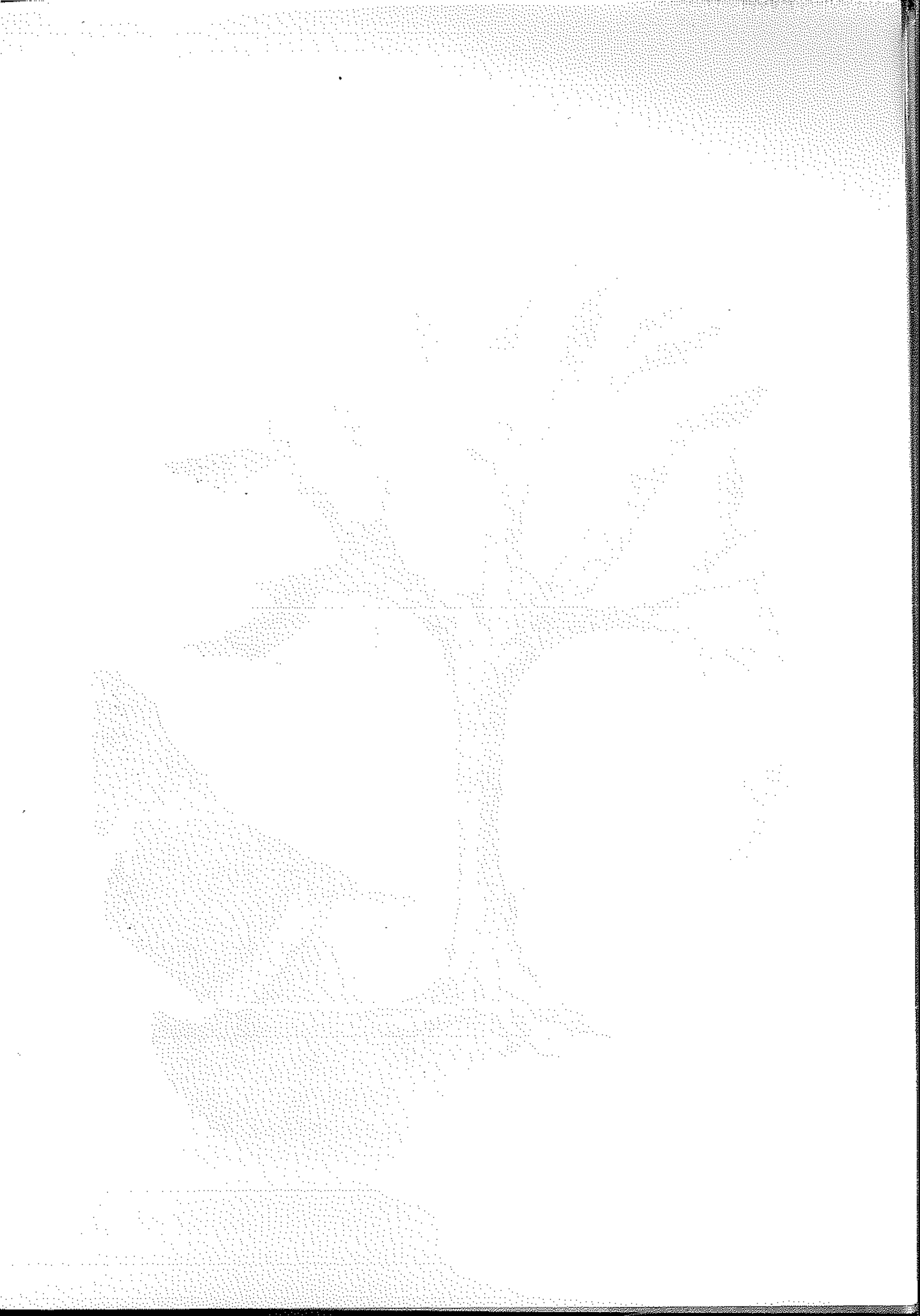


محمد علي الأتاسي

عرب معاصرون







عرب معاصرون

ادوار القادة في السياسة

تأليف

الدكتور مجيد خدوري

استاذ ممتاز

رئيس معهد دراسات الشرق الاوسط

في

جامعة جونز هوبكنز - واشنطن

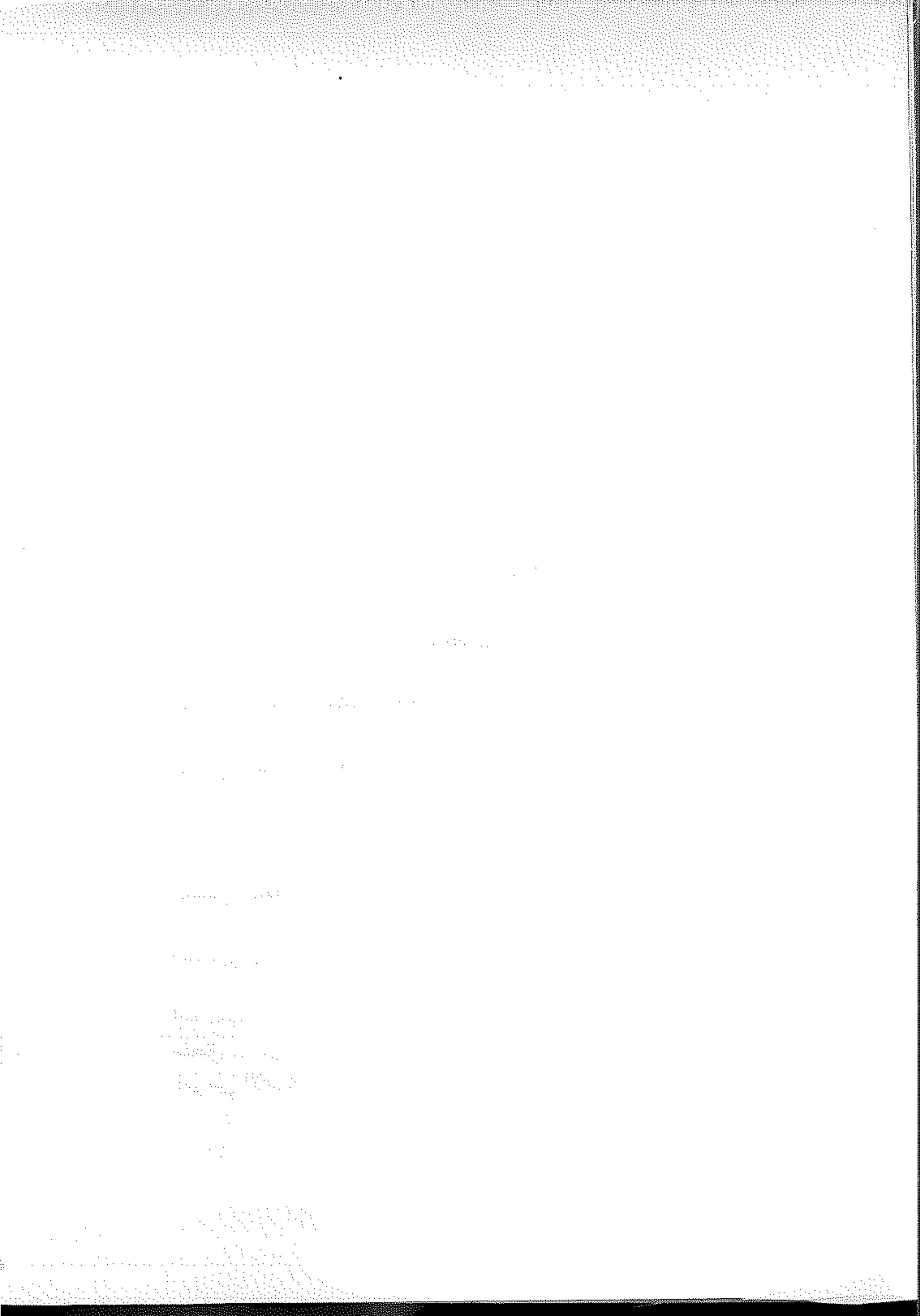
الدار المتحدة للنشر

١٩٧٣

الطبعة الاولى

٩٢ شارع البطريركية ص.ب ٩٠٥٩
بيروت - لبنان
١٩٧٣

المحتويات



مقدمة

هذه الدراسة تتمة لكتاب ((**الاتجاهات السياسية في العالم العربي**)) وقد تحدثت ، في ذلك الكتاب ، عن دور الافكار والمثل العليا في السياسة • وأشرت الى انالسياسة العربية ، في العصر الحديث ، اصبحت جدلا بين المفكرين والقادة يدور حول الاصلاح • وسأعمل في هذا الكتاب على استشفاف دور القادة نواب الأمة ، فأتحدث عن كيفية دخولهم المعترك السياسي ، وعن محاولاتهم اعداد الاهداف ، والأساليب التي اتبعوها لبلوغ هذه الاهداف، من خلال انغماسهم في السياسة •

وبعد فان كتاب ((**عرب معاصرون**)) ، لا يطمح الى تناول دور جميع القادة العرب وانما هو دراسة تناولت اثني عشر منهم فقط ، عرفتهم جميعا بدرجات متفاوتة من التقارب والالفة • وقد تابعت نشاطهم باهتمام يكاد يكون متعادلا ، واخترتهم قصدا ، لأعطي امثلة عن ثلاثة انواع من القيادات هي العسكرية والمهنية والفكرية •ويمثل كل نوع من هذه القيادات مدرسة في العمل السياسي ، كما سنعرض لذلك في الفصل التمهيدي •

ورغم اني تعرضت لسيرة حياة كل زعيم ، فان دراستي عن كل واحد منهم ليست بالمعنى الدقيق ترجمة حياة وانما هي دراسة سياسية ، وتحليل لظروف كل زعيم ومؤهلاته وأساليبه والطريق التي سلكها في العمل السياسي • وحاولت كذلك عرض تقييم عام للصفات القيادية لدى كل شخصية ، ولمنجزاتها بالنسبة لظروفها • واستندت ، في بيان ذلك ، الى احداث ووقائع عرفتها بطريقة مباشرة او غير مباشرة •

واني ادرك ان اتصالاتي ومعرفتي الشخصية لهؤلاء الرجال ربما جعلتني اتقبل اراء ذاتية قد تؤثر في حكمي عليهم • ومع هذا فقد حاولت جاهدا التحقق من هذه الآراء والخروج بتقييم مجرد ، كذلك الذي سعيت اليه في كتابي ((**الاتجاهات السياسية في العالم العربي**)) • وأرجو ان تكون فصول هذا الكتاب بمجموعها مترابطة لعلها تلقي بعض الضوء على فهمنا للسياسة العربية المعاصرة •

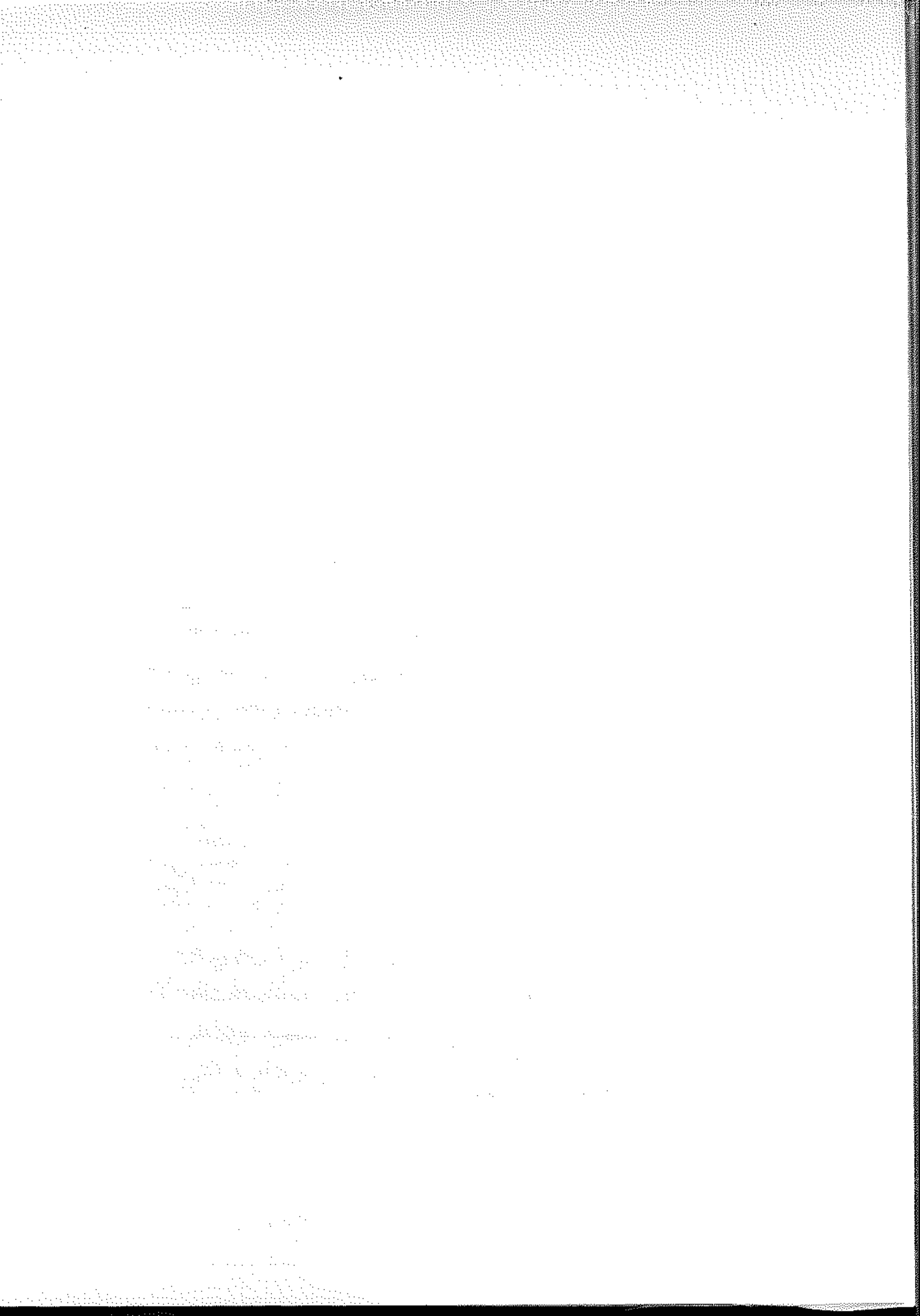
ويسعدني ان اعترف بفضل الذين قدموا الي العون او المشورة ، خلال اعداد هذا الكتاب ، رغم تعذر ذكر اسمائهم جميعا • على ان بعضهم ممن زودني بملاحظات شفهية او خطية على مختلف المواضيع قد آثروا كتمان أسمائهم ، بينما ذكرت اسماء البعض الآخر في سياق النص او في الحواشي • الا اني ، قبل كل شيء ، أود ان اعرب عن شكري لجميع الشخصيات ، التي تناولها هذا الكتاب ، فالبعض منهم زودني بمعلومات شفهية والآخر كتابية ، وناقش معي جميعهم بعض القضايا والوقائع ، التي

كان لهم ضلع فيها • ولقد رحل بعضهم عن هذه الدنيا ، ولكن عددا ، من الذين ما زالوا في قيد الحياة ، قد قرأوا البحوث الخاصة بهم ، سواء باللغة التي كتبت بها اصلا او مترجمة •

وأود ان اشكر بصورة خاصة الدكتور اشرف غربال والسفيرين ريموند هير ، وجون بادو ، لقراءتهم الفصل عن جمال عبد الناصر ، و س• ج ادموندز ، للفصل عن نوري السعيد ، والسفير اكرم زعيتر ، والدكتور يوسف هيكل ، للفصل عن المفتي ، والسفيرين ابراهيم السويل ، وهيرمان ف• ايلتس للفصل عن الملك فيصل ، والحبيب بورقيبه الابن ، للفصل عن والده، والدكتور جورج طعمة، للفصلين عن خالد بكداش وميشيل عفلق ، وجبران مجدلاني،وهاني هندي ، والدكتور ايلي سالم ، للفصلين عن كمال جنبلاط وميشيل عفلق ، واحمد هيكل ، للفصل عن والده محمد حسين هيكل • وأود ان اشكر وليم ساندس ، وروح الله رمضاني ، وجون د• انطوني ، الذين قرأوا الكتاب كله او بعض اجزاء منه • واخيرا اود ان اشكر آيلين دونلين، التي ساعدت من خلال اعمالها السكرتيرية عند اعداد هذا الكتاب ، والكساندرا غروكول ، التي اعدت الفهرس •

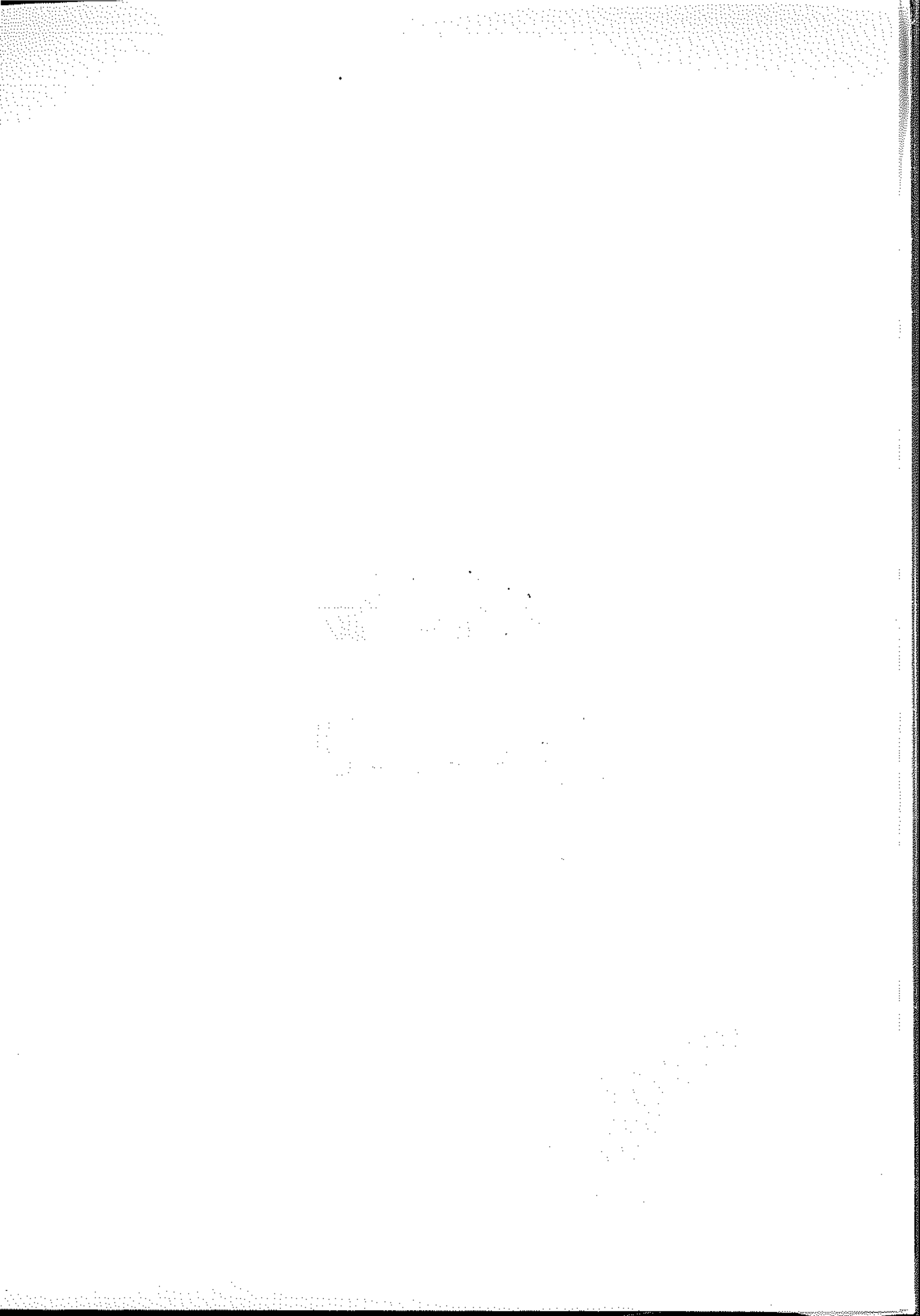
وغني عن القول ان كل هؤلاء ليسوا مسؤولين عن الاخطاء او الآراء الخاصة التي يتضمنها الكتاب •

مجيد خدوري
جامعة جونز هوبكنز



الإهداء

إلى ذكرى زوجتي



الباب الأول

رجل السيف

السياسي العسكري

السيفُ أصدق أنباءً من الكتبِ
في حدِه الحدُ بين الجدِ واللعبِ
«أبو تمام»

الفصل الأول
تمهيد

« اصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » •

(حديث شريف)

لا شك في ان كل دراسة تتناول دور الشخصيات العاملة في الحقل السياسي ، تثير أسئلة حول موضوع هذه الدراسة والنهج المتبع فيها • من هذه الاسئلة مثلا : هل يتحتم علينا ان نعتبر الزعماء السياسيين « مبتكرين » للحركات السياسية ، ام نعتبرهم مجرد « دمى » تظهر على المسرح السياسي لتحقيق مطالب اجتماعية ؟

يختلف الكتاب اختلافا كبيرا في الاجابة عن السؤال • ففئة تتبنى نظرية «الرجل العظيم» كما قال (كارلايل) ، بينما هناك فئة لا تعتبر الزعماء سوى «ادوات» ، بيد الجماهير الراغبة في احداث تغييرات في الاوضاع الاجتماعية كما ذهب الى ذلك (هربرت سبنسر)•واذا اعتبرنا أيا من هذين الرأيين

صحيحا ، فان الاهتمام ينصب على الدوافع المتوافـــرة لدى الزعيم ، في ما اذا كان مدفوعا بالطموح السياســي الخالص ام بمجموعة من الافكار والمثل العليا (الاهداف الأساسية) • حتى لو افترضنا أن الطموح السياسي يسيطر على افكار معظم الزعماء ، فان تحقيق هذا الطموح يحتـم على الزعيم المعني ان يتميز ببعض الاهداف الرئيسية ، لكي يبرر علنا انهماكه في السياسة •

وقد شرحت ، في كتاب « الاتجاهات السياسية في العالم العربي» ، كيف نشأت وتطورت الافكار والمثل (الاهداف) ، وكيف ناقشها المفكرون والزعماء السياسيون العرب • واني اعتزم ان ابين في هذا الكتاب كيف حاول مختلف الزعماء العرب تحقيق بعض هذه الأفكار وفق الظروف الراهنة •

وبصرف النظر عن الاهداف والاساليب التي اتبعتها ، فقد نستطيع أن نتناول بالدرس والتحليل دور كل شخصيـة من زاوية•علينا مثلا أن نبحث عمن هم الزعماء•هل هم اناس ينتمون الى فئة صغيرة تتمتع بامتيـازات خاصة داخــل المجتمـع ، ام زعماء ينتمون لفئة اكبر يشاركهـم زعمـاء آخرون لهم ادوارهم السياسية الهامة ؟ وهنا ايضا تختلف آراء الكتاب اختلافا كبيرا • فبعضهم يذهب الى القول ، بأن الزعيم الاكبر في المجتمعات الأقل تطورا ، هو الذي يلعب على الأرجح ، دورا حاسما في السياسة ، بينما يؤكد البعض الآخر ان نظام الحكم (ولا سيما النظام الحزبي) ، هـو الذي يختار الزعيم ويعين طبيعة دوره السياسي وليست ارادة هذا الزعيم او صفاته • ففي النظام الديموقراطي مثلا

يحتمل ان يكون الزعيم السياسي متحدثا باسم الفئة الحاكمة ، او باسم أية فئة من الفئات الساعية الى الحكم • اما في النظام الدكتاتوري فان السلطة والزعامة السياسيتين وقف على القلة الحاكمة التي يرئسها الزعيم الاكبر •

واذا افترضنا ان القلة الحاكمة هي التي تتولى القيام بالأدوار السياسية الحاسمة فاننا نجابه السؤال الآتي : أيهما افضل ان نتناول دراسة هؤلاء مجتمعين أم فرادى ؟ ففي الحالة الثانية نفترض ان لكل زعيم اهدافه وأساليبه الخاصة • اما في الحالة الاولى ، وهي المفضلة لدى الخبراء في العلوم المسلكية ، فيفترض ان الزعماء يعملون في الحقل السياسي وفقا للمخطط الذي يرسمه لهم هذا السلوك• واذا صح ذلك تكون مهمة الباحث دراسة تصرف الزعماء السياسيين الظاهر في مجتمع معين ، واستخلاص مثال مسلكي عام للزعامة في هذا المجتمع • وقد يكون هذا الاسلوب مفيدا ، ولكنه يميل الى تجاهل امور شتى عرضة للتغيير ، كالأخلاق الاجتماعية والقيم الحضارية التي يغلب تأثيرها في زعامات بعض المجتمعات ، على تأثيرها فيها في مجتمعات اخرى •

وفي هذا الكتاب ، الذي يسعى الى تعميق مفهومنا للدور الذي تلعبه الشخصيات في السياسة ، سنتبع اسلوب الوصف والتحليل للقدرات الفردية ومستوى الحنكة العام لدى عدد من القادة المعاصرين الذين كانت لهم ادوار لها شأنها في العالم العربي ، الى جانب تحديد صلاتهم بالاوضاع القائمة في بلد كل منهم من حيث اهميتهم

واهدافهم • ورغم اننا سنهتم اهتماما خاصا لهذه الامور المعرضة للتغيير فاننا لن نتجاهل اساليب المسلك السياسي العامة ، لانها قد تعمق مفهومنا للدور القيادي الذي لعبه كل من هؤلاء الرجال • وربما اعتبر القارىء هذا الاسلوب مثاليا ، لكونه يسعى الى الكشف عن علاقة بعض الامور غير الملموسة ، كالقيم والمهارات والحنكة ، بدور القيادة في السياسة • ومع ذلك فان هذه الامور لن تبحث نظريا ، بل في نطاق الاحداث والحركات التي كان فيها لهؤلاء الرجال يد • وهكذا يمكن دعوة طريقتنا هذه «المثاليةالتجريبية» ، لانها لاتعتبر الافكار والمثل العليا مبادىء مجردة بل الخطوط المرشدة في العمل السياسي ، ولانها كذلك تحاول بحث مدى صلة هذه الخطوط بالواقع •

لقد صنفت القادة والشخصيات السياسية ثلاث فئات رئيسية ، تضم الفئة الاولى زعماء ليس بين اهدافهم العليا والاوضاع القائمة سوى صلة ضئيلة ، بل ان هذه الاهداف تتناقض في بعض الاحيان مع متطلبات البلد وظروفه • وقد ادرك هؤلاء الرجال المتطرفون ان اهدافهم التي يصبون اليها هي اهداف سابقة لأوانها ، ولذلك فانهم اما اعتزلوا السياسة نهائيا او حاولوا العمل لتمهيد الطريق امام جيل جديد من الزعماء لتحقيق هذه الاهداف • وقد ارتأينا ان نضع هؤلاء القادة في صف المثاليين ، بسبب نزعتهم الى تفضيل المثل العليا على الواقع •

اما الفئة الثانية فتتألف من رجال ينهجون نهج المثاليين تماما ، اذ يضعون الاهداف فوق كل اعتبار ، الا انهم

يختلفون عن المثاليين في تحقيق اهدافهم فلا يتورعون مثلا عن اللجوء الى وسائل جذرية كالعنف والثورة • وكثيرا ما تفشل الانظمة الثورية في مسعاها لتحقيق اهدافها الصريحة المعلنة ، ومع هذا فان زعماءها لا ينفكون يؤكدون ان اهدافهم لا محالة ستتحقق • فأمثال هؤلاء ينطقون عادة بلسان عقيدة معينة وهم الزعماء العقائديون •

اما الفئة الثالثة من القادة فتحتل مركزا وسطا ، اذ انها تدرك انالاهداف ، التي تسعى اليها لا مفر من تعديلها وفقا للواقع ، رغم انها تجسد آمال الجمهور وامانيه • والمنتمون الى هذه الفئة يدعون « بالواقعيين » وغالبا ما يتمسكون بالاهداف التي يعتقدون بامكان تحقيقها ، ويهملون الاهداف الاخرى غير الواقعية • وبالاختصار هم زعماء لا يستنكفون من اخضاع المثل العليا للواقع • وغالبا ما يتمتعون بمرونة اكثر تتفاوت بين زعيم وآخر ، والأكثر مرونة هو الزعيم الاكثر بقاء في الحقل السياسي والاكثر تكيفا للظروف •

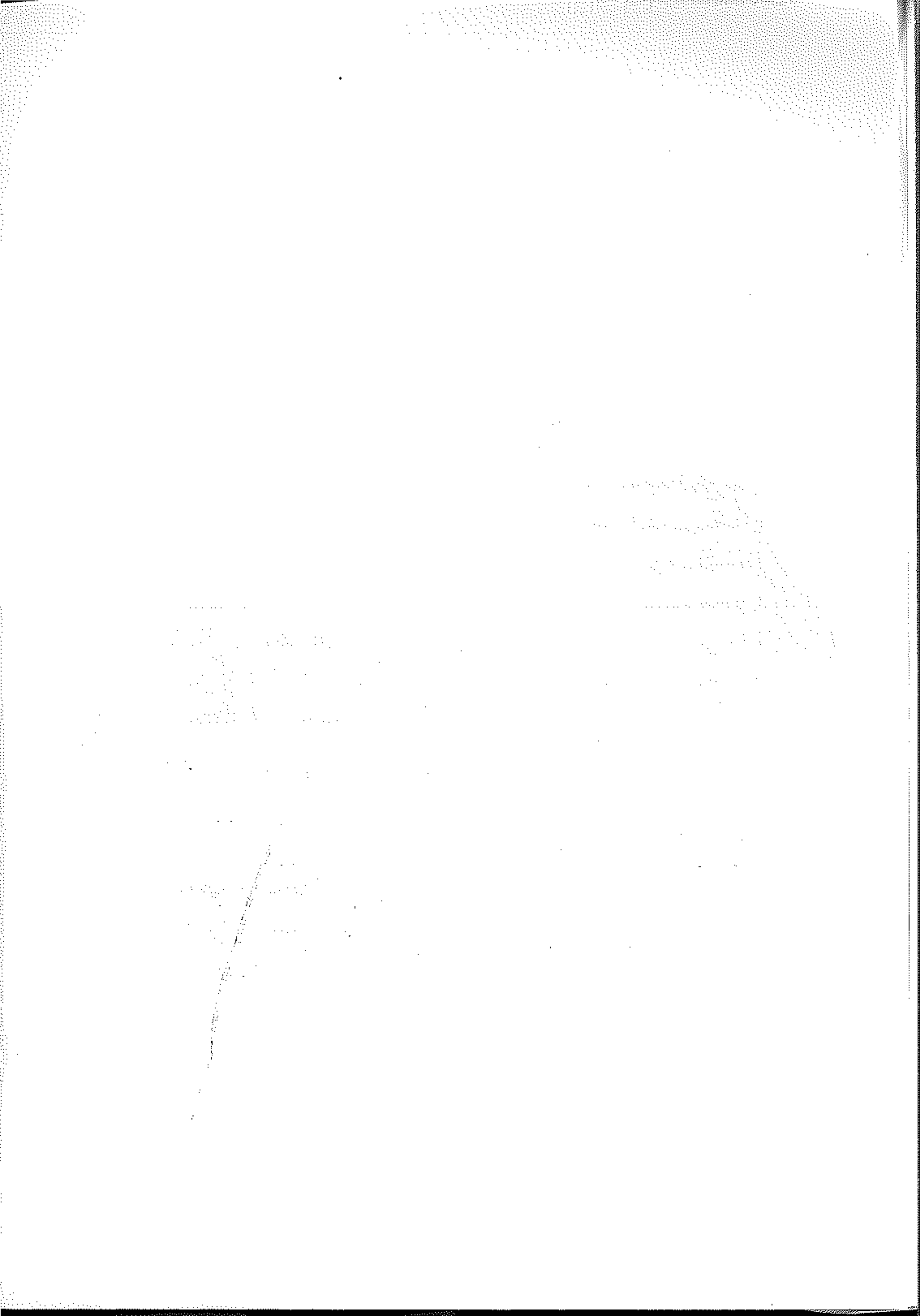
وغني عن القول انكلا من هذه الفئات الثلاث ـ المثالية، والعقائدية ، والواقعية ـ ينضم الى صفوفها آخرون يجمعون بعض هذه الصفات وليس كلها ، ولكنهم يؤلفون فئة او مدرسة جديدة في العمل السياسي الذي سنصرف النظر عنها في هذا الكتاب •

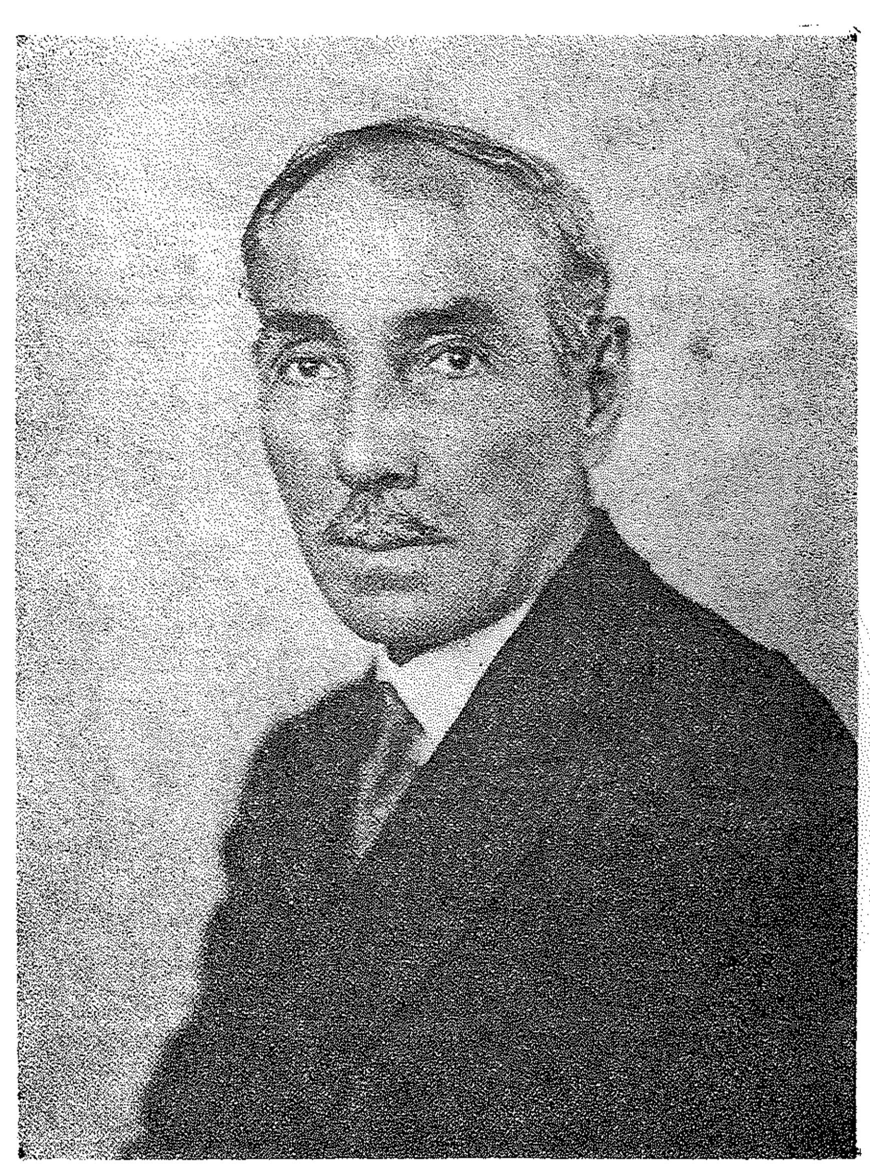
وبالاضافة الى تصنيف الشخصيات السياسية الأفقي ، وفقا للاهداف والاساليب القائمة على الاتجاهات المثالية والواقعية والعقائدية ، يمكن اجراء تصنيف عمودي استنادا

الى الاساليب ، التي اتبعتها هذه الشخصيات في العمل السياسي • فالذين اعتلوا المسرح السياسي على صهوة جواد ، شاهرين السيف على غرار الفرسان في العصور الغابرة يمكن تسميتهم الساسة العسكريين ومكانهم الباب الاول من هذا الكتاب • والذين ولجوا المسرح مشيا على الاقدام متسلحين بمزاياهم الخاصة كالمنزلة الرفيعة في المجتمع والحنكة وغيرها ، يسن اعتبارهم من الساسة المحترفين ومكانهم الباب الثاني من هذا الكتاب •

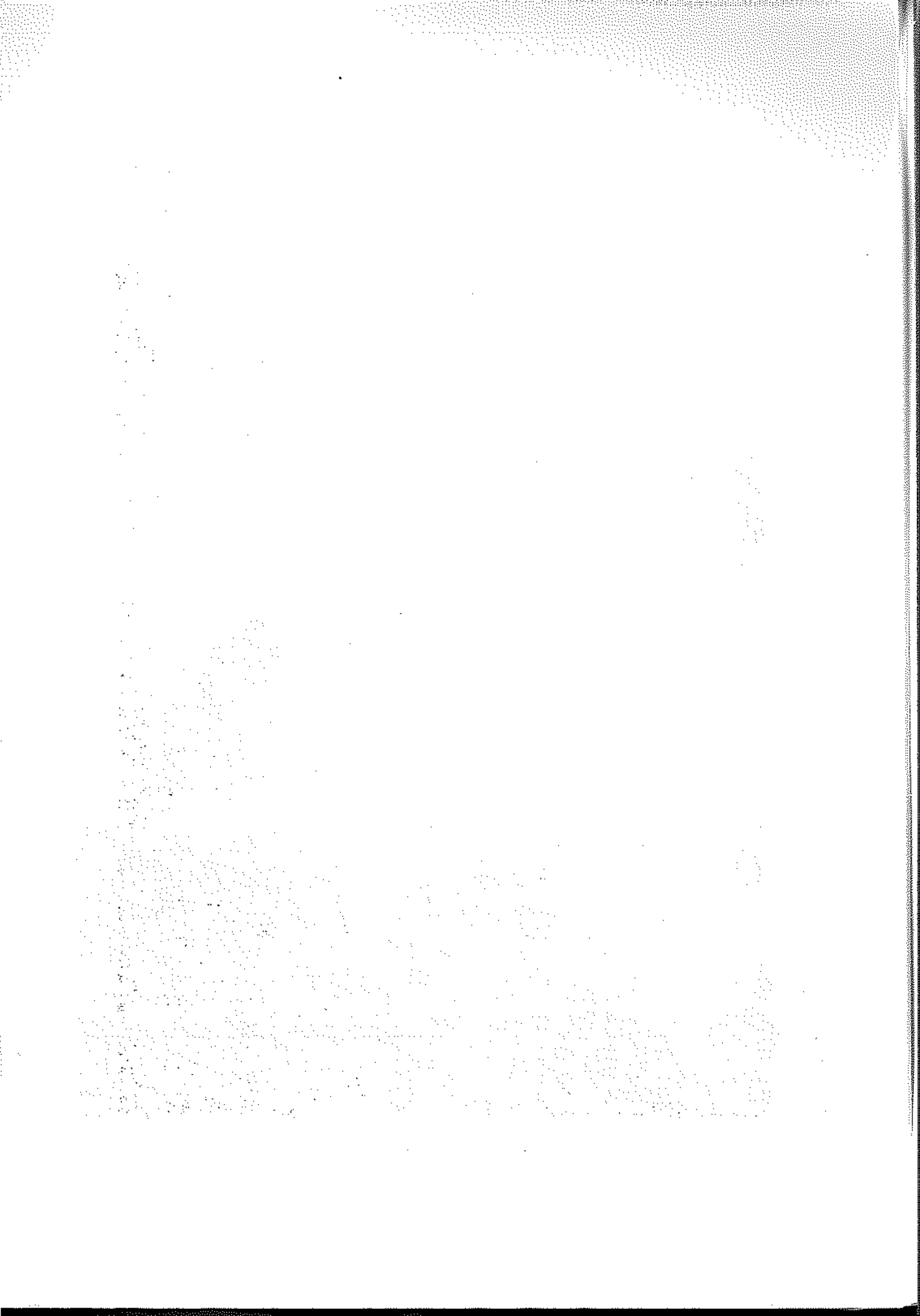
اما الذين ولجوا المسرح سيرا على الاقدام كذلك لكن مسلحين بأقلامهم وحسب ، فيمكن ان ندعوهم الساسة المفكرين ومكانهم الباب الثالث من هذا الكتاب • وليست هذه الفئات من الزعماء التي تختلف في الاهداف والاساليب، وقفا على احد دون الآخر • فقد يكون السياسي العسكري ، او السياسي المفكر ، مدفوعا بالاهداف المثالية او العقائدية • وقد يتصف بصفات السياسي المحترف ويسلك سبيل الزعامة الواقعية •

وقد اخترنا العالم العربي المعاصر لدراسة دور الشخصيات في السياسة ، بما في ذلك مؤهلاتها الضرورية ، واهدافها واساليبها ومدى الدرجات التي ارتقتها في السلم السياسي ، ومنجزاتها الرئيسية ومدى تأثيرها • وسنحاول ، في الفصل الاخير ، الاجابة عن بعض الاسئلة الاساسية التي اثرناها ، في ضوء تجربة مختلف الزعماء العرب في بلدانهم •





عزيز علي المصري



الفصل الثاني

المدرسة المثالية

عزيز علي المصري

أسست جمعية العهد سنة ١٩١٢ وكان الهدف منها حماية حقوق جميع القوميات في الامبراطورية العثمانية وامتيازاتها ، شريطة أن تصبح الامبراطورية اتحادا فيدراليا كبيرا يعيش ضمنه جميع السكان بوئام وسلام بصرف النظر عن عرقهم او دينهم •

عزيز علي المصري

كانت القضايا الأساسية ، التي واجهت الساسة العسكريين ، هي ذاتها التي واجهها زعماء العرب غير العسكريين • انها قضايا ناجمة عن تطورات المجتمع العربي المعاصر ، التي كان مصدرها الافكار والضغوط الاجنبية [1] • ولقد تبنى

---

(١) للاطلاع على القضايا الاساسية ، التي واجهها الزعماء العرب ، والجو الذي عملوا فيه ، راجع كتابي « الاتجاهات السياسية في العالم العربي» (الدار المتحدة للنشر ، بيروت ١٩٧٢)

بعض القادة اهدافا اوجدها غيرهم وعكفوا على تحقيقها بادىء ذي بدء ، اما بوسائل سلمية اصلاحية عملية ، او بأساليب ثورية • وحاول آخرون اعداد مخططات اصلاحية واهداف خاصة بهم ، ثم سعوا الى تحقيقها بالمشاركة في المعترك السياسي • والساسة العسكريون ، الذين اعتبروا الاهداف التي تميزوا بها قضية مسلما بها ، ولجوا ميدان السياسة بقوة السيف ، اي بالاستيلاء على الحكم بالقوة، رغم اشتهارهم بحماية النظام العام والدفاع عنه ، واستمروا في الحكم بقوة الاسلحة التي هي مهنتهم ، مع انهم انكروا هذه الاساليب على خصومهم •

وستتناول بالدرس والتحليل ثلاث فئات من الساسة العسكريين ، تمثل كل منها مدرسة فكرية مختلفة • ويمثل عزيز علي المصري الفئة الاولى ، فئة السياسي العسكري الذي تميز بالارتباط باهداف غايتها تحقيق تغيرات اجتماعية جذرية ، بصرف النظر عن مدى صلتها بالاوضاع القائمة • ولقد كان عزيز علي من اوائل من سعى الى تحقيق اهداف سياسية بأساليب عسكرية في المجتمع العربي المعاصر • وتضم الفئة الثانية ، التي سعت الى احداث تغييرات شاملة، بالثورة سواء بالجيش او بغيره ، وفقا لمواقف عقائدية (ايديولوجية) ، جميع الذين دعوا انفسهم « الضباط الاحرار » تقريبا ، والذين عملوا في السياسة منذ استيلاء جيوشهم على الحكم بانقلاب عسكري • ويمثل هذه المدرسة بصفته مثالا متميزا جمال عبد الناصر ، الذي كان يملك ، أكثر من بقية الضباط ، امكانات قيادية هائلة •

واحسن من يمثل الفئة الثالثة ، اي فئة السياسي العسكري الذي يتمتع بحنكة الساسة المحترفين واساليبهم هو نوري السعيد .

ويعتبر عزيز علي « القدوة » للضباط العرب المعاصرين الذين عملوا في حقل السياسة . وقد اثارت مشاركته في تأسيس جمعيات عربية سرية قبل الحرب العالمية الاولى ، ومحاكمته وطرده من تركيا سنة ١٩١٤ ، ضجة في البلاد العربية وجعلته ، حسب وصف الكولونيل لورنس « معبود الضباط العرب » (٢) . ومع ذلك ، فانه فشل في اقتناص الفرصة لتحقيق الاهداف القومية عندما لاحت له خلال الحرب العالمية الاولى ، لأنه رفض التنازل عن مثله العليا، رغم انها لم تعد منسجمة مع الاوضاع الجديدة . الا انه ظل ، حتى آخر حياته ، مصدر وحي لأتباعه من الضباط العسكريين .

ولعل نسب عزيز علي كان الى حد ما مسؤولا عن عجزه عن الانصهار في النشاط السياسي الذي اجتذب اليه ، اذ لم يكن اسلافه من اصل عربي . فقد كان معروفا ان جده من اصل جركسي ، رغم ان والده زكريا ولد في مصر (٣).

---

(٢) الكولونيل ت. ا. لورنس « اعمدة الحكمة السبعة » (لندن ، ١٩٣٥) ص ٥٩ .

(٣) راجع « الاهرام » (القاهرة) في ٢١ تموز ١٩٥٩ . راجع ايضا كتاب رونالد ستورز « شرقيات » (لندن ، ١٩٤٤) ، ص ١٧٩ : كان جده (جد عزيز علي) من تجار البصرة يدعى سليم عرفات ،الذي كان يسافر سنويا للتجارة

اما الاسم الجركسي للعائلة وهو « شاهلبة » فقد كـان متداولا كثيرا في مصر[٣] قبل ان يتخذ عزيز لقب «المصري» بعد استيطانه اسطنبول تمييزا له عن الضبـاط الاخريـن الناطقين بالعربية والذين جاؤوا الى العاصمة العثمانية من بلاد عربية اخرى •

وهكذا فان عزيز علي كان يدرك انه ليس من اصـل عربي ، رغم ان مولده في مصر جعل العربية لغته القومية • ولم يكن كل رفاق عزيز علي العرب في اسطنبول من اصل عربي ايضا • ولكن لعلهم لم يكونوا على يقين من ذلـك كما كان عزيز ، لانهم جميعا ادعوا الانتماء الى اجداد عرب سواء حقيقيين كانوا ام وهميين [٤] •

وفي اسطنبول وجد عزيز علي نفسه في جو ملائم لمسلكه ، حيث يستطيع التحدث بحرية ضد احتلال الانكليز مصر وعن تعلق مصر بالسلطنة العثمانية • ولقد امتاز بكفاءته كطالب في الكلية العسكرية ، ثم في كلية الاركان بعد ذلك ، وتخرج

في القوقاز ، قرب البحر الاسود . وكان عميله التجاري في هذه المناطق جركسيا يدعى حسن بيه ، الذي وهب عرفات يد شقيقته ، وفي الوقت ذاته تبناه رسميا في العائلة ، وقـد جرى ذلك كله في عهد السلطان محمود · وهاجر افراد الجيل الثالث ثمرة هذه المصاهرة الى القسطنطينية حيث اصابوا مالا وفيرا من بيع عبيدهم ثم توجهوا الى مصر واستوطنوا فيها . كان هؤلاء آنذاك جراكسة اكثر منهم عربا . الا انهم ظلوا محافظين على علائقهم مع البصرة ، مما اتاح لهم التمتع بصداقة العرب ، خاصة سكان غربي مصر ...

(٤) ولد عزيز علي اما سنة ١٨٧٩ او سنة ١٨٨٠ .

بامتياز قبل اربع سنين من اندلاع ثورة ١٩٠٨ في تركيا •

وبعد تخرجه ارسل للخدمة العسكرية في مقدونيا ، حيث نجح نجاحا باهرا في مطاردة العصابات البلغارية ، وفي القتال على الحدود اليونانية والبلغارية والالبانية •

وخلال خدمته في البلقان ، انضم عزيز الى « جمعية الاتحاد والترقي » السرية التي اسهم في انجاحها ، والتي كان بعض اعضائها من رفاق دراسته • ويقول جمال باشا : « عندما زحف جيش الثوار الاحرار الى القسطنطينية ، بعد حركة ٣١ آذار (مارس) ــ ١٣ نيسان (ابريل) سنة ١٩٠٩ الرجعية ، كان عزيز علي يقود احدى كتائبها • وبعد الاستيلاء على جسر غلطه ، هاجم ثكنة طوبخانة وأبدى مهارة كبيرة في طرد العصاة من هناك » (٥) •

وبعد عودة الحياة الدستورية ، تمتعت الفئات القومية المختلفة ، التي كانت تتطلع الى عهد من الحرية والمساواة ، بمرحلة قصيرة من التآخي • ولكن الوضع كان اكثر تعقيدا مما توقع زعماء جمعية الاتحاد والترقي ، لأنهم لم يكونوا على استعداد قط لمعالجة مشكلة القوميات •

فقد اثار المتطرفون بينهم ، الذين نادوا بسياسة « التتريك » ، مخاوف بقية القوميات • وعجز حتى الزعماء

---

(٥) جمال باشا ، « ذكريات رجل دولة تركي » . (لندن ١٩٢٢) ص ٦٠ ــ ٦١ ، راجع ايضا كتاب فرنسيس مكلو « سقوط عبدالحميد » (لندن ١٩١٠) ص ٢١٨ ــ ٢١٩ .

الثلاثة البارزون طلعت وانور وجمال عن الاتفـاق علـى سياسة مشتركة للدولة ويبـدو ان طلعت كان يفضـل «العثمانية» ، واشتهر انور بتأييده « الجامعة الاسلامية » ، بينما أيد جمال «القومية التركية» •

الا انهم جميعا كانوا متفقين على ضرورة المحافظة علـى الوحدة العثمانية • وأدى الاختـلاف في سياسة قوميـة مشتركة الى بلبلة في الافكار ، دفعت مختلف الفئات القومية اخيرا ، الى البحث عن خلاصها في الانفصال عن الوحدة العثمانية •

وادرك عزيز علي ، الذي كان عضوا له نفوذه في جمعية « الاتحاد والترقي » ومن انصـار الوحـدة العثمانيـة المتحمسين ، مدى الخطر الذي تتضمنه سياسة «التتريك» ، فراح يوصي بالاعتدال • ورأى ان احسن وسيلة للمحافظة على الامبراطورية العثمانية ، التي تضم بين ظهرانيها مجتمعا متعدد العناصر والاعراق ، هي الاعتـراف بالقوميـات ، واعتبار كل منها وحدة مستقلة ضمن الكيـان العثمانـي الاكبر ، لا محاولة خنقها • ولا مناص من الابقاء على هوية مختلف القوميات في سبيل المحافظة على الوحدة العثمانية• ولا غرو اذن ان يكون على علاقة طيبة مع بعض زعمـاء الفئات القومية مما جعله يحاول خلق تفاهـم بينهم وبـين زعماء جمعية الاتحاد والترقي •

لقد اثارت هذه الافكار ، التي دعا اليها رجل ليس من اصل تركي ، شكوك خصومه في جمعية الاتحاد والترقـي كما اثارت الشبهة في انه يؤيد القوميات الناقمة • ثم ان

ارتياده « المنتدى العربي » ؛ وهو ناد ثقافي عربي ، دفعت الى الاعتقاد بأنه يعطف على القضية العربية التي يتكلم لغة اهلها • وقيل انه انضم آنذاك الى الجمعية «القحطانية» وهي جمعية عربية سرية انشأها صديقه سليم الجزايري سنة ١٩٠٩ ؛ والتي يبدو ان الحكومة كانت تعرف بأسماء اعضائها [٦] •

ولا ريب في ان آراءه الجريئة عن مشكلة القوميات ، ومعاملته زعماء جمعية الاتحاد والترقي معاملة خالية من اللياقة كانت السبب في تغاضي الحكومة عن خدماته للدولة [٧] •

اما الطامة الكبرى فكان خلافه مع انور باشا • ويبدو انه كان في اصله خلافا شخصيا بحتا ، فعزيز علي كان ينتقد انور ، حتى حين كان هذا عضوا عاملا له نشاطه وكلمته في اوساط جمعية الاتحاد والترقي • فقد حدث ، عندما كان الاثنان في برقة (ليبيا) ان ابدى عزيز ، الذي كان مستاء من كون انور رئيسه في الجيش ، ملاحظات مهينة بحق انور على مسمع من الاتراك والعرب • وعندما عاد انور الى اسطنبول ليكون وزيرا للحربية ، واصل عزيز

---

(٦) جورج انطونيوس « اليقظة العربية » (لندن ، ١٩٣٨) ص ١١١ •

(٧) لمح جمال باشا الى ذلك بقوله : « حتى الان (١٩٠٩) لم اكن اعرف انلهذا الرجل (عزيز علي) ارتباطات عربية » (جمال باشا ، « ذكريات » ، ص ٦١) •

حملاته عليه ، متناسيا انه اصبح رئيسه المباشر • واشترك العرب ، الذين ادعوا أن عزيز علي كان واحدا منهم ، في الحملة على انور وزملائه ، مما دفع بعض اعضاء جمعية الاتحاد والترقي الى اتهام عزيز باثارة النعرة العربية وتبني فكرة الاستقلال العربي • وهكذا ، ورغم ان العنصر الشخصي كان العامل الخفي وراء العداء بين هذين الضابطين العسكريين ، فقد استغل الساسة هذا الخلاف لاغراض سياسية (٨) •

وكان من انقطاع عزيز علي نهائيا عن زعماء جمعية الاتحاد والترقي ، ان اعتقل ثم ابعد عن اسطنبول في نيسان (ابريل) ١٩١٤ • وقد اتاح هذا الحادث لانور باشا فرصة التنديد بعزيز علي كزعيم ثوري عربي يسعى الى اشعال نار ثورة عربية • وبمقدار ما ساء هذا عزيزا بمقدار ما افزعته الصورة الخاطئة التي كونها عنه العاملون من اجل التعاون التركي العربي • واستغل الزعماء العرب الذين استفزتهم مظالم الاتراك هذا الامر للتنديد بزعماء جمعية

---

(٨) عبر جمال باشا ، في كتابه « ذكريات » عن شعور الزعماء الاتراك الحقيقي حين قال : « لقد استشاط عزيز علي بيه غيظا ، عندما اصبح انور باشا وزيرا للحرب فلم يكن يتحمل ، وهو الذي كان زميلا لانور في المدرسة الحربية والذي قام بكل هذه الاعمال الطيبة وابدى هذا القدر الرفيع من الوطنية ان يبقى مجرد رائد في الاركان العامة ، بينما اصبح منافسه وزيرا للحرب وبلغ به الاقتناع الى ان التعاون مع الاتراك لم يعد عليه بالكسب او المجد . « عاشت الثورة العربية » (ص ٦٢ — ٦٣) •

الاتحاد والترقي ولاعلان عزيز علي بطل تحرر العرب من الاضطهاد التركي • وذهب الزعماء العرب الى حد الادعاء بأن استنجادهم بالبعثات الديبلوماسية الاجنبية هو الذي انقذ عزيز علي من الهلاك • والواقع ان العناصر التركية المعتدلة لم تكن راضية عن محاولة انور البطش بعزيز علي ، وكان جمال باشا ، الذي أثاره عمل انور الانتقامي ، هو الذي تدخل لوضع حد له • وقد كتب جمال باشا عن هذه الاحداث في مذكراته فقال انه ادرك ان « الرأي العام يدين انور باشا اكثر مما يدين عزيز علي » • وعلى هذا تدخل لانقاذه فكتب الى انور باشا رسالة جاء فيها :

« بصرف النظر عن جميع الادلة التي كدّستها المحكمة العسكرية ضد عزيز علي ، وبصرف النظر عن كون الحكم قد صدر بحقه ، فان الرأي العام يدينك أنت ، واداناتك بهذا الشكل ستلحق بك ضررا يزيد الف مرة على أي ضرر يمكن ان يلحق بعزيز علي من قضاء بضع سنين في السجن • لذلك ارجو ان تحاول الحصول له على عفو سلطاني وانا سأتخذ كل الاجراءات كي يغادر القسطنطينية ولا يعود اليها ابدا [٩] » •

واضاف جمال باشا :

« وفي اليوم التالي اتصل بي انور باشا ليبلغني ان صاحب الجلالة عفا عن عزيز علي [١٠] » •

---

(٩) المرجع ذاته ، ص ٦٤ .
(١٠) اما الكولونيل لورنس فيقول ان عزيز علي « انقذ

وعندما زار شقيق عزيز علي جمال باشا ليشكره على صنيعه بلّغ ضرورة ارتحال عزيز فورا الى مصر واعتزال السياسة التركية • ثم كتب جمال باشا : « لقد سمعت في ما بعد ان عزيز علي ، رغم وعد الشرف الذي قطعه لي ، وضع نفسه في خدمة الشريف حسين خلال الحرب العالميه عندما ثار هذا على الخلافة ••• واليوم انا نفسي لا اسمح بالصفح عنه » •

أما ما طرأ من احداث على حياة عزيز علي ، بعد مغادرته اسطنبول، فيمكن الاطلاع عليها في بحث آخر للمؤلف[11] •

ولكن من المهم ان تتذكر الآن ان آراءه السياسية واهدافه لم تتغير الا قليلا جدا بعد الحرب العالمية الاولى ، رغم ان اوضاعا جديدة سادت واتاحت له فرصة تحقيق الاستقلال العربي ، بالمشاركة في الثورة العربية سنة ١٩١٦ • لقد ظل عزيز علي مقتنعا بضرورة المحافظة على الوحدة العثمانية ، بشكل اتحاد فدرالي واسع على مثال الاتحاد النمساوي المجري ، يُمنح فيه الاتراك والعرب وكذلك القوميات الاخرى حكما ذاتيا • ودعا الى التعاون مع المانيا ، لأنه كان واثقا من أنها ستؤيد الاتحاد العثماني ، ولانه رأى ان انتصار الحلفاء يكوّن خطرا على مستقبل الوحدة

بواسطة جريدة التايمز ولورد كيتشنر » (راجع الاعمدة السبعة ، ص ٧٥) ، راجع ايضا ستورز « شرقيات » ، ص ١٧٩ .

(١١) راجع الحاشية رقم ١٧ من هذا الفصل .

العثمانية. لقد ابلغ هذه الآراء بصراحة لشريف مكة الحسين بن علي الذي قاد الثورة العربية سنة ١٩١٦ ، كما اعلن عزيز أنه لا يؤيد الانفصال التام عن الدولة العثمانية . وفي مقابلة لي مع عزيز علي سنة ١٩٥٨ أخبرني بأنه نصح الشريف بأن يقتصر هدف الثورة العربية العاجل على منع امتداد الحرب بين بريطانيا العظمى وتركيا الى الحجاز ، وعلى تحقيق الاستقلال العربي ضمن الوحدة العثمانية[١٢] . ولم يكن الشريف حسين ، الذي اكتشف التصلب والعناد في هذا الضابط الشاب ، متحمسا لاسناد القيادة العسكرية العليا اليه . ولكن السلطات البريطانية ، التي ادركت حاجة الشريف الماسة الى ضباط مدربين ، نصحته بالاستعانة بعزيز علي وغيره من الضباط ، بسبب تدريبهم السابق في الجيش العثماني . ولما كان الشريف حسين يعارض باسناد قيادة القوات القبلية الى ضباط جيش نظاميين ، فقد اشترط لدى استخدام عزيز علي وغيره من الضباط العرب العمل تحت امرة ابنائه .

وما كاد عزيز علي يبدأ ممارسة عمله رئيسا لاركان جيش الشريف ، حتى انفجر النزاع بين الرجلين حيال ادارة الحرب مما ادى الى اقالته من منصبه وترحيله عن الحجاز .

وفور عودته الى القاهرة ، في أواخر ١٩١٦ ، وبسبب اتهامه بميوله الى المانيا ابعدته السلطات البريطانية الى

---

(١٢) راجع تصريحا بهذا المعنى في « مذكراتي عن الثورة العربية » لفايز الغصين (دمشق ١٩٥٦) ص ٢٣٨ .

اسبانيا ليقضي فيها العامين الاخيرين من الحرب • وقضى العشرين سنة التالية بعد الحرب في عزلة نسبية ، حتى نشبت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ • وفي سنة ١٩٤٠ حين كان شعور الموالاة نحو المحور يزداد في البلاد عيّن عزيز علي رئيسا لأركان الجيش المصري ولكنه ما فتىء ان اقيل بفعل الضغط البريطاني ووضع تحت الرقابة العسكرية طوال ما تبقى من سني الحرب• ومن سنة ١٩٤٠ حتى الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ كان عزيز علي على اتصال سري مع الضباط الاحرار الذين وضعوا خطة الثورة يزودهم بالتأييد المعنوي ويشجعهم على مواصلة النشاط الثوري • وقيل ان قيادة الثورة المصرية عرضت عليه فاعتذر متذرعا بسوء صحته • وبعد الثورة ، عيّن في سنة ١٩٥٤ سفيرا لمصر في الاتحاد السوفياتي ، ولكنه ما لبث أن عاد بسبب تقدمه في السن ثم توفي سنة ١٩٦٥ •

ماذا كانت اساليبه السياسية ؟

كان عزيز علي ضابطا ثوريا يؤمن بأن العنف هو الوسيلة الوحيدة الفعالة لتحويل الافكار الى افعال ، كما انه لم يكن يؤمن بالتسويات او بانصاف الحلول بل كان يرى أن الطريقة الوحيدة لتحقيق الاهداف هي قهر الاعداء بالحرب او الثورة • كان حاد الطباع عاجزاً عن اقناع الآخرين بتقبل آرائه ، الامر الذي جعله يرى في الثورة الوسيلة الوحيدة لبلوغ هدفه • وحين اختلف مع انور باشا عجز عن التفاهم معه ، ذلك لأن انور لم يكن أقل منه حدة مزاج وهكذا تحول

النزاع الى خلاف شخصي وانتهى بابعاد عزيز علي عن اسطنبول • وكذلك دفعه خلافه مع الشريف حسين حول اهداف الثورة العربية الى التفاوض سرا مع السلطات العثمانية في المدينة ، ثم الى محاولة استخدام الجيش العربي لاحتلال مكة والتفاهم مع الحكومة العثمانية •

ولم يكن عند عزيز علي من الصبر ما يمكنه من رسم خطط نافعة مدروسة • وكثيرا ما نجح خصومه في احباط خططه باستعمالهم اساليب اللطف والرقة ، بينما اعتمد هو العنف والاساليب الثورية وحدها • وفي سنة ١٩٤١ ، بينما كان الجيش الالماني يتقدم نحو مصر ، ادعى بأنه اتصل بالالمان وان طائرة ارسلت لنقله (١٣) • ومع أنه من المستبعد جدا ان تكون طائرة المانية قد ارسلت لنقله، الا انه لا يبعد ان يكون الضباط الاحرار قد اعدوا طائرة تمكنه من الفرار الى الخطوط الالمانية ، وقد قيل ان الطائرة اصطدمت بعمود عند الاقلاع وتحطمت ، وعلى الاثر سجن عزيز علي بتهمة التآمر على امن الدولة ثم أفرج عنه سنة ١٩٤٤ (١٤) •

وكثيرا ما أحجم الآخرون عن التعاون في السياسة مع عزيز علي لأنه لم يكن يحسب حسابا للنتائج الخطرة المحتملة

---

(١٣) انور السادات ، « ثورة على النيل » (لندن ، ١٩٥٧) ص ٣٦ — ٣٧ .

(١٤) المرجع ذاته ، ص ٣٨ . راجع ايضا « مذكرات في السياسة المصرية » لمحمد حسين هيكل (القاهرة ، ١٩٥٣) المجلد الثاني ، ص ٢١٤ — ١٥ .

لمغامراته [١٥] • اضف الى ذلك افتقاره الى المرونة وتعصبه لآرائه ، حتى بعد ان كانت الاحداث تثبت خطأ تلك الاراء ، مما جعل من المستحيل عليه القيام بدور الزعيم في أية حركة سياسية متوقعة • وان ترفعه عن الخضوع ، وهي الصفة التي تكبرها كثيرا الاوساط العسكرية ، لم يكن مجرد عناد ، فقد كان يؤمن ايمانا صادقا بأن الزعيم الذي يريد ان يتمتع بثقة الشعب لا بد له من التقيد المطلق بالمبادىء القويمة في السياسة ، كتقيده بالمبادىء القويمة في الاخلاق، من اجل ذلك لم يكن عزيز مستعدا للقبول بالتسويات والترضيات •

من الواضح ان عزيز علي لم يكن اهلا للزعامة ، رغم انه اوحى الى العديد من زملائه الضباط بالعمل في السياسة ، ولعله لم يدرك مواطن الضعف هذه الا في مراحل تالية من حياته ، فحاول التهرب من التبعة ، حتى عندما بدت ظروف النجاح مؤاتية جدا[١٦] •

لماذا اخفق عزيز علي في ان يصبح زعيما سياسيا ؟

كان عزيز علي ، منذ مطلع حياته ، يتمتع بصفات

---

(١٥) روى لي الدكتور عبد الرزاق السنهوري ،الوزير السابق وعضو مجلس الدولة ، انه اقترح على النقراشي باشا ، زعيم حزب السعديين ، ان يسعى الى التعاون مع عزيز علي لانشاء جمعية وطنية ، ولكن النقراشي اثناه عن عزمه بقوله : « كن حذرا ، فهذا الرجل مغامرا ! » .

(١٦) راجع الفصل الرابع

خاصة كالشجاعة الادبية والقوة البدنية وتوقد الذكاء مما تؤهل أي شاب لشق طريقه صعودا في المجتمع وولوج معترك السياسه ، ولكن تربيته في مطلع حياته خلقت اوضاعا معينة في نفسه أضرت بحياته السياسيه وكبحت عنان زعامته .

لقد نشأ عزيز علي وترعرع في أواخر عهد كرومر في مصر، حين كان شعور العداء للانكليز في أوجه فأثار هذا الشعور في نفسه نفورا من النفوذ الانكليزي ، كما ان الزعماء المصريين ، المعارضين للاحتلال البريطاني ، بعثوا في الامة حنينا الى الخلافة العثمانية حين كانت القومية المصرية ممتزجة بالولاء للدين الاسلامي . لقد تلقى عزيز علي علومه في هذا الجو المفعم بالعاطفة ، وكانت هذه العوامل العاطفية الحافز الذي جعله يقرر بعد تخرجه من المدرسة الثانوية ، متابعة دراسته في اسطنبول بدلا من باريس ولندن . ولولا روح التحيز والنفور التي تشربها ضد الدول الاوروبية لكان من الممكن ان تتوفر له تربية اعمق واقوى في اوروبا ، ولكانت آراؤه على الارجح اكثر اتزانا بالنسبة للعلائق الانكليزية العربية . اذ لم يكن في مقدور المدارس العثمانية توسيع خبرته التربوية ، الا بقدر ما وفرته له من تدريب عسكري احترافي . حتى في هذا الميدان ، تقبّل عزيز علي دون انتقاد، ما كان يبديه الاتراك من اعجاب بالانضباط العسكري الالماني وبأساليب الحرب الالمانية .

وكان لمدينة اسطنبول في أواخر عهد عبد الحميد تأثير آخر في مستقبل عزيز علي ، فقد ارتبط ، عندما كان طالبا في الكلية العسكرية ، بجماعة من ضباط الجيش ، الذين

كانوا يشعرون بأن من واجبهم الوطني القيام بدور فعال في السياسة ، للقضاء على استبداد عبد الحميد واعادة الحكم الدستوري • واسفر نشاط الضباط هذا عن الاطاحة بحكم عبد الحميد ، وعن نقل السلطة من ايدي المدنيين الى ايدي العسكريين وعن وصول بعض اصدقاء عزيز ورفاقه الى مراكز سياسية عالية • ورغم ان القوة الرئيسية الدافعة وراء هذه الاحداث كانت عسكرية لا سياسية ، فان دور القوى السياسية كان عصيبا بالنسبة للنجاح الشخصي في بنيان الحكم الجديد • وكان حتما على امثال عزيز علي ، الذين لايستطيعون اخضاع الانضباط العسكري للعوامل السياسية ، ان يبقوا في مراكز اقل نفوذا ، بينما ارتقى سلم السلطة زملاؤهم الذين يتمتعون بعقلية سياسية اكثر انفتاحا •

وبرهنت المثالية التي تعتمل في نفس الرجل العسكري على انها عقبة اخرى تعترض سبيل العسكري المزمع على دخول المعترك السياسي ، ذلك لأن السياسة تحتاج الى صفات ومزايا خاصة لا يستطيع العسكري المتمسك بروح الجندية ان يصمد لها ، هذا اذا اراد المحافظة على قواعد الانضباط الرفيعة • وقد تراءى لعزيز علي انه سيحقق نجاحا سياسيا لكونه يتمتع بروح رفيعة من الانضباط العسكري • والتفت حسدا الى انور باشا الذي قد لا يكون بلغ بانضباطه العسكري هذا المستوى من الرفعة والسمو لكنه احتل مركزا سياسيا رفيعا بفضل ما كان يتمتع به من القدرة على ملاءمة الظروف السياسية لمنفعته وهذا ما كان عزيز علي عاجزا عن تحقيقه •

واستغلت جماعات المعارضة ، وخاصة الزعماء العرب نزاع عزيز علي مع انور باشا واستخدمته ذريعة للتنـديد بسياسة الحكومة حيال العناصر غير التركية المتواجدة في الامبراطورية العثمانية . وهكذا تمكنت الفئات المعارضة من وضع عزيز في المركز الزائف حين صوروه بأنه بطل القوميات المعارضة للوحدة العثمانية ، رغم ايمانه الراسخ بهذه الوحدة،مما أثار شكوك اصدقائه الذين كانوا يشغلون مراكز حكومية عالية ، الأمر الذي جعله عاجزا عن انتـزاع نفسه من هذا الوضع المناوىء للحكومة والوحدة العثمانية.

كانت الفرصة ، التي سنحت لعزيز علي للانضمام الى الثورة العربية سنـة ١٩١٦ ، المحك الذي أثبت التزامـه بالاهداف المثالية وتعلقه بمعتقداته الشخصية الراسخة . ولو أنه كان سياسيا انتهازيا ، يسعى الى السلطة والجاه ، لتمكن من بلوغ مرتبة اعلى من المراتب التي توصل اليها مرؤوسوه كجعفر العسكري ونوري السعيـد ، اللذين ارتفعا في ما بعد الى مناصب الوزارة . لقد ذهب عزيز علي الى الحجاز دون ان يحمل معه نية مبينة بتحطيم الوحـدة العثمانية ، رغم ايمانه الصادق بوجوب منح العرب كيانـا استقلاليا في اطار هذه الوحدة ، وكم كانت دهشته عندما اكتشف ان الشريف حسين كان يسعى الى الانفصال الكامل عن الوحدة العثمانية ، وهو امر لم يكن واضحا في البيانات الرسمية ، فتحول حينذاك الى الالمان على امل أن يؤدي انتصار المانيا على بريطانيا الى تفاهم بين الاتراك والعرب والى تعزيز الوحدة العثمانية .

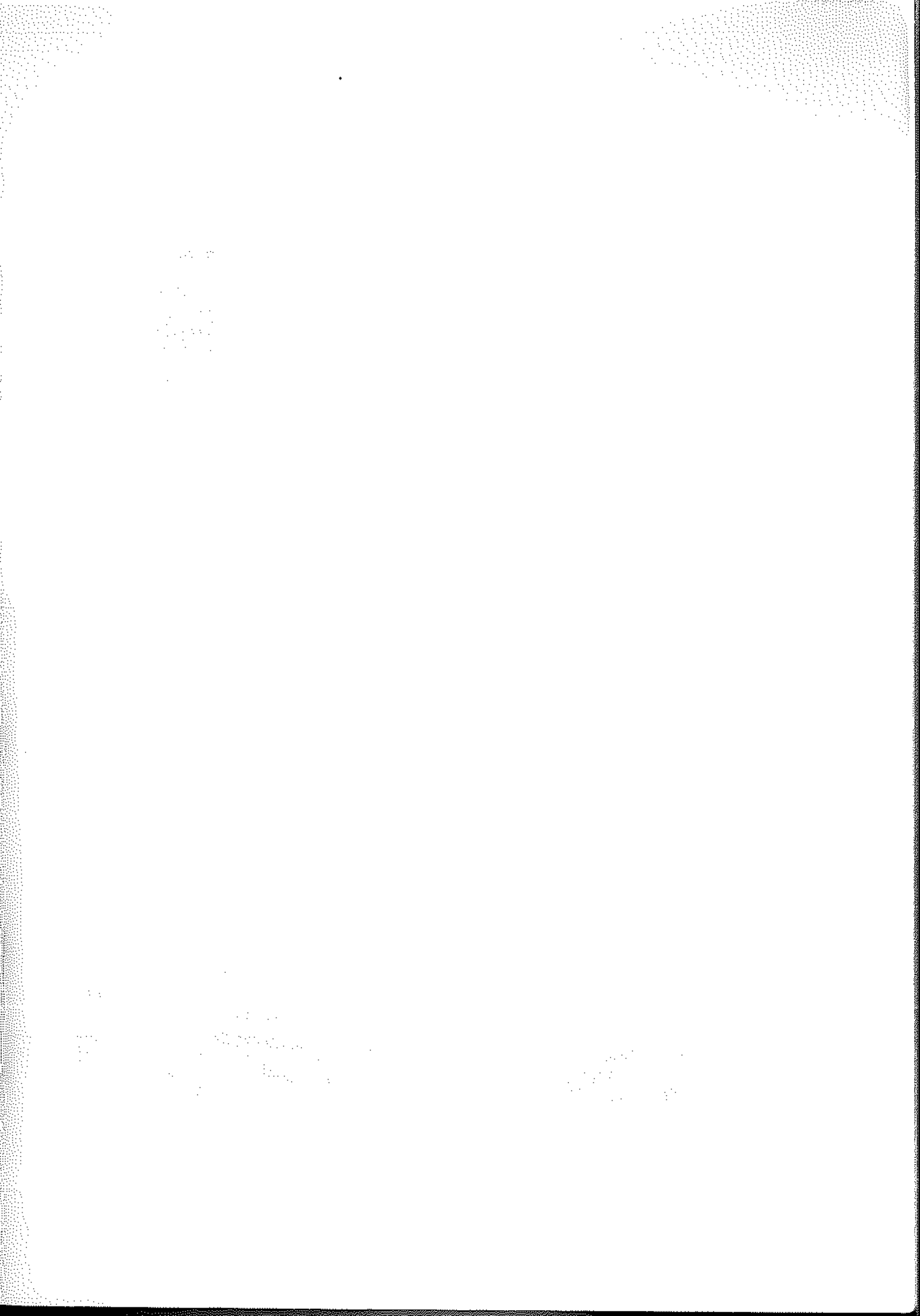
لقد أثبت عزيز علي انه رجل مثالي مستعد للتنازل عن السلطة في سبيل تحقيق حلم لم يثبت انه عملي ولكنه حلم سيطر على تفكيره منذ ايامه في اسطنبول • كما انه لم يكن واقعيا ليستطيع تقدير مدى تأثير الظروف السياسية وفاعليتها • صحيح انه كانت هناك عوامل عاطفية قد تكون أثرت في ميله للتعاون مع الالمان بدلا من البريطانيين ، كاعجابه بالانضباط العسكري الالماني وكرهه الكامن لبريطانيا بسبب احتلالها مصر • ولكن يبدو ان قراره ترك الحجاز وعدم التعاون مع الشريف حسين كان بعيدا عن الرغبة في مكاسب عاجلة • فقد قيل ان استياء الشريف حسين من عزيز علي ، كان يعود الى حد ما على الاقل الى اسباب شخصية لا سياسية ، منها تمرد عزيز على رؤسائه • واذا كان لهذا العنصر الشخصي أي مغزى بالنسبة لقرار عزيز ، فانه لا شك ينعكس على خلقه وشخصيته •

كان عزيز مصلحا اجتماعيا يعطف على المظلومين والمضطهدين ، تحدوه رغبة ملحّة باقامة مجتمع عادل يمكن ان تتحقق فيه العدالة والمساواة وغيرها من المبادىء التحررية ، ولم يعرف سوى الثورة سبيلا لتحقيق هذا الهدف • الا ان ما صرفه من الوقت على التفكير في كيفية ايجاد عالمه الفاضل تخطى كثيرا الوقت الذي صرفه على تحديد طبيعة عالمه ذاك ونوعه • وكانت الوسائل والاساليب التي توصله الى الهدف قد استهوته اكثر من الهدف نفسه ، ذلك لأنه لم يكن في الاساس مفكرا إجتماعيا ، بل هاو اجتذبته افكار خيالية سعى الى تحقيقها بالوسائل الثورية • وهكذا فان

عالمه الفاضل ، الذي اراد تحقيقه بالثورة بقي سرابا ، لأنه لم يكن لأي من مشاريعه التي خطط لها ادنى حظ من النجاح ، رغم ان الثورة المصرية التي قامت في سنة ١٩٥٢ ، والتي استمد زعماؤها الوحي من افكاره الثورية ، يمكن ان تعتبر تحقيقا لمثله العليا في السياسة (١٧) .

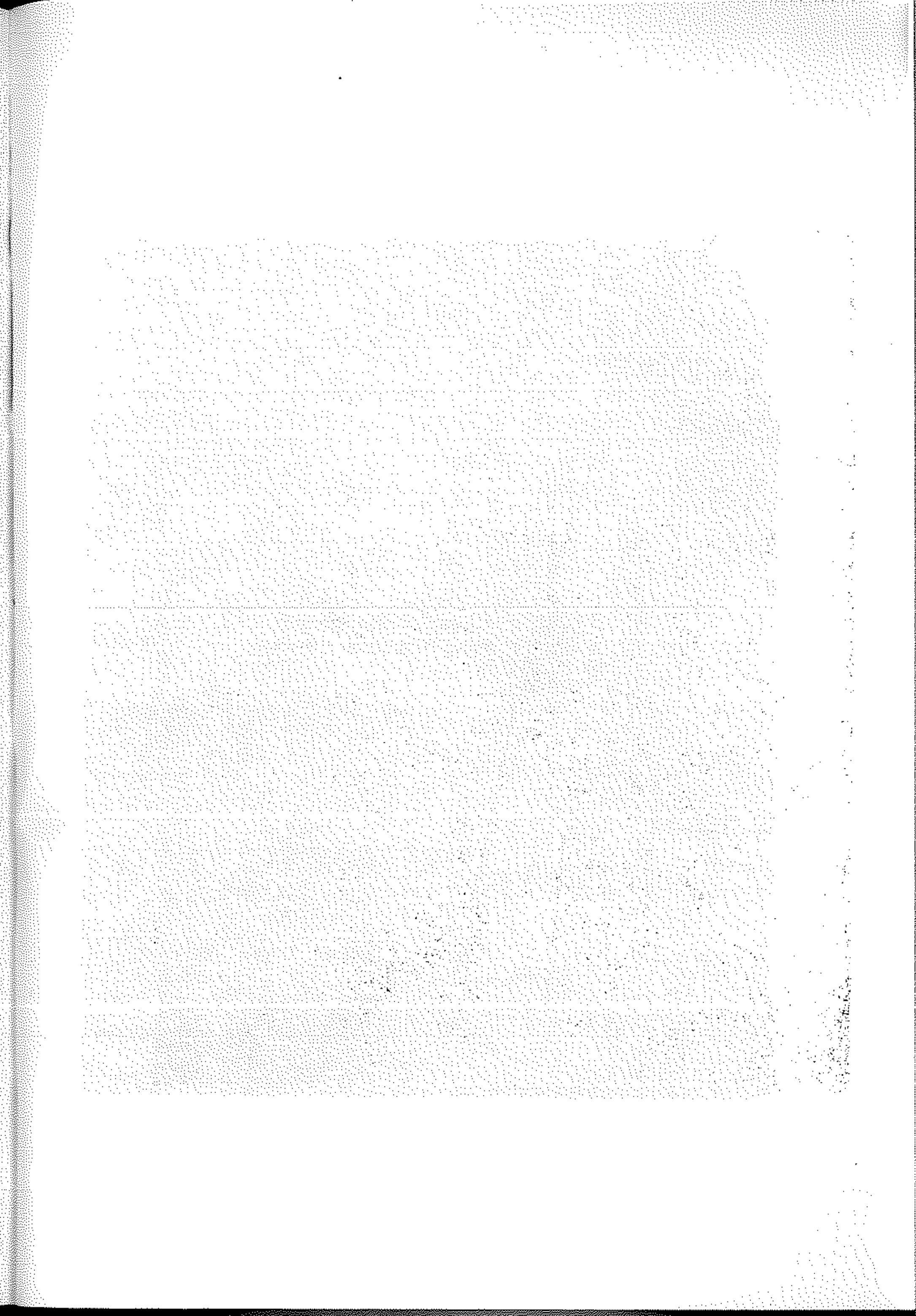
---

(١٧) اعتمد الكاتب كثيرا على مقاله « عزيز علي المصري والحركة القومية العربية » ،في كتاب « اوراق سانت انطوني » ، الناشر البرت حوراني (لندن ، ١٩٦٤) ص ١٤٩ — ٦٣ .





نوري السعيد



الفصل الثالث

المدرسة الواقعية

نوري السعيد

لقد استوحيت عقيدتي السياسية من درس تلقيتـــه من قائد عسكري ، فقد تحدث الينا عقيد الماني مرة في الصف فقال ، أن روح القائد الحقة تنجلى في تنفيذ العمل بما لديه من الوسائل المتوافرة ، وان واجبه يحتم عليه اعتماد العقل وما تيسر لديه من الجهد. لقد اوحى الي هذا الكلام بالفكرة التي حملتها واتبعتها طوال حياتي ، وهي أن اكون عمليـــا لا مثاليا. الا ان الذين ينتقدونني دائما ينشدون المثل العليا. ثم ما قيمة القدرة اذا كانت الاشياء تأتي اليك منقادة هينة؟ أما عقيدتي فهي « ان لا تكون قط مثاليا ، بل أعمل بما هو متوافر لديك ، واياك ان تنتظر وتسوّف حتى يصبح كل شيء كاملا لا عيب فيه وتفوّت على نفسك فرصة قــد لا تعــود » .

نوري السعيــد

كان نوري السعيد من اتباع عزيز علي المصري . الا انه ليس هناك من معلم وتابع أكثر اختلافا في وجهــات النظر والاساليب منهما . صحيح أنهما كانا متفقين على الاهداف

الجوهرية ، وانهما تأثرا بالفكرة القومية نفسها التي سادت الجالية العربية في اسطنبول بعد ثورة ١٩٠٨ • ولكنهما ، حين ذهبا الى الحجاز سنة ١٩١٦ للاشتراك في الثورة العربية ، اختلفا اختلافا جذريا في كيفية الربط بين الاهداف والاوضاع • فقد وجد نوري ان مستقبل البلاد العربية كامن في استقلالها التام وفي انفصالها الكامل عن الحكم اما عزيز علي فلم يكن مستعدا للتخلي عن التزامه بالوحدة العثمانية ، وقد رفض تكييف اهدافه وفقا للاوضاع الجديدة،علما بأنه عُهِدَ اليه بقيادة عسكرية كان ممكنا ان ترفعه الى اعلى مراتب المسؤولية • ورغم ان نوري كان اقل حنكة من عزيز علي ، فقد كانت لديه نظرة ثاقبة اتاحت له استشفاف الاشياء الكامنة ، والقيام بدور بناء في خدمة بلده أكثر من عزيز علي ، الذي رفض التسليم بالواقع ، وقضى البقية الباقية من حياته في عزلة شبه تامة • وغني عن القول ان نوري كان ينتمي الى مدرسة من السياسيين العسكريين ــ هي المدرسة الواقعية ــ تختلف عن المدرسة التي وضعت المثل العليا والانضباط العسكري فوق الواقع السياسي • كما انه كان يتمتع بعقلية مرنة تصلح للسياسي العملي ، بينما كانت عقلية عزيز علي تتحكم بها المبادىء المثاليـة •

قبل زمن من وقوع بغداد تحت الحكم العثماني ، كانت الاحوال الاقتصادية قد تردت وأصبح التواضع نمط الحياة العامة بالنسبة الى سكان عاصمة الخلفاء ، التي اشتهرت

بالغنى بل الترف في ماضيها الغابر • وبرز كثيرون من الرجال الذين لعبوا دوراً هامة في العراق بعد الحرب العالمية الاولى من عائلات فقيرة • ولم يشذ نوري عن هذه القاعدة فوالده سعيد طـه لم يكن ميسور الحال عندما رزق نوري سنة ١٨٨٨[١] رغم انه كان موظفا محترما في دائرة الاوقاف[٢] •

كان الموظفون الاتراك يحكمون العـراق ، الذي كان جزءا من الامبراطورية العثمانية التي شملت البلاد العربية • ولم يكن يسمح للسكان المواطنين بالعمل الاداري الا في المؤسسات الدينية او في الجيش • ونظرا لأن والده كان يعمل في مؤسسة دينية ، فقد دخل نوري ، بعد ان درس مدة قصيرة في مدرسة ابتدائية الكلية العسكرية لكي تتاح له فرصة العمل في الجيش وارتقاء السلم الاجتماعي • وفي سنة ١٩٠٣ ، نقل نوري ، وهو في سن الرابعـة عشرة الى كلية اسطنبول العسكرية وتخرج منها بعد مضي ثلاث سنين •

ولدى عودته الى العراق التحق بوحدة خيّالة تابعـة للمشاة ، كانت مهمتها الرئيسية جباية الضرائب ، وخصوصا

---

(١) لا يعرف الكثير عن اجداد نوري • وتدعي عائلته انها من سلالة قبيلة عربية ، وبالتحديد من « الملالولو » ، وهو شخص اسطوري عاش في بغداد قبل حوالى ثلاثة قرون . ولكن ليس هنالك اي دليل يؤكد ايا من هذين النسبين . انظر : Lord Birdwood, Nuri as Sa'id (London 1959) pp. 8-9.

(٢) مؤسسة دينية مهمتها الاشراف على الاملاك للانفاق على اغراض خيرية .

عن الغنم التي كان يملكها رجال القبائل المنتشرون في جميع انحاء البلاد • وقد مهدت له هذه المهمة الخشنة التعرف على البلاد وانشاء صداقات مع شيوخ القبائل ساعدته كثيرا في مستقبله السياسي • وفي ١٩٠٨، عندما استولى اعضاء حزب «تركيا الفتاة» على الحكم ، بدأ نوري يهتم بالسياسة ويتحدث عن الحرية والحقوق الدستورية والاصلاح • وراح يتطلع الى خوض خضم العمل السياسي كما أخذ طموحه في الارتقاء يستيقظ في ظل النظام الجديد • وكان من نتائج خدماته الملحوظة في بغداد والتفاني في ولائه للباب العالي ان قرر رؤساؤه مكافأته بمنحه فرصة يتزود فيها بتدريب عسكري اضافي في العاصمة العثمانية •

رحل نوري سنة ١٩١٠ الى اسطنبول ليدخل كلية الاركان بعد ان كان قد تزوج من شقيقة رفيقه في الدراسة جعفر العسكري ، الذي تزوج بدوره شقيقة نوري • وخلال خدمتهما العسكرية تعاون هذان الضابطان ، المرتبطان بالصداقة والقرابة ، على السعي وراء تحقيق الاهداف السياسية المشتركة، ثم تعاونا بعد ذلك في الميدان السياسي • وفي عام ١٩١١ ولد لنوري ولده الوحيد صباح[٣] • وفي اثناء وجوده في كلية الاركان تعلم الافرنسية ، كما استمع الى محاضرات في التاريخ والاستراتيجية من مدرسين المان • وبعد تخرجه اشترك في الحركات العسكرية ضد

---

(٣) قتل في بغداد خلال ثورة ١٩٥٨

البلغاريين خلال حرب البلقان فاكتسب بذلك خبرة عملية في ميدان القتال •

لم يكف نوري عن التفكير بالامور السياسية اثنـــاء وجوده في اسطنبول • وقد أيّد ، كما فعل عزيز علي الذي كان نوري على صلة وثيقة به ، برنامج «حزب تركيا الفتاة» الاصلاحي • وكـــان بعض اعضاء هـــذا الحزب من رفاق الدراسة في كلية الاركان • ولكنه شارك الجالية العربية في اسطنبول هواجسها بالنسبة لسوء الحكم العثماني وتزعزعه في البلاد العربية،وبالنسبة للتمييز الظاهر بين العرب والاتراك من حيث الافادة من الخدمات العسكرية والمدنية • وكان الزعماء العرب في اسطنبول ، كما اشرنا سابقا ، قد انشأوا جمعيات سرية للدفاع عن حقوق الغرب ، ولكن نوري لم يشترك فيها •

وفي ١٩١٢ ، انشأ عزيز علي جمعية العهد ، سعيا منه في ايجاد حل وسط توخى فيه المحافظة على الوحدة العثمانية • وانضم نوري الى تلك الجمعية يحدوه الامل في ان تنال البلاد العربية حكما ذاتيا ضمن الاطار العثماني الشامـــل • وبصفته قوميا فقد اشترك في النشاط القومي مع زعماء عرب آخرين ، كان بعضهم اعضاء في البرلمان ، امثـــال سليمان فيضي،وهو محام من البصرة،والشاعر المتحرر جميل صدقي الزهاوي[٤] • وازداد نشاطه خلال فترة اعتقال عزيز علي

---

(٤) للاطلاع على عرض مختصر لحياة الزهاوي وافكاره ، راجع كتابي « الاتجاهات السياسية » ص ٢٤٢ — ٢٤٥ . اما بما يخص سليمان فيضي في هذه الحقبة فراجع مذكراته « في غمرة النضال » (بغداد ، ١٩٥٢) ص ١٤٠ — ١٦٧ .

ومحاكمته ، وحاول مع زعماء عرب آخرين السعي الى تدخل بريطانيا لضمان الافراج عنه • اما في السياسة الخارجية، فقد بدأ يرتاب في الدافع الكامن وراء تأييد الالمان لحزب تركيا الفتاة ، ورأى ان مستقبل العرب رهن بمساندة بريطانيا العظمى • وخلّف طرد عزيز علي من اسطنبول سنة ١٩١٤ شعورا بالوحشة لدى نوري • واحسّ بوهن في عزيمته لفقدان الزعيم الذي كان ينوي الدفاع عن حقوق بلاده تحت لوائه ، ووجد ان العودة الى موطنه هي الوسيلة الوحيدة لخوض النضال ضد السيطرة العثمانية[٥] •

كان ارتحال نوري عن اسطنبول نقطة تحول خطير في حياته ، اذ لو بقي فيها لاضطر عند نشوب الحرب ، ونظرا لكونه ضابطا في الجيش العثماني ، الى القتال ضد بريطانيا ، وهكذا قرر ، مع مواطنه عبد الله الدملوجي ، الفرار من اسطنبول واللجوء الى بلد عربي • وقد تردد باديء ذي بدء بين الذهاب الى القاهرة التي سبقه اليها عزيز علي ، وبين الذهاب الى العراق ثم الى الجزيرة العربية ، التي كانت مع مصر الولايتين المتحررتين نسبيا من السيطرة العثمانية ، حيث يستطيع القيام فيها بنشاط قومي عربي دون ان يكون مهددا بملاحقة السلطات العثمانية • ويقول سليمان فيضي الذي كان آنذاك عضوا في البرلمان ،

---

(٥) للاطلاع على رواية نوري عن هذه المرحلة ، راجع « الزمان » بغداد في ٣١ كانون الثاني (يناير) واول شباط (فبراير) ١٩٤٧ . وقد اعيد طبعها في كتاب نوري «احاديث» (بغداد ، ١٩٤٧) ص ٩٠ — ٩١ (سنشير اليه بعد الان بعبارة احاديث .. نوري) .

انه هو الذي اقترح على نوري زيارة السيد طالب النقيب وهو رجل ذو نفوذ كبير في ولاية البصرة وعضو في البرلمان كذلك ، ليعمل بتوجيه منه ، في سبيل القضية العربية .
وكان السيد طالب النقيب يتزعم جمعية عربية في البصرة تدعو الى اجراء اصلاحات في البلاد العربية كما كان امضى مدة طويلة يعمل على تعزيز مركزه حتى اصبح يعتبر في البصرة المدافع عن حقوق العرب . وعندما عجز زعماء تركيا الفتاة عن اخضاعه لنفوذهم ، اعترفوا بنفوذه وراحوا يتفاهمون معه ، الا انه لم يغادر البصرة خلال العامين اللذين سبقا نشوب الحرب ، لارتيابه في زعماء تركيا الفتاة وفي انهم قد يوقعون به في اسطنبول اذا ما ذهب اليها .

غادر نوري والدملوجي اسطنبول سرا الى البصرة ، مزودين برسالة تعريف وتقديم من سليمان فيضي الى السيد طالب [٦] . وبلغا البصرة في ١٢ حزيران (يونيو) ١٩١٤ ، وفور وصولهما قصدا السيد طالب سعيا في الحصول على حمايته من احتمال اعتقال من قبل العثمانيين . ثم حاولا بمساعدة السيد طالب اللجوء الى ابن سعود أو سلطان مسقط ، حيث يستطيعان العمل آمنين مطمئنين . الا ان مرض نوري حال بينه وبين الرحيل الى الجزيرة العربية مما اضطر الدملوجي الى ان يرحل اليها وحده ويبقى في خدمة ابن سعود مدة خمس عشرة سنة قفل بعدها راجعا الى العراق سنة ١٩٣٠ ليكون وزيرا للخارجية ، في حكومة العراق التي كان نوري السعيد رئيسها .

---

(٦) فيضي ، « في غمرة النضال » ص ١٧٤ .

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٤ ، كان نوري قد تماثل للشفاء بينما كانت ثلة هنـدية عسكرية قد احتلت البصرة ، وراح يفكر بالطريق التي يجب عليه ان يسلكها بعد دخول الانكليز بلاده • ويبدو ان عزيز علي كان قـد ارسل في هذه الاثناء رسائل الى الزعماء العرب في العراق ينصحهم فيها بعدم التعاون مع انكلترا لما ينجم عن ذلك من خطر يتهدد الوحدة العثمانية•ولكن نوري وجد ان انحيازه الى الجانب البريطاني يحقق نفعا اكبر للمصالح العربية ، فكتب الى السير بيرسي كوكس ، المقيم البريطاني في الخليج الفارسي ، عارضا عليه خدماته[٧] • ويقول نوري أنه طلب من كوكس السماح له بالذهاب الى مصر • الا ان كوكس ارسله الى المعتقل في الهند ، لأنه كان ضابطا في الجيش العثماني • ومن الهند شخص الى القاهرة ، حيث اشترك مع غيره من الضباط العرب في الحركات العسكرية ضد الاتراك في الحجاز[٨] •

كان اشتراك نوري في الثورة العربية بداية رفقة مستمرة للاسرة الهاشمية دامت طوال حياته • فقد دخل الخدمـة العسكرية بقيادة الحسين بن علي شريف مكة ، الذي قاد الثورة • ثم عمل في الحجاز وسوريا والعراق تحت قيـادة فيصل نجل الحسين • وكان لا يزال مع الاسرة الهاشمية

---

(٧) اصبح السيد بيرسي كوكس ايضا كبير الضباط السياسيين بعد نزول القوة البريطانية في البصرة سنة ١٩١٤ •
(٨) راجع « احاديث » نوري ، ص ٩١ ــ ٩٢ •

يخدم خليفة فيصل وحفيده عندما قتل مع الملك الحفيد وولي العهد في ثورة ١٩٥٨ •

ان قصة اشتراك نوري في الثورة العربية هي جزء من التاريخ العسكري ، سجل نوري وضباط آخرون تفاصيلها[٩] • وخلال هذه المرحلة اصبح نوري مرافق فيصل الامين الذي لحق به اولا الى دمشق ثم الى العراق•

كانت انظار نوري ، خلال وجوده في دمشق ، متجهة الى وطنه العراق،الذي لم يكن مضيره قد تقرر بعد • فقد انتابه مع بعض مواطنيه ، الذين كانوا يراقبون الاحداث في العراق قلق شديد من جراء اعمال السير ارنولد ولسون ، المندوب المدني بالوكالة ، الذي كان ، كما يبدو ، يرسخ الادارة البريطانية المباشرة للبلاد • كان ولسون يمثل فكرة تؤيدها وزارة المستعمرات ، وهي فكرة تنظر الى العراق من زاوية هندية وتحاول ابقاءه في فلك الادارة الانكلوهندية • وكان آخرون ، من رفاق نوري البريطانيين ، يؤيدون وجهة نظر وزارة الخارجية البريطانية التي تسعى الى ممارسة النفوذ البريطاني من خلال حكم عربي (هاشمي) • الا ان نوري ابلغ البريطانيين بأنه ورفاقه من الضباط العراقيين سيتعاونون مع بريطانيا اذا كان الحكم في أيد عراقية[١٠] • ومن جهة

---

(٩) نوري السعيد «محاضرات عن الحركات العسكرية للجيش العربي في الحجاز وسوريا » (بغداد ، ١٩٤٧) . والكولونيل لورنس « اعمدة الحكمة السبعة » (لندن ، ١٩٣٥) .

(١٠) للاطلاع على آراء نوري ، في احاديث مع هيوبرت يونغ ، راجع « العربي المستقل » للسير هيوبرت يونغ (لندن ، ١٩٣٣) ، و «نوري السعيد» لبيرد وود ، ص١١٥ .

اخرى بدأ بعض زملائه باثارة المشاعر ضد بريطانيا ، مما ادى الى ثورة سنة ١٩٢٠ • أما هو فلم يشترك في هذه الاحداث ، وكان يأمل بأن تغير بريطانيا سياستها وتعين مندوبا يعطف على مطامح العرب في العراق •

وقبل ان يعود نوري الى العراق ، ذهب بصحبة فيصل الى لندن ، حيث كانت الحكومة البريطانية تدرس القضية العراقية وترشيح فيصل لاعتلاء العرش • فلما عرض الأمر على فيصل اجاب بأنه سيقبل العرش اذا عرضه عليه الشعب العراقي رسميا • في هذا الوقت كان السير بيرسي كوكس ، المعروف بميوله الودية للعرب قد عيّن مندوبا ساميا في العراق وذهب لتنفيذ السياسة الجديدة فيه • ولما وصل كوكس بغداد في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٠ ، دعا بعض الضباط العراقيين الذين عملوا تحت امرة فيصل في دمشق الى العودة الى العراق ، ومنهم جعفر العسكري ونوري السعيد•وجاء جعفر ليتولى منصب وزير الدفاع في حكومة العراق المؤقتة الجديدة ، بينما بقي نوري مع فيصل في لندن •

وفي شباط (فبراير) ١٩٢١ وصل نوري الى العراق لينضم الى اصدقائه ومعارفه القدامى،الذين كانوا منقسمين بالنسبة للسياسة الداخلية ، فكانت احدى الفئات تضم سياسيين يرغبون في ان يكون رئيس الدولة عربيا عراقيا • وكان بين هؤلاء نقيب بغداد ، رئيس الحكومة المؤقتة ، والسيد طالب النقيب ، وزير الداخلية ، الذي لا ننسى ان نوري اقام

معه علائق صداقة عندما كان في البصرة سنة ١٩١٤ • وكانت هناك جماعة اخرى قوامها فئه من الوطنيين ، الذين عملوا تحت قيادة فيصل في الحجاز وسوريا وايدوا ترشيحه للعرش ولم يتردد نوري في اختيار الجانب الذي يقف معه ويسنحه ولاءه ، مما اضطره الى الافتراق عن صديقه السيد طالب ، الذي كان قد رشح نفسه لرئاسة نظام جمهوري •

وفي آذار (مارس) ١٩٢١ ، رشح فيصل رسميا لعرش العراق ، في مؤتمر عقد في القاهرة • وتأكد هذا الترشيح في استفتاء عام جرى في العام ذاته[11] ، وفي ٢٣ آب (اغسطس) ١٩٢١ أعلن فيصل ملكا على العراق •

ابتعد نوري عن الاضواء من ١٩٢١ حتى ١٩٣٠ مفضلا عدم الخوض في الصراع القائم بين الزعماء والاحزاب من أجل الاستقلال • كان جميع ساسة العراق متفقين من حيث المبدأ على الاستقلال ، ولكنهم اختلفوا في طريقة تحقيقه • فالبعض كان يريد الاستقلال فورا بوصفه حقا لا مرية فيه ، بينما ابدى آخرون استعدادا للتروي بانتظار تهيئة البلاد له ، وهنا ادرك نوري ضرورة الاستئناس برأي بريطانيا وسماع نصحها ، حاثا على اجراء تطوير سريع قبل الاستقلال

---

(١١) تراس مؤتمر القاهرة ، الذي عقد سنة ١٩٢١ ، ونستون تشرشل وحضره رسميون مدنيون وعسكريون بريطانيون كبار . وقد عالج المؤتمر موضوع رسم سياسة جديدة لدول اخرى ايضا ، لا للعراق وحده . راجع ا.س. كليمان « اسس السياسة البريطانية في العالم العربي : مؤتمر القاهرة سنة ١٩٢١ » (بولتيمور ، ١٩٧٠) الفصل السابع.

الناجز • ثم عكف على انشاء جيش وطني ، وعمل قرابة عشر سنين اما رئيسا للأركان او وزيرا للدفاع • وندر أن كان خارج الحكم خلال التبدلات الحكومية المتواصلة ، حيث أطلق عليه زملاؤه لقب الوزير الدائم •

في عام ١٩٣٠ ، عندما قررت بريطانيا اخيرا الاعتراف باستقلال العراق والاستعاضة عن الانتداب بمعاهدة تحالف ، بدا ان نوري هو الرجل الاصلح ليكون على رأس حكومة تتفاوض مع بريطانيا ، وكان على مستوى المسؤلية التي ندب لها فعقد معاهدة تحالف وحقق الاستقلال • لقد امضى عامين يعمل ناشطا لتسوية الخلافات بين الاحزاب والجماعات المتنازعة من جهة وللتفاوض لعقد معاهدة تحالف مع بريطانيا من جهة ثانية •

لقد نصت المعاهدة ، التي وقّعت في ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٣٠ ، على انهاء الانتداب البريطاني ، وعلى الاعتراف بالاستقلال العراقي • كما نصت كذلك على ان يستشير العراق بريطانيا في السياسة الخارجية ، وعلى ان تدافع بريطانيا عن العراق في حالة هجوم عليه • ولقاء ذلك ، منح العراق بريطانيا قاعدتين جويتين وحق استخدام جميع وسائل المواصلات في حالة دخولها في حرب • كما نصت المعاهدة على ان تصبح هذه التعهدات ملزمة ، بعد ان ينال العراق استقلاله • وقد اظهر انضمام العراق الى عصبة الامم كدولة مستقلة ذات سيادة ، في ٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٢ مهارة نوري السياسية ومقدرته على تحقيق الاهداف القومية • واستمر نوري ، بعد الاستقلال يتولى رئاسة

الوزارة او وزارة الخارجية ، حتى اصبح كبير خبراء بلده في الشؤون الخارجية • هذا وليس غرضنا الآن عرض التطورات السياسية العراقية ومشاركة نوري الفعالة فيها ، لأنني تناولت هذا في كتب اخرى[١٢]،بل الغرض هو دراسة دور نوري كزعيم سياسي •

يعتبر نوري ،بعد ان اصبح رئيسا للوزراء في ١٩٣٠ ، الرجل الذي رسم سياسة بلاده الداخلية والخارجية • فمن سنة ١٩٣٠ حتى وفاته سنة ١٩٥٨ ، تولى رئاسة الوزراء اربع عشرة مرة (ثلاث عشرة مرة رئيس وزراء للعراق ومرة واحدة للاتحاد العربي) ،كما شغل ، مرات عديدة منصب وزير (للخارجية عادة) في حكومات كان هو الشخصية الرئيسية فيها • حتى في الاوقات التي لم يكن مشتركا فيها بنفسه في الوزارة فانه لم يكن بعيدا عن مركز السلطة ، فقد كان له تأثيره في السياسة أما بواسطة اتباعه او من خلال رئيس الدولة ، بوصفه مستشارا له • وكان ابان ابتعاده عن الحكم يفضل عادة الاقامة خارج البلاد في عاصمة عربية او اوروبية ، لكن حتى في ذلك الوقت كان يشترك في المفاوضات الرسمية او غير الرسمية التي كثيرا ما كانت تعيده الى بلاده ، لكي يؤلف حكومة جديدة تقوم بتنفيذ اتفاق معين ، في حال اهمال الحكومة القائمة تنفيذ التزاماته • وبعد فماذا كانت اهداف نوري ؟

---

(١٢) راجع كتابي « العراق المستقل » (الطبعة الثانية ، لندن ، ١٩٦٠) و « العراق الجمهوري » (لندن ، ١٩٦٩) .

منذ ذهابه الى الحجاز سنة ١٩١٦ للاشتراك في الثـــورة العربية ،كان نوري مقتنعا اشد الاقتناع بأن الاماني القومية العربية ، من استقلال ووحدة وما اليهما يكون تحقيقهـــا اضمن بقيادة الأسرة الهاشمية • ووجد في فيصـــل الاول ضالته المنشودة ، لما كان يتمتع به فيصل من صفات قيادية أعجب بها نوري ايما اعجاب ، كالروية والاعتدال والمقدرة على الموازنة بين رجال الدولة • ولم يحد نوري عن وفائه للأسرة الهاشمية حتى بعد وفاة فيصل ، رغم شكه في مقدرة الملك غازي ، نجل فيصل ، على الحكم (خاصة بعد انقلاب ١٩٣٦) ، كما واجه بعض الصعوبات في التعاون مع ابن شقيق فيصل ، الامير عبد الاله ، الذي تولى الوصاية على العرش الى ان بلغ حفيد فيصل الاول (فيصل الثاني) سن الرشد سنة ١٩٥٣ • ولما كان نوري يؤمن بأن تأييده العائلة المالكة يعود على بلاده بالنفع والخير ، فقد راح يعزز مركز الملك فيصل الثاني لدى الشعب بكل ما أوتي من قوة حتى بلغ به الامر حد تقبيل يد الملك الشاب علنا امـــام الملأ ، ليعطي مثلا على الولاء والاحترام •

ولم يكن اهتمام نوري بولائه للملك وبلاده اقل مـــن اهتمامه باستقلال العرب ووحدتهم ، وكان ــ شأنه في ذلك شأن الملك فيصل الاول ــ قد بذل من اجل ذلك جهـــودا كبيرة خارج بلاده قبل ان يعود الى العراق ، ويبدو انـــه وصل به الاقتناع الى ان احسن وسيلة لخدمة المصالـــح القومية العربية هي ان ينال العراق ، وكذلك كل بلد عربي آخر ، الاستقلال اولا • ووجد في فيصـــل الاول الزعيم

المنشود الذي يستطيع تحقيق الأماني القوميةالعربية بصورة فعالة . ولا يبعد ان تكون حماسة نوري للوحدة العربية قد فترت اثر وفاة فيصل الاول وبعد ان احرز وطنه استقلاله ، اذ اتضح له عجز خلفاء فيصل عن القيام بالمهمة كما انهم والحق يقال لم يكونوا يتمتعون برضا الدول العربية الاخرى . ولكن نوري لم يتخل عن رغبته بالوحدة العربية كلما لاحت ظروف لتحقيقها ، فقد سارع الى التفاوض على الوحدة مع البلاد العربية الاخرى خلال الحرب العالمية الثانية ، عندما بدأ النفوذ الفرنسي ينحسر عن سوريا ولبنان ، وعندما اعلنت بريطانيا تأييدها لقيام اتحاد يرضى عنه العرب ويؤيدونه (١٣) . وأدت هذه المفاوضات في النهاية ، الى انشاء الجامعة العربية ، رغم انه كان يفضل قيام اتحاد اوثق بين دولتي المشرق والعراق (الهلال الخصيب) ، كمقدمة لاتحاد عربي شامل (١٤) . وعندما لم يتحقق مشروع الهلال الخصيب ، أيد نوري الجامعة العربية بصفتها اداة تعاون في علاقة العرب بعضهم مع بعض . ومع هذا لم ييأس كليا من امكان تحقيق

---

(١٣) ادلى وزير الخارجية البريطانية انطوني ايدن بتصريحات مؤيدة للوحدة العربية في ١٩٤١ و ١٩٤٣ .

(١٤) راجع نوري السعيد « استقلال العرب والوحدة » (بغداد ، ١٩٤٣) والبرقيات المتبادلة مع الملك ابن سعود بشأن سوريا ولبنان بتاريخ ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٤٣ (النص وارد في كتاب خير الدين الزركلي « شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز » (بيروت ، ١٩٧٠) المجلد الثالث ، ص ١١٤٨ — ٥٠) .

الوحدة العربية • وقد ظهر ذلك في تأييده لمشروع سوريا الكبرى، الذي طرحه الملك عبد االله ، وفي تأييده الاتحاد بين العراق والاردن ، الذي تولى رئاسة حكومته سنة ١٩٥٨ •

لقد كشف عجز العرب عن الاتحاد وعن تنسيق اعمالهم عن ضعف أظهر لنوري مدى حاجة العرب الماسة الى مساندة دولة كبرى تزودهم بالمعونة الاقتصادية والتقنية للتنمية الداخلية ، فضلا عن مساعدتهم ضد اي اعتداء اجنبي محتمل • وكان في مطلع حياته في اسطنبول وبفضل اختباراته خلال الحرب العالمية الاولى وبعدها ، يرى في بريطانيا العظمى الدولة التي تستطيع اكثر من غيرها مساندة القومية العربية • فقد كان يعتقد بأن لدى البريطانيين والعرب مصالح مشتركة عديدة ، وبأن تسوية خلافاتهم القومية ليست مستحيلة • ومما عزز ايمانه بصداقة بريطانيا اعلانها عن استعدادها لانهاء الانتداب والاستمرار في مساعدة العراق وتقويته • وكان يرجو بعد ان تنال بقية البلاد العربية استقلالها ان ينشأ تحالف بريطاني عربي واسع ودائم ، قائم على الاحترام المتبادل بما يخص الاستقلال والوحدة الوطنية ، وذلك بغية العمل من اجل التقدم والاستقرار في العالم العربي •

وبعد الحرب العالمية الثانية وعلى اثر تطور الحرب الباردة ، اختلف نوري مع زعماء عرب آخرين حيال التعاون مع الغرب • فقد دعا نوري الى التحالف مع الغرب ، في النزاع بين المعسكرين الغربي والشرقي ، بينما نادى اولئك

الزعماء بالحياد (وهو موقف اطلق عليه عبد الناصر في ما بعد اسم « الحياد الايجابي ») • وأكد نوري ان التوغل السوفياتي في البلاد العربية سيعرض استقلالها للخطر ، بينما التحالف مع الدول الغربية يحميه • وكان يرى ان الحياد سياسة غير عملية بسبب اهمية موقع البلاد العربية الاستراتيجي بين المعسكرين الغربي والشرقي اولا وبسبب ضعف العرب ثانيا ، الامر الذي سيؤدي حتما الى تدخل الدول الكبرى • لم ينكر نوري وجود خلافات بين الغرب والعرب ، منها قضية فلسطين ، والتأييد الغربي لبعض انظمة الحكم العربية ضد انظمة اخرى ، واستمرار السيطرة البريطانية دون مبرر على بعض البلاد العربية •

ولكنه كان يعتقد بأن حل هذه المشاكل سيتم بصورة مرضية في نهاية الامر ، اذا سعى العرب الى التعاون مع الغرب والى تعزيز مركزهم في العالم •

لقد اكد نوري ان بريطانيا كانت مستعدة لانهاء سيطرتها على العالم العربي بكامله تدريجا ، اذا اشترك العرب في المخططات الدفاعية الغربية • وكانت بريطانيا قد احتفظت بقاعدتين جويتين عراقيتين ، بموجب معاهدة ١٩٣٠ ، الا انها عندما انضم العراق الى حلف بغداد في سنة ١٩٥٥ وافقت على التخلي عن القاعدتين المذكورتين • وكان العراق قد بدأ قبل سنة من ذلك يتلقى مساعدات عسكرية واقتصادية غربية وفق اتفاق منفصل عقد مع الولايات المتحدة سنة ١٩٥٤ • كان هدف نوري ان تنضم دول عربية اخرى الى الحلف وتتلقى المساعدات الاقتصادية والعسكرية

الغربية لتتحد بعد ذلك وتقوى،وعندها فقط يمكنهـا ان تحاول الضغط علـى الدول الغربية لحـل النزاع العربي الاسرائيلي لمصلحة العرب • وقد ادرك ان قضية فلسطين هي اكبر عقبة في طريق التعاون البريطاني العربي (ومن ثم العربي العربي) • الا انه كان يرى دائما ان هذه القضية ثانوية بالنسبة الى الامور الدفاعية الاخرى ، وانها لا بد ان تحل في النهاية لما فيه مصلحة العرب ، اذا تعاونوا مع الغرب [١٥] •

كان معظم الزعماء العرب ، خاصة قادة مصر العسكريين، لا يشاركون نوري آراءه في السياسة الخارجية • وسبب ذلك ان الاعتقاد كان سائدا بأن الدول الغربية غير مستعدة للتخلي عن نفوذها في البلاد العربية او تزويدها بكميات من الأسلحة تكفي لزيادة قوتهـا • ولذلك رغب القـادة العرب بالتزام الحياد في الحرب الباردة ، لانهم لم يكونوا يعتقدون بان الخطر السوفياتي وشيك • واحتجـوا بأن عدوهم الاقرب هو اسرائيل لا الاتحاد السوفياتي • أما

---

(١٥) يعتبر التحدث عن منشأ حلف بغداد واهدافه خارج نطاق هذه الدراسة . وفي ما يختص بدور نوري في الحلف ، راجع و. ج ـ غولمان « العراق في ظل الجنـرال نوري » (بولتيمور ، ١٩٦٤) . راجع انتقاد فاضل الجمالي لهـذا الكتاب في « فوروم » ، المجلد ٤٠ (خريف ١٩٦٤) ص ١٣ ـ ٢٤ ، ورد خلدون الحصري في المرجع ذاته المجلد ٤١ (خريف ١٩٦٥) ص ٢٥ ـ ٢٨ ، والمجلد ٤٢ (شتاء ١٩٦٥) ص ٢٤ ـ ٢٩ .

اذا كانت الدول الغربية مستعدة لتزويدهم بالاسلحة لمقاومة كل هجوم ، سواء أكان سوفياتيا ام اسرائيليا ، فانهم مستعدون لقبول المساعدة دون ان يرتبطوا بأي التزام نحو اي جهة • وكان فشل نوري في اقناع اصدقائه الغربيين بتقبل وجهة النظر العربية ، وكذلك رفض القادة العرب التعاون مع الدول الغربية ، سببا في اضعاف مركزه في العالم العربي ثم سقوطه في النهاية [١٦] • لقد اضطر نوري للتركيز على تعزيز قوة العراق باتباع سياسة الاعمار الداخلي تدليلا على سلامة سياسته من ناحية عامة • ولكن ثورة ١٩٥٨ جرفت كلا من نظام حكمه وبعضا من مشاريعه قبل ان يقطف ابناء وطنه ثمار هذه المشاريع •

تذكر الروايات التاريخية المتوافرة أن العراق بلد عسير حكمه • وقد تباينت وجهات النظر وتباعدت بالنسبة للوسائل التي يجب اتباعها للسيطرة على شعبه • فبعضها نادى باللين والمداهنة وبعضها بالعنف والشدة والاكراه ، ويروى ان معاوية مؤسس الدولة الاموية (٦٨٠ م •) ، نصح وهو

---

(١٦) للاطلاع على تحذيرات نوري للغرب ، راجع مقاله « وصية رئيس الوزراء العراقي الاخيرة » ، « لايف انترناشيونال » المجلد ٢٥ (١٨ آب ، اغسطس ، ١٩٥٨) ص ٢٦ — ٢٨ . حاول نوري ، قبيل ثورة ١٩٥٨ ، الرد على المعارضة العربية بتشكيل كتلة ثلاثية من ثلاث دول عربية هي العراق والاردن والكويت ، ولكن بريطانيا كانت تمانع في تخلص الكويت من سيطرتها والانضمام الى الاتحاد العربي • راجع هارولد ماكميلان « ركوب العاصفة ، ١٩٥٦ — ١٩٥٩ » (لندن ، ١٩٧٠) ص ٥٠٤ .

على فراش الموت ابنه يزيد قائلا : «وانظر اهل العراق فان سألوك ان تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل » أمـا الرأي المتطرف الاخر فهو رأي الحجاج [17] ، والي العراق في عهد الخليفة عبد الملك ، الذي دعا فيه الى سياسة القمع والشدة معتقدا انها الوسيلة الوحيدة التي تنجح وقد نفذ هـذه السياسة ، وحكم العراق بقبضة من حديـد . الا ان السياستين اخفقتا . فقد انتشرت الاضطرابات في عهـد الخليفة يزيد ، وحدثت انتفاضات خطيرة بعد تولي الحجاج الحكم . وكانت السياستان المتطرفتان تعكسان اسلوبين في الحكم مبسطين طبقا على مجتمع كثير التباين والتعقيد ، اذ كان المجتمع العراقي مقسما الى ثلاثة اقسام رئيسية ، يتألف القسم الاول من الجماعات القبليـة وشبه القبليـة في الجنوب ، ومعظم افرادها من الذين دخلوا البلاد باعداد متزايدة في الهجرات القبلية بعد الفتوحات العربية في القرن السابع ، وامتزجوا مع السكان الاصليين . ويشمل القسم الثاني المراكز الرئيسية في عرض البلاد بين دجلة والفرات . وكانت هذه المراكز تشكل اساس المجتمع الرفيع الحضارة في عصر الاسلام الذهبي (العصر العباسي) والحضـارات القديمة التي ازدهرت في البلاد سابقا . وكان سكان المدن في حاجة ملحة للأمن والطمأنينة اللذين لولاهما لعجزوا عن القيام ببناء حضارة راقية . وكان الخلفاء (وبعدهـم سلاطين بني عثمان) ، ادراكا منهم لاخطار غزوات القبائل

---

(١٧) هو الحجاج بن يوسف الثقفي المتوفي سنة ٧١٤ م .

المتكررة ، يضطرون في اغلب الاحيان لتجهيز جيوش من المرتزقة تتولى حماية العمل البناء لهذه المراكز •

اما القسم الثالث من المجتمع العراقي ، ويشمل سكان الشمال ومن ضمنهم الشعب الكردي ، فانه لم يصبح جزءا من البلاد الا بعد الحرب العالمية الاولى ، لانه كان قبل ذلك جزءا من المنطقة المعروفة باسم جزيرة ابن عمر • وقد زادت الفئات غير العربية ، فضلا عن الجماعات الدينية والعرقية الاخرى ، في تعقيد بناء المجتمع العراقي • لذلك كان من العسير جدا حكم شعب لم يحقق بعد التماسك والتضامن الاجتماعي في صفوفه ، حتى ان اكثر هذه الجماعات لم تعترف بالولاء التام للدولة ، فقد اعتبر البعض ان ولاءه هو للقومية العربية بينما اعتبر البعض الاخر ان ولاءه هو لفكرة الوطنية العراقية •

واستنادا الى هذا الواقع نفهم لماذا حث فيصل الاول ، ـ الذي خبر حياة البدو والحضر ـ وزراءه عند توليه الحكم، ان يتبعوا سياسة الاعتدال وان لا يتوقعوا اجراء اصلاح جذري ، الى ان يتمكن العراق من انشاء دولة قومية بالمفهوم العصري • وقد تمكن ، بما له من مكانة ونفوذ وبفضل قيادته المتزنة ، من الابقاء على وحدة البلاد وتماسكها • وكان جميع الزعماء السياسيين ، رغم ما كان بينهم من خلافات ، يقرون بسلطته العليا ويخدمون البلاد بأفضل ما أوتوا من قوة •

وبعد وفاة فيصل سنة ١٩٣٣ ، كان على نوري ان يثبت زعامته على الجماعات والشخصيات السياسية المناوئة ، لكي

يحول دون انقسام البلاد بعضها على بعض • ومرت مرحلة قصيرة تخللتها ثورات قبلية وتدخل عسكري في السياسة، أبْعِدَ خلالها نوري عن الحكم اكثر من مرة•الا انه في نهاية الامر تمكن بعد ثورة ١٩٤١ العسكرية من تطهير الجيش من خصومه السياسيين ، ولكن معالجة مشكلة اصلاح النظام السياسي جديا لم تتم الا بعد الحرب العالمية الثانية، على الرغم من التعديل الدستوري ، الذي عزز مركز رئيس الدولة والذي طبق خلال الحرب [١٨] •

كان نوري ، من حيث المبدأ يؤيد قيام ديموقراطية برلمانية تعمل ضمن النظام الملكي • وبعد انتهاء الحرب ظلت فكرة انشاء نظام الحزبين تراوده مدة عقد من الزمن، وغرضه من ذلك الحيلولة دون تدخل الجيش في الشؤون السياسية • وبعد السماح بانشاء أحزاب سياسية سنة ١٩٤٦ ، حاول نوري ، الذي كان آنذاك خارج الحكم ، كسب تأييد عدد من السياسيين المخضرمين والعناصر المعتدلة لانشاء حزب يميني كما حاول تشجيع الاحرار على تشكيل « معارضة موالية » •

وفي الوقت نفسه كان يعارض في السماح للشيوعيين بانشاء حزب خاص بهم • الا أن محاولاته فشلت ، ذلك لان معظم السياسيين المخضرمين كانوا يفضلون العمل غير مقيدين بنظام حزبي • هذا من جهة ، ومن جهة اخرى

---

(١٨) راجع كتابي « العراق المستقل » ص ٢٨٩ ــ ٩٩ ، ٣٠٢ ــ ٦ •

رفض الساسة الذين اظهروا استعدادهم للعمل تحت قيادته، التعاون في ما بينهم لاسباب شخصية [19] • وهكذا ترك المجال لاحزاب اليسار والوسط ان تظهر على المسرح السياسي عام ١٩٤٦ •

وقام نوري بمحاولة اخرى سنة ١٩٥٠ ، فأنشأ رسميا حزب الاتحاد الدستوري ، على أمل ان يجتذب اليه الكهول والشباب على حد سواء وذلك للوقوف في وجه الاحزاب اليسارية • ونجح هذا الحزب في اجتذاب بعض الشبان القديرين ، امثال ضياء جعفر وخليل كنه الذي انسحب من الجماعات الليبرالية ــ القومية ، ولكنه عجز عن اقناع السياسيين المخضرمين بالانضمام اليه • وبما ان نوري نفسه كان سياسيا مخضرما قصر نشاطه على الاوساط العليا ، فقد ترك ادارة الحزب على الصعيد الشعبي للشبان، خاصة خليل كنه ، وفشل في استخدام شعبيته كزعيم لحمل البلاد على تأييد الديموقراطية البرلمانية •

وقد تجددت المساعي لتعزيز النظام البرلماني سنة ١٩٥٣، عندما بلغ فيصل الثاني سن الرشد • فطلب الى الامير عبد الاله ، خال الملك وولي العهد ، ان يتوقف عن ممارسة

---

(١٩) نجح نوري في الحصول على موافقة توفيق السويدي وسعد صالح على الانضمام الى حزب سياسي . ولكنهما عادا فرفضا ، عندما اكتشفا انه سيضم ايضا صالح جبر ، وهو من اكبر مؤيدي نوري ، الا ان صالح عاد فأنشأ في ما بعد حزبه الخاص لمعارضة نوري ، وذلك عندما اختلف الزعيمان حول قضية معاهدة بورتسموث سنة ١٩٤٨ .

سلطته كوصي على العرش ، كما طلب الى الملك ان يستشير عند توليه سلطاته الدستورية ، الزعماء والاحزاب السياسية وجماعات اخرى دون ان يلزم بالتخلي عن حاشية قصر خاله • ونصح زعماء المعارضة الليبيرالية السياسيين الكهول بترك الملك يمارس حقه باستشارة جميع زعماء البلاد دون تمييز ، وذلك لمصلحة العرش [٢٠] • لقد وافق خال الملك ، في البداية ، على اعتزال السياسة عمليا والاكتفاء بمركزه وليا للعهد • وتشكلت حكومة اكثر عناصرها من الفئة المعتدلة للاشراف على « انتخابات حرة » كخطوة نحو تعزيز النظام البرلماني ، ولم تفز الاحزاب السياسية ، التي اشتركت في انتخابات ١٩٥٤ ، الا ببضعة مقاعد في البرلمان، وكانت اكثرية المقاعد من نصيب السياسيين المخضرمين او من نصيب حزب نوري الدستوري [٢١] •

وكان ممكنا ان يرضى نوري عن نتائج الانتخابات لو لم يكتشف تلاعب ولي العهد الخفي بالامر ، ومحاولته ايجاد حاشية جديدة للقصر باشراف «حكومة ليبرالية» • ونقل عنه عندما كان خارج البلاد خلال الانتخابات ، قوله

---

(٢٠) رحب فائق السامرائي من حزب الاستقلال ، واحد الساسة النشيطين ، بتولي الملك سلطاته ودعا في مقال كتبه، الى التعاون مع الملكية اذا كف السياسيون المخضرمون عن استخدام القصر قاعدة لعملياتهم •

(٢١) راجع فرانك ستوكس وستفن لونغريغ « العراق » (لندن ، ١٩٥٨) ص ١٠٥ — ٦ ، وجورج غراسموك « العملية الانتخابية في العراق ، ١٩٥٢ — ١٩٥٨ » ، و « ميدل ايست جورنال » ، المجلد ١٤ (١٩٦٠) ص ٣٩٧ — ٤١٥ •

انه لن يتولى المسؤولية ابدا ما دام ولي العهد يتمادى في التدخل في السياسة • ولما اتضح ان المعارضة الصغيرة النشيطة في البرلمان الجديد ستضعف مركز السياسيين المخضرمين طلب الى ولي العهد تسوية خلافه مع نوري حرصا على الملكية • فسافر هذا الى باريس ، في تموز (يوليو) ١٩٥٤ حيث اجرى المصالحة • أما نوري فانه اشترط لعودته الى بغداد ان تطلق يده في حكم البلاد •

واتبع نوري ، بعد ان شكل حكومة في ٢ آب (اغسطس) ١٩٥٤ ، سياسة تتعارض وجميع الجهود السابقة الرامية الى تعزيز النظام البرلماني • فحل البرلمان ، بعد ان عقد جلسة واحدة كانت اقصر الجلسات في تاريخه ، كما حل جميع الاحزاب السياسية ، وبينها حزبه • وفرض الرقابة على زعماء المعارضة واعتقلهم • وكانت حجته الظاهرة تخليص البلاد من الحركات الشيوعية • الا ان هذه التصرفات ما فتئت ان جردت النظام السياسي من صفته البرلمانية • واصبح نوري يحكم بسلطات شبه دكتاتورية• صحيح انه نجح مؤقتا في الحد من نفوذ ولي العهد وبطانته، وهي خطوة ضرورية لتعزيز النظام البرلماني ، الا أنه عجز تماما عن خلق قاعدة شعبية له • وقد استطاع خلال وجوده في الحكم من ١٩٥٤ الى ١٩٥٧ ثم خلال ثلاثة شهور في ١٩٥٨ ، السيطرة بحزم على البلاد ، رغم ظهور بوادر الثورة ، ومنها محاولة انقلاب ١٩٥٦ • وما ان تخلى عن الحكم تاركا البلاد بين ايدي أشخاص اضعف منه ، حتى عمت الفوضى وساد الاضطراب واصبح واضحا ان البلاد

تسير بسرعة نحو كارثة تكاد تكون محتومة • وكانت ثورة ١٩٥٨ التي اطاحت به وبالملكية وقضت عليهما •

لقد أثر عن نوري قوله قبيل سقوط الملكية ، ان مواطنيه سيكفون عن الاصغاء الى حفنة من المشاغبين ، اذا ادركوا مدى الازدهار والاطمئنان ، اللذين سيتحققان بعد عشر سنين ، عندما يتم تنفيذ مشاريعه العمرانية • ويبدو انه يئس بعد ان تقدم به العمر وشاخ ، من انشاء نظام برلماني صحيح ، وانه بدأ يعتمد على الازدهار والتنمية لدعم نظام الحكم واحاطته بالولاء • ولم يدرك ان خصومه لم يكونوا مجرد حفنة من المحامين ومعلمي المدارس ، كما ردد مرارا ، بل كانوا مجموعة متزايدة العدد من الزعماء والفئات المتميزة بحسن التنظيم ، خاصة الشيوعيين ، الذين كانوا مصممين على اسقاطه بصفته حصنا لنظام الاوليغاركية والطبقة الحاكمة •

لقد قرر نوري ، بعد عودته الى الحكم سنة ١٩٥٤ ، ان يقضي على المعارضة قبل البدء بتنفيذ مشاريعه الاصلاحية التي كان يطمح اليها • وقد أكد ان خصوم النظام القائم ، الذين يطالبون بالاصلاح والديموقراطية ، يعملون بوحي من حوافز تختلف كثيرا عن تصريحاتهم ومقاصدهم الظاهرة • وكان يعتقد ان الشيوعيين رغم احاديثهم عن الديموقراطية والاصلاح الاجتماعي مصممون على تحطيم النظام القائم بالوسائل الثورية ، لاجل اقامة دكتاتورية شيوعية [٢٢] ، ولكن اساليبه في التصدي للشيوعيين كانت

---

(٢٢) راجع « احاديث » نوري ، ص ١٩ ــ ٢٠ •

سلبية تماما • فقد عمل على محاكمة زعمائهم بتهمة اثارة الفتنة وصدرت عليهم احكام تقضي بالسجن مددا مختلفة وفقا لجريمة كل منهم • بل انه كان مستعدا ، اذا احتاج الامر ، ان يذهب الى حد اعدام زعمائهم الرئيسيين ونفي الآخرين من البلاد ، كما فعل في عام ١٩٤٦ وعام ١٩٤٩ • الا ان الذين تعهدوا بالتخلي عن العقيدة الشيوعية والامتناع عن القيام بنشاط شيوعي ، أعْفِيَ عنهم او خفضت احكام السجن الصادرة بحقهم ، ووضعوا تحت رقابة الشرطة[٢٣] •

واجتمعت مع وزير الداخلية سعيد القزاز سنة ١٩٥٨، قبيل ثورة تموز (يوليو) ، فبادرني بلهجة الراضي عن نفسه ، انه تمت تصفية الحركة الشيوعية الى غير رجعة ، وانه لم يعد في البلاد اي شيوعي • صحيح ان الزعماء الشيوعيين الرئيسيين بدوا وكأنهم اختفوا فعلا عن المسرح السياسي ، ولكن مما لا شك فيه ان الحركة انتقلت الى العمل السري • قد يكون لدى الشعب آنذاك تحفظات معينة حيال الافكار المتطرفة ، ولكن العناد والصبر ، اللذين تحدى الشيوعيون بهما السلطة ، اثارا عطفا شعبيا ، كما اعتبر الشعب نشاطهم شكلا من اشكال الكفاح الوطني ضد الطغيان • وراح الشيوعيون يؤكدون ان كفاحهم لا يقل وطنية عن كفاح اية جماعة اخرى ، وان هدفهم ، شأنهم في ذلك شأن باقي الوطنيين، تحقيق الديموقراطية والوحدة

---

(٢٣) راجع «احاديث» نوري ، ص ٨٣ — ٨٨ ، وكتابي المستقل » ، ص ٣٦١ والصفحات التالية .

الوطنية مع الاشتراكية • من اجل هذا لا يستغرب انتكون الحركة الشيوعية قد انتشرت بشكل واسع سريع ، فور اندلاع ثورة تموز (يوليو) ١٩٥٨ [٢٤] • ان اساليب نوري لم تقض على الحركة الشيوعية في مهرها ، رغم انها حدت، ولو الى حين من النشاط الهدام • فشكاوى الشعب استمرت واستمر الشيوعيون وغيرهم من خصوم النظام في استغلالها استغلالا كاملا •

اما بالنسبة لخصوم نوري الاخرين ، ومنهم القوميون، فقد اتهمهم نوري بالعمل لمصلحتهم للوصول الى الحكم رغم موافقته اياهم على ضرورة الاصلاح • فعمل على اقناعهم او قل كسبهم الى صفه ، بمنحهم بعض المراكز السياسية الرفيعة • الا انه في اكثر الاحيان، لم يختر من بين اولئك الذين وافقوا على التعاون معه ، الا الانتهازيين الذين استطاع فضح حوافزهم الشخصية • اماالشبان المستقيمون الذين يتمتعون بسمعة طيبة فانه لم يمنحهم ثقته • والواقع ان نوري فشل في الافادة من تعاون الرجال الذين كانوا على خلاف معه • وكان هؤلاء كثيراً ما يلجأون الى العنف بحجة افتداء الحرية ، عندما كان يمنعهم منحرية التعبير عن آرائهم [٢٥] •

---

(٢٤) راجع كتابي « العراق الجمهوري » ، ص ١١٧ والصفحات التالية .

(١٥) راجع الفصل الثامن من هذا الكتاب ، للاطلاع على موقف الاحرار العراقيين من السلطة .

كان اهتمام نوري بالاصلاح صادقا • وقد سعى جادا لتلبية حاجات مواطنيه الانمائية الملحة • ولعله ادرك بفطرته، انه يجب اجراء اصلاحات اجتماعية واقتصادية شاملة قبل معالجته مشاكل النظام السياسي وتوطيد دعائم ديموقراطية برلمانية دائمة • وهكذا انشأ سنة ١٩٥٠ مجلس الاعمار ، وجعله هيئة مستقلة برئاسة رئيس الوزراء ، لكي يضمن فعاليته ويحد من النفوذ البيروقراطي • فخصص ٧٠ بالمائة من عائدات النفط للتنمية ، وجعل يفكر في مصادر اخرى للمال ، كالقروض من البنك الدولي التي يسرها واستخدمها [٢٦] • وفي ١٩٥١ ، جرى تعديل الاتفاق مع شركة نفط العراق على اساس المشاركة مناصفة بالارباح، الامر الذي زاد اموال الانماء المتيسرة • واستهل المجلس اعماله بمشاريع كبرى للري وتصريف المياه ، انقاذا للبلاد من خطر الفيضانات الدائم وبقصد تخزين مياه الانهر للافادة منها في زيادة الانتاج الزراعي • ولم يؤيد المجلس ، في بداية عمله ، مشاريع قصيرة الامد ، بل ركز على مشاريع الري وحصر الفيضانات • وبعد انجاز هذه المشاريع الضخمة، اخذ المجلس يهتم بالمشاريع القصيرة الامد • وقبيل ثورة تموز (يوليو) بدأ المجلس مرحلة تنفيذ بعض هذه المشاريع ومنها شق الطرق ، وانشاء الجسور ، وبناء المستشفيات والمدارس • ولو نفذت بعض هذه المشاريع ، التي تهدف الى رفع مستوى المعيشة ، قبل ١٩٥٨ لكان من الارجح ان يفشل منتقدو نوري ، في

---

(٢٦) للاطلاع على دراسة لمنجزات مجلس التنمية راجع فهيم قبعين « اعمار العراق » (نيويورك ، ١٩٥٨) .

اثارة الجماهير ضده . ورغم رأي الخبراء في ضرورة المشاريع الكبرى لبلد زراعي كالعراق[٢٧] فان هذه المشاريع لم تؤثر في عامة الشعب ، لان اكثرها نفذ خارج المدن ولانها اعتبرت خدمة لطبقة الملاكين والاثرياء وحدهم . وكان نوري يرجو ان تحقق مشاريعه الانمائية الازدهار العام وترفع مستوى المعيشة فيجني الناس اخيرا ثمار ما قدمه طوال حياته من عمل في خدمة البلاد . حقا كان سباقا بين الانماء والثورة الا ان ايام التنمية كانت قصيرة . وبعد يومين من نشوب الثورة التي اعلنها خصومه في ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨ ، هب الرعاع ، الذين كان نوري يهتم صادقا بمصالحهم فقتلوه وسحلوا جثته عريانة في الشوارع [٢٨] .

لم يكن نوري يجهل احتمال حدوث ثورة عسكرية ولكن الطريق التي اتبعها لتفادي ما قد يحدث كانت طريقة بدائية تشبه الى حد كبير طريقته واسلوبه في معاملة خصومه السياسيين . فقد كان يحاول تجاهل الضباط الصغار وتقريب الضباط الكبار لاعتقاده بأنهم قادرون على السيطرة على القوات المسلحة .

---

(٢٧) للاطلاع على الاراء المتضاربة حول مجلس الاعمار وعلى تقييم مشاريعه ، راجع كتاب اللورد سولتر « تنمية العراق » (لندن ، ١٩٥٥) ، و « الاعمار في العراق » لعبد الرحمن الجليلي (بيروت ، ١٩٦٨) ، و « فرق واخسر » لمايكل ايونيدس (لندن ، ١٩٦٠) ص١٩٧ والصفحات التالية.
(٢٨) للاطلاع على رواية اغتيال نوري ، راجع كتابي « العراق الجمهوري » ، ص ٥٢ ــ ٥٦ .

تصرف نوري ، منذ توليه اول منصب وزاري ، تصرف سياسي مدني دون ان يخطر في باله قط ضرورة استخدام الجيش كأداة سياسية . لقد كان واثقا من ان النزاعات السياسية يمكن تسويتها بالاساليب السلمية ، كما كان يرجو ان يتطور نظام العراق السياسي ويتحول يوما ما الى ديموقراطية برلمانية . وكم كان ذعره عندما اكتشف سنة ١٩٣٦ تورط الجيش العراقي في السياسة،فأخذ يحذر القادة المدنيين والعسكريين من تدخل الجيش في الشؤون السياسية . ولكن تحذير نوري لم يلق اذنا صاغية . وكما يحدث في بلاد اخرى كذلك حدث في العراق فما ان تدخل العسكريون في السياسة حتى استمرأوا هذا التدخل واستمروا فيه . لقد استخدم نوري نفسه الجيش ، عندما افلت زمام السلطة من يديه خلال الانقلاب العسكري الاول سنة ١٩٣٦ ، وقد ظن خطأ ، انه بعد ان يعود الى الحكم سيتمكن من عزل الجيش عن السياسة ، وكان ان حاول بادىء ذي بدء ، احالة بعض الضباط على التقاعد وتعيين اخرين في مناصب ديبلوماسية . الا انه عندما تبين له في سنة ١٩٤١ ان هذه التدابير لم تحل دون الضباط الشباب والعمل السياسي ، اخذ يلقي بعضهم في السجن ويشنق البعض الاخر .

وما ان وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها حتى بدأ نوري يهتم اهتماما خاصا بالجيش ، فرصد له اعتمادات ضخمة في الموازنات السنوية لتجهيزه بالاسلحة الحديثة . ومع ان هدف نوري الرئيسي من وراء ذلك كله لا يبعد ان يكون سياسيا قبل أي شيء ؛ أي تحويل انظار الضباط

عن الشؤون المحلية الى الشؤون الخارجية (كمشاريع الدفاع الغربية مثلا) ، الا انه كان يرمي ايضا الى كسب تأييد بعض كبار الضباط باسناد مناصب مهمة اليهم ، كما انشأ مع بعضهم الاخر علائق وثيقة حتى يشعرهم بالاطمئنان الى مراكزهم وبالتالي كي يعزز في نفوسهم ولاءهم للملك والبلاد • الا ان سياسته الخارجية رغم اجماع الضباط الكبار كلهم تقريبا على تأييدها لقيت معارضه شديدة من الضباط الشباب ، الذين تأثروا عقائديا بزعماء مدنيين • لقد كان نوري يدرك مدى الاستياء المنتشر في صفوف الضباط الشباب من السياسة المتبعة نحو الغرب ، ومع هذا فانه لم يفعل شيئا ليقرب الشقة بينه وبينهم فيكسبهم في صفه ، وقد يكون سبب ذلك اعتقاده بأن ما يتمتع به من نفوذ في صفوف الضباط الكبار سيؤمن له تأييد الجيش بكامله •

صحيح ان نوري تلقى العلوم العسكرية في مطلع حياته واشترك عمليا في القوات المسلحة ، الا انه لم يستمر كضابط بارز في الجيش • وما ان ترك الخدمة العسكرية ليعمل في السياسة ، حتى تخلى عن عمله العسكري ، بعكس عزيز علي ، الذي ظل مهتما بالشؤون العسكرية • وعندما بلغته اصداء انتشار الافكار الثورية في صفوف الجيش ، قدر تماما خطورة الوضع الا انه لم يتخذ اية خطوة حاسمة لمواجهتها ، بل اكتفى بتوجيه التحذيرات الى بعض الضباط الذين اشيع ان لهم ضلعا في نشر تلك الافكار الثورية وما خلا ذلك من معالجة جذرية ترك شأنها للاستخبارات العسكرية •

كان تحذير نوري لمدحت الحاج سري ، احد ضباط الجيش بمثابة تنبؤ بما سيحدث بالمستقبل فقد بادره بقوله حين رآه قبل قليل من ثورة تموز (يوليو) : « ما الذي فاتك في العراق لتقوم بالتآمر ، وما الذي اضاعه خالك جميل المدفعي لتركب هذا المركب الخشن ؟ فأنكر مدحت التهمة . الا ان نوري اردف قائلا (سأكتفي باحالتك على التقاعد ، ولكن ثق انكم في حالة نجاحكم في حركتكم سينصب الواحد منكم للآخر المشانق »[٢٩] . وهكذا كان فما كاد العسكريون يقبضون على زمام الحكم حتى نشب الصراع بينهم . وكان مدحت نفسه وزملاؤه من الضباط اول دفعة تتأرجح على اعواد المشانق بعد ان حكمت عليهم بالاعدام زمرة منافسة من العسكريين .

رغم ان نوري كان يدرك مدى اخطار الثورات العسكرية الا انه لم يتمكن من عزل الجيش عن السياسة . ومن سخرية القدر ان جعفر العسكري ، اول وزير للدفاع ، ونوري السعيد ، اول رئيس للاركان اللذين سعيا في تكوين الجيش العراقي ، عند تأسيس الحكم الوطني سنة ١٩٢١ ، قتلا في ثورتين عسكريتين ، الاول خلال انقلاب ١٩٣٦ والثاني خلال ثورة ١٩٥٨ .

---

(٢٩) ويروى انه اضاف قائلا : « واذا لم تنجح حركتكم فاني سأنصب لكم المشانق بين باب المعظم وباب الشرقي (اي بين بوابتي بغداد الشمالية والجنوبية) » ، راجع خليل كنة « العراق : أمسه وغده » (بيروت ١٩٦٦) ص ٣١١ ، وكتابي « العراق الجمهوري » (لندن ١٩٦٩) ص ٨٦ .

لو قدر لنوري ان ينسحب من المعترك السياسي قبل ١٩٥٨ لاعتبر واحدا من اكبر الزعماء في العالم العربي ، بل ربما اعتبر اعظم معاصريه ، ولكنه لسوء حظه ذهب ضحية الثورة بعد ان كان فقد الكثير من زعامته في شيخوخته. ومع هذا فانه يوم قضى ، لم يكن رئيس وزراء العراق بل رئيس وزراء الاتحاد العربي . ويروى ان بعض اصدقائه قال حين افلت زمام العراق من يدي نوري واطاحت ثورة تموز (يوليو) بالملكية « كان نوري كهلا رائعا ، الا انه كان بمنأى عن الواقع »[٣٠] . وقال آخرون : « لقد تمتع نوري بقدر كاف من المجد » وكانوا يعنون بذلك ان الفرصة يجب ان تتاح الان لخصومه وخاصة الزعماء الطالعين . الا ان نوري لم يكن يعارض من حيث المبدأ ، اشتراك الزعماء الشباب في تحمل المسؤوليات سواء في المناصب السياسية العليا ام في فئات « المعارضة الموالية » ، بينما كان دائم التحذير من اساليب العنف والاضطراب . وقد صرح مرة في مؤتمر صحفي منبها فقال : « يجب ألا نهدم شيئا قبل ان نجد ما هو اصلح منه »[٣١] . الا ان خصومه الذين لم يتبينوا أي دليل على احتمال تغيير في النظام القائم ، فقدوا صبرهم حيال اساليبه في الحكم واحجموا عن الاستمرار في تأييد الاوليغاركية الحاكمة .

---

(٣٠) كان في السبعين من عمره عند اغتياله .

(٣١) راجع « احاديث » نوري ص ١٥ . وللاطلاع على اقواله ضد العنف والاضطراب ، راجع المرجع ذاته ، ص ٩٨ .

لقد ارتكب نوري ، شأن معاصريه من الزعماء ، عددا من الاخطاء • فقد أشيع عنه انه كانت له في مطلع حياتــه يد في اغتيال توفيق الخالدي ، عضو البرلمان المعارض ، الذي كثيرا ما انتقد عددا من الوزراء واتهمهم بارتكــاب تجاوزات [٣٢] • واتهم كذلك بقتل الملك الشاب غازي ، الذي كان على خلاف معه في الرأي • الاان موت الملك في الواقع كان عرضا غيرمقصود [٣٣] • ولكن هذا لا يمنع من القول بأن نوري حاول جادا الثأر لاغتيال صهره جعفــر العسكري ، الذي قتل سنة ١٩٣٦ بأمر من بكر صدقي بعد ان ورطه حكمت سليمان في الثورة سنة١٩٣٦ فكان ان حاك مؤامرة مزعومة ضـــد الدولة سنة ١٩٣٩ تسهيلا لتنفيــذ مآربه الثأرية • ورغم معارضة الرأي العام الواضحة في شنق الزعماء السياسيين او نفيهم ، فقد اقدم نوري على أعدام كبار الضباط ، الذين اشتركوا في انقلاب ١٩٤١ ، كما قسا في معاملة الشيوعيين الذين زعم انهم كانوا يمارسون

---

(٣٢) سمعت هذه التهمة مرارا من بعض خصوم نوري ، ولكنها كانت تعتمد بشكل اساسي على الاشاعات ، فما مــن واحد قط قدم دليلا قاطعا على علاقته بالقضية .

(٣٣) راجع مذكرات صلاح الدين الصباغ ، احد « العقداء الاربعة » المسؤولين عن ثورة ١٩٤١ العسكرية ، الذي شنق سنة ١٩٤٥ عقابا له على عمله (« فرسان العروبة في الميزان » لصلاح الدين الصباغ) (دون تاريخ) ص ٨٠ ــ ٨٤ .

(٣٤) للاطلاع على رواية الحادث ومحاكمة حكمت سليمان امام محكمة عسكرية راجــع كتابي « العراق المستقــل » ص ١٣٧ ــ ٤٠ .

نشاطا هداما آنذاك • وقد لجأ نوري ، الذي كان يعتبر التآمر ضد الدولة جريمة خطيرة جدا الى المعاقبة العلنية ، لمنع المغامرين من اللجوء الى العنف • الا ان اساليبه لم تحل دون تكرار محاولات الانقلاب ولا يبعد ان يكون عفوه عن المجرمين السياسيين او سجنهم مدى الحياة قد انقذ حياته وجنبه مغبة الثأر منه • لم يكن نوري ــ رغم عطفه على المضطهدين ــ ليتورع عن انزال اشد العقوبات بخصومه كما لم يتخذ اي احتياطات للمحافظة على سلامته قط بل ذهب في تحدي المهددين الى التصريح بقوله « لم يولد بعد الانسان الذي يستطيع اغتيالي » (٣٥) • ولما ولج عتبة الشيخوخة بالغ في الاهمال كما بالغ في الوثوق بنفسه مما سهل لبعض خصومه الذين استخف بهم ، امر القضاء عليه•

لم ينج نوري من اللوم لاستخفافه بالاجراءات الديموقراطية • فقد تصرف في كثير من الاحيان غير مبال

---

(٣٥) يقال ان نوري اطلق النار على نفسه او قتله بعد المارة بعد يومين من ثورة ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨ ، فيما كان يسير متنكرا في احد الشوارع في جنوبي بغداد ٠ والظاهر ان موته كان انتحارا لا اغتيالا ، ذلك انه كان يحمل دائما مسدسا ، وقد صرح مرارا بأنه لن يتردد في اطلاق النار على نفسه اذا وجد انه لن يستطيع النجاة من الموت . وبما انه لم يدع احد انه قتل نوري ، في وقت كان هذا العمل يعتبر بطوليا فضلا عن مكافأة قدرها عشرة الاف جنيه رصدت ثمنا لرأسه ، فانني اعتقد بأن نوري اطلق النار على نفسه ، عندما اكتشف المارة امره وتعرفوا عليه ولم يقتله شخص مجهول كما اشيع .

بآراء أنصاره أو بمشاعرهم ، بل كثيرا ما اتخذ قرارات دون مناقشتها في مجلس الوزراء • وليس من التجني ان يقال انه كان يعامل زملاءه في الوزارة كأنهم احداث صغار فيقفون امامه وقد انعقدت ألسنتهم فلا ينطقون • وبدا للعديد من المراقبين ، ومنهم مؤلف هذا الكتاب ، انه كان يتصرف دون اي مراعاة لمشاعر مرؤوسيه • ولكنــه في الواقع ، لم يكن يقصد الاستخفاف بزملائه كبارا كانوا ام صغار ، اللهم الا اذا انقلبوا عليه أو حاولوا معاداته • ومما لا شك فيه ان نوري كان طيب القلب ، حميما مع اصدقائه موقرا لزائريه • الا انه كثيرا ما فقد صبره حيال الاجراءات الديموقراطية ، هذا اذا جاز اعتبار النظام البرلماني العراقي ديموقراطيا ، لأن ما كان يهمه هو فعالية العمل المجدي • اما خصومه وكانوا اخطب منه واقدر في المناقشات البرلمانية، فكانوا يحاولون اكثر الاحيان معارضته حتى في الشؤون التي لا يستغنى عنها •

أما على الصعيد الدولي ولا سيما علاقاته مع رجــــال الدولة الاجانب ، فقد ترك نوري انطباعا لديهم بأنه رجل دولة جليل فعال وهو خلاف الانطباع الذي خلفه في نفوس مواطنيه • كان ديبلوماسيا يعرف تماما ما يريد ، ويسعى الى تحقيق اهدافه الاساسية بالحلول المناسبة والاساليب المرنة • ولم تكن تنقصه الحيلة في المفاوضات ، بــل كان دائم الاستعداد لطرح افكار واقتراحات جديدة • ويقال أن احد المراقبين الاجانــب وصفه بأنــه « كالقرد كثـير

الحيل » [٣٦] • وقد استطاع ان يكسب ثقة الكثيرين ، ولا سيما رجال الدولة البريطانيين ، الذين انشأ معهم علائق ودية • وكان يعتقد بأن الثقة والاحترام المتبادلين في ادارة الشؤون الخارجية يمكن ان يدعما المصلحة الوطنية اكثر من فقدان الثقة والشك اللذين لا مبرر لهما• كان هادىء الطبع ، وواسع الصدر ، لم يفقد اعصابه ، حتى لو خولف في الرأي ، بل كان يذهب الى ابعد من ذلك فيحاول ان يضفي على المفاوضات حيوية ونشاطا • ومثال ذلك ما حدثني به مرة متين دفتري ، وهو رئيس وزراء ايراني سابق ، فقال انه خلال مروره ببغداد سنة ١٩٥١ (وكان في طريقه الى الامم المتحدة للاشتراك في المناقشات حول النفط الايراني) ، تلقى من نوري رسالة تحتوي على ابيات للشاعر الفارسي سعدي (١٢٩١ م •) لمح له فيها الى ان بلاده تسير في « اتجاه » خاطىء • وفي ما يلي ترجمة الابيات :

اخشى ، ايها العربي (النبيل)
ألا تصل ابدا الى الكعبة (الشريفة)
فالطريق التي اخترتها
ستوصلك الى تركستان !

لقد تكشفت صفات نوري القيادية في مرحلة مبكرة جدا من حياته • وكتب الكولونيل لورنس ، الذي رافق

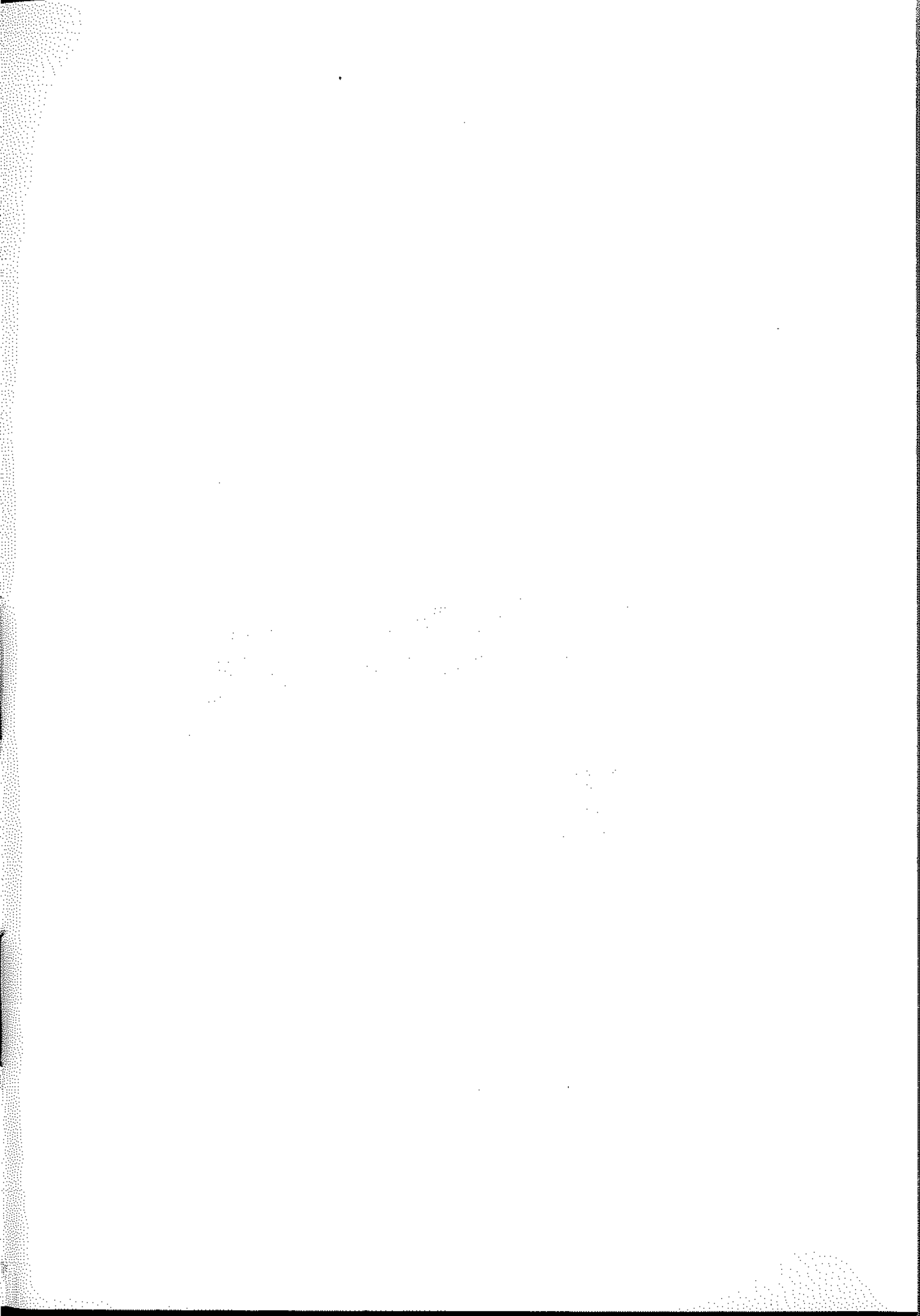
---

(٣٦) راجع غولمان « العراق في ظل الجنرال نوري » ، ص ١٠٤ .

الضباط العرب خلال عمليات الحجاز من سنة ١٩١٦ الى ١٩١٨ عن نوري يقول : « اكثر الرجال يتكلمون بسرعة حين اطلاق النار ، وتبدو على تصرفاتهم امارات الانفعال . اما نوري فكان يزداد هدوءا ، وان ما تحلى به من شجاعة وثقة ورباطة جأش جعله زعيما مثاليا مميزا » (٣٧) . وهذه صفات رفيعة لم تتوافر الا لعدد قليل من الزعماء العرب . واتفق جميع الذين عرفوا نوري ، ومنهم بعض خصومه ، على انه كان يتحلى بصفتين بارزتين : الشجاعة والاستقامة. الا أنه لم يكن زعيما شعبيا ومرد ذلك افتقاره الى المقدرة على اجتذاب عامة الشعب . ففي الوقت الذي كان فيه خطباء متقدون حماسة ، أمثال عبدالناصر وبورقيبة وغيرهما ، يثيرون الجماهير ويلهبونهم ، كان نوري يحاول اللجوء الى الحكمة والعقل بدلا من العواطف والانفعال . ويبدو اليوم ان السياسي الذي يعجز عن اثارة الانفعالات والحماسة لدى الجماهير سياسي غير مرغوب فيه ، ومع هذا فلا غنى عن الحكمة والتبصر عند رسم السياسة العامة، وقد برع نوري في تخطيطه للمشاريع الاقتصادية والسياسية ولكنه برهن عن عجز مطبق في عرضها على الجماهير .

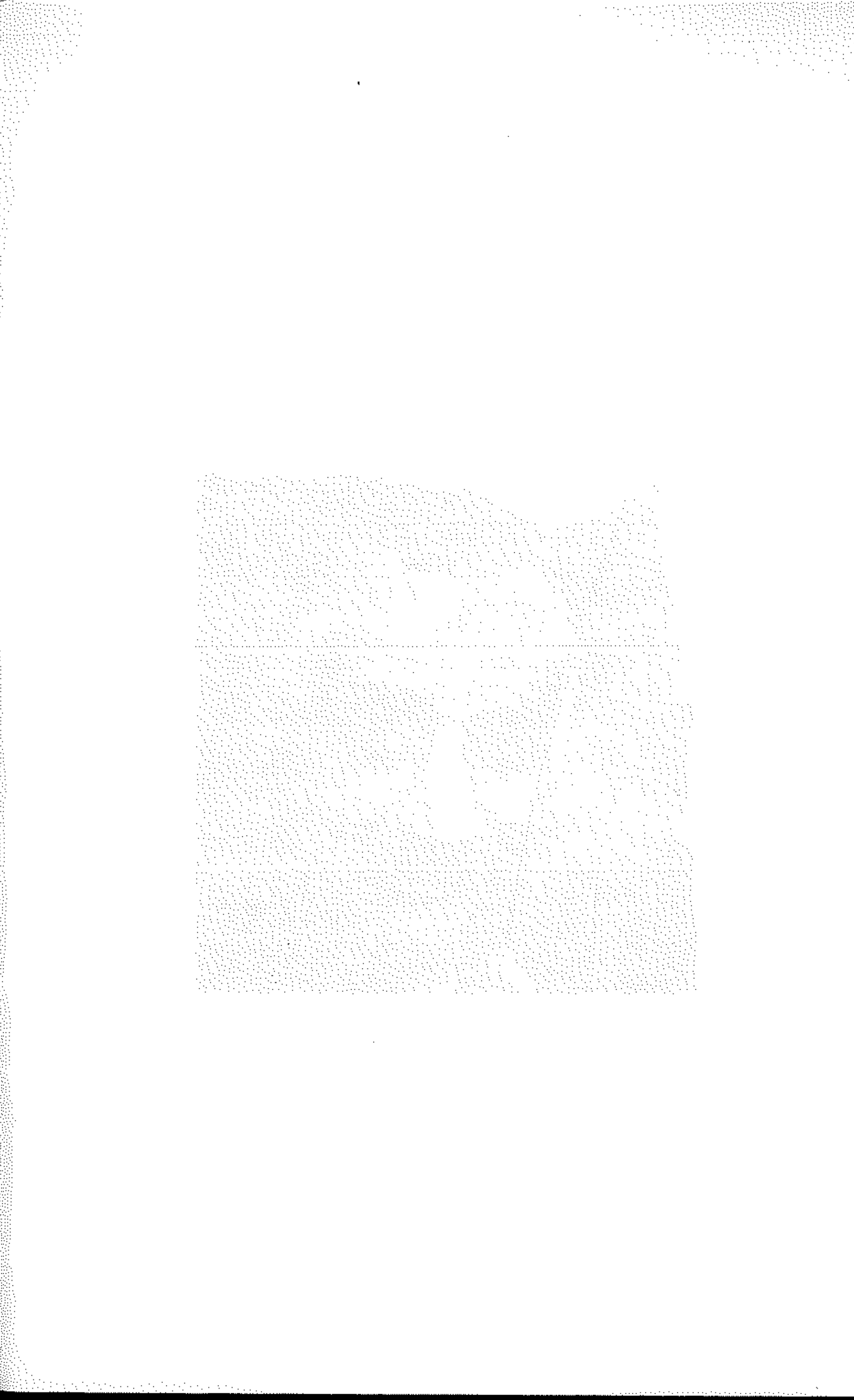
---

(٣٧) لورنس «اعمدة الحكمة السبعة» ، ص ٥١٩ ــ ٤٢ .





جمال عبد الناصر



الفصل الرابع
المدرسة العقائدية

جمال عبد الناصر

« ان ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لانفسهم ادوار بطولة مجيدة قاموا بها في ظروف حاسمة على مسرحه • وان ظروف التاريخ ايضا مليئة بأدوار البطولة المجيدة التي لم تجد بعد الابطال الذين يقومون به على مسرحه • ولست أدري لماذا يخيل الي دائما ان في هذه المنطقة التي نعيش فيها دورا هائما على وجهه ، يبحث عن البطل الذي يقوم به • ثم لست ادري لماذا يخيل الي ان الدور الذي ارهقه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدة في كل مكان حولنا قد استقر به المطاف متعبا منهوك القوى على حدود بلادنا ، يشير الينا ان نتحرك وان ننهض بالدور ونرتدي ملابسه ، لأن أحدا غيرنا لا يستطيع القيام به » •

عبد الناصر

ليس بين زعماء العرب المعاصرين ، الذين يتناولهم هذا الكتاب بالبحث من هو اكثر اثارة للجدل من جمال عبد الناصر ، رغم كونه اصغرهم سنا واحدثهم ظهورا

على المسرح السياسي • وليس أقل اهمية من ذلك كــون حياته السياسية اختصرت بوفاته المبكرة في لحظة عصيبة ، كان يعالج فيها نتائج حرب الايام الستة ، ويتبع في الداخل، سياسة اصلاحات اجتماعية شاملة • لهذا السبب يعتبــر تقييم دور عبد الناصر في السياسة صعبا جدا،رغم انما كتب عن حياته وعن نشاطه السياسي يتجــاوز ما كتب عــن الاخرين • والامر الاصعب من ذلك هو عرض الصــورة الحقيقية لرجل تضاربت حوله الروايات والآراء • ولهــذا سيكون الحكم النهائي عليه لكتاب المستقبــل ، الذين سينظرون اليه من زاوية تختلف عن زاويتنا التي نظرنا اليه منها •

اعتبر الكتاب الغربيون عبد الناصر زعيما عربيا تضاربت مطامحه مع المصالح الغربية الاساسية • ولهذا نظر الغــرب الى سياسته واساليبه نظرة شك وارتياب • ولــم يكــن عبد الناصر يجهل ما كانت تتعرض له سمعته من تشويه ، ولكنه لم يتخذ أجراءات جدية لتصحيح ذلك • وكان بعض اعماله وتصريحاته العنيفة ــ كصفقة الاسلحة التشيكيــة (الروسية) ، والاعتراف بجمهورية الصــين الشعبية ، وتأمين شركة قناة السويس ، ومساندة الحركات الثوريــة في الجزائر والكونغو وبلاد آخرى ، والتدخل في اليمن ، واغلاق مضيق تيران ــ قد اثار حوله العداوة ودفع العديد من الغربيين الى الخلط بين اهدافه العليا وتصريحاته الآنية • ولهذا يتحتم علينا في هذه الدراسة اولا ان نحدد اهدافــه قبل ان نتحدث عن قيادته واعماله •

كان تفكير عبد الناصر تفكيرا عمليا . وقد [illegible]
المشاكل بمعالجتها الواحدة بعد الاخرى ، حسب [illegible]
الملحة اليها • الا انه كان ملتزما بأهداف قومية [illegible]
يعتبرها شبه مقدسة ، وبالتالي غير قابلة للتسويات
الترضيات • وكان لا بد لعبد الناصر ، نظرا لكونه مصريا
ولد وترعرع في بيئة اجتماعية لها حساسية خاصة حيال الفقر
والحرمان ، ان يعبر عن شكاوى مواطنيه من القيود
الاجتماعية من جهة ، وان يسعى الى التحرر الوطني من
الحكم الاجنبي من جهة اخرى • كان شديد التأثر بالدوافع
العاطفية والاقتصادية الاجتماعية • ولذلك يمكن اعتباره
منتميا الى مدرسة القيادة العقائدية اكثر منه الى المدرسة
الواقعية • ومع ذلك ، فمن الخطأ تصويره بأنه عقائدي
صرف ، متصلب في تصرفاته الى حد لا يسمح معه بتعديلها
في ضوء الخبرة والممارسة • فبعد ان استولى على الحكم
بالثورة ، حاول تحقيق أهدافه بالاساليب السلمية والعملية
او ، كما قال ، عن طريق التجربة والخطأ • فما هي تلك
الاهداف العليا ؟

كان هدف عبد الناصر الاول والاسمى تحقيق استقلال
مصر الكامل ، الذي يعني عمليا ازالة كل انتهاك لسيادة
البلاد ، سواء أكان ناتجا عن الاحتلال العسكري ، ام
نصوص الأحلاف ، ام الضغط السياسي • وفي سبيل تحقيق
هذه الاهداف ، قرر عبد الناصر اسقاط نظام الحكم القديم
واقامة نظام جديد يضغط في البداية على بريطانيا لاجلاء
جميع قواتها عن منطقة القناة ، ثم يلغي المعاهدات والاتفاقات

الدولية الاخرى ، التي قد تحتوي على ما يحد من استقلال بلاده • وكانت الخطوة التالية تمهد الطريق امام الاصلاحات الداخليـــة • وراح في الوقت نفســـه يسعى الى ضمان أمن مصر القومي ضد الاخطار الاجنبية • اما اصراره على ضرورة تمتع المصريين بحرية ادارة شؤونهم فمصدره قوة عاطفية جامحة وليس مجرد تلبية رغبة طبقة معينة مـــن المواطنين •

لم تكن اهداف عبد الناصر العقائدية وقفا على مطالبته بالاعتراف بسيادة مصر ، بل الاعتراف ايضا بسيادة الدول المحكومة الاخرى الراغبة بالاستقلال التام ، خاصة الدول العربية التي لم تحظ بأي شكل من اشكـــال الاستقـــلال كالجزائر والسودان والجنوب العربـــي وامارات الخليـــج العربي • كما كان يطالب باستقلال بلاد افريقيـــا وآسيـــا وشعوبهما ، التي كانت ما تزال تكافح للتحرر من الحكـــم الاستعماري • وخلفت دعوته الى الدفـــاع عن حقـــوق السيادة تأثيرا اشد في بعض دول العالم الثالث المستقلة • وقد انشأ ، بالتعاون مع نهرو وتيتو ، هذا الالتزام العقائدي ، الذي لم يكن استجابة لمطالبة شعبية كما كانت الحال بالنسبة الى التزامه بالقومية العربية • ووصل عبد الناصر ، فـــي سعيه الى تحقيق الاهداف العقائدية ، الى حد كسب عداء دول غربية ـ خاصة فرنسا وبريطانيا وذلك نتيجة تقديمه المعونة الى بلاد تكافح في سبيل الاستقلال • ولكنه لم يكن مستعدا لخوض حرب معها الا اذا سعت هي عمدا الى انتهاك حرمة بلاده •

والهدف الثاني ، الذي يعتبر نتيجة طبيعية للاستقلال والامن القومي ، هو ان عبد الناصر كان ملتزما بمبـــدأ عدم الانحياز في النزاع بين الدول الغربية والاشتراكية ، على اســاس ان لا علاقة مباشرة لمصر (وكذلك الـدول الافريقية والآسيوية الاخرى) بالحرب الباردة الناجمـة عن التنافس بين هذه الدول الكبرى • وكان يعتقـد بأن مصلحة مصر ليست في زيادة التوتر بل في تخفيفه ، وذلك برفض الانحياز الى أي جانب في الصراع القائم بين الدول الكبرى، • وهكذا كانت كل محاولة تقوم بها دولة اجنبية لاجتذاب مصر الى هذا الصراع تعتبر متضاربة مع مصالح مصر القومية • وللسبب ذاته عارض عبد الناصر في اكراه جيرانه العرب على الاشتراك في الاحلاف الدفاعية الغربية، لان ذلك ايضا قد يجر مصر الى الحرب •

أما من حيث المبدأ فان عبد الناصر لم يكن في هدفـه الثالث ، أقل التزاما بخدمة مصالح « الانسان العادي » ، الذي منه تتكون اكثرية الشعب المصري • فقد نشأ في مجتمع فاضح التباين اجتماعيا واقتصاديا ، وكان يشعـر بالمرارة حيال الاوليغاركية الصغيرة الحاكمة ، التي استغلت الشعب واضطهدته واظهرت استخفـافا كليا بمصالحه • ودفعه هذا الشعور بالمرارة الـى التزام نفســه عقائديـا بالاصلاح الاجتماعي ، وهـــو التزام كان صادقا حقـا نحوه [1] • صحيح انه لم تكن لديه في البدايــة فكـرة

---

(١) عندما سأله زائر مرة عن المشكلة الاكثر الحاحا التي كان يواجهها آنذاك ، اجاب عبد الناصر : « كون ١٧٥ الف

واضحة عن كيفية تحقيق هذا الهدف ، ولكنه ، بعد تسلمه الحكم ، بدأ يجري التجارب بالنسبة للاصلاح الاجتماعي ، وفقا لاسلوبه العملي القائم على التجربة والخطأ • كان هذا هدف ما دعاه « الثورة الاجتماعية » ، التي اعتزم القيام بها بعد انجاز « الثورة السياسية » التي اطاحت بالنظام القديم • وكان من الضروري انشاء بنيان سياسي جديد ، لأن بنيان النظام القديم عجز عن القيام بالتغييرات الاجتماعية الاساسية [٢] •

رابعا ، حاول عبد الناصر ان يغرس في نفس الشعب الذي ظل الاجانب يسيطرون عليه قرونا عديدة شعور العزة والكرامة • وقبل عبد الناصر ، حاول عرابي ثم زغلول اثارة روح العزة والثقة بالنفس في الشعب المصري ، ولكنهما اخفقا في ايجاد الاجواء الملائمة لذلك ، بيد ان تحقيق عبد الناصر

شخص سيولدون في هذا البلد خلال الشهر الحالي، ولا مناص من تغذيتهم » (روبرت ستيفنز ، «ناصر» ـ لندن ، ١٩٧١ ـ ص ٨) •

(٢) راجع «فلسفة الثورة» لعبد الناصر (القاهرة ، دون تاريخ) ص٦٢ . اننا نعتقد بأن بحث محتوى ثورتي عبد الناصر «الاجتماعية» و «السياسية» هو خارج نطاق هذه الدراسة، لأنهما بحثتا في كتابي «الاتجاهات السياسية في العالم العربي» (الدار المتحدة للنشر ، بيروت ١٩٧٢)، الفصلان ٦ ـ ٧ • وقد شرح عبد الناصر خططه ، التي شدد فيها على حاجة مصر للتنمية التقنية في سبيل اللحاق بالتقدم العصري ، في خطابه في المؤتمر الوطني للقوى الشعبية سنة ١٩٦٢ (راجع «محاضر جلسات المؤتمر الوطني للقوى الشعبية» (القاهرة ، ١٩٦٢) ص ١٢٤ ـ ٣٥) •

للاستقلال التام وتحديه الغرب ، بحصوله على الاسلحة من الشرق ، خلقا تجاوبا واعجابا عاطفيا عميقا تجاوز حدود مصر • وبعد الهجوم الثلاثي على بلده سنة ١٩٥٦ ، ازداد تأثير شعبية عبد الناصر في العالم العربي • وأثارت حملته من اجل الحرية الوطنية حماسة شديدة في البلاد العربية اذ رافقت دعوته المطالبة بالوحدة • كان عبد الناصر ، خلال سعيه الى الوحدة العربية ، يفكر في اهداف الامبراطورية، ويسعى — عبر ارتباط مصر بالهوية القومية العربية — الى منح الشعب المصري معنى جديدا للحياة ، ارفع واوسع من مشاعره الاقليمية المحدودة • صحيح ان بضعة زعماء في بلاد عربية تقع شرقي مصر دعوا الى القومية العربية ، والعروبة بصورة خاصة ، ولكن ليس من زعيم مصري ، قبل عبد الناصر ، ربط المصريين بالقومية العربية ، او حاول نفخ روح الايمان والثقة بالنفس والشعور بالكرامة في الشعب العربي بكامله (٣) •

فأي هدف من هذه الاهداف كان محور اهتمام عبد الناصر؟ فهل كانت الوحدة العربية،كما قال البعض،ام اهتمامه بالانسان العادي ؟ ليس من الضروري أن يتضارب هذان

---

(٣) ان ما فعله سعد زغلول كان عكس ذلك ، فقد تحدث باستخفاف عن اهمية البلاد العربية ، ونقل عنه قوله ان قوة كل بلد عربي توازي صفرا ، وان لا فائدة من الجمع بين صفر وآخر • وللاطلاع على رد الفعل العربي لتقييم زغلول راجع ساطع الحصري «العروبة اولا» (بيروت ، ١٩٥٥) ص٦٠ـ٦٧ •

الهدفان ــ ان يصبح المرء « رئيس » امبراطورية عربية او « خادم » الانسان العادي ــ رغم ان تحقيق احدهما قد يضر بالآخر او يضحي به نهائيا • كان عبد الناصر يــؤكد دائما في احاديثه العامة ، ان هدفيه الاسميين هما تحسين الاحوال الاجتماعية ورفاهية الشعب • ولكن اتضح عمليا، ان انشغاله الدائم بأمن بلاده القومي واعمالها الخارجيــة كان مسيطرا على تفكيره •

قد يبدو غريبا للمراقب الاجنبي اخضاع المتطلبات الداخلية الى الاعمال الخارجية، خاصة في بلد تعيش فيه اكثرية الشعب عيشة الكفاف • فالمصلحون الثوريون يهتمون، نظريا، بالمشاكل الاجتماعية اكثر من اهتمامهم بالمشاكل السياسية • ولكن يجب فهم التسلسل المصري للافضليات في ضوء تاريــخ مصر الطويل من الخضوع للحكم الاجنبي ، الذي جعــل المصريين يهتمون بتحــرير افكــارهم اكثــر من تغذيــة اجسادهم [٤] • وقد اتضح استعــداد عبد الناصر بوضــع وعده بتحسين « الاوضاع الاجتماعية » في المرتبة الثانية بعد تحقيق حاجات الامن ومتطلباته ، عندما رهن محصول مصر الرئيسي للحصول على اسلحة دفاعية ، لأن امن مصر كما

(٤) ظل احمد لطفي السيد مدة طويلة يردد للمصريين ان هناك شيء أهم من «الفذاء الضروري للحياة» هــو الحرية الوطنية . ولقد تأثر عبد الناصر بلطفي السيد بعد قراءته كتاباتــه .

بدا في نظره ، كان معرضا للخطر من جراء اعتداءات اسرائيل •

كان انشغال عبد الناصر بالأمن القومي سببا في بحثه عن وسائل تعزيز قوة مصر • وان موقعها على مفترق طرق قارات وممرات مائية دولية ، رغم ما سببه لها هذا الموقع من تدخل الدول الكبرى في كثير من الاحيان ، كان مصدر قوة يمكن أن يتيح لها الحصول على مساعدة جاراتها والقيام بدور فعال في الشؤون الاقليمية والدولية • وقد ظل الكتاب المصريون مدة طويلة يدعون الى اتباع سياسة خارجية نشيطة تذكر بدور مصر في عهد الفراعنة والمماليك ومحمد علي • ولكن الملك فاروق وغيره من الزعماء الذين حاولوا القيام بهذا الدور في السنين الماضية فشلوا فشلا ذريعا في تحقيق ذلك • وقد حاول الضباط الاحرار بعد استيلائهم على الحكم سنة ١٩٥٢ ، تجنب التورط في شؤون جيرانهم • ولكن عبد الناصر ، الذي كان اكثر من زملائه الضباط ادراكا لدور مصر التاريخي ، كان يفكر بأمور اخرى • فبعد اعلانه زعيم القومية العربية،وجد ان اشتراك مصر في اتحاد عربي سيتيح لها القيام بدور اكثر أهمية في المجالس الدولية ، اعتمادا على المساندة والمادية من جاراتها العربية • ورغم انه لم يسع الى مركز خاص لمصر في الاتحاد العربي ، فان الشعب المصري لم يكن يكتفي بشراكة على قدم المساواة مع الدول الاخرى • وقد اظهر الموظفون المصريون ، الذين عملوا في بلاد عربية اخرى ، شعورا بالتفوق الثقافي اضر بمصالح مصر • وبدا على

عبد الناصر انه تخلى عن فكرة الوحدة العربية بعد حل الوحدة السورية المصرية • وذهب به التفكير حتى الى رفض كل حركة نحو الوحدة ، وسعى فقط الى الحصول على التأييد العربي لسياسته الخارجية (٥) •

تبدو اهداف عبد الناصر انها الاهداف المشروعة لكل بلد يسعى الى الاستقلال والى احتلال المكان الذي يستحقه بين الامم • ولكن تضارب مفهومه لأمن مصر القومي مع الخطط الدفاعية الغربية اولا ، ثم مع أمن اسرائيل كان السبب في اتهامه بأنه يعمل بدافع مطامعه الشخصية • وقد بالغت حملات الدعاية له والحملات المضادة ، ان لم تكن شوهت ، تصوير موقف عبد الناصر وموقف خصومه ، وكان عبد الناصر يرد غالبا باستنكار ، لأن خصومه لم يقدروا حق بلاده المشروعة في حماية مصالحها الحيوية • ويبدو ان هنالك الآن في العالم تفهما اكثر لعمل عبد الناصر في سبيل تحقيق اماني مصر القومية ، لان المصريين استمروا في العمل لاجلها بعد وفاته •

---

(٥) كان دور مصر التاريخي في العالم العربي ، من عهد المماليك الى عهد محمد علي ، مقتصرا على التأثير والسيطرة على العرب لا على توحيدهم . ورفض العرب ، من جهتهم ، هذه السيطرة . كما لم تقبل مصر تحقيق الوحدة العربية دون اشتراكها فيها ، خاصة بين دول الهلال الخصيب ، لأن هذه المجموعة من الدول المتحدة قد تضعف مركز مصر المسيطر في العالم العربي . وللاطلاع على بحث عن الوحدة العربية راجع كتاب «الاتجاهات السياسية» ص ٢٧٠ — ٢٧٣ (الدار المتحدة للنشر بيروت ١٩٧٢) .

يمكن ان تعزى بعض اهداف عبد الناصر وافكاره الى بعض الحقائق والاحداث المرتبطة بالمحيط الاجتماعي الذي نشأ فيه • ويأتي في طليعة هذه الحقائق ان عبد الناصر ولد في عائلة فقيرة نسبيا وتأثر كثيرا بالاوضاع البائسة المزرية التي كان الناس يعيشونها في منطقته • وكانت ولادته في الاسكندرية ، في ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ • وبعد ثلاث سنين نقل والده ، وكان موظفا صغيرا في الحكومة ، الى ادارة البريد في اسيوط ، البلدة التي ولد فيها سنة ١٨٨٨ والكائنة في صعيد مصر ، [٦] • وقبل ان يدخل والد عبد الناصر في السلك الحكومي ، لم يكن وضع عائلته يختلف كثيرا عن وضع القرويين في مسقط رأسه ، الذين كانوا يعيشون في فقر مدقع • ومثل هذه الاوضاع خلقت لدى عبد الناصر شعورا عميقا بالعطف على الفقراء ، وخلفت في نفسه انطباعا بأن الاغنياء يجمعون ثرواتهم باستغلالهم الفقراء • وعندما اكتشف ، في ما بعد ، مقدار انتشار الفساد بين العائلات الميسورة ، اعتبر الغنى مرادفا للفساد كما اعتبر الاغنياء أناسا مجردين من الشرف والوطنية• وهكذا بعد ان استولى على مقاليد الحكم اخذ يفخر بأصله المتواضع مانحا نفسه هوية « الانسان العادي » ، الذي كرس حياته لرفاهيته

---

(٦) ولد والد عبد الناصر ، بالتحديد ، في قرية تدعى «بنو مر» ، تقع على بعد حوالي ثلاثة كيلومترات شمالي شرقي اسيوط .

وكرامته . وقال انه يفتخر دائما بأنه من عائلة فقيرة ، وأخذ على نفسه عهدا بأن يبقى فقيرا حتى الممات [٧] .

والحقيقة الثانية الهامة في حياة عبد الناصر فقدانه الروابط العائلية بعد سني طفولته الاولى . فقد كان يرسل ، في كثير من الاحيان ، بعيدا عن البيت لمواصلة دراسته ، بسبب كثرة نقل والده من بلدة الى اخرى . وهكذا عاش اولا مع احد أعمامه في القاهرة لاكمال دراسته الابتدائية . وعندما بلغ الثامنة من العمر توفيت والدته فذهب الى الاسكندريه ليعيش مع عائلتها وليتابع دراسته الثانوية . وبعد ان فقد والدته التي كان متعلقا بها كثيرا ، فترت علاقته مع والده ، وخاصة بعد زواجه مرة اخرى . وضعف حنينه الى البيت بسبب ابتعاده عنه ، كما وجد ما يلهيه في النشاط خارج الدراسة وفي مظاهرات الطلاب. وكان الطلاب قد شعروا في الثلاثينات ، نتيجة تشربهم الروح القومية ، بأن من واجبهم الوطني أن يضربوا او ان يسيروا في مظاهرات يحركها سياسيون محترفون في اغلب الاحيان. وقد اشترك عبد الناصر في سنة ١٩٣٣ ، في مظاهرته السياسية الاولى في الاسكندرية . وفي ١٩٣٥ قام بدور قيادي في مظاهرة جرت في القاهرة للمطالبة باعادة دستور ١٩٢٣ . وقيل انه حين مرت المظاهرة امام فندق شيبرد

---

(٧) راجع « من انا » ، لعبد الناصر في كتاب «المصور يقدم جمال عبد الناصر» لناشره نسيم عمار (القاهرة، ١٩٥٧) ص٩.

القديم ، هتف عبد الناصر لدى رؤيتــه ضباطا بريطانيــين « لتسقط انكلترا » • ويقال ان احد الضباط اطلق النــار عليه واصابه • وذكرت الصحف اسمه في اليوم التالي ، الامر الذي منحه شعورا بالفخر لأن نشاطه الوطني لفــت انتباه الناس • ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي يفيض فيها شعوره الوطني (٨) •

لقد قرأ كتب التاريخ والأدب في اوقات فراغه ، وتأثر ، بصورة خاصة ، بحياة شخصيات تاريخية ، كالاسكنــدر الاكبر ويوليوس قيصر وغيرهما ، ممن ابلى بلاء حسنــا في احداث عظيمة ، حتى انه مثل دور قيصر عندما قدمت مدرسته تمثيلية « يوليوس قيصر » • واجتذبته كتابــات فولتير بالذات ، التي كتب عنها مقالا في جريدة مدرسته ، كما طالع كتابات بعض كبار الكتــاب المصريين ، الذين بحثوا المشاكل الاجتماعية (٩) •

لم يكن عبد الناصر مستقر النفس اذ لم يكن عنده ميل لان يكون تلميذا منهمكا في الدراسة كما لم ين عنده كذلك ميل لان ينسحب وينطوي على نفسه • وهكذا وجــد في

---

(٨) للاطلاع على حركات الطلاب السياسية ، راجع جواكيم جوستن «ناصر : الارتقاء الى الحكم» (لندن ، ١٩٦٠) ، الفصل الخامس ؛ و «ناصر» لستيفنز ، ص ٣١ — ٣٧ .

(٩) راجع الحاشية رقم ٤ . وقد قرا ايضا كتابات توفيق الحكيم وطه حسين وخالد محمد خالد وغيرهم (راجع «ناصر» لستيفنز ، ص ٣٢ و ٣٣ و ٤٠) .

الجيش مجالا لمتابعة دراسته بعد تخرجه من المدرسة سنة ١٩٣٦ • الا ان طلبه الانضمام الى الكلية العسكرية رفض بسبب ماضيه ، اذ اشتهر عنه وهو طالب انه مثير للاضطرابات • ولهذا دخل كلية الحقوق ، حيث قضى فصلا واحدا • ثم قدم طلبا جديدا الى الكلية العسكرية في آذار (مارس) ١٩٣٧ ، وكان حزب الوفد آنذاك في الحكم وينظر نظرة رضى وعطف الى الطلاب الذين يظهرون شعورا وطنيا • وقبل هذه المرة لأن الحزب كان راغبا فيه ، ولان الجيش بعد الاستقلال كان بحاجة الى عدد اكبر من الشبان • وان دل قبوله على شيء فقد دل على انه خلف انطباعا حسنا جدا في الامتحان الشفهي ، لان علاماته المدرسية لم تكن عالية جدا ، ولان طلبات كثيرين غيره رفضت • كان عبد الناصر ، خلال دراسته العسكرية ، في الجو المناسب له • فقد اظهر انه يستطيع ان يكون في غاية الانضباط وان يقوم بواجباته المدرسية بصورة مرضية ، فضلا عن نجاحه في امتحاناته •

وفي تموز (يوليو) ١٩٣٨ ، تخرج عبد الناصر برتبة يوزباشي وعيّن أولا في منقباد ، في محافظة اسيوط ، ثم ارسل الى السودان حيث قضى ثلاث سنين • ومما عزز اعتقاده بانتشار الفساد والمخالفات في الدوائر الحكومية ، وجعلته يصمم على مكافحتها اختباراته عندما كان ضابطا • وقد تمكن في اسيوط ، من مقاومة بعض اوامر رؤسائه التي اعتبرها متحيزة وتعسفية • ثم اخذ يصادق ــ وهو لما يزل برتبة يوزباشي ــ بعض الضباط ، امثال انور السادات

وزكريا محيي الدين وغيرهما ، كما عزز علائقه مع بعض رفاق الدراسة السابقين ، ومنهم عبد الحكيم عامر ، الذين انضموا الى حلقته الثورية السرية ، ومثل هذا النشـاط ساعد عبد الناصر على ان يصبح زعيما في سن مبكر •

كان عبد الناصر ما يزال في السودان عند نشوب الحرب العالمية الثانية ، وبدأ يتابع سير العمليات العسكرية ويتكهن بتأثيرها المحتمل في مستقبل مصر ، كما طالع المناقشـات في البرلمـان البريطاني حول النواقص في الاستعـدادات العسكرية البريطانية ، ولم تفته ملاحظة النكسات في ميادين القتال • وتبين له ، من كل ذلك ، أن سيطرة انكلترا على امبراطوريتها الواسعة اخذت تتضاءل،وخلص في استنتاجه الى ان الفرصة سانحة امام مصر للحصول على حريتهـا القومية ، اذا عرف زعماؤها كيف يفيدون من الوقت• وكان يرى أن العمل السريع اجدى وانفع ، ما دام مركز بريطانيا ضعيفـا • ولكن الحكومة المصريـة لم تظهر ما يدل على انها مستعدة للتحرك • وقد استاء ، هو ورفاقه الضباط ، وبصورة خاصة ، عندما طلب السفير البريطاني مـن الملك فاروق تعيين النحاس رئيسا للوزراء للمحافظة على الهدوء في البلاد ، وهو عمل اعتبروه اهانة لكرامة مصر واستقلالها• وقيل ان عبد الناصر رأى انـه كان على الملك فاروق ان يتنازل حينئذ عن العرش•ولكن فاروق بدلا من ذلك انصاع للضغط البريطاني ولنصيحة السياسيين السيئة ، ووافق على تسليم الحكم الى النحاس في ٤ شباط (فبراير) ١٩٤٢[١٠]•

---

(١٠) للاطلاع على رواية معاصرة لهذه الاحداث ، راجـع

وكان نتيجة ذلك ان فقد فاروق احترام المواطنين له • وحين استولى الضباط على الحكم سنة ١٩٥٢ ، كانوا مصممين على الثأر للاهانة بأن اجبروا فاروق على التنازل عن العرش، رغم انه كان مستعدا لقبول مطالب العسريين ، كما اصروا على جلاء القوات البريطانية كلها ، رغم ان بريطانيا كانت مستعدة للاعتراف باستقلال مصر الكامل •

في سنة ١٩٤٢ رقي عبد الناصر الى رتبة نقيب • وفي ١٩٤٣ عيّن مدرّسا في الكلية العسكرية ، ثم التحق بكلية الاركان واصبح احد المدرسين فيها في ما بعد • وهنا انفسح امامه المجال ليزيد من جهوده ويكسب الانصار وينشر الافكار الثورية • ولكي يقف على آراء الطلاب العسكريين السياسية اخذ يدعوهم الى بيته ليتناقشوا في القضايا الوطنية ثم راح يدعو بعضهم للانضمام الى منظمته العسكرية السرية • اما الذين كشف لهم عبد الناصر بصراحة عن افكاره فمن الصعب جدا معرفة اسمائهم أو معرفة الوقت الذي بدأت منظمته السرية تتكون فيه وكيف• ويبدو ان بعض الضباط انضموا الى جماعة عبد الناصر السرية عندما كان طالبا في الكلية العسكرية • وانضم آخرون اليها خلال عمله في اسيوط • وما من شك بأن «منظمة ما» كانت موجودة عندما اصبح عبد الناصر مدرسا

«مذكرات في السياسة المصرية» لمحمد حسين هيكل (القاهرة، ١٩٥٣) ، المجلد الثاني ص ٢٢٧ – ٤٦ .

في كلية الاركان وربما اعاد تنظيمها بعد ان ازداد عـدد المنتمين اليها واتسع مداها[11] .

ان الاشتراك في الحرب يزيد دائما في مكانة الزعيم ، خاصة اذا كسب معركة او اظهر شجاعة غير عادية . وقد سنحت الفرصة لعبد الناصر عندما اشتركت مصر في حرب فلسطين الاولى في ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ . وكانت اختباراته في هذه الحرب لها قيمتها الكبيرة في مراحل تالية من حياته . واظهرت مقاومته العنيدة في معركة الفالوجة ، التي صد فيها الهجمات الاسرائيلية ، انه يملك مقدرة تكتيكية وبراعة في تنظيم الوحدات العسكرية وممارسة القيادة . وابرزت هذه الحرب ، التي خسرتها مصر والدول العربية الاخرى ، عجز الطبقـة الحاكمة في مصر عن الدفـاع عن البلاد وحماية مصالحها الوطنية . ولذلك بدأ عبد الناصر ورفاقـه من الضباط الاحرار الاسراع بالحركة الثورية بعد عودتهم من فلسطين . ويتبين ذلك من قوله :

« في فلسطين كانت خلايا الضباط الاحرار تدرس وتبحث وتجتمع في الخنادق والمراكز ... كنا نجلس في الحصار لا نعرف له نتيجة ولا نهاية وكان حديثنا الشاغل وطننا الذي يتعين علينا ان نحاول انقاذه ... كانت الفالوجة محاصرة وكان تركيز العدو عليها ضربا بالمدافع والطيران تركيزا هائلا مروعا ... وكثيرا ما قلت لنفسي لقد غرر بنا ودفعنا الـى

---

(١١) انظر «ناصر» لستيفنز ، ص ٤٩ .

معركة لم نعدّ لها .... وحين كنت اصل الى هذا الحد من تفكيري كنت اجد خواطري تقفز فجأة عبر ميادين القتال وعبر الحدود الى مصر واقول لنفسي هذا هو وطننا هنا ... انه فالوجة اخرى على نطاق اكبر[١٢] .

رغم ان عبـد الناصر كان واضع خطـة الثورة ، وكان صاحب المبادرة ومنظم الحركة المعترف به ، الا انه تردد في تولي الزعامة اول الامر . وليس معنى ذلك انه كان يخشى القيادة ويتهيبها ، ولكنه كان يفضل ، لاسباب غير واضحة تماما ، ان يعهد بالقيادة الى ضابط أعلى رتبة،كما كان يفعل في العمليات العسكرية[١٣] . وقد لجأ طبعا الى عزيز علي المصري ، الذي كان معجبا به كزعيم ثوري . ولكن عزيز علي رفض متذرعا بتدهور صحته . وسلمت القيادة ، بعد ذلك ، الى الفريق محمد نجيب ، الذي خلّف انطباعا جيدا لدى الضباط ، رغم انه لم يصبح عضواً في مركز السلطة الا بعد ان تولى عبد الناصر رئاسة الوزراء سنة ١٩٥٣ . ولم يكن هناك أي شك في ان عبد الناصر سيظهر عليه ويتولى الزعامة . الا ان نجيب ، الذي دعا الى اصلاحات ليبرالية عن طريق الديموقراطية البرلمانية ، لقي قبولا في البـلاد

---

(١٢) راجع « فلسفة الثورة » لعبد الناصر ، ص ١٤ — ١٥ .

(١٣) ربما كان عبد الناصر يعتقد بأنه من الحكمة تسليم قيادة العمليات العسكرية الى ضابط اعلى رتبة وفقا للانضباط العسكري . اما بصفته زعيما سياسيا ، فلم يكن يتردد في انتزاع القيادة من رؤسائه .

واصبح زعيما شعبيا[١٤] • وكان لا بد لعبد الناصر ، في سعيه الى الحكم ، من ان يلقي خطبا متطرفة جدا لاجتذاب الجماهير ، التي اصبحت مأخوذة ببلاغة نجيب الخطابية وحسن تصرفه •

منذ ١٩٥٤ حتى وفاته سنة ١٩٧٠ ؛ لم يرسم عبد الناصر مشاريعه الاصلاحية مفصلة • ومن المؤكد ان الاهداف الاساسية كانت تداعب افكاره قبل الثورة بزمن طويل • ولكنها كانت أهدافا مبهمة وغامضة جدا ، لم تبدأ تتضح الا بعد استيلائه على الحكم • واخذ ينتقل من مرحلة الى اخرى بأسلوب اختباري ، هو اسلوب التجربة والخطأ • ونجح في ايحائه بأنه يسير وفقا لخطة مرسومة مقررة ، لأن الخطى التي مشاها كانت تبدو غالبا خطى متساوقة متتابعة بصورة منطقية • وما ان تبنّى الاشتراكية العربية حتى انتقل تدريجا من نظام العمل الحر الى النظام الجماعي[١٥] •

بدا عبد الناصر وكأنه يتصرف بحرية لا يشوبها ندم ، مما دفع الكثير من الكتّاب الى البحث عن اسرار اساليبه التي اوحت بأنها تستطيع تحويل القضايا الخاسرة الى

---

(١٤) للاطلاع على افكار نجيب السياسية راجع «قدر مصر» لمحمد نجيب (لندن ١٩٥٥) الفصلان ٥ ــ ٦ .

(١٥) راجع كتابي «الاتجاهات السياسية .. » ، الفصل ٧ (ترجمته الى العربية ونشرته الدار المتحدة للنشر ــ بيروت ١٩٧٢) ، وكتاب ب.ج. فاتيكيوتيس ، «مصر منذ الثورة» (لندن ، ١٩٦٨) ، الفصول ١ ــ ٤ .

انتصارات • وحاول البعض ايضاح قيادته النادرة المثال ، والبعض الآخر اساليبه السياسية البارعة ، كما حاول آخرون ايضاح مجموعة الاوضاع المؤاتية • وليس الغرض من هذه الدراسة سرد اعمال عبد الناصر ومنجزاته ، فهـذه يمكن الاطلاع عليها في اماكن اخرى[١٦] ، بل دراسة اساليبه وشخصيته وميزاته ، وهو ما سنتناوله الآن •

كانت القوات المسلحة في نظر عبد الناصر العمود الفقري في نظام حكمه ، لأن استقلال مصر وأمنها يحتاجان طبعا الى تقوية الجيش • وبعد ان حقق بثورة ١٩٥٢ انقلابا عسكريا وجد ان سلطته مرتكزة على الجيش قبـل أي شيء آخر وقد اكد لي خلال حديث اجريته معه سنة ١٩٥٥ ، قبيل صفقة الاسلحة الروسية ، انه بحاجة الى الاسلحة ليتيح لمصر الدفاع عن نفسها ضد الهجمات المفاجئة ، خاصة بعد الغارات الاسرائيلية على غزة في شباط (فبراير) مـن ذلك العام • الا انه عاد فأقر بصراحة بأنه يريد الاسلحة ليتيح لزملائه الضباط (الذين كان تأييدهم ضروريا لتحقيق اهداف الثورة) اعادة تنظيم الجيش وتوسيع حجمه كما يرضيهم • وما ان تسلم الحكم حتى صار الضباط يعاملون معاملة الطبقة

---

(١٦) لدراسة حياة عبد الناصر ومنجزاته ، راجع جان وسيمون لالكوتور «مصر في مرحلة الانتقال» (نيويورك ، ١٩٥٨) ، وكيث ويلوك «مصر ناصر الجديـدة» (نيويورك ، ١٩٦٠) ، و ب.ج. فاتيكيوتيس « الجيش المصري في السياسـة » (بلومنفتون ١٩٦١) ، وانطوني ناتنغ «ناصر» (لندن ، ١٩٧٢) ومحمد حسنين هيكل «وثائق القاهرة» (لندن ونيويورك ، ١٩٧٢)

المختارة فمنحوا امتيازات وتسهيلات لا تتوافر لمن لهم مدخولهم ، كالبيوت الضخمة والسيارات وما اليها • وفي البداية اسندت الى الضباط المقربين من عبد الناصر مراكز حساسة في الادارة ثم في الوزارة • وتمكن العسكريون من الاعتماد على الكفاءة في الادارة والحد من الفساد وقمع المخالفات مما عزز مكانة النظام الجديد ورسخ هيبته • ولكن الطبقة الجديدة الحاكمة ما لبثت ان اوجدت اساليب فساد خاصة بها لم يتمكن عبد الناصر من الحيلولة دونه رغم محاولاته الحد منه بالنقل والصرف والاحالة على التقاعد •

لم يكن عبد الناصر يعتقد بأن الشعب المصري اصبح قادرا على حكم نفسه بالوسائل الديموقراطية بل كان يعتقد بأن الزعماء المخضرمين اذا ما اتيحت لهم فرصة في الانتخابات الحرة فانهم لا شك سيتلاعبون بها لمصلحتهم • وقال لي : «اذا اجريت انتخابات حرة اليوم ، فسيعود السياسيون المحترفون الى الحكم ويزيلون ما حاولت الثورة ان تنجزه[١٧] » • ولن يتمكن الشعب من التحكم بالاساليب الديموقراطية الا بعد اعادة تنظيم البنيان الاجتماعي،واحلال جيل جديد مكان الجيل الحالي الذي نشأ في ظل الحرمان

---

(١٧) وقال عبد الناصر للسفير البريطاني همفري تريفيليان، سنة ١٩٥٦ : «ستؤدي الحرية الكاملة الى انتصار شيوعي» . هـ. تريفيليان «الشرق الاوسط في ثورة» (لندن ، ١٩٧٠) ص ٩٣ .

والعبودية • وظن عبد الناصر ، في بداية الثورة ، ان الشعب المصري قد تمكن خلال عقد من الزمن من خلق نظام ديموقراطي خاص به ، ولكن سرعان ما ساوره الشك في امكان تحقيق الاصلاح بالاساليب الديموقراطية ، فعمد الى التفكير في ايجاد بديل للديموقراطية • وظل مدة طويلة يعتقد بأن لا مناص من الاعتماد على سلطته الشخصية لتنفيذ مشاريع الاصلاح ، حتى بالاكراه عند الضرورة ، ودونما اكترات بالحرية الفردية ، ايمانا منه بأن هذه الاساليب ستعود بفائدة اكثر على مصالح الانسان العادي • وشدد عبد الناصر على وجوب تعليم الانسان العادي فن ممارسة حقوقه المدنية قبل ان يصبح قادرا على المشاركة في العمليات السياسية • وكان يرى ان نظام الحزب الواحد هو الذي قد يحقق هذه النتيجة، الا ان نظام الحزب الواحد ـ هيئة التحرير والاتحادان القومي والاشتراكي ـ لم يوفر عمليا سوى الصبغة الشرعية لنظامه الدكتاتوري • فهو، أي نظام الحزب الواحد ، لم يدرّب الشعب على المشاركة السياسية او يمهد لانتقال السلطة من العسكريين الى المدنيين(١٨) •

ومما زاد في صعوبة انشاء المؤسسات الحرة تورط عبد الناصر وانهماكه في الشؤون الخارجية • فبعد قليل من تسلمه الحكم انشغل بمشاكل الامن والدفاع القوميين ، التي حولت القسط الاوفر من جهوده في الشؤون الداخلية الى

---

(١٨) راجع ر. هـ. دكماجيان «مصر في عهد ناصر» (الباني، ١٩٧١) ص ١٤٤ والصفحات التالية •

الشؤون الخارجية • ونظرا لأن تحقيق الاهداف الاجتماعية، كثيرا ما يؤدي الى نزاعات داخلية ، بينما تستلزم الاهداف السياسية الخارجية التضامن الوطني ، فان عبد الناصر كان مستعدا لتأجيل الامر الاول او حتى التخلي عنه ، ما دام منشغلا بالامر الثاني • ولشد ما كانت دهشته عندما اكتشف ان تحقيق بعض اهداف السياسة الخارجية اكسبه مجدا ومكانة اكبر مما اكسبه تحقيق اهداف اجتماعية • فقد أثارت صفقة الاسلحة السوفياتية وتأميم شركة قناة السويس ، وسياسة عدم الانحياز ، حماسة اكبر مما اثاره اصدار قانون الاصلاح الزراعي والمراسيم الاشتراكية بل حتى انجاز سد اسوان العالي • ولذلك لم يكن مستغربا ان يضطر ، في كثير من الاحيان ، الى القيام بعمليات خارجية ، خاصة في الشؤون العربية ، تعزز مكانته في بلاده وفي العالم ، وتعود بالمكاسب المادية التي يعتبرها ضرورية لتحقيق الاهداف الاجتماعية •

ان مقدرة عبد الناصر في التغلب على المعارضة الداخلية وتحدي التدخلات الاجنبية غير مبال بالعواقب ، عززت شعوره او قل ايمانه « بالقضاء والقدر » ، وهو ان التاريخ في مجراه ، هو الذي قرر دوره القيادي • ونلمس هذا الشعور بالقدر من اختياره لما يقرأ من الموضوعات التي تركزت على سير رجال عظام اعتبروا ان التاريخ في مجراه هو الذي اختارهم لأداء دورهم في تحقيق الاهداف الوطنية[١٩] • وهكذا آمن بأنه هو نفسه ندب ــ انتقاء

(١٩) يقال ان عبد الناصر استوحى هذا «الشعور بالدور

او صدفة ــ للقيام بمثل هذا الدور التــاريخي ، وكان مصمما على تأديته والتمرس به كي يحقق اهــداف بلاده وفق فهمه وادراكه • وايمانه هذا بالقضاء والقدر ، وهو ايمان وارد في التقاليد الاسلامية ، دفعه في كثير من الاحيان الى اتخــاذ مواقف حازمة حتى في وجــه قرارات مجلس الوزراء • وعندما كان يحالفه النجاح رغم شــدة معاكسة الظروف القائمة،نظير ما حدثفي قضية تأميم قناة السويس، كان ايمانه بالقضاء والقدر يزداد عمقا ، ويصم اذنيه فــلا يصغى لنصح المعــارضين • وعندما يتخــذ مقرراته المهمة ويعلنها على الشعب في خطاباته ، كانت الجماهير غالبا مــا تنظر الى اقواله وكأنها تحمل في طياتهــا معنى النبوآت • وبلغ من ثقته بسيطرته على الجماهير ان انذر خصومه مرارا بأنهم اذا ما عارضوه ، كشف الامر للشعب الذي سيتولى امرهم[٢٠] •

ورغم هذا الشعور بدور المنقذ المخلّص،فان عبد الناصر لم يكن مفكرا مثاليا مجردا ، او مصلحا يستطيع اعــداد مخططات طويلة الآماد ، بل كان يتمتع بتفكير عملي ويسعى الى تحقيق اهدافه بأساليب مرتجلة ، حتى ذهب الى حد

التاريخي» من قراراته «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» لبيرانديلو .

(٢٠) راجع مذكرات احد الزعماء السوريين ، الذي تولى منصب وزير في القاهرة خلال الوحدة المصريــة السورية ، «اضواء على تجربة الوحدة» لأحمد عبد الكريم (دمشق ، ١٩٦٢) ص ٢٦٤ .

الاقرار بأن ليست لديه مشاريع مستقبلية واضحة المعالم ، وبدلا من ذلك راح يهتم بمتطلبات مصر العاجلة وحاجاتها ، وقد اظهر براعة هائلة في سد هذه الحاجات بما توافر لديه من موارد • اما اهدافه الاجتماعية ، التي ربما يرجع بعضها في اسبابه الى طفولته فكانت مبهمة لا حد لها ولا قيد ، ولم تكن هذه الاهداف لتتخذ شكلا معينا الا حين كان يشعر بأن الوقت قد حان لتحقيقها • وقد سأل نفسه أثر استيلائه على الحكم : « ما هي اهدافنا العاجلة ؟ »[٢١] • كانت مطالب مصر القومية آنذاك تكمن بشكل رئيسي في تحرير منطقة قناة السويس من السيطرة البريطانية ، وسد حاجات البلاد الاقتصادية الملحة بوسائل الاصلاح الزراعي • وبدأ ينكب على هذه المشاكل الاساسية العاجلة ، غير مدرك ان اسلوبه ذاك كان اسلوبا ساذجا بسيطا • وفيما كان يجتاز من قضية الى اخرى ، بدأ يدرك مقدار تعقد مشاكل بلاده ويتعلم كيف يعالجها عن طريق التجربة والخطأ • وساعده ذكاؤه ورغبته في التعلم من تجاربه ، على ارتجال اساليبه ، والتخلي عن كل تجربة فاشلة من اجل تجربة اخرى اضمن • وهكذا ، وبرغم التزامه عقائديا بأهداف ملحة ، فانه لم يكن مصلحا خياليـا يرى في الحل البسيط الواحد مـا يستطيع ان يعيد الامور كلها الى نصابها •

كان عبد الناصر يشبه نوري السعيد من حيث كونه رجل عمل،يعتمد جوهريا في مقياس حكمه على النتائج الملموسة•

---

(٢١) عبد الناصر «فلسفة الثورة» ، ص ٣١ .

ولكن بينما كان نوري مستعدا للرضوخ امام الحقيقة والواقع، فان عبد الناصر لم يكن مستعدا للخضوع وخاصة في الامور التي يلتزم بها عقائديا . وخلاف نوري ايضا كان عبد الناصر يفتخر بكونه زعيما ثوريا ، يرفض التصرف كسياسي محترف .

لم يكن عبد الناصر شديد الايمان بالشؤون العامة وحسب ، بل كان مسلما مؤمنا باسلامه بحيث لم يغفل اركان دينه ولم يهمل واجباته الدينية ، من صلاة وصوم وحج الى مكة المكرمة وغيرها من الشعائر[٢٢] . واما حياته العائلية فيبدو انه كان راضيا بها مسرورا . فان زوجته ، وهي ابنة تاجر سجاد عجمي ، قد كرست حياتها له ولأولادهما ، فكانت تشرف على راحتهم في المنزل المتواضع الذي اختاره عبد الناصر سكنا له ، دون ان تحدوه رغبة بالانغماس في حياة الترف والمادة التي يوفرها الحكم . ولما ادرك استحالة ابقاء المغريات الدنيوية في معزل عن انظار الناس ، حاول اعطاء مثل عن المناعة ضد المكاسب والمعطيات المادية . لقد راقب الفساد بعين ساهرة في صفوف جماعته ، ولكنه كان احيانا يتعمد التغاضي عنهم حتى اذا ما جربوا

---

(٢٢) اثار النزاع مع الاخوان المسلمين الشكوك حول ايمان عبد الناصر بالاسلام . فقد كان يرى ، بوصفه مفكرا عصريا ، ان الدين مرده ضمير الفرد ، اما التعصب الديني فليس من شيمته ، كما رفض الخلط بين القضايا السياسية والدينية ولهذا عارض تدخل الاخوان المسلمين في السياسة ، خاصة بعد محاولة احد الاخوان المسلمين اغتياله سنة ١٩٥٤ .

اثارة المتاعب في وجهه ساعة يختلفون معه هددهم بفضح امرهم،ومن هنا كانت سيطرته المتزايدة على زملائه الضباط.

كان عبد الناصر يتمتع بالمقدرة على فهم اتباعه وتقييمهم ومن ثم اسناد الدور المناسب الى الرجل المناسب ، الا ان حرصه على نفوذه وسلطانه جعله يراقب تصرفاتهم بعين الحذر. وفي مطلع الثورة ، حين كان بعض الضباط — امثال عبد اللطيف البغدادي وزكريا محيي الدين وصلاح سالم وغيرهم — يلعبون دورا مهما في النشاط الثوري ، كان عبد الناصر ينتقد انجازاتهم بشدة ويحاول تأليب الواحد منهم على الآخر ، ليضمن بقاءهم جميعا تحت سيطرته ، حتى اذا رسخت قدمه في الحكم اخذ يعاملهم بالتساوي معاملة التابعين المرؤوسين(٢٣) .

لم يمارس عبد الناصر سياسة التوازن والتعادل هذه حيال رفاقه الضباط فحسب ، بل في تعامله مع الدول الكبرى ايضا . فسياسة الحياد الايجابي التي اتبعها لم تعن موقفا سلبيا من النزاع القائم بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ، بل محاولة لاثارة دولة ضد اخرى،في سبيل انتزاع المساندة المالية والمعنوية من كل دولة . وكان الضباط المصريون آنذاك فئتين بالنسبة لموقف مصر من النزاع بين

---

(٢٣) للاطلاع على تفاصيل كيفية تلاعبه برفاقه الضباط راجع كتاب احمد ابو الفتح «قضية ناصر» (باريس ، ١٩٦٢)، الطبعة العربية بعنوان «جمال عبد الناصر» (بيروت ، دون تاريخ) المجلد ٢ ، ص ٢١٥ والصفحات التالية .

الكتلتين ، فئة تؤيد الكتلة الشرقية واخرى تؤيـد الكتلة الغربية • اما عبد الناصر فكان مرة يؤيد هذه ومرة يؤيـد تلك،وفقا للسياسة التي كان يرى انها تعود على مصر بفائدة اكبر آنذاك • ففي سنة ١٩٥٥ منح علي صبري ، المعروف بعدائه لبريطانيا خاصة وللغرب عامة ، سلطة تخوله السعي للحصول على مساعدة عسكرية سوفياتية،ثم عاد فخوله مثل هذه السلطة سنة ١٩٦٤ وسنة ١٩٦٥، حين رفضت الولايات المتحدة تجديد المساعدة الغذائية • وكان عبد الناصر قـد مال نحو الولايات المتحدة من ١٩٥٩ الى ١٩٦٤ ، واراد ان يفعل الشيء ذاته سنة ١٩٦٦ فعين زكريا محيي الدين رئيسا للوزراء مكان علي صبري • ولم يجر ذلك التغيير لكي يظهر انـه لا يعتمد كلية على المساعدة السوفياتيـة فحسب ، بل للحد أيضا من نفوذ علي صبري الذي كان قد ازداد كثيرا • ولم يكن بالمستطاع طبعا ، ان يستمر على هذا الطريق خدمة لمصر الى اجل غير مسمى ، اذ لا يبعد ان تفقد مصر تأييد الدولتين الكبيرتين معا • الا ان عبد الناصر لعب لعبته تلك ببراعة حتى كانت حرب ١٩٦٧ التي قربت مصر من الاتحاد السوفياتي اكثر مـن أي وقت مضى • بيد ان تأرجح عبد الناصر بين الكتلتين الشرقية والغربية لم يكن يرمي الى الارتباط نهائيا بأي من الجانبين * •

(*) كتبت هذه الملاحظة قبل مدة طويلة من توتر العلائق المصرية السوفياتية بعد وفاة عبد الناصر . والواقع ان الكتاب كان ماثلا للطباعة عندما طلب الرئيس السادات من الحكومة السوفياتية سحب مستشاريها العسكريين من بلاده في ١٨ تموز (يوليو) ١٩٧٢ .

كان عبد الناصر من القدرة بحيث ادخل الراحة الى نفوس الاجانب الذين يتعامل معهم ، حتى ان تكوينه الجسدي خلّف في نفوسهم عنه اجمل انطباع . فقد كان ممشوق القامة وسيم الخلقة قوي البنية ، يتكلم الانجليزية مسترسلا على سجيته رغم انه لم يتقنها حق الاتقان . وكان اذا تحدث فانما يتحدث بصوت هادىء وبنبرة واضحة وهدوء اعصاب عجيب . كان باستطاعته ان يتحدث الساعات الطويلة فلا يحس الزائر بالملل ولا ينطرق الى نفسه السأم ، ذلك أنه كان رائعــا في حديثه ساحرا في أدائه ، يشحن احاديثــه بالطرائف والتعليقات الذكية . ولكن هذا لا يمنعه مــن الانقلاب الى رجل متعال متكبر صعب المراس خشن الملمس، اذا ما واجه اهانة او شك بمؤامرة تحاك ، وليست قصتــه مع «دالس» الا مثالا ، وذلك عندما سحب «دالس» فجأة المساعدة المالية لسد اسوان العالي ، او قصته مع البعثيين في معارضتهم لزعامته العربية(٢٤) .

اما خطبه في الشعب فقد تركت عنه انطباعا مختلفا كل الاختلاف ، كان يرفع صوته وينفعل في ادائه حتى الغضب، وكان لا يتورع عن حشو خطبــه بالعنيف من العبــارات وبتوجيه القارس من الكلام الى خصومه . لم تجتــذب خطبــه بادىء الامر السامع ، حتى كانت صفقة الاسلحة

---

(٢٤) للاطلاع على اقوال عبد الناصر القاسية الى الزعماء البعثيين ، راجع « محاضر جلسات مبــاحثات الوحــدة » (القاهرة ، ١٩٦٣) .

الروسيـــة حين انغمس في الخطابـــة ، ويا سرعة ما برع في الخطب المنمقة الحافلة بالمصطلحات العامية والملاحظـــات الساخرة يصبها على خصومه • كان يتعمد ان يصوغ خطبه باسلوب يحرك الجماهير التي كانت تستجيب لها بحماســة هائلة مقرونا في الغالب بالتصفيق المدوي والهتاف الراعد ، رغم ان خطبه في معظمها كانت طويلة مكرورة•ولكن الامر اختلف منذ عام ١٩٦٧ فأخذ يقصر خطبه ويضفي عليهـــا الاتزان ويركز على الموضوع ليصيب الهدف المقصود دونما لف او دوران •

كان عبد الناصر السياسي العسكري الوحيد بين الضباط الثلاثة الذين تحدثنا عنهم ، أي عزيز علي المصري ونوري السعيد وعبد الناصر نفسه ، الذي كان له تأثير كبير في مستمعيه وقدرة على تحريكهم ، رغم ان نظامه كان يعتمد في الاساس على التأييد العسكري • أما التزاماته العقائديـــة فتلخص مطالب شعبية قديمة استطاع تحقيق بعضها بالتحدي والمثابرة والعمل المضني ، رغم الظروف المعاكسة • وارتفعت مكانته في خيال الشعب اثر النجاح الذي احرزه برفضـــه المساومة على المطالب الوطنية ، كما حدث في ازمة السويس سنة ١٩٥٦ • وبلغ من ثقة الشعب بمقدرته على تحويـــل الهزيمة الى نصر أن هب الشعب كله يطالب عبدالناصر بالبقاء في منصبه عندما قرر اعتزال الحكم سنة ١٩٦٧ • وهذه ثقة شعبية قلما تمتع بمثلها زعيم آخر في العالم العربي •

صحيح ان عزيز علي كان يتمتع بشعبية بين الضبـــاط ، ولكنه لم يستغل الفرص التي كان ممكنا ان توصله الـــى

ارفع المراكز السياسية ، لأنه رفض اخضاع المثل العليا للواقع • وقد وصل نوري السعيد الذي اشتهر بالحذر والدهاء الى اعلى مراكز السلطة ، الا انه كزعيم ، حصر صلاته بالطبقات العسكرية والمدنية العليا • اما عبد الناصر الزعيم الثوري ، فقد سعى الى كسب تأييد صغار الضباط والزعماء الشبان ، الراغبين باجراء تغييرات جذرية ، اذ كان يرتاب بالضباط الكبار وبالبيروقراطية ، التي تؤيد بقاء الاوضاع على حالها • وقد ظل محتفظا بسيطرته على الجماعات العسكرية والمدنية عبر هؤلاء الشبان ، حتى ابان ذروة قوته •

كان عبد الناصر يشبه عزيز علي في تمتعه ببعض عناصر المغامرة • فبعد تسلمه زمام الحكم ، ابدى استعدادا للاقدام على مجازفات كبيرة وصفها البعض بأنها مجازفات تجاوزت الوعي والحكمة[٢٥] بيد انه لم يكن يجهل حدود قوته • فقبل ان يستولي على الحكم ، لم يكن ليستنكف حتى اللجوء الى الاغتيال ، لأن القادة الثوريين كانوا كثيرا ما يبررون ضرورة سحق الخصوم بالعنف ، في سبيل تحقيق الاهداف المثالية او العقائدية[٢٦] • ومع ذلك كان لدى عبد الناصر من الادراك ما يفي لتقدير قوة خصومه ، كما حدث في صراعه مع محمد نجيب ، حين اذعن له موقتا •

---

(٢٥) راجع «قدر مصر» لمحمد نجيب ، ص ٢١٦ .
(٢٦) راجع «فلسفة الثورة» لعبد الناصر ، ص ٣٣ ـ ٣٥، و «ناصر» لأبي الفتح ص ٢١٥ ـ ١٧ .

اما عزيز علي فقد كان يجهل شكل الاحداث المقبلة ، وكثيرا ما اقحم نفسه في اوضاع بغيضة ، بينما كان نوري يحذر دائما المغامرة والتغييرات الجذرية ، فيقف موقفا معتدلا ، الا انه من حيث المبدأ لم يكن ضد التطور الاجتماعي •

وامتاز عبد الناصر عن جميع الزعماء العرب المعاصرين في عدم تهربه من تحمل كامل المسؤولية عن افعاله • فاذا فشلت التجارب ، اعترف بالفشل دون اي تردد • وكان دائما على استعداد للقيام بمحاولة اخرى ، كما تشهد بذلك تجاربه مع الوحدة السورية المصرية ومع التنظيمات السياسية التي انشأها لتحل محل الاحزاب السياسية • وفي الازمات، كثيرا ما دفعته عاطفته الى اتخاذ موقف معاند والى متابعة الصراع بأية وسيلة • ويبدو انه كان يشعر بأن قدره المكتوب وايمانه الشديد بقضية بلاده يستحقان النصر الحاسم • لقد اقر عبد الناصر بالفشل في اكثر من مناسبة ، رغم ان فشله كان يكمن في طبيعة المجتمع الذي حاول اصلاحه وفي عجزه الشخصي على السواء •

ومع ذلك فلا يجب ان نبحث عن تأثير عبد الناصر القيادي في المشاريع التي انجزها والتي ما زال بعضها غير منجز ، او في الاساليب البارعة التي اتبعها لتحقيق تلك المشاريع (وقد اشترك زعماء آخرون في بعضها) ، بل في شيء اعمق اثّر في حياة ابناء بلده وفي نظرتهم الى الامور • كثيرا ما اتهم المصريون بالبلادة وعدم الكفاءة والتجرد من الشعور بالمسؤولية ، رغم المثابرة والعمل المضني • وحاول عبد الناصر اظهار مدى خطأ هذه التهم واثبات قدرة مواطنيه

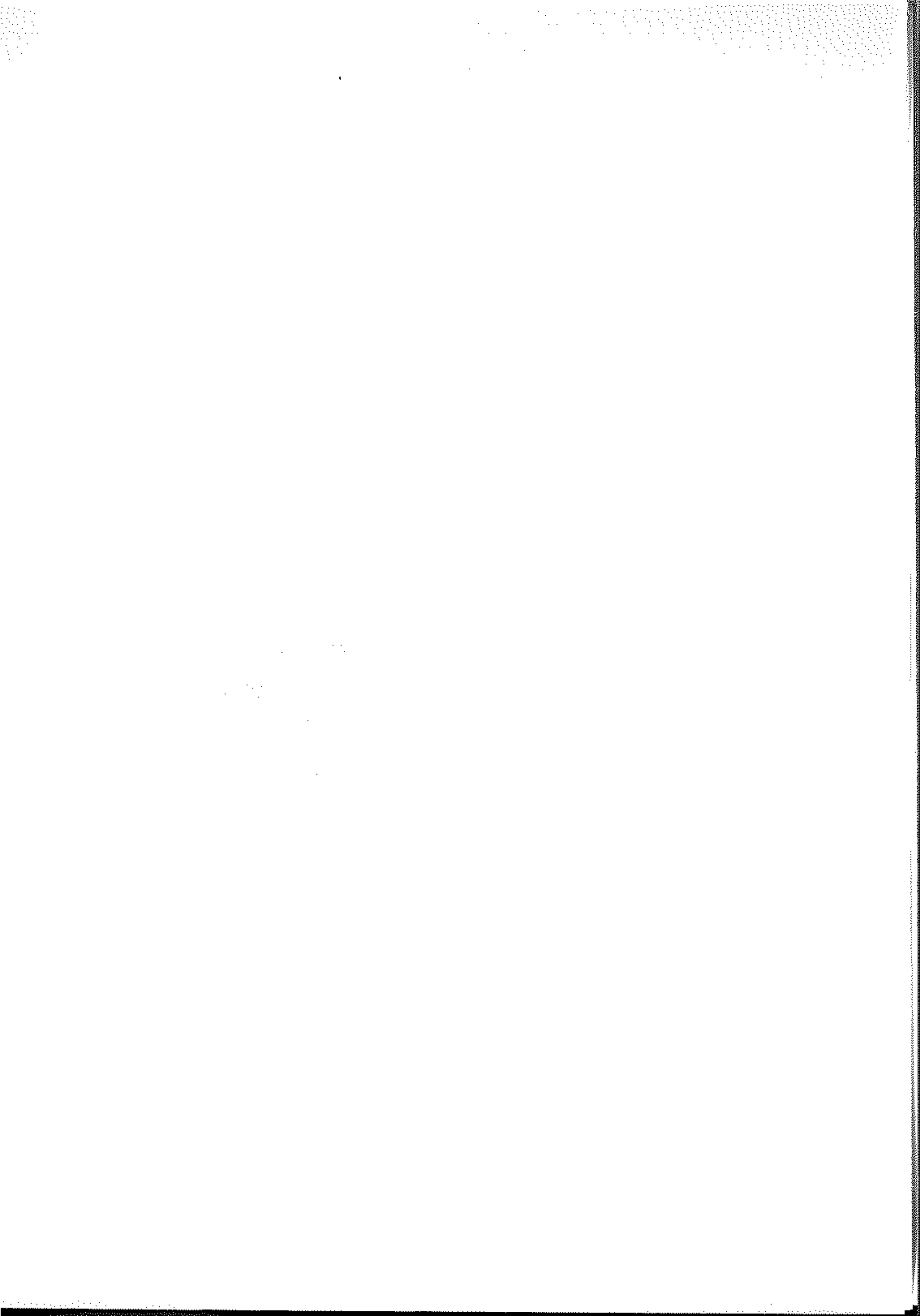
على انجاز شتى الاعمال بالقدر الذي يستطيعه غيرهم •

وتعتبر ادارة قناة السويس ، بعد تأميمها ، مثالا اثبت ان المصريين يستطيعون تعلم المسائل التقنية وممارستها • ويروى ان شوان لاي قال مرة لعبد الناصر « ليست الناحية المالية هي الناحية المهمة الكامنة وراء ادارة القناة ، بل المهم في الموضوع ان نثبت لهم (للغرب) أن في مقدورنا ان نفعل ما يفعلون » • وفي الواقع كانت منجزات عبد الناصر رمزا للتحدي والافتخار واحترام النفس • ولقد حاول في ما حاول بث شعور الاخلاص للوطن واحترام السلطة لا الخوف منها ، وهو شعور افتقده المصريون عبر قرون رزحوا فيها تحت وطأة الاذلال والاستعباد • ولم يكتب احد وصفا لهذا الشعور الجديد ابلغ من وصف السير والترسكوت ، حيث يقول :

« هناك يتنفس الانسان ذو الروح الميتة

الذي لم يقل أبدا لنفسه :

هذا موطني أنا ، هذا مسقط رأسي• »



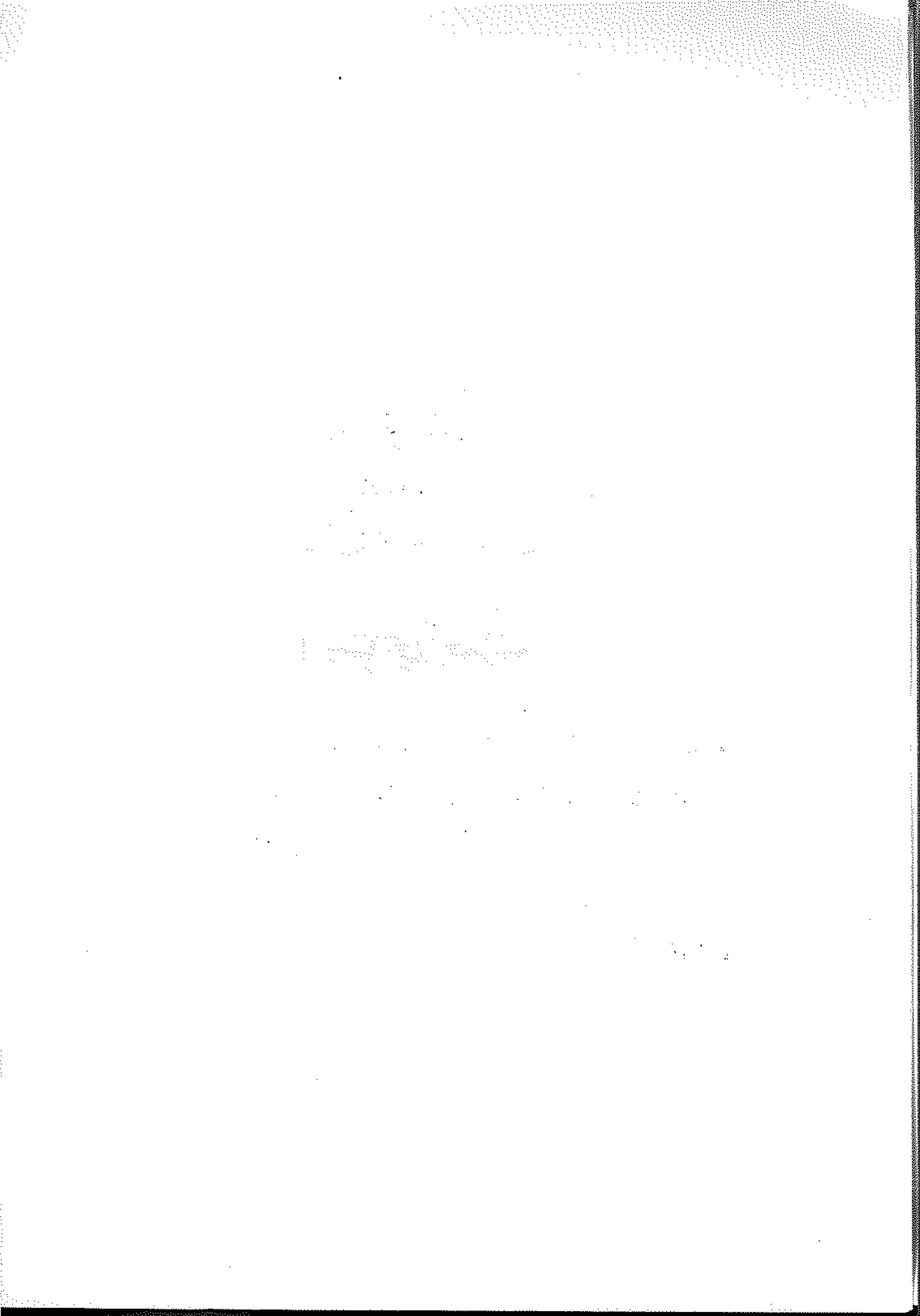
الباب الثاني

رجل المهارات

السياسي المحترف

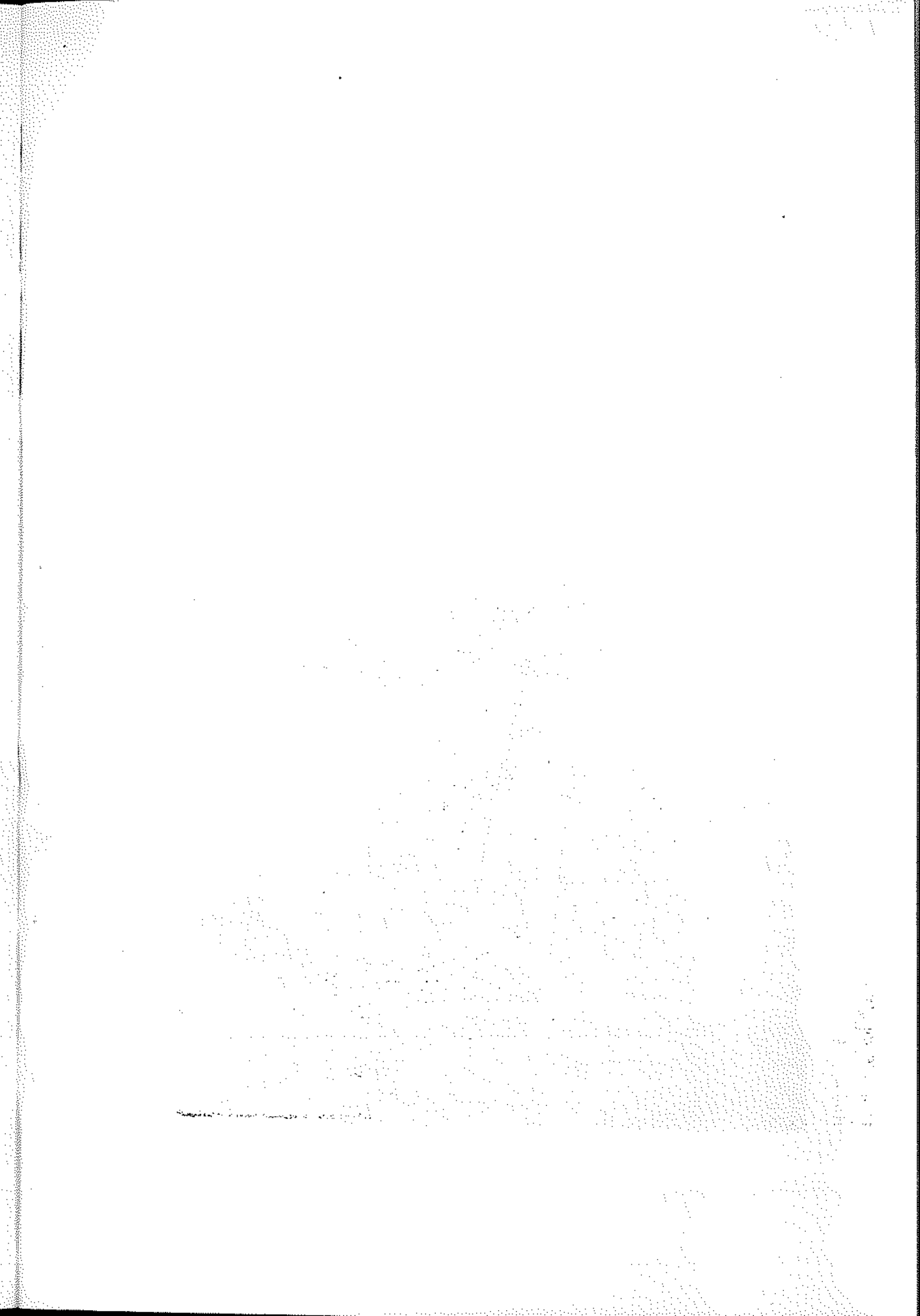
سأل احد تلاميذ كونفوشيوس الساعي عن حاله
فأجاب « يحاول سيدي الاقلال من اخطـائه
الا انـه لم ينجح بعـد »

كونفوشيوس





الحاج محمد أمين الحسيني



الفصل الخامس

المدرسة العقائدية التقليدية المتطرفة

الحاج امين الحسيني

« تخفي الهجرة الى فلسطين وراءها امل اليهود الذي لم يزايلهم أبدا ، وهو السيطرة على العالم بكامله عبر هـذا المركز الاستراتيجي المهم، فلسطين» (من رسالة الى الحكومة الهنغارية سنة ١٩٤٣) •

الحاج امين الحسيني (المفتي)

واجه السياسيون المحترفون، نظير السياسيين العسكريين، نفس مشاكل المجتمع الذي يمر في تغييرات اجتماعية سريعة• وبينما ولج القادة العسكريون المعترك السياسي عن طريق السيف ، في معظم الحالات ، وسعوا الى تحقيق الاصلاحات بالاساليب الثورية ، فان السياسيين المحترفين مارسوا اللعبة السياسية بالاساليب السلمية ، والقليل منهم استطـاعوا الوصول الى الحكم والبقاء فيه بالتعاون مع العسكريين •

سنتناول في هذا البحث خمسة امثلة عن السياسيـين المحترفين ، يمثل كل منهم مدرسة فكرية مختلفة • واول هؤلاء السياسي المحترف الذي حاول تحقيق مطالب المجتمع العربي بالاساليب التقليدية ، هو الحاج امـين الحسيني ،

الزعيم الذي نشأ في بيئة محافظة واعتاد اشكالا من العمل السياسي التقليدي ، يعتبر مثلا متطرفا من المدرسة الفكرية التقليديـة • والنوع الثاني هو السياسي المحترف الذي مارس اساليب معتدله في محاولته تلبية حاجات مجتمع عربي تقليدي • والملك فيصل آل سعود ، المطلع على الاساليب الجديدة ، يمثل هذه المدرسة المعتدلة من الفكر التقليدي• والنوع الثالث هو السياسي المحترف الذي تلقى تدريبا غربيا واستخدم الاساليب العصرية لمحاولة تحقيق مطالب المجتمع العربي دون التخلي عن هويته الحضارية • ويعتبر الحبيب بورقيبة ، الذي تتوفـر لديه المهارات العصريـة والاساليب المرنة ، ممثلا لهذا الاسلوب الواقعي • ويضم النوعان الرابع والخامس سياسيين محترفين نشأوا اما تحت تأثير فكر اجتماعي معتدل واما فكر متطرف ، وسعوا الى تحقيق اهداف وفق عقيدة معينة • ويمثل كامل الجادرجي وكمال جنبلاط ، اللذان استخدما في الواقع اساليب تقليدية لدخول المعترك السياسي ، مدرسة عقائدية معتدلة هـي الديمقراطية الاجتماعية • اما خالد بكداش ، الذي يحاول الوصول الى الحكم عن طريق ثورة بروليتـارية ، فيمثل مدرسة عقائدية متطرفة ، هي الشيوعية •

يمثل الحاج امين الحسيني ، بصفته سياسيا محترفا ، مدرسة فكرية اختار المنتمون اليها القيام بالعمل السياسي وفقا للاساليب التقليدية • والحاج امين يملك تقريبا جميع المؤهلات المطلوبة ، شخصية وغير شخصية ، التي تتيح للزعيـم التمتع بقوة ومكانة تضمنان له الحصول على تأييد

بلده • ومع ذلك فان نمط القيادة الذي قدمه الحاج امين الى ابناء قومه ، عجز عن اشباع رغباتهم وتحقيق آمالهم ، رغم براعته في الاساليب السياسية واستمراره في العمل السياسي مدة تجاوزت ربع قرن •

لماذا عجز الحاج امين عن تحقيق اهدافه الاساسية ، ؟ وهل خان ثقة الشعب به ، ام ان الشعب اخفق في تأدية واجباته ؟ هل كان غير قادر على تأمين القيادة التي تتيح لشعبه التحدي للتحديات الجديدة ؟ ولكي نفهم دور القيادة التقليدية في اطارها الصحيح يتحتم علينا التدقيق في هذه الاسئلة وغيرها في ضوء المقابلة بين نوعين من المجتمعات، يملك كل منهما اشكالا مختلفة من المسلك السياسي •

ولد السيد امين الحسيني في القدس سنة ١٨٩٧ في احدى عائلات فلسطين الكبيرة[١] • وهو سليل رجل عربي يدعى محمد البدري ، كان قد اقام في القدس قبل حوالي ٦٠٠ سنة • وفي سنة ٧٨٢ هجرية (١٣٨٠ م) انتقل البدري الى القدس من وادي النسور ، وهي بلدة تقع جنوبي غربي القدس على طريق يافا • وكان اجداده قد عاشوا مئتي سنة تقريبا في وادي النسور ، بعد ان هاجر احدهم ، محمد بن

---

(١) يقول بعض الكتاب انه ولد سنة ١٨٩٣ (راجع بيرلمان «مفتي القدس» (لندن ، ١٩٤٧) ص ١٠) ، قارن ذلك مع «صفحات مضيئة» في مجلة «فلسطين» ، المجلد ٧ (نيسان (ابريل) ١٩٦٧) ص ١٠ . وقد اكد المفتي ، في رسالة الى المؤلف انه ولد سنة ١٨٩٧ .

بدر ، من الحجاز في القرن الثاني عشر الميلادي[٢] • وظل احد افراد هذه العائلة،منذ القرن السابع عشر ودون انقطاع تقريبا ، يتولى منصب الافتاء[٣] • وقبل ان يصبح الحاج امين الحسيني مفتيا سنة ١٩٢١ كان ثلاثة من افراد عائلته قد تولوا هذا المنصب الرفيع وهم : جده مصطفى الحسيني،

---

(٢) اورد الحاج امين الحسيني ، في رسالة الى المؤلف (بتاريخ ١١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧١ المعلومات التالية عن عائلته : كان محمد البدري الذي استوطن القدس في ٧٨٢ هـ (١٣٨٠ م) من احفاد الحسين ، ثاني ابناء الخليفة علي بن ابي طالب (٦٦١ م.) ان اجداد محمد البدري المباشرين من جيله الى الخليفة علي ، هم كما يلي : ابو الحسن علي بن شهاب الدين داود بن عبد الحفيظ بن محمد بن بدر (الذي استوطن وادي النسور) بن يوسف بن بدران بن يعقوب بن مطر بن زكي الدين سالم بن محمد بن محمد بن زيد بن حسين بن سيد عريض المرتضى الاكبر عوض بن زيد (المعروف بالشهيد) بن علي زين العابدين بن الحسين ثاني ابناء الخليفة علي بن ابي طالب (٦٦١ م) وزوجته فاطمة ، ابنة النبي محمد . ويمكن الاطلاع على هذا النسب ايضا لدى عبد الرحمن الجبرتي في «عجائب الآثار في التراجم والآثار» (القاهرة ، ١٣٢٢ هـ — ١٩٠٤ م) المجلد الاول ، ص ٣٧٤ — ٧٥ .

(٣) في القرن الثامن عشر ، توفي المفتي من عائلة الحسيني، دون ان يترك خلفا من الذكور . وانتقل المنصب اولا الى اسرة العلمي ، ثم الى اسرة جار الله، الا ان المحافظة على نسب الاسياد ولقب الحسيني جاءت عن طريق الاشخاص المتحدرين من بنات اسرة الحسيني ، رغم انهن تزوجن رجالا من عائلات اخرى . للاطلاع على تفاصيل انقطاع الذكور في اسرة الحسيني ، راجع ي. بوراث «الحاج امين الحسيني مفتي القدس» (دراسات آسيوية وافريقية) ، المجلد » (١٩٧١) ، ص ١٢٣ — ٢٤ .

ووالده طاهر الحسيني ، وشقيقه الاكبر كامل الحسيني • ورغم ان مركز المفتي لم يكن يزود صاحبه بنفوذ سياسي،الا ان بعض افراد عائلة الحسيني تمكنوا من ارتقاء السلم الاجتماعي والاثراء مما اتاح لهم الحصول على مراكز عالية في ظل الحكم العثماني • وهكذا ولد امين الحسيني في عائلة تتمتع بالثراء والمكانة الاجتماعية والنفوذ الديني والسياسي ، وهي صفات تضمن لكل من تجتذبه السياسة دورا قياديا مهما •

الا ان السيد امين كانت لديه ميزات وصفات شخصية اخرى أتاحت له ان يزيد في رفع منزلته ويصبح اقوى زعيم في بلده • فقد ظهرت عليه ، منذ صغره ، مخايل ذكاء فطري ونشاط ملحوظ وتصرف بارع • ولم يكن بطبيعته ميالا الى صومعة العلم والانزواء ، ولذلك كانت مدة دراسته قصيرة وغير عميقة•فبعد ان اتم دراسته الابتدائية في مدرسة بلدته (بما في ذلك دراسة اللغة الفرنسية في مدرسة فرنسية) سافر الى القاهرة سنة ١٩١٢ لتلقي العلم في جامعة الازهر• وتردد على منزل السيد رشيد رضا ، المصلح الاسلامي الكبير والزعيم المعروف في الاوساط الدينية ، الذي بايحائه وتوجيهه جعله يقدر دور الدين في السياسة(٤) • وفي سنة

---

(٤) تردد امين الحسيني ايضا على مدرسة الارشاد والدراسات الدينية ، التي اسسها السيد رشيد رضا في القاهرة قبل الحرب العالمية الاولى (راجع تشارلي آدمز « الاسلام والنزعات العصرية في مصر » (لندن ، ١٩٣٢) ص ١٩٧ ـ ٩٨) . وللاطلاع على تعاليم رشيد رضا راجع كتابي «الاتجاهات السياسية في العالم العربي» (الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، ١٩٧٢) ص ٧٨ ـ ٨٢ .

١٩١٣ سافر برفقة والدته الى مكة لتأدية فريضة الحج وهو لما يزل طالبا ، وعاد الى الى القدس قبيل نشوب الحرب العالمية الاولى • وبدل ان يكمل دراسته في القاهرة ، سافر الى اسطنبول والتحق بالكلية العسكرية ، وخدم خلال الحرب في الجيش العثماني ، برتبة ضابط في ازمير وبعض المراكز العسكرية الاخرى على البحر الاسود • وقد فتحت هذه الاختبارات عينيه على حقائق الحياة وعلمته احتمال الشدائد والنجاة من المخاطر • كما تعلم كيف ينظم جماعات عاملة من الاتباع وكيف يقود الرجال •

انهمك امين الحسيني الشاب المتململ ، في النشاط السياسي فور عودته الى القدس سنة ١٩١٧ • واشترك مع غيره من الشباب ، خلال فترة ١٩١٩ ــ ١٩٢٠ ، في جمعيات وطنية وثقافية • وعلم مدة قصيرة في كلية روضة المعارف في القدس•واشترك في المظاهرات ابان زيارة لجنة كنغكرين الى فلسطين سنة ١٩١٩ ، فاعتقلته الشرطة بصفته احد المحرضين • وكان دوره ، في اول ثورة ضد الانتداب البريطاني على فلسطين وضد مساندة بريطانيا للصهيونية في ٤ نيسان (ابريل) ١٩٢٠ ، ذا مغزى اكبر • لقد استمرت الانتفاضة الثورية اربعة ايام واسفرت عن ازهاق الارواح وتدمير الممتلكات في الاحياء اليهودية في القدس • وتشكلت محكمة تحقيق عسكرية بريطانية للنظر في الحادثة ، وتركزت القضية على محاكمة الرجلين ، اللذين اعتبرا مسؤولين عن الاضطرابات ، عارف العارف ، المنتمي الى عائلة مرموقة والذي قاد بنفسه المهاجمين ، وامين الحسيني الذي حرض

بخطبه ومقالاته في الصحف على العنف ، الا ان الشابين هربا من البلاد وصدر عليهما الحكم غيابيا بالسجن مدة عشر سنين •

قضى السيد امين الحسيني العامين التاليين في شرقي الاردن وفي سوريا • وكان العديد من الفلسطينيين هناك يؤيدون نظام الحكم العربي في دمشق (في ظل الملك فيصل) لأنهم كانوا يعتبرون الاراضي الواقعة على ضفتي نهر الاردن القسم الجنوبي من سوريا • وكان امين الحسيني يرجو ، شأنه شأن غيره من الزعماء الفلسطينيين ، انقاذ فلسطين من المطالب الصهيونية اذا هي اصبحت تحت سلطة فيصل • الا ان سقوط حكومة فيصل في تموز (يوليو) ١٩٢٠ ، الذي اسفر عن احتلال فرنسا لسوريا كان ضربة للوطنيين الفلسطينيين تركهم يجابهون الضغط الصهيوني وحدهم • من هنا كان هاجس الحاج امين في الحصول على المساندة الخارجية لحقوق العرب في فلسطين وهو هاجس ظل يراوده طوال حياته • فقد صرف اكثر من سنة يبذل نشاطا وطنيا في شرقي الاردن ، الذي اصبح موئل عدد من الوطنيين العرب الذين تركوا دمشق بعد الاحتلال الفرنسي لسوريا • وفي سنة ١٩٢٠ حين وصل السير هربرت صمويل ، وهو اول مندوب سام بريطاني في فلسطين ، صدر عفو عن السجناء الذين كانت المحكمة العسكرية قد حكمت عليهم • ويبدو ان السير هربرت ، وهو مندوب سام يهودي ، وجد من الحكمة ان يبدأ عهده في حكم بلد عربي بمبادرة صداقة وسلام حيال السكان العرب • فزار في وقت لاحق من العام

ذاته شرقي الاردن وصدر على اثر الزيارة عفو خاص عن امين الحسيني (وعارف العارف أيضا)•وفي مطلع سنة ١٩٢١ عاد الحاج امين الىفلسطين لاستئناف نشاطه السياسي ولكن بأساليب ابرع •

بعد عام من عودته من المنفى ، عين امين الحسيني ، في مركزين اتاحا له التمرس بدور على جانب من الاهمية في سياسة بلاده أحدهما كان منصب مفتي القدس والثاني رئيس المجلس الاسلامي الاعلى • ولما كانت مدة المركز الاول مدى الحياة ومدة المركز الثاني لا تنقص عن مدة المركز الاول تقريبا ، فلا بد من توضيح الطريقة التي تم بها تعيينه في هذين المنصبين والنفوذ الذي مارسه من خلالهما •

كانت فلسطين ، قبل الحرب العالمية الاولى ، جزءا من الامبراطورية العثمانية ، وكان جهازها الاداري الداخلي خاضعا عمليا لسيطرة العائلات الارستقراطية فيها ، رغم خضوعه نظريا لاشراف الحكومة المركزية في اسطنبول • وكان اهم منصبين منصب رئيس البلدية ومنصب مفتي القدس • وجرت العادة ان تتولى احدى العائلات المركز الاول بينما تتولى عائلة اخرى المركز الآخر • الا ان عائلة الحسيني تولت المنصبين معا قبيل الحرب العالمية الاولى • وبعد الاحتلال البريطاني ، اقالت السلطات العسكرية رئيس البلدية الحسيني وعينت مكانه رجلا من عائلة النشاشيبي • ويعزى احد الاسباب في ذلك التغيير الى ان السلطات كانت راضية عن هذه العائلة ، فضلا عن الرغبة بالمحافظة على

التوازن بين العائلتين المتنافستين[٥] •

توفي السيد كامل الحسيني،المفتي الاكبر ورئيس محكمة الاستئناف ، في ٢١ آذار (مارس) ١٩٢١ • وأثارت وفاته مشكلة اختيار خلف لكل من المركزين • وجرت العادة ، في العهـد العثماني ، ان يختار عدد من العلمـاء ، يمثلون مختلف المقاطعات في البلاد ، ثلاثة رجال تنتقي السلطـة احدهم لمنصب المفتي • اما بالنسبة لمركز رئيس محكمـة الاستئناف ، فقد اختار البريطانيون مؤقتـا الشيخ خليل الخالدي، الذي ينتمي الى عائلة اخرى ذات نفوذ ، من اجل الفصل بين منصبي القاضي والمفتي •

ورشح الحاج امين الحسيني ، الذي كانت تتوافر لديه المؤهلات المطلوبة (درس في جامعة الازهر وادى فريضة الحج ، الخ) ، نفسه لمنصب الافتاء • ولكن عائلة النشاشيبي التي عارضت ترشيحه ، ضمنت ترشيح ثلاثـة من افراد

---

(٥) اصطدم رئيس البلدية الحسيني مع السلطات البريطانية، بينما ساعدها المفتي الحسيني ـ كامل الحسيني ـ كثيرا بدعوته مواطنيه الى التعاون مع السلطات لاجل المحافظة على الامن والنظام . وكوفيء على ذلـك بتعيينه رئيسـا لمحكمة الاستئناف الشرعية ، الامر الذي جعله يجمع بـين منصبي القاضي والمفتي ، وهما مركزان عادة منفصلان . وبوصفـه كذلك رئيسا للجنة الاوقاف اصبح يتمتع بنفوذ في البلاد اكبر من نفوذ اي زعيم ديني آخر . واقتداء بمصر ، حيث المفتي كان واحدا للبلاد كلها فقد دعي كامل الحسيني المفتي الاكبر . ويعني ذلك ان مركز مفتي القدس اعلى من بقية مراكز الافتاء في البـلاد .

العائلة ، وجاء اسم الحاج امين رابعا في قائمة المرشحين . ولكيلا يثير تعيين مرشح من آل النشاشيبي استياء في صفوف عائلة الحسيني فقد اقنعت السلطات احد المرشحين الثلاثة بالانسحاب ليفسح المجال امام الحاج امين ويصبح المرشح الثالث . وهكذا كان ، واختير الحاج امين مفتيا للقدس[٦] . وبعد ذلك اصبح اتباع الحاج امين ، وجميع صحف فلسطين والبلاد العربية الاخرى ، يدعونه اما مفتي فلسطين او المفتي الاكبر ، وسنقتصر على الاشارة اليه «بالمفتي»[٧] .

لم يكن هذا المركز وحده هو الذي آتاح للحاج امين ان يصبح زعيما سياسيا . فقد كان انتخابه اولا لرئاسة المجلس الاسلامي الاعلى سنة ١٩٢٢ ، ثم لرئاسة الهيئة العربية العليا

---

(٦) للاطلاع على الآراء المتناقضة حول تعيين الحاج امين مفتيا ، راجع بوراث «الحاج امين الحسيني» ص ١٢٨ — ٣٧؛ رايلي خضوري «وجهة نظر جاتام هاوس ودراسات اخرى عن الشرق الاوسط » (لندن ، ١٩٧٠) الفصل ٤ .

(٧) لم يكن لقب «المفتي الاكبر» ، الذي اطلق على الحاج امين ، كما اشرنا ، الاول من نوعه ، لأن شقيقه الاكبر كامل حمله قبله . الا ان السلطات البريطانية ، خاصة بعد ان غادر الحاج امين فلسطين ، كانت تدعوه مفتي القدس . ويرجح انها ارادت ان تذكر العرب بأنه ليس متحدثا باسم البلاد بكاملها . صحيح انه مفتيها المحلي ، ولكن كان هناك ما يبرر لمفتي القدس ان يحمل لقب مفتي فلسطين الاكبر . فقد كان يجري اختياره من بين ثلاثة مرشحين انتقاهم كبار علماء فلسطين ، بالاضافة الى قيامه بدور رئيسي في النشاط الاسلامي والسياسي .

سنة ١٩٣٦ ، لا يقل اهمية عن مركز المفتي • وكان المجلس الاسلامي الاعلى ، الذي انشىء سنة ١٩٢١ ، يشرف على الاوقاف وعلى المحاكم الشرعيه ، لأن هذه شؤون اسلامية صرف ، وكانت تعتبر خارج صلاحية سلطات الانتداب البريطاني • وانتخب الحاج امين ، الذي اصبح يحتل مركزا رفيعا بين العلماء، رئيسا لهده المؤسسة الجديدة سنة ١٩٢٢، رغم معارضة الزعماء المنافسين له ، خاصة انصار عائلة النشاشيبي • وكان يشرف ، بصفته الجديدة هذه ، على اموال الاوقاف ، وعلى تعيين قضاة الشرع ، وعلى اموال اليتامى • ووضعت هذه المصادر اكثر من خمسين الف جنيه في السنة تحت تصرفه (ومبلغا اكبر بكثير في بعض السنين) ،الى ان غادر البلاد سنة ١٩٣٧•وليس من المستبعد ان يكون بعض هذه الاموال قد استخدم لاغراض سياسية• واما من حيث مكانة المركزين الدينيين فقد تجاوزت حدود الدوائر الدينية ، لأن التمييز بين الدين والسياسة في البلاد الاسلامية غير وارد في كثير من الاحيان[٨] •

لم تكن سيطرة المفتي على الهيئة العربية العليا ، التي مارست الزعامة العليا على الاحزاب السياسية العربية ، اقل اهمية من ذلك • فقد نظمت في مطلع العشرينات بشكل

---

(٨) للاطلاع على كيان المجلس الاسلامي الاعلى وعمله ، راجع «تقرير لجنة فلسطين الملكية» (تقرير اللورد بيل) (لندن، ١٩٣٧) الامر رقم ٥٤٩٧ ، ص ١٧٤ — ٨١ ، و « الحاج امين الحسيني» لبوراث ، ص ١٣٧ والصفحات التالية .

هيئة تنفيذية لأجل تنسيق النشاط السياسي العربي•وترأسها اولا موسى كاظم الحسيني ، وهو عضو كبير في اسرة الحسيني (شغل زمنا منصب رئيس بلدية القدس) ، ثم تولى المفتي رئاستها سنة ١٩٣٦ • وتدريجا فرض المفتي سلطته على المنظمات العربية الكبيرة واصبح اقوى زعيم في البلاد • وبلغ من قوته ان لجنة بيل وصفت جهاز المفتي السياسي في تقريرها عن الاوضاع الداخلية في البلاد سنة ١٩٣٧ ، بأنه حكومة ضمن حكومة[٩] • وظل المفتي طوال خمس عشرة سنة الى ان غادر البلاد سنة ١٩٣٧ ، وهو يسعى الى اهدافه بجميع الوسائل المتوافرة لديه[١٠] •

اشترك الحاج امين قبل مغادرته وطنه سنة ١٩٣٧ ، في ثلاث انتفاضات شعبية ، الاولى في ١٩٢٠ والثانية ١٩٢٩ والثالثة ١٩٣٦ • ففي الاولى ، اتهمته السلطات ، كما اشرنا

---

(٩) «تقرير لجنة فلسطين الملكية» ، ص ١٨١ •

(١٠) بين المراجع العربية عن حياة المفتي ونشاطه ، حتى مغادرته فلسطين سنة ١٩٣٦ ، راجع « ما يجب ان يعرفه كل عربي عن جهاد الفلسطينيين وثبات زعامتهم الوطنية» ، مجلة « فلسطين »، المجلد ٤ (آذار (مارس)، ١٩٦٤) ص ٦-١٢، و «السيد امين الحسيني انتخب ولم يعين تعينا» ، المرجع ذاته ، المجلد ٤ (آب ايلول ، (اغسطس ـ سبتمبر) ١٩٦٤) ص ٢٢ ـ ٢٦ ، و «صفحات مضيئة من حياة السيد محمد امين الحسيني» المرجع ذاته ، المجلد ٣ ، (نيسان ، (ابريل) ، ١٩٦٧) ص ١٠ ـ ١٥ . راجع ايضا «حول الحركة العربية» لمحمد عزت دروزة (صيدا ١٩٥١) ، المجلد ٣ ، في اماكن عديدة منه •

سابقا، بالتحريض على العنف.وفي الثانية اتهم بأنه مسؤول جزئيا عن الاضطرابات . اما في الثالثة فقد اتهم بالمسؤولية الكاملة عن الاضطرابات . وقد وقف موقفا عدائيا علنيا في اضطرابات ١٩٣٦ ـــ ٣٨ ، التي اتخذت اولا شكل اضراب عام ثم شكل ثورة واسعة ، مما دفع السلطات البريطانيــة الى اصدار امر باعتقاله ، فلجأ الى لبنــان في ١٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٧ ، بعد ان قضى حوالى ثلاثة شهور في حمى المسجد الاقصى[11] .

ينقسم نشاط المفتي السياسي ، رغم انه لم يتوقف ، الى ثلاث مراحل . وقد بدأت المرحلة الاولى عندما انضم الى الجيش العثماني وانتهت برحيله المفاجىء عن فلسطين سنة ١٩٣٧ . وكان نشاطه يستهدف خلال هذه المرحلة تعبئــة القوى في بلده لتحقيق امانيها الوطنية.وبدأت المرحلة الثانية بهجرته سنة ١٩٣٧ وانتهت في ١٩٤٦ . وتميزت هذه المرحلة بمحاولات لتحقيق اماني وطنه السياسية عن طريق تعبئــة التأييد الخارجي . وبدأت المرحلة الثالثة بعودته الى العالم العربي سنة ١٩٤٦ لاستئناف الكفاح ضد اعدائه . ولــم

---

(١١) وردت رواية لجوء المفتي الى حمى المسجد الاقصى ثم مغادرته البلاد بالخروج سرا من خلف اسوار المسجد في مذكراته التي تبدأ بهذه الحادثة . وقد نشرت هذه المذكرات اولا في «اخبار اليوم» (القاهرة) في ١٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٧ ــ ٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٨ ، واعيد طبعها مــع اضافات في مجلة «فلسطين» المجلد ٧ (ايار ، (مايو) ، ١٩٦٧) والاعداد التالية. وسنشير اليها بعد الآن بـ «مذكرات المفتي» .

تنته هذه المرحلة بعد ، رغم ان زعامة بلاده انتقلت تدريجا الى ايد اخرى .

واصل المفتي ، منذ مغادرته فلسطين سنة ١٩٣٧ ، العمل لاجل تحقيق اهدافه بأساليب مختلفة . فقد استخدم اولا تأييد بلاد عربية اخرى وذلك بالربط بين امانيها الوطنية واماني فلسطين . ثم استخدم الدبلوماسية السرية والقتال خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها . فبعد وصوله الى لبنان استمر في تشجيع اتباعه على مواصلة الكفاح ، الى ان نشبت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ . وخلال الحرب حين عززت بريطانيا مركزها في المنطقة بقوات ومعدات كبيرة واصبحت البلاد تعيش في ظل الاحكام العرفية القاسية ، قرر الزعماء الفلسطينيون ايقاف نشاطهم حتى نهاية الحرب[١٢] .

ووجد المفتي في الحرب مجالا جديدا يمكن استغلاله لمصلحة الاماني القومية العربية كما يفهمها ، فقد مال الى الاعتماد على احتمال انتصار المحور لاجل تحقيق الاهداف الوطنية استنادا الى ما بدا من معارضة السياسة الالمانية لانشاء وطن قومي يهودي.ورأى انه،بصفته كبير المتحدثين باسم بلده،اذا عقد اتفاقا مع زعماء المحور لضمان الاماني الوطنية الفلسطينية الاساسية ، فسيكون الفلسطينيون مستعدين للوقوف بجانب المانيا ، اذا اصبحت فلسطين

---

(١٢) راجع «مذكرات» المفتي («فلسطين» ، المجلد ٢ (حزيران ، (يونيو) ١٩٦٢) ص ٤ — ١٠ ، والمرجع ذاته المجلد ٧ (تموز ، (يوليو) ١٩٦٧) ص ٣٦ — ٤٤) .

جزءا من ميدان الحرب . وبما ان بلادا عربية اخرى ، خاصة مصر وسوريا ، قد ابدت بما يفهم منه انه ميل الى المحور ، من خلال معارضتها انكلترا وفرنسا ، فقد استنتج من ذلك أن الرأي العام العربي لن يعارض تصرفاته وتعامله مع الزعماء النازيين لتحقيق الاهداف القومية[١٣] .

الا ان المراحل الاولى من الحرب لم تعط دلائل واضحة تشير الى احتمال هزيمة بريطانيا ، لذلك لم يشأ المفتي الانحياز علنا الى أي جانب ، مع انه لم يكن هناك أي شك بالنسبة للجهة التي يميل اليها . وحين ازدادت الرقابة المفروضة على تحركاته في لبنان ، بدا له ان العراق قد يكون البلد العربي الانسب لتحقيق اهدافه . وهكذا اختفى فجأة من لبنان وهاجر الى بغداد في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٩[١٤] . وظل هو وبطانته ، حوالي سنة يراقبون تطور الحرب باهتمام كما حاولوا عدم التدخل في السياسة الداخلية . غير ان اختلاف الزعماء العراقيين حول تنفيذ التزامات بلادهم حيال بريطانيا بموجب المعاهدة بين الجانبين ، جر المفتي الى

---

(١٣) للاطلاع على اتصالات المفتي مع عملاء المحور قبل الحرب ، راجع لوكاش هيرشوفيتز «الرايخ الثالث والشرق العربي» (لندن ، ١٩٦٠) ص ٣٤ وما بعدها .

(١٤) «مذكرات» المفتي («فلسطين» المجلد ٧ (تموز ، يوليو) ، ١٩٦٧) ص ٤٠ — ٤١ . وقال سكرتير المفتي عثمان كمال حداد ان المفتي غادر لبنان لأن السلطات الفرنسية طلبت منه اصدار بيان سياسي مؤيد للحلفاء . راجع مذكرات عثمان كمال حداد «حركة رشيد عالي» (صيدا ، ١٩٥٠) ص ٥ .

التدخل في الشؤون العراقية • وقد ناشـــده بعض هؤلاء الزعماء السعي للحصول على مساندة المحور لهم ضـــد بريطانيـــا • ونصح المفتي في البدايـــة ، بعدم التسرع في التصرف ، بانتظار وضوح نتيجة الحرب وانتهاء مفاوضاته السرية مع المحور • ولكن حاجة بريطانيا لانزال قوات في العراق عجلت في حسم الوضع ، ونشبت الحرب مع بريطانيا في ايار (مايو) ١٩٤١ ، واسفرت عن اسقاط نظام الحكم الوطني فيه قبل ان تصبح دول المحور قادرة على تقديـــم المساعدة اليـــه • ولا نبغي هنا سرد الاحداث التي اشترك المفتي فيها ، أو مفاوضاته الاولى مع دول المحور ، لاننـــا عالجنا ذلك في كتاب آخر[١٥] • ولكن تجدر الملاحظة الى ان وجود المفتي في العراق ، وكان على اتصال بالمحور ، شجع بعض الزعماء العراقيين على خوض نزاع حاد مـــع بريطانيا • وكانت نتيجة هـــذا النزاع أن اجبر المفتي على اللجوء الى بلاد المحور ، قبل ان تتضح نتيجة الحرب[١٦] •

حاول المفتي قبل الذهاب الى بلاد المحور الاقامة في بلاد

---

(١٥) راجع كتابي «العراق المستقل» ، الفصلين ٨ و ٩ . وللاطلاع على رواية المفتي عن هذه الاعمال ، راجع «مذكرات» المفتي (فلسطين ، المجلد ٧ (آب (اغسطس) ١٩٦٧) ص ٢٠ — ٢٦ . والمرجع ذاته ، المجلد ٧ (ايلول ، (سبتمبر) ١٩٦٧) ص ١٦ — ٢٠ . والمرجع ذاتـــه ، المجلد ٧ (تشرين الاول ، (اكتوبر) ١٩٦٧) ص ٥٠ — ٥٥) . راجع ايضا «حركة رشيد عالي» لكمال حداد ، ص ١٠٠ — ١٢٦ ؛ وكتاب الرايخ الثالث والشرق العربي» لهيرشوفيتز ، الفصلين ٥ — ٧ .

(١٦) راجع ملحق هذا الكتاب .

محايدة ، فوجد له ملجأ موقتا في ايران ، الى ان سقط هذا البلد تحت الاحتلال البريطاني السوفياتي في آب (اغسطس) ١٩٤١ . وعندها حاول الانتقال الى تركيا للاقامة فيها ، الا ان ذلك لم يتحقق ، بل انه لم يمنح حتى اذن الدخول الى هذا البلد .

وبعد ان نجا من الاعتقال في ايران ، مر في تركيا متنكرا حيث قابل اتباعه في اسطنبول ثم سافر الى عواصم المحور[١٧] . وحين اصبح المجال مفتوحا امام التعاون الكامل مع دولتي المحور ، لم يعد بامكان المفتي (وبعض الذين تبعوه) التراجع عن هذه المغامرات الجديدة ، رغم ان دخول الاتحاد السوفياتي الحرب ، جعل البعض يخشى سياسة المفتي الموالية للنازيين ، ويحجم عن التعاون معه .

ومنذ مباشرة المفتي المفاوضات السرية مع زعماء المحور سنة ١٩٤٠ ، لم يعد يتكلم باسم عرب فلسطين فحسب ، بل باسم العرب في بلاد اخرى ايضا . وكان ، بعد مغادرته فلسطين سنة ١٩٣٧ ، قد اجتمع بكبار الساسة العرب ، الذين اعتبروه المتحدث باسم جميع العرب في سبيل تحقيق الوحدة والاستقلال . ونتيجة لذلك ، لم يعد طموح المفتي السياسي بعد ان حط في بلاد المحور مقتصرا على فلسطين ،

---

(١٧) للاطلاع على رواية افلاته من الاعتقال ومروره متنكرا عبر الحدود الايرانية التركية ومن تركيا الى اوروبا ، راجع «مذكرات» المفتي (« فلسطين» ، المجلد ٧ (تشرين الثاني ، (نوفمبر) ، ١٩٦٧) ص ١٤ ــ ١٧) .

بل اخذ ينمو تدريجا ليشمل الشرق العربي اولا ، ثم شمالي افريقيا •

ولكن المفتي لم يكن الزعيم العربي الوحيد ، الذي سعى للحصول على دعم المحور لزعامته ، فقد تبعه رئيس الوزراء العراقي رشيد عالي الكيلاني الى برلين لمنافسته على الزعامة• وكان حصول رشيد عالي على حق اللجوء في تركيا ، خلال مروره قادما من طهران ، قد اتاح له الوصول قبل المفتي الى اسطنبول ، حيث بحث مع زعماء عرب آخرين السياسة العربية حيال دول المحور • وكان هؤلاء الزعماء منقسمين الى معسكرين ، كان جماعة المعسكر الاول يدعون الى التعاون الكامل مع دول المحور ، معتبرين ذلك الوسيلة الوحيدة لانقاذ فلسطين من التوغل الصهيوني ، وانقاذ بلاد عربية اخرى من السيطرة البريطانية والفرنسية ، واما جماعة المعسكر الآخر فكانوا يجدون في الارتباط بسياسة المحور خطرا كبيرا ، خاصة بعد هجوم هتلر على الاتحاد السوفياتي ، كما كانوا يفضلون انتظار نتيجة الحرب ، ولذلك لجأوا الى تركيا بصفتها دولة محايدة • وفي احد الاجتماعات تشرين الاول (اكتوبر) ، ١٩٤١ رأى الذين قرروا التعاون مع دول المحور تكليف رشيد عالي رسميا بمهمة التفاوض مع زعماء المحور في وحدة العرب واستقلالهم على اساس المطالب القومية العربية التي وضعت في بغداد وقدمت الى حكومة المحور سابقا • واخبرني البعض ممن استقيت منهم معلوماتي ، ان رشيد عالي وافق على السفر

الى برلين وعلى التفاوض مع الزعماء النازيين(١٨) •

ووصل المفتي اسطنبول بعد قليل من مغادرة رشيد عالي فوجد ان بعض اتباعه كانوا طلبوا الى رشيد عرض المطالب العربية على زعماء المحور • ولهذا اسرع المفتي بمغادرة اسطنبول متنكرا ووصل الى برلين عن طريق روما قبل رشيد عالي في ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١ ، وقد رحبت به السلطات النازية ووضعت بتصرفه دارا في ضاحية تقع غربي برلين • وحين وصل رشيد عالي نزل في دار المفتي ، الا ان السلطة الالمانية افردت له ــ بعد وصول عائلته ــ منزلا خاصا • وظلت العلاقات الشخصية بين المفتي ورشيد عالي ودية وصحيحة في ظاهرها ، ولكن التنافس على الزعامة بدأ يظهر ، رغم اتفاقهما مبدئيا على الاهداف القومية العربية •

كان المفتي ، حتى قبل ان يصل الى بلاد المحور ، مصمما على القيام بدور قيادي كمتحدث بلسان العرب • فقد كان ، بصفته زعيما دينيا وعربيا ، شهيرا جدا في البلاد العربية والاسلامية • كما اجرى اتصالات كثيرة مع زعماء عرب ومسلمين في اوروبا وآسيا وشمالي افريقيا • اما رشيد عالي ، فكان قبل هجره العراق مجرد زعيم محلي انحصر

---

(١٨) من الذين تحدثت معهم في هذا الموضوع السيد راسم الخالدي ، الذي دعا الى التعاون مع دول المحور ، والاستاذ اكرم زعيتر ، الذي فضل عدم التعاون وبقي في تركيا حتى نهاية الحرب ، وكلاهما ممن كان له نشاطه في محيط المفتي في بغداد .

نفوذه في بلده ورغم انه كان رئيس وزراء فانه لم يكن معروفا خارج العراق الا قليلا • اما حياته مع عائلته في برلين فكانت هادئة نسبيا ، بينما اخذ المفتي ، الذي كان وحيدا قلقا ، يعمل بنشاط • ولما كان اكثر دهاء ومقدرة على الاقناع من الكيلاني فقد تمتع بنفوذ اكبر لدى الزعماء النازيين ، خاصة هملر ، الذي يبدو انه انسجم معه كثيرا ، ونائب وزير الخارجية فون فايزاكر[19] • ومع ذلك ، ورغم ضيق افق رشيد عالي السياسي ، فانه تحدى زعامة المفتي وصرح ان الزعماء العرب عهدوا اليه رسميا بالتكلم باسمهم ، بصفته رئيس الحكومة العراقية • وبسبب هذه التصرفات فانه كثيرا ما تشاجر مع انصاره ، امثال ناجي شوكت ، احد اعضاء حكومته ، الذي كان يؤيد زعامة المفتي • ولا يبعد ان تكون الخلافات بين المانيا وايطاليا ، حيال موقف كل منهما من البلاد العربية ، قد ظهرت في تصرف الزعيمين العربيين ، على الرغم من ان ايطاليا والمانيا اتفقتا قبل ذلك ، على ان يكون البحر الابيض المتوسط منطقة نفوذ ايطالية ، والبلاد الواقعة خلفه في آسيا وافريقيا منطقة نفوذ المانية •

وما من شك في ان المفتي خلّف ، في صلاته مع الزعماء النازيين ، انطباعا اقوى مما خلفه رشيد عالي • فقد قابل

---

(١٩) راجع «مذكرات» المفتي (فلسطين ، المجلد ٨ (اول آذار (مارس) ١٩٦٨) ص ٣٠ ــ ٣٢ ، والمرجع ذاته المجلد ٨ (آب ، (اغسطس) ، ١٩٦٨) ص ١٢ ــ ١٥) ، وكتاب ارنست فون فايزاكر «ارينرونجن» (ميونيخ ، ١٩٥٠) ص ٣٣ .

هتلر في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١ أي قبل مدة طويلة من مقابلة رشيد عالي له في سنة ١٩٤٣ • ورغم ان المفتي لم يستطع اقناع هتلر باصدار بيان عاجل يؤيد فيه الاماني العربية ، فقد تلقى تأكيداً بعطف المحور على العرب وبأن بيانا سيصدر حالما تعبر القوات الالمانية القوقاز[٢٠] • وبما انه لم يكن في وسع الزعماء النازيين تجاهل اماني رجل كرشيد عالي ينتظر ان تقع بلاده ضمن منطقة النفوذ الالمانية فقد استمروا في التعامل معه حتى قبل ان يقابل هتلر، معترفين به رسميا رئيسا لوزراء العراق، وكان ذلك في رسالة موجهة اليه من فون ريبنتروب بتاريخ ١٩ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤١ وهذا التصرف قد دفع المفتي الى السعي وراء تأييد ايطاليا • وقد استطاع بفضل تنقله المتواصل بين برلين وروما تحقيق نجاح اكبر مما حققه رشيد عالي • وخلال محاولاتهما الحصول على ضمان بتأييد المحور للاماني العربية الاساسية التي لم يكن من خلاف عليها بين المفتي ورشيد عالي ، قدم الاثنان اقتراحات تقضي باصدار دولتي المحور بيانا مشتركا يتضمن اشارة خاصة الى فلسطين • وقد فوض كل من الكونت شيانو وفون ريبنتروب بأن يردا باسم دولتي المحور برسالتين مماثلتين على رشيد عالي والمفتي • وفي ما يلي نص الرسالة الموجهة الى المفتي ، والتي تحمل تاريخ ٢٨ نيسان (ابريل) ١٩٤٢ :

---

(٢٠) راجع «مذكرات» المفتي للاطلاع على حديثه مع هتلر (مجلة «فلسطين» المجلد ٨ نيسان (ابريل) ١٩٦٨) ص ١٢ــ١٧ وكتابي «العراق المستقل» ص ٢٣٩ .

« صاحب السماحـــة ،

« ردا على الكتاب المرسل اليوم منكم ومن دولة رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني ، وتأكيدا لما جرى معكم من احاديث ، اتشرف بأن انقل اليكم ما يلي :

ان الحكومة الايطالية تقدر كل التقدير ثقة العرب بدولتي المحور وبالاهداف التي ترميان اليها ، كما تقدر عزمهم على الاشتراك في القتال ضد العدو المشترك ،حتى يتحقق النصر الحاسم . ان هذا يتفق مع جوهر الاماني القوميـــة التي اوكلتها اليهم اقطار الشرق الادنى العربية التي يضطهدهـــا اليوم البريطانيون . واتشرف بأن اؤكد لكم ، بالاتفاق التام مع الحكومة الالمانية ، ان استقلال البلاد العربية التي تعاني الآن من الاضطهاد البريطاني ، وكذلك حريتها هما ايضا من اهداف الحكومة الايطالية .

لهذا فان ايطاليا على استعداد لمنح البلاد العربية في الشرق الادنى ، التي تعاني الآن من الاضطهاد البريطاني ، كـــل مساعدة ممكنة في كفاحها لاجل تحررها ، كما انها مستعدة للاعتراف بسيادتها واستقلالها ، والموافقة على اتحادها اذ كانت الاطراف المعنية راغبة بذلك ، وكذلك على الغـــاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين .

« وغني عن التذكير ان نص هذه الرسالة ومحتوياتهـــا يجب ان تبقى سرا مغلقا ، الى ان نقرر معا عكس ذلك .

« وأرجـــو ان تقبلوا ، يا صاحب السماحـــة ، اسمى تقديري »[٢١] .

---

(٢١) راجع كتابي «العراق المستقل» ، ص ٢٤٠ ــ ٤١ .

ولعل هذه كانت ذروة منجزات الزعيمين العربيين في بلاد المحور ، اذ انهما حصلا اخيرا على عهد بالاستقلال والوحدة العربيين–رغم غموض هذا العهد–فضلا عن الاعتراف بهما متحدثين رئيسيين بلسان البلاد العربية • الا ان ايطاليا ايدت طلب المفتي في ان تكون له الاسبقية ، مقابل تأييده الضمني على الارجح ، لمطالبتها بشمالي افريقيا ، نظرا لان الرسالة تعمدت حصر الاشارة الى استقلال الاقطار العربية في الشرق الادنى ، وتركت موضوع الوحدة او الاتحاد للمستقبل(٢٢) •

الا ان تدهور اوضاع دولتي المحور لم يضع حدا للصراع القائم بين الزعيمين العربيين حيال الاولوية وحسب ، بل قضى على مساندة المحور لتحقيق الاماني القومية العربية وباستمرار الحرب ومواصلة قصف المدن الالمانية والايطالية، كان لا بد للزعيمين من ان يلتمسا مواطن سلامتهما ، وان يلجآ الى اماكن بعيدة عن القصف • واخذا خلال الايام الاخيرة من الحرب ، يتنقلان بسرعة من مكان الى آخر (بمساعدة السلطات الالمانية) هاربين من وجه القوات الغربية والسوفياتية في زحفها السريع • وبعد توقيع الهدنة في ايار (مايو) سنة ١٩٤٥ كانا قد وصلا متنكرين الى الحدود السويسرية دون ان يثيرا الانتباه ، الا ان رشيد

---

(٢٢) نفى المفتي ، في رسالة الى المؤلف ، ان يكون قد وافق على المطالب الايطالية الخاصة بشمالي افريقيا ، واكد انه أيد بصورة خاصة طلب ليبيا للاستقلال .

عالي لم يسمح له بالدخول[٢٣] • اما المفتي الذي تمكن من الوصول الى بيرن ، فقد ابلغ بأنه لن يمنح الملجأ وان عليه ان يرحل ، ولكنه ما كاد يعبر الحدود حتى اعتقلته السلطات الفرنسية ونقلته الى باريس •

أقام المفتي تحت الحراسة في دارة في احدى ضواحي باريس اكثر من سنة ، ورغم القيود المفروضة على تنقلاته ، فانه — تحت رقابة الشرطة — كان يستقبل الضيوف فضلا عن زيارته المتكررة لباريس • ثم نمي اليه ان اسمه يتردد في مجال احتمال اعتباره مجرم حرب حين دعا بعض اعضاء البرلمان البريطاني حكومتهم الى المطالبة بتسليمه اليها • الا انه لم يتخذ أي اجراء بذلك • لقد أشيع أنه خلال وجوده في المانيا وبفضل علاقاته الشخصية مع بعض الزعماء النازيين وعلى الاخص هملر ، بارك « الحل النهائي » للقضية اليهودية • بل لقد قيل اكثر من ذلك ، فقد اشيع بأنه كتب رسالة الى وزارة الخارجية الالمانية يحتج فيها على مشروع ترحيل حوالي ٤٥٠٠ ولد يهودي الى فلسطين مقابل مبادلة اسرى المان ، وانه كتب الى الحكومة الهنغارية في سنة ١٩٤٣ يطالب بوضع حد لهجرة اليهود الى فلسطين ؛ واشيع ايضا بأنه اشار على السلطات بأن تنقل اليهود ، الموجودين

(٢٣)ذهب رشيد علي متنكرا اولا الى بلجيكا ثم الى فرنسا . وظل متنكرا عندما سافر الى بيروت ثم دمشق فالرياض ، حيث بقي حتى ١٩٥٤ . واقام في القاهرة بين ١٩٥٤و١٩٥٨، وعاد الى بغداد بعد ثورة ١٩٥٨ ، وتوفي سنة ١٩٦٤ .

في البلقان،الى بولندا،حيث يكونون تحت الرقابة ويمنعون من الفرار الى فلسطين • ولا شك في ان ذلك كان يقع ضمن خطة « الحل النهائي »(٢٤) •

بدأ المفتي بعد اطلاعه على هذه التهم ، يستعد للهرب من باريس التي خففت القيود على تنقلاته ، وهو اجراء فسر على انه بمثابة اذنله بالفرار • وهكذا غادر باريس متنكرا في ايار (مايو) ١٩٤٦ ، حاملا اسم معروف الدواليبي وجواز سفره وهو زعيم سوري معروف كان يدرس الحقوق آنذاك في باريس وبتلك الصفة ركب طائرة عسكرية اميركية وتوجه الى القاهرة عن طريق روما واثينا • واصبحت القاهرة طوال نحو عقد من الزمن مركز نشاطه السياسي ، الا انه خلال اقامته تلك زار عدة دول عربية واسلامية اخرى دون ان تعترضه اية قيود • ثم توترت العلاقات بينه وبين السلطات العسكرية المصرية الى حد جعله ينتقل سنة١٩٥٩ الى بيروت لأن لبنان ، كما قال لي مرة ، الوحيد الذي يوفر جو الحياد في العالم العربي •

---

(٢٤) لم تجر بعد دراسة موضوعية حول اشتراك المفتي في هذه الاعمال . وقد قال لي مرة ان لا اساس لجميع التهم الموجهة اليه حول اشتراكه في «الحل النهائي» لأن زعماء النازيين لم يكونوا بحاجة لتشجيعهم على تنفيذ مخطط وضعوه قبل ان يقيم المفتي في بلاد المحور . وللالقاء بعض الضوء على هذا الموضوع ، راجع كتاب ج.ب. شيختمان « المفتي والفوهرر» (نيويورك ، ١٩٦٥) ، الذي يعتمد في بعضه على الوثائق الالمانية .

لو قدر لدولتي المحور كسب الحرب لعاد المفتي ليتزعم « نظاما جديدا » في العالم العربي • ولكن خسارة حلفائه المحوريين الحرب جعلته يعود ليلعب دورا متضائلا في احداث مأساة فلسطين • ومع هذا فان الجامعة العربية رغم تحملها كامل المسؤولية للدفاع عن الحقوق العربية في فلسطين ، لم تتخذ في البداية قرارا دون استشارة المفتي او موافقته ، لانه كان ما يزال يعتبر كبير المتحدثين باسم عرب فلسطين • وظلت آراؤه مدة سنتين او ثلاث سنين هي التي توجه مواقف المندوبين العرب الرسميين في المفاوضات مع الحكومة البريطانية (سنة ١٩٤٦) وفي المناقشات في الامم المتحدة (في سنة ١٩٤٧ وسنة ١٩٤٨) الى ان تدخلت الحكومات العربية عسكريا في النزاع •

لقد طالب المفتي ، الذي كان مقتنعا كل الاقتناع بعدالة قضية ابناء قومه ، بالاستقلال الكامل لفلسطين ، ورفض كل تنازل يعترف بمطالب اليهود وادعاءاتهم ، اللهم الا الحقوق التي يتمتع بها اليهود الذين كانوا يقيمون في البلاد قبل الحرب العالمية الاولى • وامام هذا الموقف المتطرف ، الذي ايده عدة زعماء من ذوي النفوذ ، كان لا بد للمندوبين العرب في مؤتمرات لندن وفي الامم المتحدة، من ان يصروا على المطالبة بمنح فلسطين الاستقلال وحق تقرير المصير • ولو عرضت وجهات نظر معتدلة لما كان بعيدا ان تؤيد الدول الكبرى حلا وسطا يحافظ على وحدة البلاد في ظل نظام حكم خاص (اتحادي او وحدوي) يعيش فيه العرب واليهود جنبا الى جنب كمواطنين فلسطينيين

متساوين (٢٥) .

ومنذ قررت الحكومات العربية التدخل بشكل جماعي لحماية الحقوق العربية في فلسطين بدأ زمام الزعامة يفلت من يدي المفتي ونفوذه يتضاءل ، الا انه ظل يتكلم باسم عرب فلسطين ويصدر البيانات السياسية ، ولكن انتقال النزاع من الصعيد الداخلي الى الصعيد الدولي ، اي من نزاع بين العرب واليهود الى نزاع بين اسرائيل والدول العربية ، قضى على اهمية دور المفتي ، حتى بوصفه رئيسا لمنظمة عربية هي « الهيئة العربية العليا » . لقد تضاءل نفوذه كثيرا بعد حرب فلسطين الاولى في ١٩٤٨ — ٤٩ ، ولم يمارسه الا بصورة غير مباشرة عبر الحكومات العربية التي استطاع ان يحتفظ معها بعلاقات ود وصداقة . ولما اصبح مركزه رمزيا ، رأت الدول العربية باستثناء العراق والاردن ان لا حاجة لتقييد نشاطه . وقد اتخذ العراق هذا الموقف من المفتي بسبب نشاطه ضد نظام الحكم الشرعي خلال الحرب ، اما الاردن فبسبب معارضة المفتي سياسة الملك عبدالله المعتدلة ، ودوره في ضم فلسطين العربية الى شرقي الاردن (اصبح يدعى الاردن) (٢٦) .

---

(٢٥) قال عبد الرزاق السنهوري ، الذي حضر مؤتمر لندن سنة ١٩٤٦ ، ومحمد حسين هيكل ، الذي حضر اجتماعات الامم المتحدة في ١٩٤٧ و ١٩٤٨ ، انهما اضطرا لرفض مشاريع حلول وسط لأن المفتي كان يرفضها ، رغم انه كان ممكنا ان تحظى هذه المشاريع بتأييد الدول الكبرى .

(٢٦) قام المفتي بزيارة سريعة الى فلسطين سنة ١٩٤٨ ، قبل ضمها الى الاردن . وقد ذهب الى غزة ليتولى رئاسة

لقد ادى انتشار الحركة الثورية في العالم العربي ، عند مطلع الخمسينات الى زوال نفوذ المفتي • ومن الطبيعي ان لا تلقى اهداف هذه الحركة ، التي تدعي انها مناقضة للاهداف التقليدية ، القبول لدى المفتي رغم انه حاول البقاء على علاقة ودية مع قادتها • ثم توترت هذه العلاقات عندما خاض الزعماء الثوريون صراعا على الحكم ، اولا في مصر ثم في سوريا ، مع الجماعات الدينية وخاصة الاخوان المسلمين ، الذين كانت تربطهم بالمفتي — بصفته زعيما دينيا — روابط ود حميمة • ولو قيض للجماعات الدينية الانتصار في الصراع لتمكن المفتي من استرداد مكانته ونفوذه الضائعين • ولما كسب عبد الناصر الجولة الاولى على الاخوان المسلمين، في مطلع الخمسينات ، سمح للمفتي، بادىء الامر ، بالبقاء في الاراضي المصرية • الا ان وجوده في مصر لم يعد مرضيا عنه ، بعد ان واصل « الاخوان » نشاطهم الهدام ، وهكذا اوعز اليه في سنة ١٩٥٩ بمغادرة البلاد • ومنذ ذلك الحين وهو يقيم في بيروت ، التي انطلق منها في زيارات عديدة لبلاد ما تزال تعارض الافكار الثورية • الا ان انتشار الحركة الثورية حد كثيرا من تنقلاته ، رغم الدعم المالي الذي يتلقاه من تلك الدول • كما

المؤتمر الوطني عند انشاء «حكومة عموم فلسطين» التي لم تعمر طويلا . ولكنه ما لبث ان عاد الى القاهرة ، عندما اتضح ان «حكومة عموم فلسطين» كانت مجرد نظام حكم رمزي ، ثم زار القدس قبيل حرب حزيران ١٩٦٧ ، وكانت تلك اول مرة يزورها منذ رحيله عنها قبل ثلاثين سنة خلت .

انه اضطر ، في كثير من الاحيان للانحياز في خصومات بين زعماء لا يربطه بهم اي هدف مشترك ، خلا ما يراوده من امل باسترداد بلده الضائع .

ان انحلال الوحدة السورية المصرية سنة ١٩٦١ ، وعجز عبد الناصر عن تحويل الجمهورية العربية المتحدة الى اتحاد عربي فعلي ، أشاع الخيبة في الاوساط العربية ، خاصة بين الفلسطينيين الذين كانوا يرجون ان تتمكن الجمهورية العربية المتحدة يوما من استرداد فلسطين بالحرب او بالدبلوماسية . وكان انشاء الجمهورية العربية المتحدة ، وخاصة نظامها الاشتراكي ، سببا للتنافر بدلا من الاتحاد كما كان سببا في تحويل الانظار عن العدو المشترك . وبدأ الزعماء الفلسطينيون ، رغم تفرقهم وتباعدهم ، يطالبون بالعمل ويدعون الى حرب فدائية لاسترداد بلدهم بسبب اخفاق التدخل العربي في الوصول الى نتائج ايجابية [٢٧]. ووجد المفتي ، في هذا الجو الجديد ، مجالا يرفع فيه صوته من جديد ، داعيا الى الوحدة والعمل المباشر بقيادته . وفيما لقيت دعوة المفتي تجاوبا لدى بعض انصاره فضلت الاكثرية تنظيم نفسها في ظل توجيه مباشر او غير مباشر من احد الانظمة الثورية بعيدا عن قيادة المفتي التقليدية .

---

(٢٧) للاطلاع على طبيعة الحركة الفلسطينية وحوافزها راجع كتابي « الاتجاهات السياسية » (ص ٢١٦ — ٢١٨) نشرته بالعربية (الدار المتحدة للنشر ، بيروت ١٩٧٢) ، وكتاب هشام شرابي « فلسطين واسرائيل : المعضلة المميتة » (نيويورك ، ١٩٦٩) الفصل ٨ .

ولنتساءل الان ماذا كانت اهـداف المفتي وأساليبـه السياسية ؟

كان لدى زعماء العرب في البلاد التي اصبحت تحت السيطرة البريطانية او الفرنسية بعد الحرب العالمية الاولى هدفان سياسيان عاجلان : ازالة السيطرة الاجنبية ، ونيل الاستقلال التام ، رغم اختلافهم افـرادا وجماعات حيـال وسائل تحقيقهما • ففي فلسطين سعى زعماء العرب الى تحقيق هذين الهدفين ، ولكن مهمتهم تعقدت بسبب الاماني الصهيونية لانشاء وطن قومي يهودي في فلسطين ، وبسبب دعم بريطانيا وتأكيد تحقيق هذه الاماني رغم ارادة اولئك الزعماء ورغباتهم • لقد اتفق جميع الزعماء العرب ، سواء من آل الحسيني ام آل النشاشيبي وغيرهم من البيوتـات الاخرى على ضرورة احلال الاستقلال محـل السيطـرة الاجنبية ، والقضاء على الوطن القومي اليهودي • الا ان المفتـي في عملـه السيـاسي ، أصر علـى تحقيـق هذين الهـدفين بأساليبـه الخاصة ، وعمل على اضفـاء صبغة مقدسة على الامر ، بشكل لا يقبل اي مساومة او تسوية مهما طال الكفاح ومهما ارتفعت اعداد الضحايا (٢٨) •

---

(٢٨) اورد المفتـي التعليق التالي ، في رسالـة الى المؤلف (مؤرخة في ٢ شبـاط ، (فبراير) ، ١٩٧٢) : « اما مسألـة التطرف فلا ازال على رأيي، من حيث أن اصحاب المبادىء يجب ان يتمسكوا بها ويستمروا على المطالبة بحقوق شعوبهم لتظل هذه الشعوب متمسكة بها وساعية في سبيلها . ولا بـد أن تصل الشعوب الى حقوقها العادلة ولو بعد حين . وانا مؤمن

صحيح ان المفتي تمكن ، في كثير من الاحيان ، من قيادة البلاد وفق كفاحه الصلب الذي لا يلين ، ولكنه ذهب في تطبيق اساليبه السلبية المتطرفة الى حد تضاءلت معها النتائج المتوخاة • ومع ذلك ورغم توالي الفشل ، فانه لم يظهر اي استعداد لتغيير اهدافه واساليبه أو تعديلها ، وليست الاسباب بالسهولة التي يدعيها منتقدو المفتي ، حين يتهمونه بتسخير المصلحة العامة للمنفعة الشخصية • بينما في الواقع يكمن السبب في الوسط الاجتماعي الذي نشأ فيه ، وفي قوى السياسة العربية المعقدة •

والان عود على بدء • قضى المفتي مطلع حياته في مجتمع تقليدي ، وعندما سافر الى مصر للدرس والتحصيل ، ساد دراسته شعور بكره النفوذ الاجنبي • وخلال وجوده في تركيا ، التي قصدها سعيا وراء المزيد من العلم ، قاتل مع الاتراك ضد بريطانيا عند نشوب الحرب ، وشارك العثمانيين اعجابهم بالانضباط العسكري الالماني وتأييد الالمان للوحدة الاسلامية • وعندما وضعت الحرب اوزارها ، شخص بأمله الى نظام الحكم العربي في سوريا ، ولكن امله خاب حين اطاحت فرنسا بذلك الحكم • فهذه التجارب المتضاربة

بأن قضية فلسطين لا يمكن ان تحل حلا جزئيا لأن المسألة الصهيونية تقوم على مخططات بعيدة المرمى عظيمة الخطورة وهي لا تشبه اية قضية استعمارية . فهي عاملة بكل الوسائل لاستئصال الوجود العربي من فلسطين ، بل من المنطقة العربية كلها التي تتناولها مخططاتها . ولذلك لا بد من ان تظل القضية الفلسطينية حية في نفوس العرب كافة ولا بد من ان يستمر الكفاح الى نهايته مهما طال الزمن وعظم الفداء » .

لم تنفع الشاب الذي عاد ليعيش في ظل الانتداب البريطاني الجديد على فلسطين ، ذلك الانتداب الذي كانت مهمته المساعدة على انشاء وطن قومي يهودي في بلده •

ويبدو ان القوى السياسيـــة الداخلية كانت تضطره الى اتخاذ موقف معارض من السلطات الجديدة في وطنه ، حتى لو كان مستعدا لتكييف اهدافه وفقا للسلطات المذكورة • ورغم ان فلسطين كانت بلدا صغيرا جدا ، فان المجتمع العربي فيها كان منقسما اجتماعيا وطائفيا الى حد كان من الصعب جدا معه خلق تماسك وتضامن اجتماعي ، حتى حين كان هناك خطر مشترك يتهدد وجود هذا المجتمع بكامله • فعائلة النشاشيبي مثلا كانت تلقى التأييد من السلطـــات البريطانية ، حتى ان احد افرادها حل مكان احد افراد عائلة الحسيني في منصب رئيس البلدية ، كما كاد مركز المفتي نفسه يقـــع في ايدي آل النشاشيبي • ولهـــذا وجـــد آل الحسيني ، وعلى رأسهم الحاج امين (المفتي) ، ان لا مناص من الاعتماد على التأييد الشعبي • وفي حملته ضـــد الوطن القومي اليهودي ، الـــذي كـــان آل النشاشيبـــي وآل الحسيني من حيث المبدأ يعارضون في انشائه ، حمل المفتي كلا من البريطانيين واليهود المسؤولية ، باعتبار ان اليهود كانوا يعتمدون اعتمادا كليا على مساعدةالبريطانيين• اما آل النشاشيبي فقد وجدوا ان مصلحة العرب تقضـــي بكسب البريطانيين لا اثارة عداوتهم • حتـــى حين وافـــق الزعماء العرب في نهاية الامر على انشاء الهيئة العربية العليا، التي اصبحت رئاستها بالطبع من نصيب المفتي ، عـــارض

بعضهم المفتي في استخدامه العنف دون تمييز ، وذهبوا الى حد التفاهم مع السلطات البريطانية لدى انهاء أضراب سنة ١٩٣٦ العام • وهكذا فان المعارضة العربية في انشاء الوطن القومي اليهودي انشغلت بقضايا جانبية اضعفت القيادة العربية حيال الزعامة الصهيونية •

وراح المفتي ، الذي كان يخشى ان تفلت الزعامة من يده ، يشجب اتجاه خصومه واستعدادهم للقبول بتسوية أعتبرت حينئذ حلولا جزئية ، كما ذهب اتباعه الى اتهامهم بالخيانة وتهديدهم بالقتل [٢٩] ، وهي اعمال لم تكن تجرى دون علمه او موافقته • ولما كان التطرف في المجتمع العربي التقليدي اكثر تقبلا لدى عامة الناس من الاعتدال فان المفتي لم يستطع الا ان يعتمد أساليب متطرفة وسلبية كي يضمن كسب التأييد الشعبي ضد السلطات البريطانية وضد خصومه السياسيين • وهكذا فان المراقبين الاجانب اعتبروا اساليب المفتي اعمالا تكاد تكون اجرامية ، بينما كانت الوسيلة الوحيدة المتوفرة لديه للضغط على السلطات البريطانية كي توقف الهجرة اليهودية الى فلسطين وتمنع بيع الاراضي العربية من اليهود • اما في المنفى فقد رأت السلطات المسؤولة في تعاون المفتي مع الجماعات المعارضة

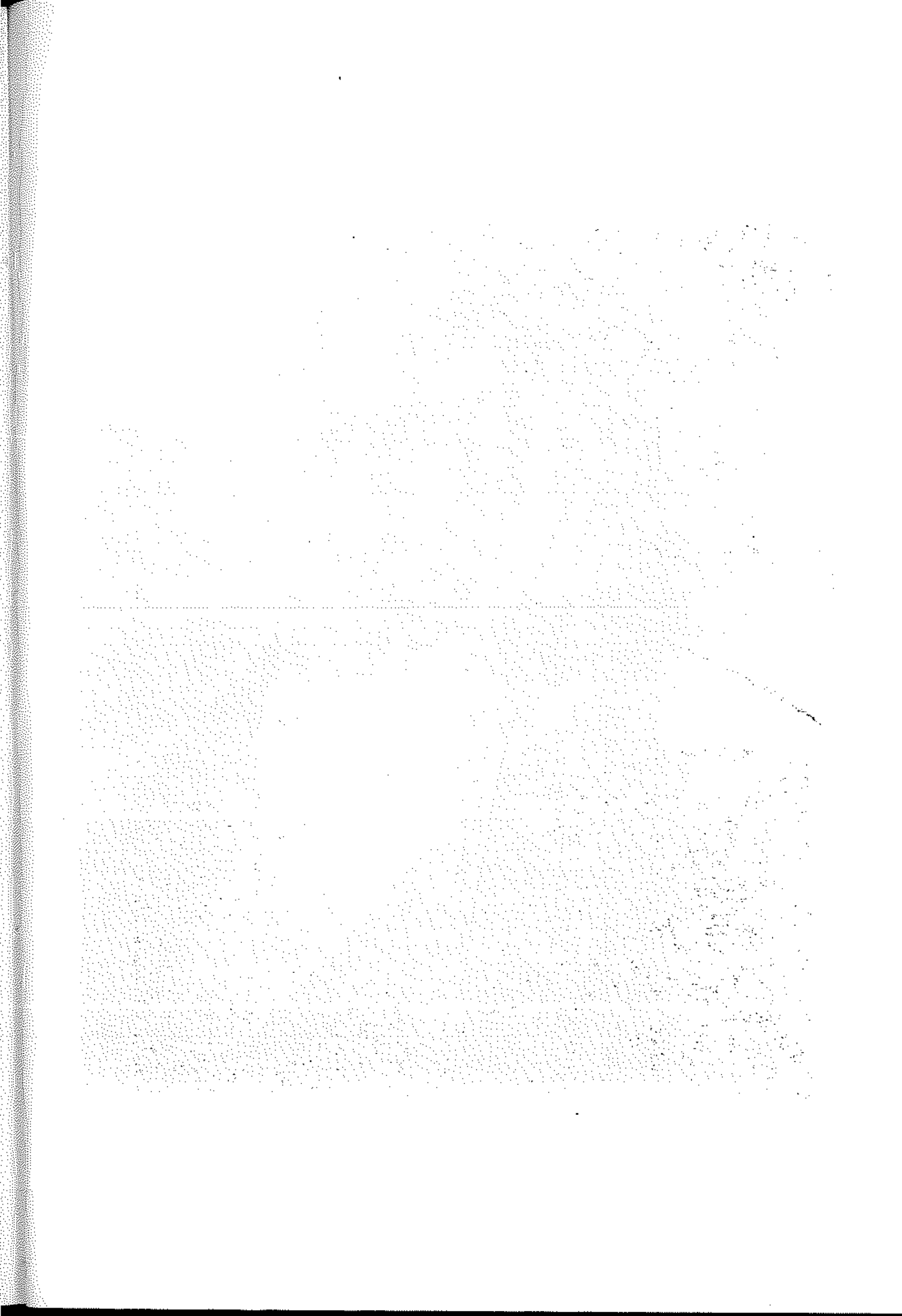
---

(٢٩) في سنة ١٩٤١ اغتال متطرفون فخري النشاشيبي ، احد خصوم المفتي لانه كان على استعداد للتفاوض والمساومة مع السلطات البريطانية كما اغتيل ملك الاردن عبد الله سنة ١٩٥٢ ، لانه كان مستعدا للتفاوض مع اسرائيل .

للحكم مخالفة ادت الى ابعاده أو اعتباره شخصا غير مرغوب فيه • ولكنه في جميع تصرفاته لم يعمل الا بدافع من اخلاصه واقتناعه العميق وشعوره بعدالة قضية أبناء قومه • ولا شك في ان المفتي تحمل الكثير من الشدائد والمتاعب لتحقيق الاهداف القومية التي عمل جادا طوال حياته في سبيلها • ورغم ظهور المفتي بمظهر المحترس الحذر على الاغلب ، فانه يعتبر ، آخر الامر ، من فئة الزعماء المثاليين ، لانه وضع العدالة والحقوق الشرعية فوق الحقائق السياسية التي لم تكن له سيطرة عليها ، وفي حين ان مثل هذه الزعامة التي هي نتاج تنشئة تقليدية قد تكون مفيدة في مجتمع يقدر المعايير والقيم التقليدية ، اثبتت انها تلائم مجتمعا يشهد تغييرات اجتماعية سريعة ويتعرض لتحديات من مجتمع آخر اكثر حيوية وتقدمية •



الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود



الفصل السادس

المدرسة التقليدية المثالية المعتدلة

الملك فيصل آل سعود

« المهم في الحكم ليس الاسم ، وانما التطبيق ، فكم من نظام جمهوري فاسد وكم من نظام ملكي صالح والعكس بالعكس • فالنظام سواء أكان ملكيا ام جمهوريا انما يعكس الخير والتوفيق وحسن الاستعداد الذي يتجاوب كله بين الراعي والرعية » •

فيصل •

لم يكن مقدراً لفيصل ، بصفته الابن الثالث لاحد الملوك، ان يصبح رئيسا للدولة وفقا لخط الوراثة الذي وضعه والده عبد العزيز بن سعود ، او حتى أن يلعب دورا مهما في سياسة بلده • فالعمليات السياسية في المجتمع التقليدي ثابتة نسبيا ، ولا يبقى لمن يحتل مركزا عاما الا القليل كي يفعله خارج حدود التقليد والعرف • ولكن الفرصة لاحت امام فيصل في مرحلة مبكرة من حياته للقيام بدور مهم في الشؤون العامة ، ولمساعدة ابناء بلده على الانتقال الى الحياة العصرية • وهي خطوة ادت في النهاية الى توليه السلطة

العليا ، بعد عشر سنين من وفاة والده العظيم ، مؤسس الدولة السعودية الحديثة ، فهل دور فيصل حصيلة الاوضاع الجديدة في بلده ، ام انه نتاج صفاته الشخصية الخاصة ؟ من المحتمل ان تلقي دراسة دور فيصل في السياسة وتقييم قيادته ضوءاً على العلاقة بين الصفات الشخصية والاوضاع الملائمة لبروز الزعامة .

ولد فيصل سنة ١٩٠٦ ، بعد خمس سنين من استيلاء والده على الرياض ، مركز الحكومة الذي انتزعه ابن الرشيد، زعيم اسرة منافسة ، سنة ١٨٩٠ من جده عبدالرحمن، ومباشرته اعادة الحكم السعودي الى قلب الجزيرة العربية . وهكذا رافق فيصل ، منذ مطلع حياته العملية قيام الدولة السعودية الحديثة . وكانت الخبرة التي اكتسبها في ظل حكم والده الكريم لا تقدر بثمن بالنسبة للمسؤولية التي ألقيت على عاتقه في ما بعد .

حدثان مهمان أثرا تأثيرا بعيد المدى في تنشئته وفي حياته العامة . الحدث الاول كان وفاة شقيقه الاكبر تركي الذي ولد سنة ١٩٠١ في اثناء اقامة والده في المنفى والذي اغتالته المنون على حين غرة سنة ١٩١٨ حين بدأ يمارس السلطة الموكولة اليه . كان تركي مثل والده ، ممشوق القامة وسيما . وقد بدا انه الزعيم المرتجى للمستقبل ، لما ابداه من المقدرة في قيادة حملات ناجحة . اما الابن الثاني سعود ، الذي ولد سنة ١٩٠٢ ، فلم تكن له حصافة والده ولا قوة شخصيته ، رغم توفر بعض صفات والده الجسدية فيه . وكان فيصل ، رغم رقة صحته يتمتع بعقل نير منفتح،

وحصافة رأي مقرونة بالروية ، وسرعان ما اكتشف والده فيه مقدرته وعمل على الافادة منها في خدمة مملكته ، فعهد اليه بمهام كانت ستنحصر بالابن البكر ، لو بقي في قيد الحياة او بالابن الثاني لو اظهر كفاءة مماثلة .

اما الحدث الثاني الذي أثر في مجرى حياة فيصل فكان وفاة والدته وهي لما تزل في شرخ الشباب [1] فكان ان رعاه جده لوالدته ، وهو رجل عرف بتقواه وعلمه ، وينتمي في نسبه الى سلالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، المصلح الاسلامي ومؤسس المذهب الوهابي ، الذي كان على تحالف مع سعود الكبير ، مؤسس الاسرة الحاكمة[2] . نشأ فيصل في جو تقاليد هذه الاسرة ، وتعلم القرآن الكريم ، قبل ان يجيد القراءة ، ودرس الحديث الشريف وآداب اللغة العربية فضلا عن قرضه الشعر .

ومهما يكن من أمر فان تمرسه بأمور الحياة العامة انما يرجع الفضل فيه الى والده . وقد سأله المؤلف لمن يدين بتدريبه على فن الحكم ، فأجاب دون تردد : « لوالدي » واضاف : انا لم احظ بتربية رسمية في المدرسة ، ولكنني

---

(١) كانت زوجة والده الثانية ، وقد توفيت بعد قليل من مولد فيصل .

(٢) للاطلاع على تاريخ تأسيس الاسرة السعودية ، راجع «تاريخ» نجد الحديث وملحقاته « لأمين الريحاني (بيروت ، ١٩٢٨) ، و «العربية السعودية» ل.هـ. سان جون فيلبر (لندن ، ١٩٥٥) و «العربية السعودية في القرن التاسع عشر» ر. بيلي وايندر (نيويورك ، ١٩٦٥) .

نشأت في ظل نفوذ والدي وتوجيهه المباشرين ، وحاولت في سيري تتبع خطاه • كان في صغره يحضره والده من منـــزل جده لوالدته لكي يتحدث اليه او يلهو معه • كما كـــان يصطحبه ايضا في بعض الرحلات القصيرة • وكان للملاحظات التي يسمعها عن الناس والشؤون العامة ما فتح ذهنــــه وعينيه ، فعجّل في نضوجه وهو لمـــا يزل حدثـــا لم يطرّ شارباه • وكان فوق ذلك كله وبفضل مرافقته لرجل عظيم ان تطبع بطباع الرجال العظام ، كالتحلي بالصبر ورباطـــة الجأش والمقدرة على سياسة الرجال وقيادتهم • ومنذ صغره جمع فيصل بين احترام القيم الاسلامية والاحساس بالواقع، في ما يختص بشؤون البشر وامورهم •

كان فيصل قبل الحداثة ، اصغر من أن يعهد اليه بمهمة رسمية ، فعلية كانت او اسمية ، رغم اشتراكه في بعـــض الرحلات ، ورغم النظرة الخاطفة التي القاها على الاقتتال مع ابن الرشيد في أواخر الحرب العالمية الاولى • هذا ولم يكد يمضي على انقضاء الحرب الا سنة حتى سنحت لفيصل فرصة تمثيل والده رئيس وفد ، وذلك عندما دعي الملـــك عبد العزيز الى لندن لبحث مشاكل الحدود القائمة بينه وبين الملك حسين ، حاكم الحجاز وحليف بريطانيا في الحرب • ولما كان الملك في وضع لا يسمح له بمغادرة بلاده ، فقـــد أبلغ الحكومة البريطانية انه سيرسل احد ابنائه نيابة عنه، وبما ان ابنه البكر تركي كان قد توفي منذ عام ، فقد اختار فيصل لتمثيله دون سعود •

ويمكن اعتبار اختيار فيصل دليلا على تقدير والـــــده

لمقدرته وجلال قدره ورباطة جأشه وهي سجايا تؤهله لتمثيل والده في بلد اجنبي . وبما ان فيصل لم يتجاوز انذاك الثالثة عشرة فقد عين الملك عبد العزيز مرافقا له هو احمد الثنيان ، الذي خبر العالم الخارجي فضلا عن معرفته باللغة الفرنسية واللغة التركية (٣) وسافر الاثنان الى لندن بالملابس العربية الامر الذي لفت أنظار الناس وانتباههم الى الوفد. وأعلن ان الهدف من البعثة آنذاك هو تقديم تهانيء ابن سعود على انتصار الحلفاء في الحرب . وخلال اجتماعه الى الملك قدم له فيصل سيفين ورسالة من والده . الا ان مواضيع سياسية بحثت ايضا مع وزير الخارجية اللورد كرزون ، لعب فيها احمد الثنيان دورا فعالا . ويبدو انه لم يتم الوصول الى اتفاق على النزاع حول الحدود ، بيد ان احمد الثنيان وعد باسم سيده ، بانه « لن تنشب حرب خلال ثلاث سنين » وقد بر ابن سعود بالوعد الذي قطعه مندوبه، فلم يحرك ساكنا حتى كانت سنة ١٩٢٤ حين نشبت الحرب بينه وبين الملك حسين كان النصر فيها حليفه واحتل الحجاز . واجتمع فيصل ، قبل عودته ، بكبار الرسميين المهتمين بالجزيرة العربية ، في لندن وباريس ، يستقي بعض الحقائق عن الشؤون الخارجية من مصادرها الاولية (٤).

---

(٣) كان احمد الثنيان، وهو من الاسرة الحاكمة السعودية ومن سلالة حاكم سابق ، قد عاش في اسطنبول وتزوج سيدة تركية . وعاد الى الجزيرة العربية وحارب مع ابن سعود قبل الحرب العالمية الاولى .

(٤) للاطلاع على وصف للبعثة ، من احد ضباط الارتباط راجع «رمال متحركة» ، للميجر ن.ن.أ. براي (لندن، ١٩٣٤)

كانت مهمة فيصل التالية ، التي اتاحت له فرصة اكتساب المعرفة عن العمليات العسكرية ، توليه قيادة قوة وجهت الى عسير ، الواقعة بين الحجاز واليمن ، والتي كانت يحكمها آل عابد • وكانت عسير قد بقيت مدة طويلة سببا في النزاع بين حكام نجد والحجاز • وفي سنة ١٩٢٢ توجه فيصل اليها لمساعدة شيوخ القبائل الذين يدينون بالولاء لابن سعود والذين يعارضون حكم آل عابد ، وكانت نتيجة الحملة كسبا لفيصل من حيث الهيبة والمقام والثقة بالنفس، فقد كان عملا كبيرا بالنسبة الى شاب لم يتعد السادسة عشرة من العمر • وكان من أعجاب والده بنجاحه الرائع ، ان ذهب بنفسه لاستقباله هو وجيشه لدى عودتهما من الحملة • ولم تمض سنة حتى اصبحت المنطقة في سنة ١٩٢٣ خاضعة بكاملها للسيطرة السعودية ثم اندمجت بمملكة ابن سعود سنة ١٩٣٠ • وفي سنة ١٩٣٤ عاد فيصل مرة ثانية الى ميدان الحرب قائدا عسكريا لصد هجوم يمني على منطقة تعتبر ضمن الاراضي السعودية • لم ينتصر فيصل في صد الهجوم وحسب ، بل كان يستطيع التوغل في الاراضي اليمنية لولا ان الامام يحيى عاهل اليمن طلب الصلح ، فصدر الامر الى فيصل بالانسحاب وبذلك حيل بينه وبين جني ثمار انتصاره • وصرح قائلا : لقد اطعت والدي مكرها ، ولكنني ادركت في ما بعد كم كان على

ص ٢٩٦ ــ ٩٨ ، و «فيصل ملك العربية السعودية» دي غوري (لندن ، ١٩٦٦) ص ٢٢ ــ ٣١ •

حق ، حين خيم السلام على البلدين وسادت بينهما علائق الود التي استمرت قائمة منذ ذلك الحين • وفي سنة ١٩٦٢ ، حين نشبت الحرب الاهلية في اليمن استنجدت حكومة الامام بالسعودية ، فبادر فيصل الى تقديم المساعدة العاجلة • لقد اكتسب فيصل خبرة لا تقدر بثمن ان في الحرب او الدبلوماسية في كل من عسير واليمن [٥] •

ثم اوكل الى فيصل عمل مهم آخر استمر يؤديه سياسيا واداريا اكثر من ثلاثين سنة وهو مركز نائب الملك في الحجاز ومنصب وزير الخارجية • وكان ضم الحجاز سنة ١٩٢٥ ، دون دمجه تماما في نظام ابن سعود الاداري ، قد ترك اعلى منصب سياسي في البلاد شاغرا ، بعد تنازل ملك الحجاز عن العرش • وعين ابن سعود فيصل نائبا له هناك ، الامر الذي ابقى للحجاز كيانه المستقل ضمن الاراضي التابعة لابن سعود وحكمه • وهنا بدر شيء من الغيرة من سعود تجاه اخيه فيصل بالنسبة للحجاز ، خاصة عندما اعرب سعود عن رغبته بقيادة الحملة هناك • ولكن الملك حل المشكلة بتعيين سعود وليا للعهد ونائبا له في العاصمة الرياض ، وتعيين فيصل نائبا للملك في الحجاز • ولما آنشئت وزارة للشؤون الخارجية سنة ١٩٣١ ، عين فيصل ايضا وزيرا

---

(٥) للاطلاع على وصف الحروب في عسير واليمن راجع «العربية السعودية» لفيلبي الفصلين ١٠ و ١١ ، و «فيصل» لـ دى غورى الفصلين ٤ و ٥ و « نظرة عامة على الشؤون الدولية ، ١٩٣٤ » لـ ارنولد توينبي (لندن ، ١٩٣٥) ص ٣١٠ — ٢١ •

للخارجية ، بسبب ما ابداه من براعة في الدبلوماسية اثارت الانتباه الى حد بعيد • وقد اثبت مقدرته في تحمل المهمة المزدوجة حين عامل شعب الحجاز ، بمساعدة مجلس استشاري ، كشريك كفؤ في مملكة ابيه وليس كشعب مغلوب على امره • وحين اقام في مكة ، عاصمة البلاد المقدسة، وبوصفه وزيرا للخارجية،كان كثيرا ما يزور جدة، البلدة التي يسكنها انماط من البشر ، لاستقبال رؤساء البعثات الدبلوماسية الاجنبية • وقد ساعده في هذا العمل بعض العرب الخبراء في السلك الخارجي الذين جندوا للعمل في البعثات الدبلوماسية السعودية • وسافر الى اوروبا قبل توليه وزارة الخارجية وكذلك بعد ان تولاها اي في سنة ١٩٢٦ و سنة ١٩٣٢ و سنة ١٩٣٩ ، بما في ذلك زيارته الرسمية للاتحاد السوفياتي • ومنذ الحرب العالمية الثانية زادت رحلاته الى الخارج ، سواء قبل تسلمه مهام الحكم او بعده ، وقد تناولت هذه الزيارات تقريبا جميع المناطق المهمة في العالم • ولم يكن هناك مجال للشك ، حتى قبل وفاة والده سنة ١٩٥٣ ، في ان فيصل اصبح الرجل الاوسع خبرة ، بين سائر افراد الاسرة السعودية (٦) •

ظلت السلطة العليا بين يدي ابن سعود ، حتى وفاته سنة

---

(٦) للاطلاع على عمل فيصل كنائب للملك ووزير للخارجية في الحجاز ، راجع «فيصل العظيم» لامين سعيد (بيروت ، ١٣٨٥ هـ/١٩٠) ص ٢٩ — ٤٩ ، و «فيصل» ل• دى غورى الفصل ٦ ، و «البلاد العربية السعودية» لفؤاد حمزة (الطبعة الثانية ، الرياض ١٩٦٨) ص ٨٤ — ٩٦ •

١٩٥٣ ، اما توزيع السلطات فلم يكن واردا . وقبيل وفاته، حين حال سوء صحته بينه وبين الاشراف المباشر على الحكم، تخلى ابن سعود عن بعض سلطاته لمجلس وزراء يتولى ابنه الاكبر رئاسته ، وقد انشىء المجلس بمرسوم صدر في ٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٣ . وكانت هذه اول مرة في تاريخ السعودية يمارس فيها السلطة احد غير الملك . الا ان عناصر المجلس بدأت تتكون في ظل سلطة الملك ، منذ سنة ١٩٣١ ، حين انشئت في ذلك العام وزارة الخارجية كما ذكرنا سابقا ، وتولاها نائب الملك في الحجاز . ثم تبعتها وزارات اخرى ، كوزارة المال (١٩٣٢) ووزارة الدفاع (١٩٤٤) ووزارة الداخلية (١٩٥١) [٧] .

ويبدو ان قضية خلفه شغلت بال الملك كثيرا قبل وفاته بمدة طويلة . فلم يكن الرجل العظيم مطمئنا لولي العهد سعود ، الذي لم يكن يفتقر الى الخبرة فحسب ، بل الى الحصافة وإعمال الرأي ايضا . وبدا واضحا ان فيصل سبق سعود نضجا ، وان الملك لم يخف اعجابه به . وروى لي حافظ وهبه ، احد مستشاري الملك ، انه سمع ابن سعود يقول في اكثر من مناسبة : « اتمنى لو كان عندي فياصل كثيرة .. » [٨] . الا ان سعود كان ولده الاكبر ، ولم ير

---

(٧) للاطلاع على وصف تطور هذه الوزارات وبنيانها، راجع «البلاد العربية السعودية» لحمزة ، ص ١١٤ وما بعدها .

(٨) أورد «دى غورى» الملاحظة ذاتها نقلا عن مستشار آخر كما يلي : «اتمنى لو كان عندي ثلاثة فياصل» (دى غورى «فيصل» ، ص ٧٨) .

من اللائق حرمانه من خلافته ٠

وقبل وفاة ابن سعود بمدة طويلة بدأت الشائعات تروج عن وجود خلافات في الرأي رغم دوام نفيها ٠ ودعا الرجل العظيم ابنيه لبحث موضوع خلافته مشيرا الى اخطار الخلاف والانقسام ، ثم طلب اليهما ان يقسما بأنهما لن يتنازعا قط بعد وفاته ٠ وتم الاتفاق على ان يخلف سعود والده وان يكون فيصل ولي العهد ٠ وبعد وفاة ابن سعود (٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ، ١٩٥٣) توجه الامراء بمن فيهم فيصل ، الى سعود بالذات وبايعوه ملكا باعتباره شقيقهم الاكبر (٩) ٠

وكان اول ما فعله سعود ، أن ثبت فيصل في منصب نائب الملك في الحجاز وفي منصب وزير الخارجية ، محتفظا لنفسه بمنصب رئيس مجلس الوزراء ٠ وهكذا اصبح الملك الجديد رئيسا للوزراء ايضا ٠ لعل فيصل كان يتوقع ان يكون هو رئيس الوزراء ، الا انه ــ وقد حدث ماحدث ــ لم يبد اي استياء ، ولم يظهر عليه الامتعاض ٠ ولكن الخلافات بين الملك وولي العهد ظهرت في الشؤون الخارجية التي كثيرا ما كان يعبر عنها بحذر وسرية ٠ فقد وقف فيصل موقفا مؤيدا من نظام الحكم الثوري الجديد

---

(٩) التقاليد العربية لا تفرض ان يكون الابن الاكبر الحاكم . ولكن ابن سعود قرر ان يخلفه ابنه الاكبر سعود تفاديا لوقوع نزاع عائلي . وقد اخذ عهدا على ابنائه جميعا يقرون فيه رسميا ان يكون سعود خلفا لوالدهم .

في مصر ، ووجه انتقادات الى حلف بغداد وشؤون اخرى وهي آراء لم تكن لتتفق مع موقف سعود • وهكذا حاد الملك عن السياسة الخارجية التي اتبعها وزير خارجيته • وأخطر من هذا ، موقف سعود المتأرجح من عبد الناصر، فحينا كان يقف في صفه مساندا ، وحينا يقف ضده معاديا• وقد حمل على حلف بغداد ، ولكنه ايد مبدأ ايزنهاور • واكثر من ذلك ، ان خلافه مع عبد الناصر انحدر الى المستوى الشخصي ، فقد ذكرت الشائعات ان عبد الناصر اشترك في مؤامرة مزعومة لاغتيال سعود ، وان العاهل السعودي حاول حل الوحدة السورية المصرية بعرض الرشوة على زعماء سوريين • واهم من ذلك كله ، ان سعود ، بسبب ما خلفه من عجز في الخزينة السعودية ، اوصل البلاد الى شفا الافلاس وأثار مخاوف عدة زعماء سعوديين • ومرد هذا العجز تبديده الاموال العامة وتبذيره في الانفاق •

وفي سنة ١٩٥٨ اتخذت اول خطوة للحد من سلطات سعود ووضع فيصل في مركز اقوى وفيه مسؤولية اكبر • فقد سافر فيصل للاستشفاء سنة ١٩٥٧ وعاد في مطلع ١٩٥٨ • وفي طريق عودته توقف في مصر ، وتحدث مع عبد الناصر حول السياسة الخارجية التي كان سعود يتبعها في غيابه ، واكتشف ان الملك يجري مفاوضات مع خصوم عبد الناصر العرب • واحتجاجا على ذلك اعتزل فيصل في شهر اذار (مارس) في مخيم في الصحراء بحجة انه كان يقضي فترة نقاهة ، اما سعود فقد انهمك بالدسائس

الخارجية واهمل الشؤون الداخلية حتى تردّت وفسدت.

بدأ الامراء ، الذين اقسموا يمين الولاء لسعود ، يساورهم القلق على مستقبل بلادهم فضلا عن مستقبلهم انفسهم . وقام بعضهم بقيادة فهد ، بما قد تسمى ثورة في القصر . ففي ٢٤ اذار (مارس) ١٩٥٨ ، دخل اثنا عشر اميرا على سعود فجأة حين كان يتناول طعام الافطار في رمضان مع واحد من شيوخ الاسرة معروف بتأييده الكبير لفيصل ، وبادروه بقولهم ، بأن الامراء اجتمعوا وتدارسوا الوضع الداخلي في المملكة ، ثم جابهوا الملك بقولهم : « لقد قررنا ان نطلب اليك التنازل عن العرش ، الا ان اخاك فيصل عارض الفكرة وطلب ان تبقى على العرش ، وقد نزلنا عند طلبه بشرط واحد ، هو ان تسلم جميع سلطاتك اليه » [١٠] . وامام هؤلاء الخصوم الاقوياء لم يجد سعود مناصا من الموافقة على ذلك التدبير . وفي اليوم نفسه ، صدر مرسوم بذلك ، وتولى فيصل السلطة فورا وبدأ يعالج المشاكل المالية الملحّة ويعمل على اعادة العلاقات الطبيعية بين بلاده وجاراتها العربية [١١] .

---

(١٠) « فيصل » لدغوري ، ص ٩٣ .

(١١) اتخذ فيصل تدابير سريعة لاعادة الاحوال الى طبيعتها ، يشهد على ذلك حاكم دائرة النقد السعودية الباكستاني انور علي الذي ساعد فيصل في مهمة استعادة البلاد وضعها المالي ، فقال : «في سنة ١٩٥٨ ، واجهنا تضخما برفع تكاليف المعيشة تسعين بالمائة ، وعند ذلك اعيد تنظيم الاوضاع المالية ، وادخلت على الادارة التحسينات المناسبة ، ووضعت

وتجدد الخلاف بعد سنة ، حين تبين ان سعود لم يكن راضيا عن ان يكون ملكا بالاسم مما حدا بفيصل الى مغادرة البلاد للاستشفاء ، او هذا على الاقل ما اعلن آنذاك ، ثم عاد عند منصرم السنة ، ليقدم استقالته من رئاسة الوزراء • واسترد سعود جميع السلطات وتولى رئاسة الوزراء خلال الاعوام الاربعة التالية • وعادت الاوضاع الداخلية الى التدهور ، فيما كان سعود منهمكا بالشؤن الخارجية • وزاد عدد الامراء الساخطين المتبرمين من الحالة ، ولكنهم اخذوا يتصرفون بحذر ، لأن سعود بدأ يجمع الانصار ، وصار صعب المراس •

وفي سنة ١٩٦١ ، بدأت صحة سعود تتدهور مما اضطره في سنة ١٩٦٣ للسفر مرات عديدة الى الخارج قصد العلاج• وفي سنة ١٩٦٤ عرّض سعود البلاد لخطر ماحق ، مما خلق في صفوف الامراء الاستياء والقلق ، ودفعهم للتشاور مع فيصل في نقل السلطة اليه • وزاد من قوة الامراء ان الامير طلال ، اقوى وزراء سعود ، تخلى عن الملك وراح ينتقده في الصحافة الاجنبية ، مما شجع بقية الامراء على الضغط على سعود كي يدعو فيصل الى تولي رئاسة الوزراء •

الموازنة على اساس صحيح ، وخفضت المخصصات الملكية ، وبدأت البلاد تعيش ضمن امكانات دخلها . طبعا ، لولا فيصل لما امكن تحقيق شيء من هذا . فقد نفذ الاجراءات الاقتصادية الصعبة وواجه نتائجها الاجتماعية . (جوديث ليستويل «العربية السعودية» ذى ليسنر (اول حزيران (يونيو)١٩٦٧ ص ٧٠٥ ــ ٧٠٦) .

وفي ١٩٦٣ وافق فيصل على تولي الحكم ، واصدر بيانا سياسيا يوحي بالثقة وتحسين الاوضاع [١٢] . الا ان الحرب في اليمن ، التي قربت القوات المصرية من حدود الاراضي السعودية اثارت القلق ، لان سقوط اليمن في يد عبد الناصر قد يوصل الحركة الثورية الى السعودية . وهنا عاد فيصل ، الذي كان على علاقات طيبة مع عبد الناصر ، الى بذل الجهود لمحاولة انقاذ النظام الملكي السعودي . ولما أثبت سعود عجزه الكامل ، راح الامراء يبذلون الجهد لدفعه الى التنازل عن العرش لفيصل . كما اخذ العلماء المتفقون مع الامراء يبحثون الموضوع في سبيل ايجاد مبرر قانوني لهذا العمل . وفي الوقت ذاته ، رأى فيصل ان لا بد من التشاور مع كبار شيوخ القبائل حيال خلافته ، لكي ينال تأييدهم .

وفي ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٤ ، اجتمع العلماء رسميا وأصدروا فتوى تنادي بفيصل ملكا على البلاد . الا ان فيصل الذي قبل ــ من حيث المبدأ ــ عرضهم اشترط اولا اقناع سعود بالتنازل عن العرش ، وباحلاله من يمين الولاء الذي كان اقسمه له وباعترافه بشرعية خلافته له [١٣] .

---

(١٢) راجع الصفحة ١٨٠ من هذا الكتاب للاطلاع على ملخص البيان .

(١٣) قال احد السعوديين : «لقد خسرنا احدى عشرة سنة والقناطير المقنطرة من الذهب بسبب محافظة فيصل على عهده لاخيه .

ووافق سعود على التنازل عن العرش في اول تشرين الثاني (نوفمبر) ، بعد ان ادرك عقم المقاومة ، وغادر البلاد فورا [١٤] .

بعدما اصبح فيصل ملكا ورئيسا للوزراء ، ألف مجلس وزراء جديدا قوامه رجال جدد اكفاء أولاهم الثقة لتسنم الحكم والادارة وفق اساليب عملية مجدية . وفي سنة ١٩٦٥ عين خالدا شقيقه الاصغر منه وليا للعهد . وهكذا بعد عشر سنين من وفاة ابن سعود ، عادت البلاد ليحكمها رجالها البررة . ومما لا شك فيه ان ارتقاء فيصل العرش كان تتويجا لحياة عملية طويلة دمغ خلالها البلاد بطابعه الموسوم بالجدية والذي لم يكن حصيلة احداث اوجدتها الصدفة ، ولولا ما يتمتع به فيصل من المزايا ، وما يختزنه من التجارب لما تمكنت القيادة الحكيمة من السير في البلاد نحو التطور المنشود .

لا ريب في ان آراء فيصل ومفهومه للاصلاح الاجتماعي آراء تقدمية بالنسبة الى المجتمع التقليدي ، مع ان الزعماء العرب الثوريين يعتبرونها آراء محافظة . لقد اطلع شعبه على آرائه في بيانات وفي مقابلات صحفية ، ولم يقدمها أبدا على شكل منهاج مفصل او في مشروع كما فعل معاصروه

---

(١٤) راجع نصوص الفتوى والوثائق الاخرى المتعلقة بالموضوع في «الوثائق العربية» ، ١٩٦٤ ، صفحة ١٣٦–١٣٧ ، و ٥٣٣ – ٥٣٥ ، و في « فيصل العظيم» لامين سعيد ، ص ٧٣ وما بعدها .

من الزعماء العرب • ولعل اقرب شيء الى المنهاج هو بيانه السياسي المؤلف من عشر نقاط ، الذي اذاعه يوم شكل حكومته في ٣١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٢ • ويمكن تلخيص النقاط العشر كما يلي :

١ ـ نظراً لأن نظام الحكم يجب ان يكون انعكاسا للتطور الذي يحققه الشعب ، فان الحكومة مستعدة لتطوير المجتمع تربويا وثقافيا واجتماعيا ، لكي يتمكن من الوصول الى المستوى الذي سيمثل فعلا شكل نظام حكم موحد مدروس ليحقق المثل العليا التي تنص عليها احكام الشريعة •• ولا ريب في أن الوقت قد حان لسن قانون اساسي للحكم ، مستوحى من القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة وسير الخلفاء الراشدين ، يحدد بوضوح مبادىء الحكم وحقوق المواطنية الاساسية ، بما في ذلك حرية التعبير عن الرأي ضمن حدود الاسلام والسياسة العامة •

٢ ـ ستسن الحكومة التشريعات التي تنظم الحكم المحلي في الاقاليم ، من اجل تحسين النظام الاداري وتحقيق التطور السياسي والاجتماعي •

٣ ـ سيتمتع القضاء بالحصانة والاحترام ، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف ستستحدث وزارة للعدل تشرف على شؤون القضاء الادارية ، فضلا عن ايجاد منصب النائب العام لصيانة حقوق الفرد وحماية مصالحه •

٤ ـ بما ان نصوص القرآن الكريم والاحاديث الشريفة ثابتة ، وأوضاع البلاد تتغير ، فمن الواجب درس شؤون

الدولة المهمة في ضوء هذه التغيرات ووفقا للشرع الشريف. لذلك تقرر انشاء مجلس قضائي مؤلف من عشرين عضوا، يتم اختيارهم من بين القضاة والعلماء المعروفين ، وستكون مهمة هذا المجلس استشارية حيال جميع القضايا التي تعرض عليه من الدولة او الافراد .

٥ ـ ستواصل الحكومة القيام بمهامها من اجل دعم مبادىء الاسلام ونشر دعوته وحمايته قولا وفعلا .

٦ ـ قررت الحكومة ، في سبيل القيام بهذه المهام تجديد لجنة الاخلاق العامة المعتمدة لتقديم الارشاد الخلقي انسجاما مع الاهداف التي انشئت اللجنة من اجلها .

٧ ـ من اهم اعمال الحكومة رفع مستوى الامة الاجتماعي . لذلك قررت مواصلة العمل لتأمين العلاج الطبي والتعليم المجاني في جميع المراحل . وسينص الضمان الاجتماعي الذي صدرت القوانين الخاصة به ، على مساعدة العجزة والمعاقين واليتامى والنساء ، الذين ليست لديهم موارد رزق . وقريبا سينال جميع المحتاجين مساعدة مماثلة، وكذلك العمال العاطلين عن العمل .

٨ ـ ستسن الحكومة قوانين تنظيم التطور الاقتصادي والاجتماعي ، وفقا لحاجات البلاد وامانيها .

٩ ـ اهم ما يشغل الحكومة في الوقت الحاضر التنمية المالية والاقتصادية ، وستوضع برامج اصلاحية لتشجيع المبادرات والاعمال الخاصة ، ورفع مستوى المعيشة ، وتحسين المواصلات والنقل . وستجرى دراسات بالنسبة

لمصادر ماء الشفة ومياه الزراعة. والمرجو انتصبح السعودية قريبا بلدا صناعيا وزراعيا يتمتع بالاكتفاء الذاتي ويملك مصادر الدخل الكافية . وسينشأ قريبا مصرف صناعي زراعي ودائرة عامة للنفط والمعادن ستعمل هي وغيرها من الدوائر على تنمية ثروات البلاد واستثمار معادنها وثرواتها الاخرى .

١٠ ـ يمنع الرق منعا باتا ، وستفرض عقوبة على الذين ما يزالون يمارسون هذه التجارة [١٥] .

من المؤكد ان هذه النقاط لا تشمل جميع متطلبات البلاد ، كما لا تشمل جميع آراء فيصل الاصلاحية . ولكنها تشير حتما الى اتجاهه الفكري والى الاساليب العملية التي سيتبعها لتحقيق تقدم بلاده المادي . لقد ادرك ، رغم نشأته في البادية ، انه لا يمكن لشعبه ان يبقى طويلا دون ركوب موجة التقدم والافادة منها . وكان هدفه الاساسي من غير ريب ، تحويل بلاده الى دولة عصرية . وقد قال مرة : « علينا ان نلحق بركب العالم المعاصر ونحتل فيه مكانا محترما ، شئنا ام أبينا » .

كان المطلب الاول لفيصل ، بعد ارتقائه العرش سنة ١٩٦٤ هو تحقيق الامن القومي ، اما مطلبه الثاني فكان

---

(١٥) للاطلاع على النص الكامل ، راجع «فيصل» لـ دى غورى ، الملحق الاول ، نقلا عن الاذاعة السعودية ، ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٢ .

الاسراع بتنمية بلاده اقتصاديا وزيادة الخدمات الاجتماعية. ولما كان هدف هذا البحث دراسة فيصل بوصفه زعيما سياسيا ، فمن المستحيل بحث تطور السعودية الحديث من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية [١٦] . ولهذا حاولت دراسة اهدافه واساليبه ودوره في السياسة العربية فقط . ويعتمد الكثير من المواد التي اوردها ، على المقابلات الشخصية معه ومع غيره من الشخصيات الوطنية التي خدمت البلاد اكثر من خمسين سنة [١٧] .

ليس فيصل زعيما ثوريا بطبعه او نشأته . فقد درس الدين الاسلامي وتفهم التقاليد القبلية والاعراف العربية وهو فخور بتراثه العربي ومحتده . كما انه يدرك ايضا انه زعيم بلد يحترم القيم الدينية وملتزما بالشرع الشريف. ولهذا فانه غير مستعد للانفصال بكليته عن الماضي او تقبل تشريع علماني خالص يحل محل الشريعة ونظام الحكم التليد . لقد شغلت باله كثيرا الاساليب التي اتبعها الزعماء الثوريون العرب ، ذلك لانها برهنت على انها في الاغلب

---

(١٦) للاطلاع على دراسة تطور السعودية الاجتماعي في السعودية خلال الاعوام الماضية ، راجع «الثورة الاجتماعية في العربية السعودية» لهيرمان ف. آيلتس ، «باراميتزر» المجلد الاول (ربيع ١٩٧١) ص ٤ — ١٨ ، (خريف ١٩٧١) ص ٢٢ — ٣٣ .

(١٧) سنحت لي فرصة لقائه اول مرة في ١٩٤٥ ، حين كان رئيس وفد بلاده في مؤتمر الامم المتحدة للتنظيم الدولي في سان فرنسيسكو ، وكنت عضوا في الوفد العراقي .

اساليب هدامة فضلا عن انها اخفقت في تحقيق التقدم الذي وعد الزعماء به الشعب • ويرى انه من سخرية الاقدار ، ورغم اتهام العسكريين للزعماء المدنيين بالرجعية ، ان هنالك من الدلائل ما يشير الى ان البلاد التي تخطو نحو التقدم ببطء وتأن ، تنعم بازدهار واستقرار أكثر مما تنعم بهما البلاد الثورية ، ثم انه لا يؤمن بمقدرة العسكريين على تسيير دفة الحكم ، لانهم كما يقول ، اهل لقيادة الجيوش، وليس للحكم المدني ، وان محاولاتهم اشراك الجيش في السياسة افسدت العمل العسكري والحكومي معا ، وابعدت الجيش عن مهمته الاولى ، وهي الدفاع عن البلاد ضد الهجمات الخارجية ، وجعلته ينزلق الى مهاوي النزاعات الداخلية (١٨) •

لم يستهو فيصل كذلك اتجاه الزعماء العرب العقائدي ولم يتأثر به • كما انه لا يرى في شعاراتهم التي يطلقونها سوى نداءات فارغة ، لانهم وعدوا الجماهير من شعوبهم بتحقيق ما لم يستطيعوا تحقيقه • ويأخذ على الزعماء كثرة تحدثهم عن العدالة الاجتماعية وحقوق الشعب التي لم يفعلوا من اجل تحقيقها الا القليل القليل • وهكذا يتضح ان اساليب فيصل اساليب واقعية • فهو يحاول معالجة القضايا العملية ، حتى اذا انجز واحدة انتقل الى اخرى • كما انه ليس مستعدا لان يقدم القيم الدنيوية

---

(١٨) مقابلة المؤلف مع الملك فيصل •

على القيم الدينية ، او يحلها محلها ، ذلك لأن القيم الدينية ما زالت في نظر العرب هي افضل ما يصلح لكل زمان ، الا ان هذا لم يَحُل بينه وبين اهتمامه المباشر بالمشاكل الاجتماعية ، والقضايا المادية • ولهذا فان برنامجه الاصلاحي لا يحمل في طياته معنى الثورة الدينية بل الثورة الانمائية او الصناعية • ويحضرني هنا سؤال كان الملك فيصل وجهه الي والى رئيس جامعة الرياض [١٩] خلال مقابلة جرت في اعقاب افتتاح جامعة الكويت سنة ١٩٦٦ فقال : « ما هي الكليات التي تتألف منها جامعة الكويت » وأجبت : « كليتا الآداب والعلوم » • فعلق جلالته : « نحن لسنا بحاجة الى كلية آداب ، بل الى كليات هندسة وطب ، لأن لدينا من الشعراء والكتاب ما يكفي » • وتدل هذه الملاحظة وغيرها من الملاحظات ، في ما يتعلق بحاجة العرب الى المهارات العلمية والتقنية ، على اهتمام فيصل بحاجة بلاده العاجلة الى النمو المادي ، قبل اعادة النظر في قيمها الخلقية والدينية •

اما بالنسبة للحرية الشخصية ، فيؤكد فيصل بأن ما يتمتع به الفرد من حرية في بلاده يفوق كثيرا ما يتمتع به في بلاد عربية اخرى ، وصرح قائلا : « لكل فرد الحرية في قول ما يعتقده » • ثم اردف مؤكدا : « وليس هناك من قيود على حرية التعبير عن الرأي » فالرقابة على الافراد في السعودية لا وجود لها ، وليست كما هي الحال في بعض الدول العربية ،

---

(١٩) الدكتور عبد العزيز الخويطر •

لان المواطنين السعوديين يتمتعون بحرية التعبير عن آرائهم حيال الشؤون العامة ، شرط الا تتعارض هذه الآراء مع المبادىء الاخلاقية والاجتماعية. لكن هذا لا يمنع من القول بأن هناك في بعض ما يدعى بالدول الثورية تساهلا اكثر في الاخلاق الاجتماعية وحرية العبارة اكثر منها في السعودية.

ويرى فيصل ان لامندوحة من ان يتمتع كل بلد عربي بالسيادة التامة ، وانه لا حق لاي بلد بالتدخل في شؤون البلد الاخر الداخلية ، وخاصة في النظام السياسي الذي من حق كل بلد ان يختاره لنفسه ويرتضيه . صحيح ان فيصل — كما يبدو — لم يكن مرتاحا لانتشار الافكار الثورية في البلاد العربية ، بيد انه يرى ان اختيار مصر للنظام الجمهوري ، بعد الاطاحة بالملكية سنة ١٩٥٢ ، كان من شؤونها الخاصة ، بل ذهب الى حد انشاء علائق ود وصداقة مع عبد الناصر . اما عند القضاء على الملكية العراقية ١٩٥٨ بانقلاب عسكري ، فقد تريثت حكومة فيصل اسبوعا قبل الاعتراف بنظام الحكم الجمهوري ، بينما اعترفت به مصر وبعض الدول العربية الاخرى فورا . وقد قال لي الملك فيصل ، ان الاسرة السعودية لم تشأ ان تخلف انطباعا يفسر بأنها مسرورة لسقوط الاسرة الهاشمية المنافسة . اما حين عجزت الثورة في اليمن عن القضاء على الحكم الملكي سنة ١٩٦٢ ، وأرسلت مصر قوة لمساعدة الجمهوريين اليمنيين ضد الملكيين ، عندها اعترض فيصل وحجته ان اختيار الحكم هو من حق الشعب اليمني . وعندما تمادى عبد الناصر في مد يد المساعدة للجمهوريين اليمنيين ، انبرى فيصل

لمساعدة الملكيين ، واستمرت الحرب الاهلية الى ان كانت حرب ١٩٦٧ العربية ــ الاسرائيلية التي اجبرت مصر على سحب قواتها من اليمن ، مفسحة امام الفئتين مجال الوصول الى تسوية حيال النظام الداخلي • ولو لم يبادر فيصل الى الاحتجاج على التدخل في شؤون اليمن الداخلية ، لما كان مستبعدا ان تعم الحركة الثورية انحاء الجزيرة العربية ، وتمتد الى بلاد عربية اخرى • لقد خطا فيصل خطوة ايجابية لدرء انتشار الافكار الثورية، فدعا رؤساء الدول الاسلامية الى التعاون على اساس اقليمي ، لحماية استقلال بلادهم وسلامتها، معتمدا المبادىء الاسلامية قاسما مشتركا للتعاون بين الدول العربية التي وجه الدعوة اليها • واصبحت هذه السياسة الاسلامية الجديدة ، الرامية الى توحيد صفوف الامم الاسلامية في وجه العدوان الاجنبي ، تعرف باسم سياسة « التضامن » الاسلامي • وهي سياسة تعارض جميع اشكال التدخل الاجنبي في البلاد الاسلامية ، مع ان معظم الزعماء الثوريين وصفوها بالرجعية ، بسبب معارضتها للنشاط الشيوعي • ولما هاجمت اسرائيل مصر وسوريا والاردن سنة ١٩٦٧ ، تحرك فيصل بدافع من روح التضامن الاسلامي نفسه،فسارع الى تقديم المعونة السياسية والمادية الى هذه الدول ، رغم الانتقاد الذي كان زعماء هذه الدول قد وجهوه لدعوته الى سياسة اسلامية • وفي مناسبة اخرى، حين اتت النار على جزء من الجامع الاقصى في القدس سنة ١٩٦٩ ، دعا فيصل الى مؤتمر قمة اسلامي ، اتخذ قرارا بالتنديد باسرائيل لانها لم تقم بحماية الاماكن الاسلامية المقدسة • وينظر المسلمون الى القدس بعين الاجلال

والتقديس ويعتبرونها ثاني القبلتين وثالث الحرمين بعد مكة والمدينة [٢٠] .

كتب دي غوري : « يقول الملك فيصل جازما بانه تعلم السياسة من والده الذي كان يقول جازما كذلك ، هناك شيء يجيده اكثر من أي شيء اخر ولا ينافسه فيه احد ، هو اسلاس قيادة البدو وتوجيههم » [٢١] . ولعل فيصل لم يبلغ ما بلغه والده في معاملة البدو الى حد مضاهاته بها . الا ان ما تعلمه بالنسبة لتفهم مشاكلهم وادراكها ، كان له زادا كافيا ، فضلا عما ادركه من امور اخرى كانت كلها في خير بلاده ، عندما بدأت تسير في ركب التغير بتأثير التدفق المفاجيء للثروات الجديدة . اما ما انجزه والده من اعمال في سبيل الاستقرار الداخلي ووحدة البلاد فلا يقدر بثمن ، الا انه كان لا بد من تحقيق هذه المنجزات حتى تبلغ نهايتها المنطقية ، اذا اريد للبلد البقاء من بعده .

واستطاع فيصل في الوقت المناسب تماما اكمال

---

(٢٠) للاطلاع على آراء فيصل حول السياسة الخارجية والنظام السياسي ، راجع «الوثائق العربية»، ١٩٦٣ ص ٦٨٣ — ٦٨٦ ، ١٩٦٤ ص ٤٦٧ ، ٥٣٧ — ٥٣٨ ، ١٩٦٥ ص ١٢٧ — ١٢٨ ، ١٩٦٧ ص ٧٦ — ٧٧ ، ١٠٠ — ١٠٢ ، ١١١ — ١١٢ ، ١٧١ — ١٧٢ ، ٣٠٨ ، ٦١٩ — ٦٢١ ، ٧١٣ — ٧١٤ . وراجع بعض خطب فيصل في كتاب «فيصل العظيم» لامين سعيد ، ص ٣٥١ وما بعدها ، وترجمة بعض هذه الخطب في كتاب «فيصل» للكاتب دى غورى ، ص ١٥٢ وما بعدها .

(٢١) «فيصل» للكاتب دى غورى ، ص ٥٧ .

عمل والده البناء بنجاح ، وذلك بفضل ما يتمتع به من سجايا قيادية وتصميم على تحقيق الاصلاحات . ويختلف عن المفتي الذي كان تقليديا بحتا ، في ان خبرة فيصل الطويلة وحصافته وتأنيه ومثابرته اتاحت له اتباع اساليب عملية أبقت على الصلة بالماضي ، وحققت الاصلاحات الضرورية التي مهدت السبيل امام بلاده للحاق بركب العالم الحديث . لقد بذل فيصل جهده في توجيه الاهتمام الى القضايا الداخلية ، التي اهملها سعود بسبب انشغاله بالشؤون الخارجية ، فحرص حرصا شديدا على تأدية كل واجب وتكريس معظم وقته لتصريف الاعمال الرسمية ، الى حد دراسة كل قضية دراسة مستفيضة وافية ، معتمدا بذلك كله على نفسه وخبرته ، حتى اذا اكتملت صورة الموضوع امامه ووضحت ، عمد الى اتخاذ القرار الحاسم الحكيم ، برغم ما يحيط به من الرجال الاكفاء ، وزراء ومستشارين ومساعدين .

قد يبدو هذا الاسلوب لاول وهلة مضجرا وبطيئا ، ولكن الدقة التي يتوخاها فيصل وكذلك رغبته الصادقة في تصريف وتنفيذ ما يعتبره من صالح الاعمال ، تدفعه الى تولي مقادير من العمل والمسؤوليات زادت على تلك التي تولاها والده رحمه الله ، الذي عمد في كثير من الحالات الى توزيع الاعمال ، متيحا للاخرين بسبيل التعلم والتمرس بالتجربة . ان مطالب فيصل كثيرة وملحة ، وهذا ما يجعله يبدو بالنسبة للعاملين لديه كأنه رئيس صعب ، الا انه في الوقت ذاته ، انسان منصف ومستقيم ، يراعي شعور الآخرين

واحاسيسهم،فضلا عما يمتاز به من وفاء بالعهد وبر بالوعد، ولطالما غضب على من ينكث وعدا او يخون عهدا .

ولما كان فيصل ، يرى ان خدمة شعبه وتأمين راحته هي واجبه الاول ، فقد اقتدى بوالده من حيث البساطة في التصرف ، وسهولة الوصول الى مجلسه . اما استقبال رعاياه وبحث قضاياهم ، والنظر في شؤونهم ومظالمهم ، فأمر لم يستنكف عنه قط [٢٢] . ولا ريب في ان سياسة الابقاء على اتصال الراعي بالرعية ، هي السياسة الحكيمة النيرة ، التي طالما عادت على الحاكم والرعية معا بالخير العميم ، ذلك ان اهتمام الحاكم الشخصي بشؤون الرعية ، يتيح له الاطلاع بنفسه على رغباتهم ، والاستماع الى آرائهم . ومن تقاليد الجزيرة العربية ، ان شيوخ القبائل هم الذين يتولون تلبية حاجات اتباعهم ، ولم يحد ابن سعود عن هذه القاعدة ، بل تقيد بها تقيدا شديدا ، وكان يرجو ان يبقي ابناءه على هذا التقليد فلا ينبذوه . من اجل ذلك ، نرى فيصل ، رغم كثرة مشاغله وضيق وقته ، يجلس الى رعيته يستمع الى شكاواهم ، وينظر فيها ويدون مطالبهم وينفذ منها ما هو حق .

وهكذا فان فيصل ما زال حتى يومنا هذا ، يبدو كأنه احد شيوخ القبائل . فلباسه وتصرفاته وعاداته كلها عربية

---

(٢٢) صرح فيصل مرارا بقوله : « اذا شعر اي واحد بأن معاملته اسيئت ، فلا يلومن الا نفسه ما دام اخفى عني ظلامته » .

خالصة ، حتى مظاهر الملك والأبهة والترف نبذها وراءه ظهريا ولم يحط نفسه منها بشيء • صحيح انه ، رسميا ، ملك البلاد ، وان الصحافة عندما تتحدث عنه تضفي عليه عبارات التبجيل والاحترام ، الا ان شيوخ القبائل ما يزالون يخاطبونه كما اعتادوا مخاطبة والده وكأنه واحد منهم (٢٣) • لقد زار الملك فيصل الكثير من الدول الاجنبية، الا انه في اسفاره كلها لم يتخل قط عن لباسه العربي المهيب،واما محادثاته مع رؤساء الدول والحكومات الاجنبية فكان يجريها على رسله متسربلا بثوب الوقار والاتزان • ولم يشذ ، منذ نشأته الاولى ، عن تصرفه الطبيعي ، ولم يتخل عن حلمه وحصافته خلال الزيارات الاجنبية ، الامر الذي لا يجعل منه دبلوماسيا ممتازا وحسب ، بل ممثلا لبلاده قديرا •

ولا ريب في ان اعتدال فيصل ، في القول والعمل ، هو اعظم سجاياه وصفاته • صحيح ان التقليديين المتزمتين المتطرفين العصرانيين ، لم ترق لهم أساليبه ، فاتهمه الفريق الاول بالتساهل مع المتحررين ، واتهمه الثاني بالبطء في تنفيذ الاصلاح ، ولكن هاتين الفئتين لا تشكلان غير نسبة ضئيلة

---

(٢٣) اخبرني الملك فيصل ان والده رحمه الله لم يشأ ان يدعى ملكا ، وان هذا اللقب فرض عليه عندما بايعه الاعيان حاكما على نجد والحجاز ، بعد اتحاد البلدين . وكانت عبارة «صاحب الجلالة» غريبة على البدو المتزمتين . وقد اعترف ابن سعود لاحدهم بأنه لم يرغب ولم يحب ان يدعى « صاحب الجلالة » .

من المجتمع ولا تمثلان الرأي السائد في شيء • الا ان هذا لا يمنع من القول بأن الخطر قد يكون مصدره فئة قليلة ناشطة تسعى بمختلف الطرق لفرض آرائها على الاكثرية، كما حاول « الاخوان » المتزمتون (الوهابيون المتطرفون) ان يفعلوا في عهد ابن سعود ، وكما يفعل الزعماء الثوريون اليوم في بعض الدول العربية الاخرى • ولم يكن فيصل ليجهل هذه الاخطار فحاول تفاديها بالتسامح مع بعض المتطرفين ومنحهم بعض التنازلات ، على ان ذلك لم يمنع من اتخاذ الاجراءات لتهدئة التقليديين المتزمتين ، الذين يصرون غالبا على التقيد المطلق بالتقاليد الدينية ومراعاتها فانبثقت لجنة الاخلاق العامة ، ارضاء لهذه الفئة المتدينة• وأما المجددون العصرانيون ، فقد اوكل اليهم مناصب حكومية رفيعة في مؤسسات التعليم الجديدة يشغلها شباب مندفعون ، همهم تنفيذ الاصلاح العاجل ، وتطوير البلد السريع ، وبذلك يكون قد ارضى الفئة الثانية المناقضة •

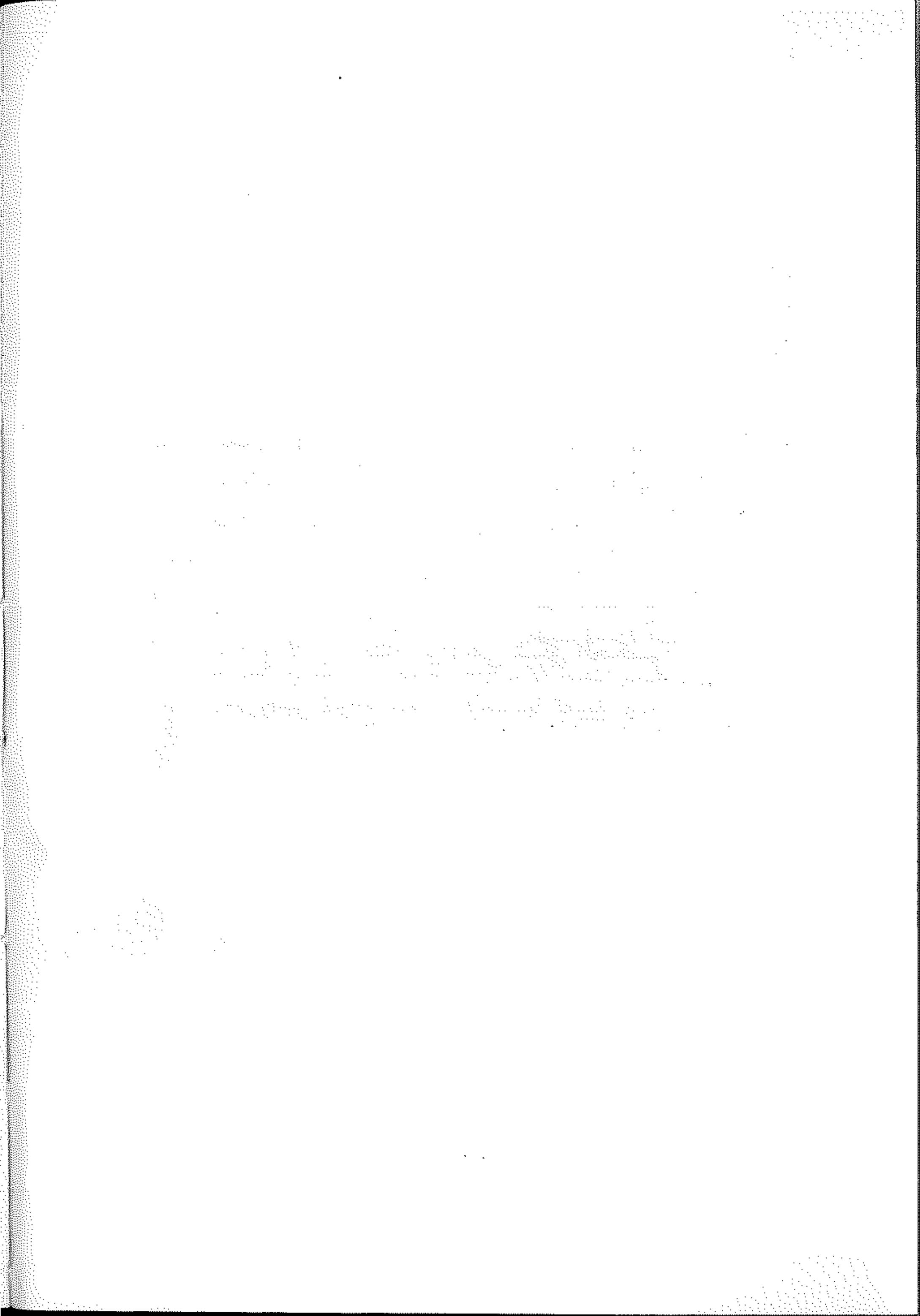
ومن نعم الله على فيصل ان موارد بلاده تفي بتلبية حاجات بلاده الأساسية المادية منها على الاقل ، دون تحميل البلاد عبء القروض الاجنبية ، التي كانت تفتح الطريق امام النفوذ الاجنبي • ولا شك في ان الاعتدال الذي يتبعه فيصل في كلتا السياستين الخارجية والداخلية ، هو الذي أنقذ البلاد من التورط في مجازفات اجنبية من جهة ، ومن الافراط في الانفاق على التنمية والتعمير ، الامر الذي يحتمل ان يؤدي الى انتفاضات اجتماعية داخلية ، من جهة اخرى • وكان ما شاهده فيصل من انفاق بعض الدول

العربية الغنية امثولة على الاسراف والتبذير ، بينما كان هو في اعتداله مثلا طيبا للاخرين بتخفيض نفقاته الخاصة الى المستوى المنطقي المعقول . صحيح ان بلاده تسير ببطء نسبي نحو التطور ، الا أن ذلك على المدى الطويل، قد يكون الاسلوب الامثل والاسلم ، ما دامت السعودية في منأى عن الثورات العسكرية .

واخيرا فان فيصل يعتقد بأن مهمته الاساسية هي تعزيز نظام الحكم الاجتماعي المعتدل نوعا ما ، والذي يضمن التقدم والاستقرار والازدهار النسبي . ثم انه ، كما اعلن مرارا في الشعب ، لا يبالي بشكل الحكم الذي يريده شعبه او اي شعب بلد عربي آخر ، فرأيه بالحكم هو كما قال الكساندر بوب :

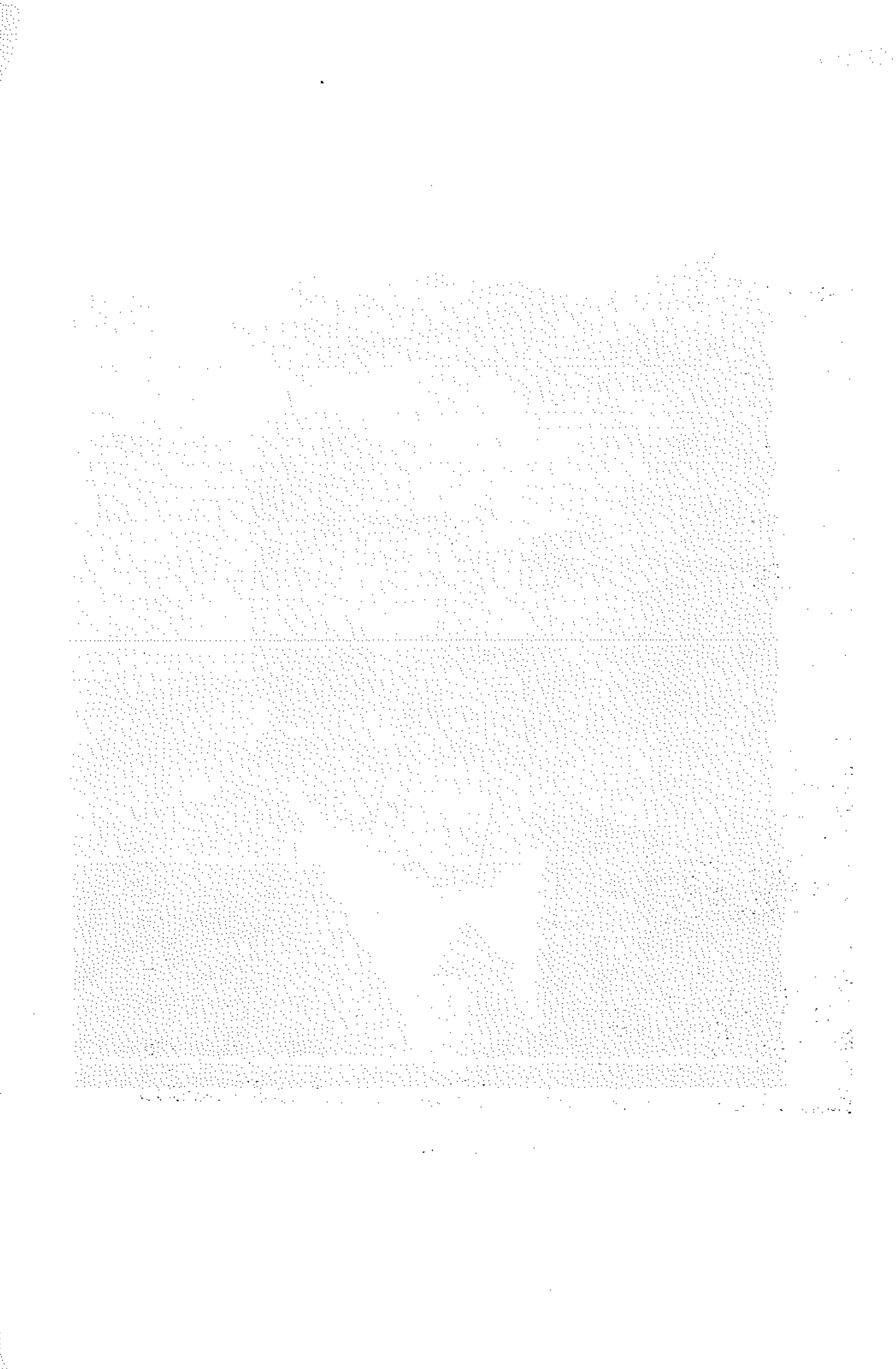
« دع الاغبياء يتنافسون على شكل الحكم

اما أحسن انواع الحكم فأحسنها تطبيقا » .





الحبيب بورقيبة



الفصل السابع

المدرسة الواقعية

الحبيب بورقيبة

من مهام الزعيم المسؤول الصعبة ، أن يرى أبعد مما يراه المناضلون ، وان يكون مقياسه للقيم صحيحا ، وان يضحي بالثانوي في سبيل الرئيسي ، بل ان يضحي حتى بكل مفضل عنده ، وبأحقاده الشخصية ،في سبيل ضمان استمرار المجموع وقوته وبالتالي فعاليته •

بورقيبة

يكاد الحبيب بورقيبة يكون نسيج وحده بين معاصريه من الزعماء العرب ، بسبب اعتماده اساليب سياسية ارتضاها انصاره ، ولكنها أثارت قلقا شديدا في اوساط اخرى • وقد اوقعته هذه الاساليب في نزاعات حادة مع زعماء عرب آخرين ، رغم ان الاهداف التي سعى الى تحقيقها خدمة لبلاده ، لم تكن لتختلف اختلافا جوهريا عن اهداف البلاد العربية الأخرى • وراح القوميون العرب ، وبينهم من هو في صف الزعماء المعتدلين ، يتهمونه بأنه اداة في يد الامبريالية ، بينما ذهب زعماء ثوريون آخرون ، الى اتهامه

بخيانة القومية العربية • الا اننا ، اذا اردنا ان نقيس أساليبه بمقياس واقع الحياة ، نجد انها افسحت له المجال في تحقيق استقلال بلاده قبل بقية الملحقات الفرنسية في شمالي افريقيا ، والسير بها بسلام على درب التقدم والاستقرار ، غير غافل عن تبني الاجراءات الاصلاحية الجذرية •

وقد نتساءل : لماذا تلطخت صورة بورقيبة في نظر العرب المعاصرين ، وما هي حقيقة الرجل ؟ ثم ماذا كانت العناصر الاساسية في أساليبه السياسية ، التي كثيرا ما اشير اليها اختصارا بالمذهب البورقيبي،وماذا كانت الحوافز والظروف التي اوجدتها ؟ سنعكف اولا ، في محاولتنا تقييم زعامته، على درس اصول اساليب بورقيبة وتطورها ، ثم دوره في السعي الى تحقيق اهداف بلده الوطنية ، واهداف البلاد العربية الاخرى •

ارتكز اسلوب بورقيبة السياسي على تحقيق الاهداف الوطنية بالطريقة المرحلية او «التدرجية»،وهي عملية تهدف فيها كل خطوة الى التمهيد للخطوة المنطقية التالية ، الى ان يستقر مواطنوه ، في نهاية الامر ، سائرين على طريق التقدم الطبيعي التي رسمتها الامم المتطورة • يعتقد بورقيبة ان هذا الاسلوب ليس سوى كفاح متواصل في سبيل بلوغ المواقع الملائمة ، وشرح لي انه بعد بلوغ الموقع الاول والتمركز فيه ، يتحتم تعزيزه وتحصينه قبل الشروع في اتخاذ الخطوة التالية • وبعد ذلك يسهل كسب مواقع اخرى وبالتالي تعزيزها • وهكذا يجب ان يستمر الكفاح الدائم في سبيل الاهداف الوطنية •

قد يبدو هذا الاسلوب لأول وهلة بسيطا ، ولكنه عمليا اجراء معقد ، فهو يفترض وجود مجموعة من الشروط الملائمة ، منها : الايمان المشترك بعدالة القضية التي تكافح الأمة في سبيلها ، والصفات القيادية الضرورية ، واستجابة الامة لدعوة الزعيم الى مواصلة الكفاح خلال انتقاله من موقع الى آخر • ويعتقد بورقيبة بأن مواطنيه يسلكون ، رغم اذعانهم الظاهري للسيطرة الاجنبية ، الصفات الاساسية اللازمة لخوض كفاح وطني ، ومنها ادراكهم لشخصيتهم القومية المميزة ، وتقديرهم لتراثهم الديني والحضاري الفريد ، وشعورهم القومي الكامن في صدورهم ، الذي يذكرهم بالمذلة والمهانة اللتين عانوا منهما في ظل الحكم الاجنبي • وقد تمكن بورقيبة من توفير الزعامة التي تحرك هذه العناصر وتجعلها تعمل في سبيل تحقيق اماني البلاد الوطنية • وكان يدرك اخطار سياسة تصارع الدول، فاعتمد في البداية ، على امكانات بلده الوطنية دون ان يعرض شعبه للمنازعات القائمة بين الدول الكبرى • كما انه يملك الحزم والصلابة فضلا عن التفاؤل والامل بانتصار القضية الوطنية الحاسم • لقد استطاع السير ببلاده نحو تحقيق الاهداف الوطنية ، خطوة بعد خطوة ، بصرف النظر عن المدة التي قد يستغرقها هذا الكفاح ودون ان يسقط من حسابه اخطار هذه العملية الطويلة • فقد يستغرق الكفاح لبلوغ مركز مرموق واحد مدة طويلة جدا • ولا يبعد ان ييأس بعض انصاره ويتخلوا عنه قبل تحقيق ذلك المركز وبدء معركة اخرى من اجل مركز آخر • وهو في ذلك لم يُخْفِ عن مواطنيه هذه الاحتمالات لتفادي الخيبة

التي قد تصيبهم ، ولا يفتأ يذكرهم بأن الايمان بعدالة القضية الوطنية سيحقق النصر لا محالة • وكان تفاؤله هذا مصدر وحي لجيل من المناضلين لا ينضب معينه ، فكانوا يسيرون على هديه بكفاح لا يعرف الملل ولا يتسرب اليه اليأس ، للانتقال الى مركز آخر اسمى وارسخ •

لم يكن بورقيبة يعني ، باعتماده على الامكانات الوطنية وعلى تعبئة التأييد الشعبي في الكفاح لأجل المكانة اللائقة بوطنه ، خوض صراع لا طائل فيه مع حكام بلده ، بل كان يرى ضرورة ترك الباب مفتوحا دائما امام المصالحة والتعاون في سبيل السعي الى تحقيق الخطوة التالية • ولقد بذل ما وسعه البذل في سبيل تفادي الطرق المسدودة ، الا اذا تنكر خصومه لموقف فيه الربح المؤكد وحالوا دون تحقيق هذا الربح • وفي ما عدا ذلك ، لم يكن بورقيبة ابدا ليغلق باب المفاوضة،فلم يؤثر عنه أنه قطع حوارا مع خصمه أبدا ، شأنه في ذلك شأن معاوية والي سوريا العربي ، ومؤسس الخلافة الاموية في القرن السابع الميلادي • فقد اشتهر عن معاوية قوله : لو كان بيني وبين خصمي مقدار شعرة بعير ما قطعتها قط ، فاذا شد بالشعرة أرخيت ، واذا ما أرخاها شددت • ولقد اتبع بورقيبة الاسلوب ذاته فلم يحاول ابدا قطع الحوار مع الفرنسيين حتى حين سجنوه • واستمر في دعوته الى المفاوضة ، علما منه بأن الفرنسيين حين يصبحون في وضع يؤهلهم للتفاوض ، فانهم سيعرضون نوعا من التنازل لا يرفضه ويكون هذا التنازل اللَّبِنَة التي تدعم الخطوة التالية •

لعل بورقيبة ايد الحوار مع الفرنسيين ، لاعتقاده بأن فرنسا كانت وستظل بالفطرة صديقة تونس وحليفتها ، فلطالما اعتمدت تونس على فرنسا اكثر من اعتماد فرنسا عليها • ولذلك كان يحاول تجنب الوصول الى حد قطع العلائق مع فرنسا ، مهما بلغ في التشدد معها وضغطه عليها من اجل الحصول على تنازلات • وكان يرى ان روح المنطق التي يتميز بها الفرنسيون ، هي التي ستسود في النهاية ، الامر الذي جعله يسعى الى مناقشتهم واقناع زعمائهم بالموافقة على بعض مطالب تونس الوطنية ، وحجته ان التعاون بين البلدين سيعود بالخير عليهما كليهما •

الا انه كان يدرك ان الفرنسيين ، شأنهم في ذلك شأن سائر الامم ، قد يضربون بالمنطق عرض الحائط ، لا يتنازلون حتى عن اقل الامتيازات شأنا ، وعندها لا يرى مندوحة عن اللجوء الى شيء من الضغط • فتارة يستصرخ الرأي العام العالمي العام ، وطورا يلجأ الى الدول العربية والآسيوية ، والولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ، ثم الى الامم المتحدة • ولكن ذلك كله لم يكن سوى مناورات ، اذ سرعان ما يعود بعدها الى التفاوض المباشر فور اظهار فرنسا استعدادا لذلك التفاوض • فقد ادرك ان استعداد فرنسا للاعتراف بمطالب تونس القومية ، سيكون الطريق المؤدي للاستقلال الناجز • ولكنه لم يستبعد كلية الاستعانة بالضغط على فرنسا لدفعها الى التفاوض ، لانه كان يعتقد بأن موافقة فرنسا على التفاوض تعني استعدادها لتلبية مطلب وطني •

تكمن قوة بورقيبة في مرونته واستعداده للتفاهم . فهو لم ينكر المصالح الجوهرية الفرنسية في شؤون الدفـاع او السياسة الخارجية . ونظرا لايمانه بأن مصالـح تونس مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمصالح الفرنسية والغربية ، فقد كان مستعدا للسماح لفرنسا بالاحتفاظ بحقها في الدفاع عـن بلده ضد العدوان الاجنبي،كما كان مستعدا لتوجيه سياسة بلده الخارجية بشكل يتفق والسياسة الخارجية الفرنسيـة (والغربية) بصورة عامة . وكان بورقيبة دائما من اشد المؤمنين بالسياسة الموالية للغرب ، لان السياسة الفرنسية والغربية تتفق مع آرائه حيال السياسة الخارجية والحـرب الباردة ، ولهذا السبب كسب تأييد العناصر الليبيرالية في فرنسا للوقوف معه ودعم مطالب بلده واهدافها الوطنيـة ، واستطاع كذلك ان يستميل كلا من بريطانيـا العظمى والولايات المتحدة لتؤيدا بلده في مطالبها[1] .

كان بورقيبة يؤكد دائما انه استمد اساليبه السياسيـة من تجاربه الشخصية في السياسة ومن دراسته الدقيقـة لأساليب زعماء تونسيين سابقين ومعاصرين ، خاضوا كفاحا

---

(١) ان آراء بورقيبه واساليبه السياسية مفسرة في العديد من مقالاته المنشورة وخطبه العامة ، قبل الاستقلال وبعده . راجع «تونس وفرنسا للحبيب بورقيبه (باريس ، ١٩٥٤) ؛ و «حديث الجمعة» لبورقيبه ، الناشر احمد الرتيمي، (تونس، ١٩٥٧)، وخطب اخرى نشرت في كراريس بالعربية والفرنسية والانكليزية . راجع ايضا لبورقيبه «الاسلوب التونسي» في مجلة «الشؤون الخارجية»، المجلد ٤٤ (١٩٦٦) ص٨٠-٤٨٨ .

وطنيا عقيما بأساليب غير عملية • ولكن اساليب بورقيبة لم تكن الاولى من نوعها في العالم العربي • ففي العراق وجد الملك فيصل الاول ، الذي تمكن من تحقيق استقلال بلاده سنة ١٩٣٢ بالاساليب السلمية ، ان الحكمة تقضي باتباع سياسة مرنة مع بريطانيا العظمى ، والقبول بما كانت مستعدة للتسليم به عبرالمفاوضات • واستمر فيصل ، في الوقت ذاته ، في المطالبة بالمزيد من الامتيازات والتنازلات ، وفقا لما كانت تسمح به الظروف ، الى ان اخذ الاستقلال لبلاده ووفر لها العضوية في عصبة الامم (٢) •

لم يكن مزاج بورقيبة وتنشئته ، هما الصفتان المناسبتان لاداء الدور الذي أوكل اليه للكفاح من اجل التحرر الوطني ، أقل اهمية من اساليبه التي اتبعها • فقد ساعدته صفاته وكذلك الظروف والفرص المؤاتية ، التي استغلها استغلالا كاملا ، على تحقيق الاهداف الوطنية بشكل تجاوز ما توقعه العديد من انصاره • وهكذا استمر بورقيبة زمنا طويلا يحتل ارفع منصب في بلاده بعد الاستقلال ويشرف ايضا على تخطيط سياسة المستقبل •

---

(٢) اتبع سياسة سميت عن جدارة بالعربية «خذ وطالب»، او «خطوة خطوة» حسب التعبير الغربي . واثبتت هذه الطريقة المعتدلة في معالجة العلاقات الانكليزية العراقية انها ليست اكثر افادة للعراق فحسب بل انها منسجمة ايضا مع السياسة الاستعمارية البريطانية التي سمحت للملحقات بالسير نحو الحكم الذاتي باسلوب بطيء سلمي (راجع كتابي «العراق المستقل» « (الطبعة الثانية ، لندن ، ١٩٦٠ ص ٥) راجع ايضا «صفحات من الماضي القريب» لساطع الحصري (بيروت ، ١٩٤٨) ص ١٦ وما بعدها .

لم يكن مذهب بورقيبة المرحلي او التدريجي مجموعة من المبادىء المجردة التي صمم لها قبل دخوله المعترك السياسي سنة ١٩٢٩ ، بل هو اسلوب سياسي مرن بدأت عناصره تتكون في فكره بعد أن بدأ المشاركة في كفاح بلده سعيا وراء التحرر الوطني • وعكف بورقيبة على تحسين هذا الاسلوب باستمرار ، مستعينا بالخبرة التي اكتسبها من نجاحه وفشله • وقد امتد أفق الاهداف الوطنية واتسع مع تقدم بورقيبة وانصاره وانتقالهم من موقع الى اخر • وكان من نتيجة هذا الاسلوب العملي ما برر تقيد بورقيبة به ، اذ اثبت للوطنيين التونسيين أنه اسلوب حقق اهدافا وطنية جوهرية •

لقد فوجىء بورقيبة منذ البداية ، حين دخل المعترك السياسي ، بالتباين بين المطلبين المتطرفين اللذين كانا يمزقان مواطنيه : اصرار الوطنيين التونسيين على الاستقلال ، واتباع الفرنسيين سياسة الاستعمار والتمادي في السيطرة والتسلط • صحيح ان فرنسا كانت من الوجهة القانونية ، دولة حامية فقط ، وان معاهدتي باردو والمرسي (١٨٨١ و ١٨٨٣) تعترفان بالسيادة التونسية ، ولكن توغل السيطرة الفرنسية خلال نصف قرن جعل سلطة رئيس الدولة والوزراء التونسيين اسمية ، بينما كانت السلطة الحقيقية الفعلية في ايدي الحاكم الاداري وموظفيه • واتضح لبورقيبة ، انه بينما كانت البلاد تنزلق تدريجيا من ايدي التونسيين الى ايدي الفرنسيين وبينما كان هم الزعماء الوطنيين ينصب على تأكيد شرعية مطالبة تونس بالسيادة

والاستقلال ، وهو مالم ينكره الفرنسيون من حيث المبدأ ابدا ، كانت السيطرة الفرنسية على البلاد تتسرب من خلال سياسة الاستيعاب المرحلي التدريجي . وذهبت السلطة الفرنسية في ذلك الى حد انها بالاضافة الى فرض لغتها وثقافتها على التونسيين راحت تشجعهم ايضا على اتخاذ الجنسية الفرنسية هوية لهم ، ذلك لأن عدد المستوطنين الفرنسيين كان ضئيلا نسبيا ، ولم يكن في مقدور هؤلاء السيطرة على البلاد ، الا بعد ان يصبح الكثير من التونسيين فرنسيين جنسية وثقافة . وقد رأى التونسيون في هذه السياسة محاولة للقضاء على الهوية القومية التونسية ، تمهيدا لجعل البلاد جزءا من فرنسا . وأدرك بورقيبة عقم المطالبة بالاستقلال بأساليب متطرفة ، ودعا الى جعل الهدف العاجل للنشاط الوطني ، قلب اتجاه عملية الاستيعاب . وحث رفاقه الوطنيين (زعماء حزب الدستور) على الاصرار بمطالبة فرنسا تنفيذ التزاماتها بموجب معاهدة باردو ، وحماية حقوق التونسيين الجوهرية وفق نظام الحماية ، دون أن يلجأ الوطنيون الى الاضطرابات العقيمة من اجل بلوغ الاستقلال . واشار بورقيبة الى ان الخطوة العملية الاولى في هذا الاتجاه هي مطالبة السلطات الفرنسية بوضع حد لتمييزها بين التونسيين والمستوطنين الفرنسيين وبالتخلي عن محاولاتها لاغراء التونسيين بطلب الجنسية الفرنسية . وقد ادرك طبعا انه لا يستطيع منع السلطات الفرنسية من منح الجنسية الفرنسية لطالبيها ، الا اذا رفض التونسيون انفسهم الانضواء تحت لواء الجنسية الفرنسية . وفي سبيل هذه الخطوة العملية بدأ بورقيبة وانصاره يكتبون ،

في جريدة حزبهم « لاكسيون تونيزيين » (العمل التونسي) ، مقالات تشيد بهوية بلادهم الثقافية والقومية ، وهو ما يوحي بالافتخار بتاريخها وتقاليدها •

ومع ذلك فان عرض الفرنسيين الجنسية الفرنسية ، كان يحمل في طياته امتيازات معينة ، وخاصة الامتيازات المادية، التي لم يكن جميع التونسيين ليديروا لها ظهورهم ويرفضوها (٣) • وكان بعض التونسيين قد اصبحوا آنذاك من المواطنين الفرنسيين ، واظهروا ميلا للتخلي عن هويتهم القومية ، بعد ان اصدرت السلطات الفرنسية سنة ١٩٢٠ مراسيم ، تمنح التونسيين فرصة اكتساب المواطنية الفرنسية، جميع ما في هذه المواطنية من الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها المستوطنون • وأحدث هذا العمل ضجة في الاوساط الوطنية ، ولكن لم يتخذ اي اجراء جدي آنذاك لردع الذين كانوا على استعداد لتخطي الحواجز القومية •

وفي سنة ١٩٣٣ بدا ان التونسيين الذين كانوا على استعداد للتخلي عن جنسيتهم القومية ازدادوا عددا ، بعد ان وسعت السلطات الفرنسية نشاطها لكسبهم الى جانبها • وكان الايطاليون واليونانيون والمالطيون المقيمون في تونس، قد اصبحوا مواطنين فرنسيين • واستنادا الى فتوى

---

(٣) كان للمواطنين الفرنسيين الحق بما يدعى « الثلث الاستعماري » ، أي زيادة حوالى ٣٠ بالمائة على رواتب الفرنسيين العاملين في الخارج . ويصبح هذا الامتياز من حق كل من يصبح مواطنا فرنسيا (حتى لو كان مولودا في تونس) .

اصدرها احد العلماء المؤيدين لفرنسا بدأت السلطة الفرنسية تشجع المفكرين وموظفي الحكومة التونسيين على التمتع بامتيازات هذا الوضع الجديد دون تغيير دياناتهم • ورد بورقيبة وحزبه على ذلك فاستصدرا فتوى من عالم آخر أعلن فيها ان كل مسلم يموت كمواطن فرنسي ، يفقد حق دفنه في مقبرة اسلامية ، لأنه بتغييره جنسيته ، تخلى عن امتيازاته الدينية • دفعت تلك النقمة وذاك النزاع اللذان اثارهما بورقيبة وانصاره بين صفوف الشعب ، السلطات الفرنسية الى تعديل موقفها ، والقبول بتسوية تقضي بألا يدفن التونسيون ، الذين اختاروا الجنسية الفرنسية ، مع باقي المسلمين ، بل في زاوية خاصة من المقبرة ذاتها • وقد اعتبر بورقيبة هذه التسوية انتصارا لحزبه لأنها اثبتت ان التحركات الوطنية تستطيع اجبار فرنسا على منح التنازلات • ومهما بدا هذا الكسب ضئيلا ، فانه كان الكسب الذي سعى بورقيبة الى تحقيقه ، اي كسب المعركة خطوة خطوة •

لم يكن لهذا « النصر » ، الذي هنأ بورقيبة نفسه عليه ، تأثير في نفوس زعماء حزب الدستور الذين اعربوا عن شكهم بجدوى هذا الاسلوب السياسي • وشعر البعض بخيبة أمل لهذه التسوية ، لأنها ظلت تسمح للتونسيين ، الذين اصبحوا مواطنين فرنسيين ، بأن يدفنوا في المقبرة الاسلامية • وفي كانون الثاني « يناير » ١٩٣٤ ، حمل زعماء حزب الدستور في بلدة قصر هلال على بورقيبة لانه اقدم دون استشارة احد على الاتفاق مع السلطات الفرنسية • وكانت الحملة من الشدة بحيث حرمت بورقيبة حتى حق الدفاع

عن نفسه ، وقضى القرار بتخلي بورقيبة عن أساليبه السياسية العقيمة او الانفصال عن زعماء حزب الدستور • واستمر النزاع الشديد بين زعماء حزب الدستور المخضرمين والشباب ، من كانون الثاني (يناير) الى آذار (مارس) ، ولم ينته الا بعدما قرر الزعماء الشبان في ٢ آذار (مارس) ١٩٣٤ انشاء مكتب سياسي جديد لحزب الدستور بقيادة بورقيبة ، وهو المكتب الذي اصبح نواة حزب الدستور الجديد •

كان هذا الحادث ، الذي تميز بانتقال القيادة من أيد جامدة الى أيد نشيطة بارعة ، نقطة التحول في حياة بورقيبة السياسية ، وأفسح له المجال في تنشيط الكفاح الوطني التونسي وفق اساليب جديدة قوية • وبعد ان تحرر بورقيبة من قيود القيادة المخضرمة لم يعد يجد ما يمنعه من التوجه مباشرة الى الشعب التونسي ، واثارة نقمته ضد الاعمال التمييزية • ثم راح ينفخ في الشعب روح الثقة والعزة القومية ، ويحضه على المطالبة بالمساواة في جميع المجالات مع المستوطنين الذين ينعمون بالامتيازات • وأدت الاضرابات والمظاهرات ضد حوادث الاضطهاد والظلم المتعمدة ، الى اشتباكات مع الشرطة ، مع ان بورقيبة كان دائما يحذر مواطنيه من اللجوء الى العنف • ومع ذلك فانه لم يتهرب مرة من المسؤولية عند وقوع امثال تلك الاعمال، حتى لو كان المتطرفون هم الذين حرضوا عليها • ولكنه كان في النهاية يلقي التبعة على السلطات الفرنسية بسبب رفضها المطالب الوطنية الشرعية العادلة • كانت قوانين

المحمية وانظمتها تجيز اعتقال بورقيبة ونفيه ، ومع هـذا فانه كما يبدو ، كان يرحب بالنفي ، لأنه يعزز مكانته بين مواطنيه ويزيد من شهرته • ولقد امضى بورقيبة منـذ دخوله المعترك السياسي عشرين عاما يكافح ويناضل فـي سبيل تحرير وطنه ، قضى نصفها ، اما معتقلا او منفيا ، كان آخرها سجنه في فرنسا سنة ١٩٥٢ •

بدأ بورقيبة منذ ايلـول (سبتمبر) ١٩٣٤ ، يتعـرض لسلسلة من الاعتقالات والنفي في اعقاب اشتباك بين فئـة من المتظاهرين والشرطة ، فأبعد الى قرية في جنوبي البلاد ، حيث امضى العامين التاليين • بيد انه لم ينقطع عن الاتصال بأنصاره ، خاصة صالح بن يوسف وغيـره من الزعمـاء الشبان ، الذين واصلوا اثارة الاحتجاجات والمظاهـرات ضد الأعمال الفرنسية • وقد وصف بورقيبة عامي النفـي ذينك في حـديث له مع مؤلف هذا الكتاب بأنهما كانـا مرحلة « قطيعة » بين الزعماء الوطنيين والسلطات الفرنسية ، الا انه كان مصمما على ايقاف المناورات السلبية ، ساعـة يبدي الفرنسيون استعدادا للتسوية والتفاوض معه • وفي ١٠ حزيران (يونيو) ١٩٣٦ نشر قائمـة من الاقتراحات معلنا بأنها الحد الادنى من المطالب الوطنية ، التي كان حزب الدستور قد وضعها وقدمها الى الفرنسيين • وينص بعض هذه الاقتراحات على حق الشعب التونسي بتقرير موازنته القومية ، وبسن قوانـين بواسطة مجلس تمثيلـي ضمن اطار نظام المحمية الدستوري • وتشمل الاقتراحات ايضـا مطالب خاصة بسن قانون جديد بالنسبة لجنسية التونسيين

والافراج عن السجناء السياسيين ، وعدة بنود اخرى تتعلق بالاصلاحات المالية والقضائية والاجتماعية والتربوية [٤] •
وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٦ ، توجه بورقيبة مباشرة الى العاصمة الفرنسية لتقديم هذه المطالب الى بيير فيينو وكيل وزير الدولة للشؤون الخارجية في حكومة « الجبهة الشعبية » الجديدة ، التي شكلها ليون بلوم ، والذي بدا انه توصل معه الى تفاهم حيال مستقبل العلاقات بين فرنسا وتونس ، ضمن اطار المحمية [٥] • كانت حكومة بلوم آنذاك منهمكة في مفاوضات مع الزعماء الوطنيين لبلادالمشرق تمهيدا لمنحها الاستقلال • وكانت تدرس امكان منح امتيازات تحريرية مماثلة الى تونس والمغرب (مراكش) •
وقد عاد بورقيبة في مطلع ايلول (سبتمبر) ليدعو مواطنيه بحماسة الى التعاون مع السلطات الفرنسية ، اعتمادا منه على هذه الوعود الليبيرالية • وكانت هذه الخطوة ، كما وضعها بورقيبة في حساباته ، « موقعا » رابحا آخر ، اعتبره هو وحزبه الركيزة التي ستكون بداية فصل جديد في العلاقات الفرنسية التونسية •

بيد ان هذا الوعد الفرنسي كان قصير الاجل • ففي

---

(٤) للاطلاع على ملخص لهذه المطالب راجع « الحبيب بورقيبه : حياته وجهاده » لوزارة الاعلام والارشاد التونسية (تونس ، ١٩٦٦) ص ٢ — ٦٣ •
(٥) للاطلاع على وصف لاحاديث بورقيبه وفيينو ، وعلى نص الاقتراحات المقدمة الى فيينو ، راجع «تونس وفرنسا» لبورقيبه ، ص ٧٧ — ٨٣ و ٨٣ — ٩٠ •

سنة ١٩٣٧ سقطت حكومة ليون بلوم وتوقفت المفاوضات بالنسبة لاستقلال الاقطار المشرقية ، كما انقطع التقارب مع الزعماء التونسيين ، واعتبر بورقيبة تسنع الفرنسيين عن مواصلة المفاوضات (وهو امر احس به من قبل سقوط ليون بلوم) نقضا لعهد يبرر توقف الحوار الذي ما كاد يبدأ حتى انقطع • وأدى انقطاع المفاوضات الى تجدد الاضرابات والمظاهرات ، التي استمرت خلال العامين التاليين ، ودفعت السلطات الفرنسية في نهاية الامر ، الى اتخاذ تدابير تأديبية ، فأمرت باعتقال بورقيبة وعدد من الزعماء الاخرين ،بينهم الباهي الادغم والمنجي سليم [٦] • وقضى بورقيبة الاعوام الخمسة التالية في المعتقل او المنفى بين تونس وفرنسا وايطاليا ، ولكنه لم يبق مكتوف اليدين تماما • وفي سنة ١٩٤٣ ، بعد ان اسره الالمان ، سلم الى الايطاليين على أمل ان يتعاون مع المحتلين ويخون وطنه ، الا انه كان املا عقيما تافها •

لم يؤثر النفي ولا السجن ، على رغم ما فيهما من بالغ الازعاج ، في ايمان بورقيبة بأن تحرير بلاده ، بصرف النظر عن مبادئه السياسية ، رهن بالتعاون مع فرنسا وليس بالاتفاقات السرية مع اعدائها • ورغم وعود المحور السخية ، التي كان مقدرا لها ان تغري على التعاون زعماء

---

(٦) المرجع ذاته ص ١٠٦ وما بعدها ، ١٦٨ ـ ٧٢ واعتقل الزعماء الآخرون بتهمة اثارتهم الاضطراب السياسي تأييدا لبورقيبه او بسبب نشاطهم السري الذي يحرّمه القانون .

دونه وطنية ، فقد ظل بورقيبة امينا لمبدئه الذي يقول بأن الديموقراطية لا الدكتاتورية هي ما تختاره بلاده • وقد طلب الى اتباعه في رسائل سرية ، تقديم المساعدة الى الدول الديموقراطية وليس الى المحور • ومما يكتب لبورقيبة في سجل الحسنات انه لم يعلق آماله على انتصار الدول الديموقراطية فحسب ، كما اعلن في احدى رسائله الى زعيم وطني سنة ١٩٤٢ ، بل ان ايمانه الراسخ كان يرتكز على مبادىء ديموقراطية لا دكتاتورية (٧) •

وما كاد بورقيبة يعود الى بلاده في ٧ نيسان (ابريل) ١٩٤٣ ، بعد انتصار الحلفاء على قوات المحور في تونس، حتى استأنف الكفاح في سبيل تحرير وطنه من خلال التعاون مع فرنسا على انشاء كتلة فرنسية تونسية (٨) • ولكنه ، رغم رغبته في التعاون فقد قوبل بالرفض ، لأن الفرنسيين الاحرار كانوا يرغبون في اعادة سيطرة فرنسا على بلاده • ومن جديد ، راح هو وانصاره يتابعون مقاومتهم في الداخل • وادرك القيمة التي تكمن وراء عرض القضية

---

(٧) راجع نص رسالة بورقيبه الى حبيب تامر ، زعيم حركة المقاومة السرية التونسية، وهي بتاريخ ٨ آب (اغسطس) ١٩٤٢ ، في كتاب «تونس وفرنسا» لبورقيبه ص ١٧٧ ــ ٨٢٠

(٨) المرجع ذاته ١٨٤ ــ ٨٧ • افرج الالمان عن بورقيبه من الاعتقال العسكري الفرنسي في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢ ، وسلموه الى السلطات الايطالية املا بأن يتعاون معها • وقد عاد الى تونس في ٧ نيسان (ابريل) ١٩٤٣ ، قبل شهر من هزيمة المحور في شمالي افريقيا •

التونسية على العالم وعلى الامم المتحدة ، التي بدأت دول آسيا وافريقيا الجديدة تمارس فيها نفوذا متزايدا . وهكذا غادر بورقيبة بلاده مكرها سنة ١٩٤٥ ، للقيام بجولة طويلة في الشرق الاوسط واوروباالغربيةوالولايات المتحدة . وكان خلال هذه الجولة ، على اتصال مستمر مع اوساط سياسية عربية واوروبية واميركية ، في محاولة للضغط على فرنسا كي تتفاوض مع الزعماء الوطنيين التونسيين ، بل لقد ذهب الى مناشدة الرأي العام الفرنسي مباشرة ودون تردد. فبعد عودته الى تونس سنة ١٩٤٩ ، سافر الى باريس سنة ١٩٥٠ واتصل بالزعماء السياسيين الفرنسيين ، وخاصة الحزب الاشتراكي ، الذين استقبلوه واستمعوا اليه بتفهم وعطف . ويبدو ان الزعماء الاشتراكيين وعدوا بتأييد المطالب التونسية الخاصة بانهاء نظام الحماية ، وبالاستعاضة عنه بمعاهدة تحالف فرنسية تونسية ، يتعاون البلدان وفقها في الشؤون الدفاعية والمالية والثقافية والخارجية . هذه الجهود ، التي رافقها ضغط متواصل من الاوساط الوطنية، دفعت فرنسا الى تلبية بعض مطالب تونس الوطنية ، ولكن المفاوضات بين الحكومة الفرنسية والزعماء الوطنيين لم تستأنف الا بعد ان جاء منديس ــ فرانس زعيم الحزب الاشتراكي الراديكالي ، الى الحكم سنة ١٩٥٤ . وبعد مفاوضات طويلة ، تبعتها زيارة منديس ــ فرانس لتونس سنة ١٩٥٤ ، وقعت معاهدة بتاريخ ٣ حزيران (يونيو) ١٩٥٥ تمنح تونس الحكم الذاتي ، او الاشراف الكامل على الشؤون الداخلية . وكانت هذه خطوة اخرى نحو الاستقلال الناجز ، اثبت بورقيبة فيها القيمة العمليةلاسلوبه

المرحلي التدريجي • ورغم ذلك، فان الاتفاق الفرنسي الجديد تعرض للانتقاد من قبل صالح بن يوسف ، وهو من كبار مؤيدي بورقيبة ، باعتبار ان الاتفاق المذكور لم يعترف بحق تونس بالاستقلال • ويبدو ان بن يوسف ، الذي كان له انصار كثيرون في البلاد ، فكر بالسعي الى السلطة ، ولهذا حاول أن يضعف الثقة ببورقيبة لانه لم يصر على الاستقلال العاجل • وانتهت المنافسة بين الزعيمين باقتراع على الثقة كانت نتيجته لخير بورقيبة • وغادر صالح بن يوسف البلاد ليستأنف صراعه الشخصي ضد بورقيبة ، الا انه ما فتىء ان اغتيل خلال تغربه • واسفرت المفاوضات التالية في سنة ١٩٥٥ وسنة ١٩٥٦ ، التي طالب بورقيبة خلالها بالغاء اتفاقات الحماية ، عن اعتراف فرنسا اخيرا باستقلال تونس (٢٠ آذار ، مارس ١٩٥٦) الامر الذي اثبت مجددا قيمة أسلوبه التدريجي • وبلغ ذروة حياته السياسية عندما اصبح رئيسا للحكومة سنة ١٩٥٦ ، ثم رئيسا للدولة سنة ١٩٥٩ ، وهذا ثواب ما كان يحلم به قبل عقد من الزمن •

وهكذا وجد مبدأ بورقيبة التدريجي ما يبرره تبريرا كاملا ، خاصة داخل بلاده وبعد الاستقلال حين زالت السيطرة الفرنسية ، ولم تعد تشغل بال الكفاح الوطني • الا انه بدأ يواجه المتاعب في اوساط اخرى ، وبشكل يختلف كل الاختلاف عما عرفه من انتقاد في السابق • ولم يجد بورقيبة صعوبة في اقناع انصاره باتباع نفس الاساليب في اعادة تنظيم البلاد وتنميتها داخليا بعد الاستقلال • ولكنه لم يتمكن من اقناع الزعماء العرب ، في دول عربية اخرى ،

بتقبل آساليبه • وزاد على ذلك ، ان مد الحركة الثورية العربية بدأ يؤثر في الجيل الجديد في تونس الذي اخذ يعرب عن شكه بصحة اساليب بورقيبة لتحقيق الاصلاح الاجتماعي • وقبل ان نقيم هذه القوى الاجتماعية الجديدة، فلنتحدث عن شخصية بورقيبة وسجاياه ، من حيث ارتباطها بزعامته •

ان البلاد التي تتعرض لتغير اجتماعي سريع تتيح للزعماء السياسيين مجال تأدية دور في السياسة ، اذا توافرت لديهم الصفات اللازمة لتقدير عمل القوى المستترة• فقبل الاحتلال الفرنسي ، كان يحكم تونس أمراء وعسكريون وجدوا ان مصلحتهم تقضي بالسعي للتفاهم مع الفرنسيين بدلا من مقاومتهم ، عندما كان البلد تحت السيطرة الفرنسية ، وكان الدين والقبلية العنصرين الرئيسيين في حضارة شمالي افريقيا • الا ان هذين العنصرين مع مرور الزمن ، قضت عليهما القوى الاجنبية ولم يعودا قاعدة فعالة للزعامة • وقد برز زعماء جدد من بين القوى الوطنية الناهضة ، ونجح بورقيبة ، الذي يتحلى بالسجايا والصفات الضرورية للزعامة الجديدة ، حيث فشل الزعماء المخضرمون، لانه جسد الآمال والاماني ، التي خنقت منذ فرض النفوذ الاجنبي على وطنه •

ولد بورقيبة في مناستير في ٣ آب (اغسطس) ١٩٠٢ ، في عائلة متواضعة من حيث الامكانات • ورغم مكانتها الاجتماعية المحترمة ، فان هذه العائلة حتى بالنسبة للمقاييس المحلية لم تعتبر من الطبقة الوسطى • وكان للمكان الذي

ولد فيه بورقيبة ووضعه العائلي والمحيط الاجتماعي الذي نشأ فيه ، تأثير في حياته ساعده كثيرا على تكييف نفسه في عمله السياسي وتوجيهها •

اما والدا بورقيبة فلم يكونا من الطبقة التي ارتبط مصيرها ارتباطا وثيقا بالسلطات الفرنسية والمستوطنين ، كما لم يكونا من العمال والفلاحين الذين كانوا يشكلون الطبقة الدنيا الساخطة على المجتمع • وهكذا لم يكن بورقيبة مدينا للفرنسيين بالرعاية ، كما انه لم يكن راضيا عن اصحاب السلطة ، وخاصة الباي • والواقع ان جده اشترك في ثورة ضد الباي • ولكن علينا ان نذكر ايضا ان والده عليا ، الذي انضم الى القوة المسلحة الصغيرة التابعة للباي اشترك في قمع هذه الثورة سنة ١٨٦٥ • وكان جزاؤه على خدماته ترقيته الى رتبة ملازم ثان ، قبل ان يتقاعد سنة ١٨٨١ ، في اعقاب قيام الحماية الفرنسية وتسريح الجيش المحلي • وفي سنة ١٨٩٣ عاد فعمل مرة اخرى في عهد الباي موظفا في احدى القرى ، ولكن لم تنقض اربع سنين حتى استقال من عمله لاسباب غير واضحة تماما • وغني عن القول ان عائلة بورقيبة التي كانت تتكون من سبعة اشخاص ، اختين وخمسة اخوة صغيرهم الحبيب بورقيبة ، رغم مرتبتها المتواضعة ، كانت مطمئنة نسبيا في حياتها ، بفضل دخلها الضئيل وعلاقتها مع السلطات المحلية •

كان لبلدة بورقيبة تأثير مهم اخر • فقد ولد في بلدة تقع على الساحل الممتد من شمالي شرقي البلاد الى جنوبيها • وكان الساحل منذ الزمن القديم يؤمن لسكانه ارضا

خصبة ويفتح امامهم افاقا للتجارة مع العالم الخارجي ، مما اتاح لهم تحقيق حياة متطورة نسبيا • ويمكن اعتبار المراكز المدينية على الساحل ، وهي مؤلفة من مدن صغيرة وقرى، العمود الفقري للبلاد ومنشأ النخبة الحاكمة • وكان التضامن العائلي في الساحل اقوى مما هو في المنطقة الصحراوية الداخلية ، حيث ظلت التقاليد القبلية قرونا عديدة تشكل تحديا للسلطات المحلية • ورغم ان بورقيبة لم يكن ينتمي الى عائلات الساحل الكبيرة ، فقد نشأ ضمن اطار التضامن العائلي الذي تتميز به المنطقة • وهكذا عندما دخل المعترك السياسي ، لم يكن قد أشرب روح الولاء للمنطقة الساحلية فحسب ، بل ، وهذا هو الاهم ، للوطن بكامله •

لقد اتاحت تقاليد الاعتماد على النفس والتضامن العائلي لبورقيبة دخول المدرسة ، اولا في عاصمة بلاده ، حيث كان واحد او اثنان من اخوته يعملان ، ثم متابعة دراسته في فرنسا • ولدى عودته الى تونس ، بدأ بورقيبة يتسلق الهرم الاجتماعي بوسائله الخاصة ، متسلحا بثقافة فرنسية متينة •

تلقى بورقيبة ، قبل ذهابه الى فرنسا ، علومه الابتدائية أولا في المدرسة الصادقية ،التي انشأها الباي ، ثم في الليسيه كارنو ، وهي مدرسة انشئت وفق النظام التربوي الفرنسي• كان بورقيبة متعلقا بوالدته أشد التعلق ، ولكنه فقدها في سنة ١٩١٣ فيما كان يدرس في المدرسة الصادقية مما اضطره الى العودة الى مسقط رأسه يحدوه حنين صارخ •وهناك راح يعمل كادحا باشراف شقيق له اكبر منه ، تميز بالحزم

والقسوة ، فضلا عن سوء التغذية في المدرسة خلال الحرب العالمية الاولى ، الامر الذي ادى الى اصابة الفتى بورقيبة بداء السل ، الذي فرض الى قضاء فترة من الوقت في المستشفى ، ونحو سنتين في بلدة صغيرة في الجنوب ، حيث كان احد اخوته يمارس مهنة الطب •

وخلال مرحلة الاستشفاء ، تحرك في صدر بورقيبة شعور بالعزة الوطنية اثر قراءته كتابا عنوانه « تونس الشهيدة » ، أصدره زعيم حزب الدستور القديم عبد العزيز الثعالبي ضمنه تعبيرا حيا عن أماني تونس بالحرية والاستقلال • وهكذا اطلع بورقيبة في سن مبكرة ، على ما كانت تنشده الحركة الوطنية من آمال ، وصمم على العودة الى المدرسة والاستعداد للمشاركة في تحقيق هذه الآمال في المستقبل ، ومما زاد في التهاب مشاعر بورقيبة الوطنية التحيز الذي لمسه ضد الطلاب التونسيين في المدرسة ، رغم انه استطاع ، بفضل ما أوتي من ذكاء فطري مقرون بالجد والاجتهاد ، من اثبات مقدرة التونسيين على بلوغ مستوى مدرسي ، يوازي ما يبلغه أي طالب اوروبي •

وأول مرة خبر فيها بورقيبة النشاط الوطني كان في ٥ نيسان (ابريل) ١٩٢٢ وهو لما يزل تلميذا ، عندما اشترك في مظاهرة شعبية نظمها حزب الدستور تأييدا لسلطات الباي ضد التجاوزات الفرنسية • الا ان هذا الحدث كان خيبة أمل بالنسبة لبورقيبة ، ذلك لان المظاهرة لم تسفر عن أي تغير في العلائق الفرنسية التونسية ، رغم انها أثارت قلق الفرنسيين • ويقال ان بورقيبة أقدم ، في يوم

المظاهرة ، على تسجيل اسمه في عضوية حزب الدستور ، وانه بدأ يراقب شؤون بلاده الداخلية باهتمام كبير • وقد أعجب بصورة خاصة بنجاح محمد علي القابسي ، في تعبئة القوى العاملة في بلاده لانشاء اتحاد عمالي تونسي مستقل ، ورأى ان هذه القوى يمكن توجيهها في يوم من الايام ضد النفوذ الفرنسي وسيطرته على البلاد • ورغم ان السلطات الفرنسية استطاعت ان تحبط محاولات محمد علي ، الا ان بورقيبة تعلم كيف يثير العمال التونسيين والقوى الشعبية الاخرى وينظمها •

ولم تكن مؤثرات المحيط التونسي في بورقيبة ، ابان تلقيه العلم في فرنسا مدة ثلاث سنوات، بأقل شأنا مما ذكرنا، ولكن نتائجها على تنشئته كانت تختلف اختلافا جذريا • لقد درس في بلده قبل سفره الى فرنسا دراسة تقليدية ارتكزت على المواضيع الدينية والادبية ، مع انه درس اللغة الفرنسية وبعض العلوم الحديثة في الليسيه كارنو • ولكنه تلقى هذه العلوم في تونس على مدرسين فرنسيين ، كانوا يحتقرون الطلاب التونسيين شأن المستوطنين الذين كانوا ايضا يحتقرون الشعب التونسي • اما في باريس فقد وجد بورقيبة ان الشعب الفرنسي يختلف كل الاختلاف عن المستوطنين في تونس • وأكثر ما اجتذبه جو الحرية والتحرر الذي ينعم به الطالب في الجامعة هناك ، ولم يكن الحي اللاتيني بأقل اجتذابا له ابان اقامته في باريس • واعجبه كذلك ما لمسه لدى أساتذته ولدى بعض الكتاب والسياسيين الفرنسيين الذين عرفهم ، من استعداد للاصغاء الى أحاديثه

وأحاسيسه عن أعمال الفرنسيين في تونس ، كما استطاع اثارة عطفهم على أماني بلده القومية وآماله • وكان لاختبارات بورقيبة المبكرة في باريس أهمية جوهرية أساسية في حياته المقبلة كزعيم سياسي ، وذلك عندما حاول الاحتكام الى الرأي العام الفرنسي واللجوء اليه ، لاقتناعه باستعداد فرنسا الى الاصغاء الى مطالب وطنه القومية •

وخلال العام الثاني من اقامته في العاصمة الفرنسية ، قابل ماتيلد لوران ، المرأة التي كانت تعطف على المطالب القومية التونسية وامانيها ، وكان أن تزوجا وأنجبا ولدا هو الحبيب بورقيبة الابن ، الذي نشأ وفقا لتقاليد العائلة من حيث ولاؤها للوطن ، والذي له من الخدمات ما لا يقدر بثمن ان لوالده او لبلاده من بعد • كان لزواج بورقيبة من امرأة فرنسية ولثقافته الفرنسية كذلك ، ما ساعده على تكوين صورة عن فرنسا تختلف عن الصورة التي حملها عنها في مطلع حياته ، اذ كانت صورة عدو لدود غاشم ، فأصبحت صورة الصديق المنتظر والحليف المرتقب •

قبل أن يستأنف بورقيبة نشاطه السياسي لدى عودته الى تونس سنة ١٩٢٧ كان قد امضى عامين ماميا متدرجا ، راقب خلالهما الوضع السياسي عن كثب • ولاحظ مدى ضعف مركز بلاده بعد انقضاء نصف قرن من السيطرة الاجنبية عليها ، وأدرك انه يستحيل على وطنه استرداد استقلاله بأسلوب معجل هين ، سواء باشعال الثورة او بمواجهة مباشرة ، لان فرنسا كانت قد رسخت سيطرتها على ادارة البلاد وعلى ثرواتها • وكذلك لان الامة التونسية

لم تكن بعد في وضع يمكنها من القيام بعمل منظم ، لان الزعماء الوطنيين لم تكن عندهم الرغبة ولا القدرة على تعبئة الرأي العام واثارته ، رغم ان الشعب نفسه كان مستعدا للتحرك ضد التمييز والاستبداد • وكانت هذه الاسباب نفسها ، هي التي دفعت بورقيبة وبعض انصاره الى التمرد على الاساليب العقيمة غير العملية لزعماء حزب الدستور المخضرمين والى عرض قيادة جديدة على مواطنيهم تتمتع بالاقدام والجرأة والصراحة ، وشعارها العمل من اجل تحقيق مطالب البلاد وأمانيها بأساليب أكثر فعالية •

كان بورقيبة، بطبعه ونشأته، مهيأ لتولي القيادة الجديدة وهو شاب يفيض حيوية واندفاعا • ولكن انضباطه وتدريبه القانوني لجما من نشاطه المتأجج ونظرته الخيالية الشاعرية• وقدصرح مرة للمؤلف بأنه عندما كان يدرس في السوربون، اختار ان يكتب ابحاثا عن روسو وكلود برنار اللذين كان لهما فضل تعليمه • فقال ان الاول حرك فيه تعشق الحرية الرومانطيقي ، وان الثاني شحذ عقله وأنار أمامه سبل معالجة القضايا العملية بدقة وتنظيم مقرونين بالمنطق والروية •

لم يتبن بورقيبة الاسلوب المرحلي التدريجي في السياسة الا بعد التدرب والممارسة والخبرة فأدرك عقم السعي لتحقيق مطالب وطنية متطرفة دون ان تتوافر المقدرة على ملاحقة تلك المطالب ، وشاهده على ذلك اخفاق زعماء حزب الدستور المخضرمين في تجاربهم • ثم انه تفهم طباع الشعب التونسي كل التفهم وخلص الى النتيجة بأنه شعب يفضل الاساليب

السلمية على اساليب العنف والقوة . صحيح ان اثارة الجماهير ودفعهم الى الاضراب او التظاهر ضد السلطة ليس مستحيلا، ولكن الثورة الشاملة التي تعتمد على مساندة القبائل ليست من الطباع التونسية . لقد آثار بورقيبة الشعب مرارا وحركه ليعبر عن شكاوى معينة ، ولكنه لم يعتمد ابدا على العنف وحده في اظهار استياء الشعب وسخطه . ولم يدع مرة انه زعيم ثوري ، بل كان يفخر بسعيه الدائم الى التفاوض مع الزعماء الفرنسيين والتفاهم معهم .

ويتمتع بورقيبة بصفتين أخريين تتفقان كثيرا وأساليبه السياسية، الاولى اخلاصه للقضية الوطنية واقتناعه بعدالتها مما دفعه بصورة شبه غريزية ، الى مواصلة الكفاح الوطني بصرف النظر عما اذا كانت الاهداف التي يعمل في سبيلها ستتحقق خلال حياته ام لا ، لأنه مؤمن بأن النصر الحاسم آت لا ريب فيه . والثانية واقعيته ، فهو صاحب اسلوب عملي واقعي للتعبير عن مطالب بلده القومية اكثر من الزعماء الآخرين، ومع هذا فالجميع متفقون على الاسلوب التدريجي لبلوغ الاهداف الوطنية .

لم يواجه بورقيبة ، بعد الاستقلال ، معارضة لاساليبه السياسية سواء في انقاذ بلده من الاستعمار ، أم في العمل من أجل التنمية الاجتماعية والاقتصادية . وبالنظر لموارد تونس المحدودة ، فان بورقيبة يستحق التهنئة لما وفره من مساعدات اقتصادية من الدول الغربية دون ان يربط بلاده بالتزامات تحد من استقلالها او سيادتها . أما في الشؤون الخارجية فهو يجهر بموالاته للغرب ، الا ان ذلك لم يمنع

حزب الدستور الجديد من اقرار تدابير اشتراكية سنة ١٩٦٤ وتحويل اقتصاد البلاد من النظام الحر الى النظام الجماعي المرتكز على الاعداد والتخطيط • حتى اسم حزب الدستور، الذي كان يعني في الماضي بالقيم الوطنية، تغير وأصبح حزب الدستور الاشتراكي • وكان القصد من هذه التغييرات التدريجية خلق الحوافز للتوسع الاقتصادي ، وتحقيق مطالب الفلاحين والعمال ، الذين يشكلون المجموعة الكبرى من السكان ، دون تأثر أصحاب الاراضي ومستثمري رؤوس الأموال الصغيرة ، الذين لم تتأثر مصالحهم بالابقاء على القطاع الخاص • وفي أواخر الستينات ، حين حاول احمد بن صالح ، في سعيه الى الحكم ، اقرار المزيد من التدابير الاشتراكية حتى يكسب تأييد الموظفين ، انبرى له بورقيبة بما عرف عنه من تعقل وبعد نظر فحد من اجراءاته، ثم أقصاه عن الحكم، كي يحافظ على التوازن بين الاشتراكية والنظام الحر • وهكذا تغلب المبدأ التدريجي على الاعمال المتطرفة •

ولكي يضمن بورقيبة استمرار العمل بآرائه من بعده ، عمل مع زعماء حزب الدستور الى اعادة تنظيم بنيان الدولة الداخلي ، ليتأكد من استمرار الحزب في احتكار السلطة برئاسة بورقيبة المطلق الصلاحية • وهذه النزعات والميول الدكتاتورية لم تترك مجالا للمعارضة ، ووضعت عمليا جميع المؤسسات الوطنية تحت اشراف الدولة المباشر او غير المباشر ، رغم ان بورقيبة سمح — ويقول البعض بأنه شجع — على قيام معارضة موالية ضمن حزب الدستور •

وهكذا فانه فور ان يقرر الحزب الاجراءات والتدابير التي سيتم العمل بها ، سرعان ما توافق الحكومة في هيئتيها التشريعية والتنفيذية دونما معارضة . ورغم ان هذه الاعمال تعتبر متفقة مع الخط التدريجي ، الا انها أثارت انتقاد العناصر الليبرالية وأشاعت في صفوف الجيل الجديد خيبة أمل [٩] . وقد وجهت انتقادات حادة مماثلة الى سياسة بورقيبة نحو الدول العربية الاخرى ، وخاصة خلافاته مع الزعماء الثوريين العرب حيال المشاكل العربية القومية والدولية ، وأدت هذه المشاكل الى عزل تونس عما يدعى موكب القومية العربية ، والى اثارة التساؤل عن مفعول مبدأ بورقيبة للشؤون الداخلية ، من خلال التأكيد على اتجاهه الشخصي الضيق [١٠] .

حاول بورقيبة، في علاقاته مع الدول العربية الاخرى ، ان يحث الزعماء العرب على اتباع نفس الاساليب الواقعية والتدريجية التي طبقها في تونس.ومع ان ما حققه من نجاح في خدمة بلاده لا شك يستحق التقدير من الزعماء العرب الآخرين ، فان نصائحه وتحذيراته كانت تقابل في كثير من الاحيان بالرفض او التجاهل ، مما اضعف مركزه في البلاد

---

(٩) ادى انتقاد الاتجاهات الدكتاتورية الى نقاش علني في حزيران (يونيو) ١٩٧٠ ، في سبيل الحد من سلطات الرئاسة . وفي ١٩٧١ ، تنازل بورقيبه فعلا عن الكثير من سلطاته الى رئيس وزرائه بسبب سوء صحته .

(١٠) للاطلاع على دراسات عن حياة بورقيبه راجع «بورقيبه ومولد امة» لجان رو (باريس ، ١٩٦٩) .

العربية ومكانته في تونس ذاتها • وكان بورقيبة يرد على ذلك اما بمقاطعة مؤتمرات القمة والاجتماعات الاقليمية العربية ، او بسحب كبار ممثليه الدبلوماسيين من دول عربية كبيرة • ورغم ان المقصود من ذلك كله لم يكن سوى التحذير والتنبيه، الا أن النتيجة أسفرت عن أثرين وخيمين• الاول ان بورقيبة بأعماله تلك فرط عقد التضامن بين الزعماء العرب وعزل بلده عن بقية العالم العربي • وبدت سياسته وكأنها سياسة انطوائية تهدف الى اخضاع المصالح العربية لمصالح تونس الخاصة • أما الاثر الثاني فقد انعكست نتيجته عليه نفسه ، ذلك ان نزاعات بورقيبة مع غيره من الزعماء العرب كانت تؤدي الى اضعاف مركزه في بلاده والى تشجيع نقاده، وخاصة أهل الفكر والزعماء الشباب،فجرأتهم على اعلان معارضتهم للدكتاتورية المتزايدة في نظام الحزب الواحد ، وعلى الاخص لبورقيبة نفسه بوصفه الزعيم المطلق السلطة • وكانت النتيجة التصارع المرير على السلطة داخل الحزب ، فراح كل زعيم يعمل على اضعاف الثقة بغيره ، متذرعا بتزايد أستياء البلاد من سياسة الحكومة • ولم يكن في مقدور بورقيبة تفادي التورط في هذا الصراع الذي أضعف نفوذه وأنهك صحته التي أضنتها السنين •

قد يبدو غريبا لدى المراقبين الاجانب ان يتعرض بورقيبة، الذي نجح أكثر من أي زعيم عربي آخر في تحقيق أهداف بلده القومية الجوهرية ، لحملات اضعفت الثقة به وشوهت صورته في نظر العرب • ومن يدري فقد تعود الانوار وتتسلط عليه من جديد ، وهنا لا بد من كلمة توضيح تشرح الصورة التي انطبعت عن بورقيبة في أذهان العرب •

قد يكون من أعاجيب الصدف ان يحقق بورقيبة استقلال وطنه ويعقد تحالفا مع فرنسا في عام ١٩٥٦ ، وهو العام الذي وقع فيه الهجوم الثلاثي على مصر واشتدت فيه النقمة العربية كثيرا على فرنسا وانكلترا بسبب تواطؤهما مع الهجوم الاسرائيلي • وفيما قطع بعض الدول العربية ، وبصورة خاصة مصر وسوريا ، العلاقات الدبلوماسية مع انكلترا وفرنسا ، وفيما اكتفى البعض الآخر ، كالعراق ، بقطع العلاقات مع فرنسا وحدها ، فان تونس لم تحرك ساكنا بالنسبة الى قطع العلاقات • وبينما كان عبد الناصر يشن حملته على النفوذ الغربي في البلاد العربية ، سمح بورقيبة لفرنسا بالاستمرار في تمتعها بالامتيازات الخاصة في تونس• وكانت نتيجة ذلك ان ينظر العرب الى بورقيبة أنه رجل لا يتورع عن اخضاع الحقوق العربية لصالح بلاده ، وانشاء علائق صداقة مع أعداء العرب • ومهما كانت عواطف بورقيبة وميوله الباطنية حيال القومية العربية ، فقد كان رفضه التضامن مع بقية العالم العربي ضد فرنسا وانكلترا تصرفا يؤاخذ عليه دون هوادة • والواقع ان القوميين العرب أعتبروا تصرفه ذاك خيانة •

لقد بذل الزعماء العرب المعتدلون ما استطاعوا من جهود خلال الاعوام التي تلت الهجوم الثلاثي ، لاعادة بورقيبة الى الحظيرة العربية وتسوية الخلافات • اما الزعيم التونسي فقد أوضح من جهته ، ان مشاعره الحقة هي مع العرب لا مع الاجانب ، وان الاوضاع الخاصة التي فرضت التحالف مع فرنسا للحصول على حرية وطنه ، لم تعمه عن عدوان فرنسا

على دولة عربية شقيقة هي مصر • وأوضح أنه مضطر لتنفيذ التزامات تونس تجاه فرنسا، حتى يتم تعزيز استقلال وطنه، كما أثبت ذلك في مساندته اللاحقة للوطنيين الجزائريين على نيل استقلال وطنهم • ورغم فقدان التعاون الوثيق بين بورقيبة وغيره من الزعماء العرب ، وخاصة عبد الناصر ، فان العلائق بينهم من ناحية عامة أصبحت ودية ، وكثيرا ما صدرت بيانات مشتركة بتأييد الحقوق العربية ضد الادعاءات الغربية •

وفي سنة ١٩٦٥ قام بورقيبة بجولة في البلدان العربية ، أعطى خلالها انطباعا بأن محادثاته التمهيدية مع الزعماء العرب أسفرت عن نتائج طيبة • ولكن عمر هذا الانطباع كان قصيرا • فحين زار مخيمات اللاجئين في الاردن في ربيع ذلك العام ، القى خطابا عزا فيه بؤس اللاجئين ووضعهم المحزن المزري الى عجز العرب عن ادراك واقعهم حيال اسرائيل ، واقترح عقد مهادنة موقتة مع اسرائيل للتخفيف من سوء أوضاع اللاجئين [١١] • ان اقواله الغامضة والآنية عن السلام مع اسرائيل والتي صرح بها في العلن دون اطلاع الزعماء العرب عليها أثارت موجة من الهياج ضده [١٢] •

---

(١١) راجع خطابي بورقيبه في اريحا والقدس في ٣ و ٤ آذار (مارس) ١٩٦٥ («الوثائق العربية» ، ١٩٦٥ ، ص ٨٧ — ٨٩) •

(١٢) رغم ان بورقيبه ادلى بآرائه حيال العلائق العربية مع اسرائيل في محادثات سرية واجتماعات رسمية (راجع خطابي بورقيبه في تونس في ٢١ (مايو) ١٩٦٥ وفي قرطاجة في ١٣ =

ورغم ان بورقيبة تكلم بصراحة ودون موازبة، الا انه لم يدع فعلا الى صلح حاسم مع اسرائيل او الى الاعتراف بها وباحتلالها للاراضي العربية . وكان كل ما اقترحه هو عقد مهادنة موقتة من أجل حل قضية اللاجئين. واقتراح بورقيبة، من حيث مذهب بورقيبة التدريجي ، مجرد خطوة او « موقع » يمكن استبدال غيره به ساعة يصبح للعرب من القوة ما تمكنهم من فرض شروطهم فرضا على اسرائيل . أما العرب ، الذين اعتادوا منذ أمد طويل تحدي الهجمات الاسرائيلية حتى لو ادى الى احتلال اراض عربية ففسروا كلام بورقيبة بأنه يحمل في طياته معنى التسليم بالمطالب الاسرائيلية ، لان كل اتفاق سلمي موقت مع اسرائيل سيضفي صفة شرعية على اغتصابها الاراضي والممتلكات العربية . لقد كانت دعوة بورقيبة دعوة بغيضة في نظر العرب ، مع انها قد تبدو معقولة وواقعية ، خاصة في نظر الغربيين .

كانت تحذيرات بورقيبة ، في ضوء الاحداث التي تبعت حرب ١٩٦٧ العربية الاسرائيلية اشبه ما تكون بالتنبؤات. ومع ذلك لم يتجرد بورقيبة من شعور التعاطف مع خصومه العرب عندما حلت بهم الهزيمة . فهو لم يكتف باصدار

= ايلول (سبتمبر) ١٩٦٥ ، فان الزعماء العرب ، كما يبدو ، لم يتوقعوا منه ان يعلن هذه الآراء على الملأ . وللاطلاع على دفاع بورقيبه عن موقفه ، راجع خطابه في قرطاجة في ١٥ آذار (مارس) ١٩٦٩ . وقد تولت وزارة الثقافة والاعلام في الحكومة التونسية ، نشر خطب بورقيبه) .

بيانات تندد بالعدوان الاسرائيلي ، بل راح يناشد الغــرب مساعدة العرب [١٣] • واثبت بذلك ان اهداف سياستــه تختلف اختلافا جذريا عن اهداف بقية الزعماء العرب ، وان خلافه معهم ليس الا خلافا على الوسائل التي يجب اتباعها لتحقيق هذه الاهداف •

وادراكا منه لضعف مركز العرب نصح بورقيبة بالتروي وبالتعاون مع الدول الغربية الصديقة • ولما كان دائما من مؤيدي سياسة اللين والمرونة ، فقــد راح يحث الزعمــاء العرب على تبني سياسة مماثلة رجاء تحقيق مكاسب اكبر لشعوبهم • وكان من حسن حظه طبعا ان يتزعم شعبا يفضل الاساليب السلمية على اساليب العنف ، ويتقبل بطء المذهب التدريجي • وكان الزعماء العرب الاخرون ، وخاصة في الدول الموسومة بدول ثورية ، يعملون ضمن مقاييس تختلف كل الاختلاف ، ويتزعمون شعوبا تميل بطبيعتها ، الــى العنف في تصرفاتها[١٤] • ولما كانوا يؤمنون بأن المصادر البشرية والمادية في بلادهم تستطيع ان تؤمن القوة اللازمة للكفاح ضد العدو ، ضربوا بالصبر عرض الحائط واخذوا يهددون بضرب العدو حتى في ظروف لم تكن في صالحهم • بل ان بعض هؤلاء الزعماء كان يأمل في ان يحقق الاهداف

---

(١٣) راجع خطب بورقيبه عن النزاع العربي الاسرائيلي في ١٣ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، والحديث الذي ادلى به لمراسل سويدي في ١٦ نيسان (ابريل) ١٩٧٦ (تونس ، ٦٧ و ٦٩) .

(١٤) راجع كتابي «الاتجاهات السياسية» الترجمة العربية (الدار المتحدة للنشر ، بيروت ١٩٧٢) ص ٣٨ ــ ٣٩ .

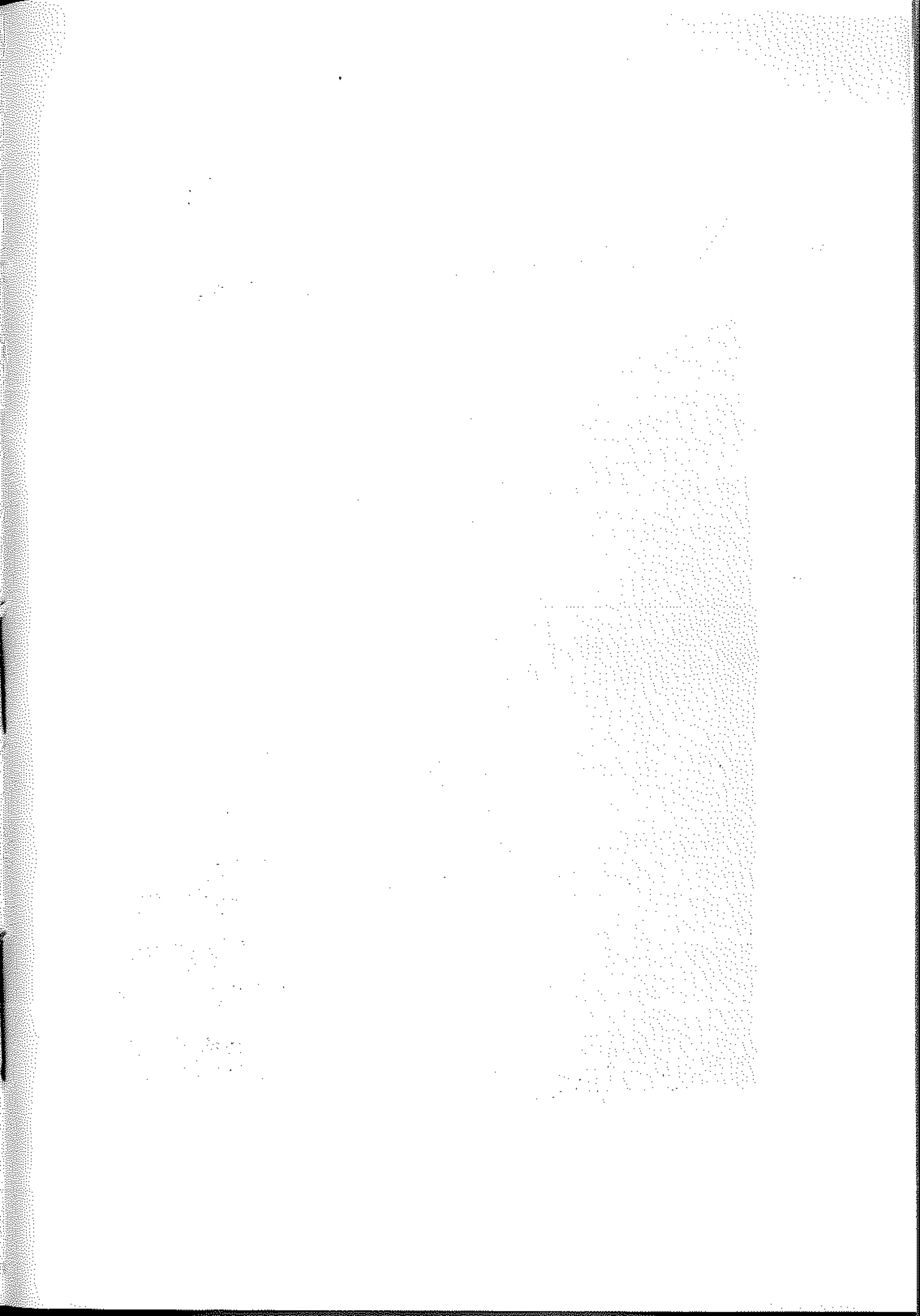
القومية بأسرع مما يحققها بورقيبة ، اذا اتبع سياسة اثارة دولة كبرى (او اكثر) ضد أخرى وهي سياسة كانت تعود في الغالب بفوائد مادية • ولكن لا يمكن لاي زعيم في نهاية المطاف ان يدعي انه حقق لشعبه اكثر مما حقق بورقيبة ، بل ان ثمة زعماء جلبوا لشعوبهم الكوارث وألحقوا بهم الخسائر • وهكذا أثبت خصوم بورقيبة العرب ، انهم سياسيون يسعون الى تحقيق نتائج في المدى القصير ، بينما اثبت الزعيم التونسي ، بصورة عامة ، انه ، في نهاية الامر ، كان أنجح منهم وابعد نظرا [١٥] •

---

(١٥) للاطلاع على دفاع عن سياسة بورقيبه حيال الدول العربية الاخرى ، راجع «الحبيب بورقيبه في سبيل الحرية التونسية» لمحجوب بن ميلاد ، (تونس ، ١٩٦٨) ص ٩ ــ ٢٥ •



كامل الجادرجي



الفصل الثامن

المدرسة العقائدية المعتدلة

كامل الجادرجي وكمال جنبلاط

الفلسفة التي أقترحها على حزبي هي الاشتراكية الديموقراطية .

الجادرجي

يعتبر كامل الجادرجي وكمال جنبلاط فريدين بين السياسيين المحترفين ، لانهما يمتلكان بدرجات متفاوتة ، مؤهلات يمكن ان تضعهما بين صفوف السياسيين المفكرين . الا انه بلغ من انشغالهما خلال معظم حياتهما ، بنشاط الاحزاب السياسية وبالسعي الى اهداف سياسية ، ان اقدما في كثير من الاحيان ، على اخضاع الاهداف للاساليب ، وهي ميزة مشتركة بين السياسيين المحترفين . وهنا وجه الخلاف البسيط بينهما وبين باقي السياسيين .

يشترك الجادرجي وجنبلاط في عدة صفات متشابهة فكرية وغيرها ، قد تساعد على التحدث بصورة عامة عن دوريهما السياسيين ، رغم كونهما عملا في بيئتين اجتماعيتين مختلفتين ، ورغم ان تأثير كل منهما في بلده يختلف كل الاختلاف عن الاخر . وسنتناول بالدرس كلا منهما على حدة ، ولكننا

سنقارن بين افكارهما وأساليبهما وآثارهما ، ونقيمهما ثم نقابل بينهما من خلال المقياس نفسه •

ولد كامل الجادرجي سنة ١٨٩٧ في عائلة ميسورة يمكن اعتبارها ارستوقراطية ، لأن والده كان موظفا في الادارة العثمانية ، ثم صار رئيسا لبلدية بغداد • يدعي آل الجادرجي انهم من اصل عثماني ، ولكنهم أستوطنوا العراق قرابة ثلاثة قرون ، وصاروا من اهله المعروفين ، كما انهم ارتبطوا ارتباطا وثيقا بالتقاليد الدينية والاجتماعية ، شأنهم في ذلك شأن اية عائلة عراقية ، وبما أن الدين كان له المقام الاول من حيث الولاء ، فقد انتموا الى الطائفة السنية وهي طائفة الطبقة الحاكمة • ولم يعرف الجادرجي الحرمان او عدم الاستقرار الاجتماعي وذلك بفضل الثروة التي ورثها عن آبائه والتي يسرت له عيشا رغدا ، كما استخدم بعضها في دعم نشاطه السياسي •

بعد الحرب العالمية الاولى ، حين بدأت القومية تحل محل الولاء الديني ، اصبح كثيرون من زعماء العرب من دعاة العروبة المتحمسين • وراح بعضهم يدعي الانتماء الى اصل قبلي عربي، بعضها صحيح وبعضها اسطوري لا وجود له • ولكن تيار العروبة لم يجرف الجادرجي فيمن جرف ، مع انه كان له ولعائلته الحق ، كما للزعماء المحليين الآخرين، بادعاء الانتماء الى العروبة[1] • وهكذا فقد اختار ، شأن

---

(١) للاطلاع على راي الجادرجي بادعاء سامي شوكت العروبة (نظرا لكون شوكت من اصل غير عربي) ، راجع « بعث الفاشية في العراق » لكامل الجادرجي (بغداد ١٩٤٦) ص ١٨ •

بعض الشبان الاخرين الذين تأثروابالمبادىء الليبرالية ،رمزا ليبيراليا للولاء ، بدلا من الرمز التقليدي ، الديني او القومي ، ودعا الى الاشتراكية ، الامر الذي آلم بعض اعضاء اسرته •

لم تكن المراحل الاولى من دراسة الجادرجي منظمة او عميقة الجذور • فقد تلقى علومه الابتدائية والثانوية قبل الاحتلال البريطاني ، وخدم مدة قصيرة في الجيش العثماني خلال الحرب العالمية الاولى • ويبدو ان والده بعد الحرب في ١٩١٩ ــ ٢٠ وبعد ان وقع العراق تحت وطأة الاحتلال البريطاني ، اشترك في بعض الاعمال المناوئة لبريطانيا مما اضطره للفرار مع عائلته من البلاد لكي يتجنب المحاكمة او السجن • وأمضت عائلة الجادرجي العامين التاليين في تركيا درس خلالهما الجادرجي الشاب الطب في جامعة اسطنبول الطبية ، ولكنه عاد مع والده الى بغداد في اعقاب قيام حكم وطني سنة ١٩٢٢ قبل ان يتم دراسته • وفي بغداد التحق بكلية الحقوق ، ليتخرج منها بعد ثلاث سنين (٢) • وهكذا لم يكتسب كامل الجادرجي من الدراسة الرسمية اكثر من التدريب المهني ليعمل محاميا او قاضيا • ولكن تثقيفه الذاتي أتاح له مجال الاطلاع الواسع على معظم الكتب التي كانت تنشر في القاهرة وبيروت • ورغم ان معرفته اللغة الانكليزية كانت في البدء سطحية ، الا انه واصل دراسة المؤلفات الانكليزية بمساعدة الاصدقاء ،

---

(٢) في سنة ١٩٣٥ ، مددت الدراسة الى اربع سنين .

وخاصة تلك التي تعالج المشاكل الاجتماعيــة والسياسيــة المعاصرة [٣] .

عمل الجادرجي مدة قصيرة قبل انغماسه في السياسة في بلدية بغداد التي تولى والده رئاستها في السابق ، ثم في وزارة المالية ، مسؤولا عن الدائرة البرلمانية خلال ١٩٢٦ ــ ٢٧ . واتاحت له هذه التجربة الادارية الاطلاع على خفايا العمليات الحكومية ، وفتحت عينيه على اساليب البيروقراطية ومساوئها في بلاده ، كما اتاحت له ايضا فرصة الالتقاء ببعض اعضاء البرلمان الذين اشترك معهم في ما بعد في النشاط السياسي عندما كان همزة الوصل بين السلطة التشريعيــة ووزارة المالية .

ودخل الجادرجي البرلمان سنة ١٩٢٧ وكان لما يزل في الثلاثين من العمر . فقد فاز في الانتخابات (التي كانت تجرى في ذلك الحين مثل جميع الانتخابات باشراف الحكومة الكامل) لأن شقيقه الاكبر كان آنذاك عضوا في الحكومة، وليس لأنه اعتنق فلسفة سياسية معينة . الا انه خسر مقعده البرلماني في انتخابات ١٩٣٠ ، ولم يعد الى البرلمان الا بعيد الاستقلال في سنة ١٩٣٦ . وانتقل آنــذاك الى اليســـار واشترك في انقلاب ١٩٣٦ ، الذي حمل اعضاء الفئة السياسية التي تبناها يومذاك الى الحكم ، اما هو فقد تولى منصبــا

---

(٣) للاطلاع على وصف الجادرجي لمراحل تنشئته الاولى، راجع «من اوراق كامل الجادرجي» لكامل الجادرجي (بيروت، ١٩٧١) ص ١٦ ــ ٦٠ .

وزاريا مدة ثمانية شهور ، ليستقيل بعدها احتجاجا على تدخل الجيش في عمل الحكومة • واستمر في عزلة نسبية حتى الحرب العالمية الثانية • واخر مدة دخل فيها البرلمان كانت سنة ١٩٥٤ الا انه خسر مقعده النيابي بعد جلسة برلمانية واحدة • وقضى البقية الباقية من حياته دون ان يتولى اي منصب حكومي ، حتى حين تعاون حزبه مع جماعات اخرى في تشكيل حكومات ائتلافية ، وفضل ان يعهد بتمثيل حزبه الى اعضاء آخرين ، امثال محمد حديد وحسين جميل ، بدلا من ان يتولى هو المسؤولية المباشرة [٤] •

ليس من شأننا هنا ان نبحث دور الجادرجي السياسي من خلال منصبه الوزاري او عضويته في البرلمان ، بل سنبحث في تأثيره في سياسة بلاده من خلال قيادته «لجماعة الاهالي» والحزب الوطني الديموقراطي ، الذي كرس له القسم الاكبر من حياته ، ثم من خلال رئاسته تحرير جريدة حزبه «صوت الاهالي» ، التي شرح فيها افكاره ونقل رسالة حزبه الى الشعب •

كان الجادرجي ، قبل دخوله البرلمان سنة ١٩٢٧ ، يراقب المسرح السياسي باهتمام شديد ، وما ان ولجه حتى قرر

---

(٤) للاطلاع على وصف لمساهمة الجادرجي في هذه الاحداث، راجع كتابي «العراق المستقل» (الطبعة الثانية، لندن، ١٩٦٠) الفصل ٩ ، وكتابي «العراق الجمهوري» (لندن ، ١٩٦٩) الفصل ٦ .

الانضمام الى حزب ياسين الهاشمي المعارض ، الذي كان يطالب بالاستقلال العاجل • وبقراره العمل مع المعارضة دلل على انه لايتوقع فائدة عاجلة من العمل في السياسة • كما انه راح يؤيد مطالب وطنية معينة شاركه فيها معظم شباب جيله • وبقي على ولائه لياسين الهاشمي مدة ست سنوات او سبع تقريبا ، ثم هجر الحزب وتخلى عنه • كان اهم ما شغل الجادرجي خلال الاعوام الثلاثة او الاربعة الاولى من عمله في السياسة ، السيطرة البريطانية على الشؤون الداخلية والوسائل التي يجب اتباعها لتحقيق الاستقلال • ودفعه الفضول الثقافي الى مطالعة بعض الكتب عن الفكر السياسي، فاستهوته فكرة الديموقراطية التي اعتنقها مذهبا سياسيا• ودعا في احدى مقالاته عن السيادة والديموقراطية ، الى ضرورة مشاركة الشعب في ديموقراطية برلمانية صحيحة من اجل تحقيق التقدم (٥) •

وبعد عامين من الاستقلال ، بدأ الحزب (حزب الاخاء الوطني برئاسة ياسين الهاشمي) الذي ينتمي اليه الجادرجي يوافق على تسويات مع الحكام العراقيين • وفي سنة ١٩٣٣ اصبح احد اعضائه الرئيسيين رشيد عالي الكيلاني رئيسا للديوان الملكي • وفي سنة ١٩٣٤ ، وفي اعقاب ثورات « قبلية » اسندت رئاسة الوزراء الى زعيم الحزب ياسين الهاشمي (٦) فما كان من الجادرجي في تلك السنة ايضا

---

(٥) «السيادة والديموقراطية» لكامل الجادرجي ، «البلاد» (بغداد) ٢٨ آب (اغسطس) ١٩٣١ .

(٦) للاطلاع على وصف لهذه الاحداث ، راجع كتابي « العراق المستقل » ص ٣٧ وما بعدها .

الا ان انسحب مع عدة اعضاء من الحزب احتجاجا ٠

قد يبدو غريبا ان ينسحب الجادرجي من الحزب اثر ما حققه الحزب من انتصار آنذاك ، كان في وسعه ان يقتسم مغانمه مع بقية الزعماء ٠ ولكن الجادرجي كان يفكر في اشياء اخرى ٠ لقد رأى ان حزبه تخلى عن معارضته لمعاهدة ١٩٣٠ مع انكلترا ، التي كان يعتقد بأنها انتقصت من سيادة العراق ، ولانه ــ اي الحزب ــ حنث بوعده للشعب بقبول اعضائه مناصب حكومية ، قبل تعديل المعاهدة لخير العراق ٠ وفي ما عدا ذلك ، لم تكن لدى الحزب اية مخططات لمعالجة مشاكل البلاد الاجتماعية والاقتصادية بعد الاستقلال ٠ كما لم يكن بامكان الجادرجي التأثير في الزعماء الاكبر منه سنا لوضع مثل تلك المخططات ، لأنه كان عضوا صغير السن بالنسبة اليهم ٠ ففقد بذلك الامل في امكان تغيير اساليبهم البالية ومنافعهم الشخصية ٠

وفي سنة ١٩٣١ برزت عصبة من الشبان المطالبين بالاصلاحات الليبيرالية ، فنظمت جماعة « الاهالي » التي اثارت آراؤها ونظرياتها حماسة العديد من الشخصيات السياسية الطالعة [٧] ٠ وبدا ان هؤلاء الشبان هم المرشحون لتسلم زمام الزعامة في المستقبل ، الا انهم لم يكونوا قد وقعوا بعد على الرجل المحنك الذي يوكلون اليه القيادة ٠

---

(٧) للاطلاع على جماعة «الاهالي» وافكارها السياسية راجع كتابي «العراق المستقل» ص ٩٦ وما بعدها ، وكتابي «الاتجاهات السياسية في العالم العربي» (بيروت ، ١٩٧٢) ص ١٦ ــ ١٩ ، الناشر (الدار المتحدة للنشر) .

وكان الجادرجي ممن اعجب بأفكار هذه الجماعة ، فتطلع لأن يلعب دور زعيم للشبان بدلا من ان يبقى مشاركا صغير الشأن ضمن مجموعة من السياسيين يكبرونه سنا . فانضم الى هذه الجماعة اي بعد انقضاء عامين على الاستقلال . وسرعان ما اثبت الجادرجي انه أبرز زعيم في جماعة « الاهالي » ثم اصبح رئيس تحرير جريدة الحزب . واعتمادا على خبرته السياسية اعاد تنظيم الجماعة بحيث اصبحت اشد تماسكا واقدر على القيادة ، مع ان ذلك لم يتم دون ذيول ، اذ اصطدم مع احد المؤسسين الذي ما فتىء ان انسحب من الجماعة احتجاجا [٨] . وبفضل تأثيره انضم الى الجماعة عدد من السياسيين الاكبر سنا ، الذين تحرروا من اوهام الاوليغاركية الحاكمة ، وراحوا يرسخون مكانة الجماعة وينشرون آراءها الليبيرالية في مجالات اوسع . ودفع نمو الجماعة السريع ضباط الجيش الى منحها تأييدهم المفاجىء غير المتوقع . فوعدوا بتنفيذ افكار « الاهالي » عمليا بالاطاحة بالاوليغاركية الحاكمة ، واسناد الحكم الى الجماعة المذكورة . الا أن الحكام العراقيين لم يسمحوا بانشاء الاحزاب السياسية الا بعيد الحرب العالمية الثانية .

وقبل ان يتمكن زعماء « الاهالي » من تنظيم حزب سياسي ، راحوا خلال سنة ١٩٤٢ يعقدون الاجتماعات

---

(٨) انسحب عبد الفتاح ابراهيم ، وهو عضو بارز في جماعة الاهالي» وواضع بعض منشوراتها،بعد ان اصبح الجادرجي اكبر زعيم فيها . راجع كتابي «العراق المستقل» ص ٧٣ .

للتدارس في اعادة صياغة اهداف الحزب السياسية • وكان ان نمي اليهم بأن السير ستافورد كريبس ، عضو حزب العمال ونائب الملك المعين آنذاك في الهند ، سيتوقف في بغداد قبل اكمال طريقه الى مقر عمله ، فأعدوا مذكرة لتقديمها اليه ، يحدوهم الامل بأن تحظى اقتراحاتهم باهتمامه ، ثم بنقلها الى الحكومة البريطانية لدرسها ، وهي اقتراحات تدعو الى الحريات الديموقراطية ، والى انشاء حزب سياسي يروج للافكار الليبيرالية • الا أن السير ستافورد لم يتوقف في بغداد وبالطبع لم تقدم اليه المذكرة[٩] • ولكن اجتماعات زعماء «الاهالي» لم تذهب هباء ، اذ أسفرت عن اتخاذ قرار باستئناف اصدار جريدة «الاهالي» التي صدرت فعلا في ٢٣ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٢ باسم «صوت الاهالي» وراحت الجريدة تنادي مؤكدة على حقوق الشعب الدستورية،من حيث حرية ابداء الرأي وحرية الانتخابات وحرية تأسيس الجمعيات وانشاء نقابات العمال والاحزاب السياسية • وكان همّ زعماء «الاهالي» خلق شعب واع مستنير،يحترم القانون ولا يعكر صفو الاستقرار الداخلي • ولعل اهم منجزاتهم كان قرارهم مناقشة مشاكل البلاد الرئيسية وتدارسها على صفحات الجريدة ، وخاصة المشاكل المتعلقة بالاراضي والصحة والشؤون الاقتصادية والاجتماعية والتربوية [١٠] •

---

(٩) للاطلاع على نص المذكرة انظر « مذكرات كامل الجادرجي » لكامل الجادرجي (بيروت ١٩٧٠) ص ٧٨ ـ ٨٣ •

(١٠) للاطلاع على هذه الاهداف انظر «مذكرات الجادرجي» للجادرجي ص ٥٥ •

وقد اشترك في مناقشة هذه المشاكل ودرسها عدد من اعضاء « الاهالي » وخاصة الجادرجي الذي اسهم الى حد كبير في الجهود التي اراد منها اثارة اهتمام الشعب بالنشاطات السياسية بعد الحرب (١١) .

ودعا بعض زعماء « الاهالي » الى استئناف النشاط السياسي بغض النظر عن القيود والرقابة الحربية ، الا أن الجادرجي لم يجد اي جدوى من النشاط العلني او السري الذي قد يؤول في النهاية الى الاعتقال او السجن او التوقيف . ولذلك اقترح ان يبدأوا باعداد الشعب لتقبل الآراء الليبيرالية وتنبيهه الى تبعاته ومسؤولياتهقبل استئناف النشاط السياسي . ومع انالاكثرية تبنت هذا الاقتراح ، الا انه اثار النفور في صفوف المتطرفين الذين ما لبثوا ان انسحبوا من الجماعة لينضموا الى منظمات شيوعية .

ولما وضعت الحرب اوزارها في سنة ١٩٤٥ بدأت جماعة « الاهالي » مع جماعات اخرى تؤيد الحرية الديموقراطية، تجتمع في منزل الجادرجي لبحث وسائل انشاء حزب سياسي يضم كل من يرغب في العمل وفق الطرق الديموقراطية . واتفق المجتمعون كلهم على معارضة الفئة الحاكمة ، ولكنهم فشلوا في الاتفاق على مبادىء مشتركة .

---

(١١) للاطلاع على ملحق للمقالات الرئيسية انظر فاضل حسين «تاريخ الحزب الوطني الديمقراطي» (بغداد ١٩٦٣) ص ١٥ وما بعدها .

ففريق راح ينادي بتبني مبادىء اجتماعية متطرفة ماركسية ، وفريق اصر على اتباع آراء معتدلة • وفشلت المساعي في توحيد الكلمة والاتفاق على اسس معينة ، رغم اقتراح الجادرجي القائل بالاكتفاء بتنفيذ الافكار التي يجمع عليها الرأي • ووافق عبد الفتاح ابرهيم ، رغم كونه متطرفا ، على اقتراح الجادرجي ، ولكن الصراع الشخصي على الزعامة منع الرجلين من العمل معا ، فانسحب الاول من الجماعة[١٢] •

وفي سنة ١٩٤٦ عندما سمح من جديد بانشاء الاحزاب السياسية تأسست ثلاثة احزاب بدلا من واحد ، مما ادى الى اضعاف مركز جميع العناصر الديموقراطية • ودعت جماعة الجادرجي التي تعتنق الآراء المعتدلة ، الى الديموقراطية والتخطيط الاقتصادي دون التمسك بالمبادىء الاشتراكية ، رغم ان الجادرجي نفسه كان يؤيد الاشتراكية • وكانت النتيجة ان اقدم العديد من الشبان على انشاء احزاب يسارية اخرى او الانضمام الى الحزب الشيوعي غير المرخص[١٣] •

بعد سنة من اعادة تنظيم الاحزاب السياسية تقدم الجادرجي الى حزبه بمذكرة تشتمل على اقتراحات اشتراكية محددة طالبا تبنيها معللا ذلك بثلاثة اسباب سياسية ،

---

(١٢) للاطلاع على الآراء المتضاربة انظر « مذكرات الجادرجي» ص ٧٢ ـ ٧٦ •

(١٣) للاطلاع على وصف للاحزاب السياسية انظر كتابي «العراق المستقل» ص ٢٩٩ ـ ٣٠٢ •

الأول وجود اربعة احزاب سياسية اخرى ، فضلا عن الحزب الشيوعي غير المرخص ، تدافع صوريا عن مبادىء ليبيرالية مماثلة لمبادىء حزبه ، وخاصة المبادىء الديموقراطية . اثنان من هذه الاحزاب كانا في الواقع ماركسيين لا يؤمنان جديا بالعمل الديموقراطي ، بينما الحزبان الاخران كانا وطنيين لا يعنيهما شيء من امر الاصلاح الاجتماعي . وذهب الجادرجي الى القول بأن جميع هذه الاحزاب اعلنت برامج متشابهة مما جعلها تبدو في نظر الشعب وكأنها تؤمن بالمبادىء نفسها . ونظرا لأن حزبهم يميل اكثر من غيره الى الاشتراكية التي كان بعض الاعضاء يدعو اليها ، رأى ان الوقت قد حان لتبني المبادىء الاشتراكية رسميا ، وهو ما سيميز حزبهم « الحزب الوطني الديموقراطي » عن بقية الاحزاب .

السبب الثاني هو ضرورة اظهار الفوارق بين الاساليب المعتمدة في تطبيق الاشتراكية ، وهي اساليب ديموقراطية سلمية ، وبين الاساليب الثورية العنيفة التي تمارسها الشيوعية . وكان الجادرجي ، الذي آمن بالديموقراطية في مطلع حياته السياسية ، قد بدأ يدرك مدى عيوب الديموقراطية حين لا تكون مرتبطة بمبادىء اخرى . وكان قد سعى ، لدى انضمامه الى جماعة « الاهالي » ، وباتباع الاساليب السلمية ، الى انشاء مبدأ هو مزيج من الديموقراطية والاشتراكية ، دعاه الديموقراطية الاشتراكية ، الذي لا يعدو كونه شكلا من اشكال الديموقراطية الاجتماعية لدى مقابلته ببرنامج حزب العمال البريطاني .

ثالثا ، اعلن الجادرجي ان تجاربه في السياسة العراقية علمته ان المناداة بالشعارات الوطنية ، التي تخفي وراءها اتجاهات رجعية ، تجتذب الشبان في كثير من الاحيان ، وقد شاهد بأم عينه كيف انتكست حركة « الاهالي » واصابها الكسوف نتيجة انطلاق القومية المتطرفة المفاجيء ، بعد انتشار الافكار الفاشية والنازية في الاوساط السياسية قبل الحرب العالمية الثانية ، وكيف ان القوميين العرب لم يتحرروا من الافكار الفاشية الا بعد انتصار الديموقراطية على الدكتاتورية . وفي سنة ١٩٤٦ لما بدأت الاوليغاركية الحاكمة تجارب الافكار الليبرالية ، انتاب الجادرجي قلق عميق من احتمال بعث الرجعية متنكرة بأحد اشكال القومية العربية . بل لقد سيطر عليه الذعر حقا ، عندما رأى سامي شوكت يعود الى الظهور لينشيء حزبا جديداً دعاه حزب «البعث الوطني» . وكان سامي شوكت هذا وزيرا سابقا للتربية وزعيم حركة «الفتوة» التي دفعت حيويتها وفاعليتها العديد من الشبان الى الاشتراك في ثورة رشيد عالي سنة ١٩٤١[١٤] . وكان الجادرجي قد حمل على شوكت في مقال عنوانه « موزلي العراق »[١٥] ثم في سلسلة مقالات تناولت

---

(١٤) للاطلاع على حركة شوكت الفتية و « القومية الصحيحة» راجع كتابي «العراق المستقل» ص ١٦٦ ــ ١٦٨ و «الاتجاهات السياسية» ص ١٨٨ــ١٨٩ . الترجمة العربية (الدار المتحدة للنشر ، بيروت ١٩٧٢) .

(١٥) « موزلي العراق » صوت الاهالي (بغداد) ٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٦ .

« بعث الفاشية في العراق » ، حذر فيها من حركة رجعية ، منبها الى انها قد تقف عائقا في وجه انشاء مؤسسات ديموقراطية وتزيد في قوة الاوليغاركية الحاكمة •
وفي هذه الاثناء كان الجادرجي قد عدّل من وجهات نظره وآرائه واندفع مقتربا من اليسار بعد ان انهارت سمعة الفاشية وآراؤها بعد الحرب ، وبذلك ارتبط اسمه لدى الاوساط المحافظة ارتباطا وثيقا بالاشتراكية ، بل حتى بالشيوعية • وفي سنة ١٩٤٧ رأى الجادرجي ان الوقت قد حان ليبدأ حزبه فيه بتبني مبادىء اشتراكية •

وهكذا اعد الجادرجي مذكرة قدمها الى اللجنة التنفيذية بتاريخ ١٥ آب (اغسطس) ١٩٤٧ ، اقترح فيها الاشتراكية مبدأ اساسيا للحزب ، الا انه طلب تسمية هذا «المفهوم» بالديموقراطية الاشتراكية تمييزا للحزب عن الماركسيين والشيوعيين ، من جهة ، وعن بقية الاحزاب السياسية اليمينية ، من جهة اخرى • واضاف قائلا ان هناك اسبابا عرَضية دفعته الى اقتراح هذا المفهوم او قل هذه الفلسفة• فقد قرر احد الاحزاب اليسارية ، الذي يتزعمه عبد الفتاح ابراهيم ، حلّ نفسه ، وكان الجادرجي يتطلع الى ان يجتذب حزبه اعضاء ذلك الحزب اذا ما تم تبنّي الاشتراكية رسميا • وقال ان السبب الآخر هو الحاجة الى تعريف الاحزاب الليبرالية والاشتراكية في الدول الاخرى الى دور حزبه ، وهذا لا يمكن تحقيقه الا اذا حدد حزبه اهدافه بوضوح ، وتبنّى مفهوما واضحا خاصا به • وكان الجادرجي يضع نصب عينيه بصورة خاصة ، حزب العمال البريطاني الذي كان يحكم انكلترا آنذاك • واقترح ان

ينشيء حزبه علاقة وثيقة مع بعض زعماء حزب العمال البريطاني ، الذين قد يطّلعون ممثلي بريطانيا في العراق على اهتمام حزبه بالحريات الديموقراطية ، وبالتالي الى دفع حكام العراق الى الغاء القيود المفروضة على نشاط حزبه السياسي ، نظرا لما لهؤلاء الحكام من صلة وثيقة بالحكومة البريطانية •

لم يفسر الجادرجي في مذكرته ، ما عنى تماما بالديموقراطية الاشتراكية ، الا ان آراءه حيال ذلك يمكن تلخيصها اعتمادا على احاديث معه واستنادا على كتاباته المنشورة • لقد اوضح الجادرجي موقفه دون لَبْس ولا ابهام ، وتبين انه ليس شيوعيا ولا ماركسيا ، كما انه لا يؤمن بالصراع الطبقي ، رغم اعترافه بوجود الطبقية في العراق ومحاولته استقطاب تأييد شعبي له من الطبقتين الوسطى والدنيا ، وكان يقول ، ان العمال والفلاحين ليسوا من التنظيم بحيث يمكن ان يكونوا العمود الفقري لحزبه• ولهذا كان على الحزب ان يتوجه الى الشعب بشكل عام والى المفكرين والطبقة المتوسطة الدنيا والى العمال والفلاحين بشكل خاص • وكان يعتبر رؤساء القبائل والاقطاعيين هم خصوم حزبه الرئيسيين • وذهب به الظن الى السير على خطى حزب العمال البريطاني في الاعتماد على مساندة الفئة العاملة والطبقة المتوسطة الدنيا حتى يتسنى لحزبه الصعود والنجاح (١٦) •

---

(١٦) حاول الجادرجي ، في اواخر حياته ، ان يضمّن مذكرة ، كان ينوي توزيعها على انصاره ، مزيدا من التفاصيل

لقد التزم الجادرجي بالاساليب السلمية قبل انضمامه الى جماعة «الاهالي» بزمن طويل ، وفي اخريات حياته ازداد ايمانه رسوخا بالطرق الديموقراطية المتبعة وامتنع ــ من حيث المبدأ ــ عن توسل الثورة واللجوء اليها • وقد سألته في اكثر من مناسبة : كيف يبرر تأييد جماعته للثورتين العسكريتين في سنة ١٩٣٦ وسنة ١٩٥٨ اللتين اطاحتا بنظام الحكم قوة واقتدارا ؟ وكان جواب الجادرجي الواضح ، بأنه يمكن تبرير استعمال العنف لقلب الانظمة التي تخنق الحرية • وفي مذكرة كتبها في شهر آب (اغسطس) من سنة ١٩٤٧ حدد موقفه باقتضاب كما يلي : انا في سبيل تحقيق الديموقراطية تتبع النهج الديموقراطي، اما اذا وقف الحكام العراقيون في وجه العمليات الديموقراطية فان اللجوء الى الثورة يكون له عندئذ ما يبرره • وكان قبل ذلك قد اطلق العبارة الموجزة التالية موضحا فيها رأيه : « حق الثورة في سبيل الديموقراطية »[١٧] • وكرر هذه الآراء مراراً في مذكرته ، مع التنبيه الى عدم اللجوء الى الثورة الا اذا رفض الحكام العراقيون جميع الوسائل الممكنة لتحقيق الديموقراطية[١٨] •

اعترفت مبادىء الديموقراطية الاشتراكية بالملكية الخاصة

عن الديموقراطية الاشتراكية ، ولكن الاجل وافاه قبل ان يتمها . راجع «من اوراق» للجادرجي، ص ١٠٣، وما بعدها .

(١٧) بعث الفاشية» للجادرجي ، ص ٤٠ ومذكرات الجادرجي ص ٢١٠ .

(١٨) «مذكرات الجادرجي» ، ص ٢٠١ ــ ٢١١ .

وبالعمل الحر المحدود • ولكنها نصت ايضا على تأميم الصناعة وامتلاك الحكومة للمرافق الاساسية • الا ان الجادرجي لم يوضح رأيه بشأن نظام المصارف • ولكن محمد حديد ، الرجل الثاني في قيادة الحزب ، اعلن انه يجب ان تبقى المصارف ضمن القطاع الخاص • اما العمل الحر المحدود فيجب تشجيعه ، لان العراق ، كما قال الجادرجي ، بحاجة الى التطور الاقتصادي من خلال الخاصة ، شرط ان يتم ذلك باشراف الحكومة • ومن الواضح ان الجادرجي اراد نوعا معتدلا من الاشتراكية لا يعرقل النمو الاقتصادي ولا يَحُدّ من حقوق العمال والفلاحين •

ولدى دراسة مذكرة الجادرجي ، في اجتماع اللجنة التنفيذية (في ٨ تشرين الثاني ، (نوفمبر) ١٩٤٧) لم يقبلها ــ من حيث المبدأ ــ سوى عضوين فقط مع التحفظات هما محمد حديد نائب رئيس الحزب وحسين جميل امين سره ، ورفضها جميع الاعضاء الآخرين ، وخاصة زعيمي الجناح اليميني زكي عبد الوهاب وطلعت الشيباني • وقال هؤلاء المعارضون ان اوضاع العراق الاجتماعية والاقتصادية متخلفة الى حد يجعل الاشتراكية غير ملائمة لمواجهة التطور• واحتج هؤلاء المعارضون بأن ما يحتاج اليه العراق هو الحد من الاقطاعية ونفوذ زعماء القبائل وتسلطهم في سبيل تخليص العمال والفلاحين من الاوضاع الجائرة ، كما رفض اقتراح الجادرجي الحصول على مساندة زعماء حزب العمال البريطاني لدفع الحكام العراقيين الى تقديم تنازلات،

ذلك لان حزب العمال ــ في رأي المعارضين ــ لا يقل امبريالية في السياسة الخارجية عن حزب المحافظين • وقال نقاد الجادرجي ان ليس من الواقعية في شيء الادعاء بأن زعماء حزب العمال سيوافقون على مطالب عادلة يقدمها حزب عراقي ، لأن حماية المصالح البريطانية من خلال الحكام العراقيين الحاليين آمن لهم وأضمن • واردفوا ان الوسيلة الوحيدة لتحقيق اهداف حزبهم تكمن في الحد من النفوذ البريطاني قبل أي شيء آخر • واقترح حديد وجميل، تأييدا منهما للجادرجي ، قبول الديموقراطية الاشتراكية أداة توجيهية دون تبنّيها رسميا ، الا ان اقتراحهما ذاك رفض ايضا •

وفي اليوم التالي ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ ، قدم الجادرجي استقالته من زعامة الحزب بسبب رفض اقتراحاته ، ولكن الاستقالة لم تقبل • فما كان من زكي عبد الوهاب وطلعت الشيباني الا ان استقالا ، اذ اصبح واضحا ان الجادرجي ببقائه زعيما للحزب لن يُوليَهما ثقته • وبعد انسحاب هذين الخصمين من الحزب ، وجد الجادرجي الفرصة مواتية للادلاء بتفسيرات اكثر عن ليبرالية (يعني اشتراكية) نهج الحزب • والواقع ان الطابع الاشتراكي غير الرسمي استمر طوال مدة تولي الجادرجي زعامة الحزب الوطني الديموقراطي •

وفي عام ١٩٤٨ وعام ١٩٥٢ ، عندما تحدّت العناصر الليبرالية والوطنية الفئة الاوليغاركية الحاكمة علنا ، انضم الحزب الوطني الديموقراطي اليها • وكانت هذه الجماعات

تسعى ظاهريا الى دفع الحكومة للتخفيف من القيود المفروضة على حرية الرأي • ولكن نشاطها بلغ حد الاطاحة بالحكومة عبر انقلاب شعبي • وفي عام ١٩٥٨ استُدرج الجادرجي عن غير قصد منه الى تأييد ثورة عسكرية بحجة الدفاع عن حرية الرأي • واستمر ، حتى نهاية حياته سنة ١٩٦٨ ، يدعو الى الديموقراطية والاشتراكية ، رغم أنه أيد ، في كثير من الاحيان ، زعماء تتعارض اهدافهم مع هذه المبادىء •

لم يكن تولّي الجادرجي رئاسة تحرير جريدة «الاهالي» والمقالات التي كتبها فيها اقل اهمية بالنسبة لحياته السياسية من تزعمه جماعة «الاهالي» انفسهم•فقد تتبع سياسة بلاده عن كثب ، وكان تقريبا يعلم بكل ما يجري خلف الابواب المغلقة في اوساط بغداد السياسية ، كما كتب تعليقات في الشؤون اليومية كان لها قراء كثيرون ، وتعليقات انتقادية عن رؤساء الوزراء ، اثناء وجودهم في الحكم وخارجه • وبلغ من عنف هذه الملاحظة انها ادت الى ملاحقته امام القضاء والحكم عليه بالسجن ولعل اعنف حملة شنها الجادرجي استهدفت ارشد العمري ، وهو مهندس رفعه نجاحه في عمله كرئيس لبلدية بغداد الى مركز وزاري • وفي حزيران (يونيو) ١٩٤٦ اصبح العمري رئيسا للوزراء ، فحاول حينذاك ان يستبد في حكمه ، الامر الذي عرّضه للاصطدام بالاحزاب السياسية • وما كاد العمري يشكّل الحكومة حتى كتب الجادرجي مقالا افتتاحيا وصفه فيه بأنه متسرع متقلب غريب الاطوار ، بل ذهب الى نعته بعدم

الاتزان والتهور [19] •

بعد هذه العبارات الازدرائية ، اوضح الجادرجي ان العمري ، وهو من مخلفات الاستبداد العثماني ، مدّته الاوليغاركية الحاكمة بسلطة يستطيع معها غلّ الاحزاب السياسية التي انشئت حديثا وتقييدها ، واذن فهدف حكومته تافه ، وعلى جميع العناصر الديموقراطية ان تتصدى لها وتعارضها • وقد ادى هذا المقال ومقالات عديدة اخرى[20] الى احالة الجادرجي على المحاكمة واتهامه باثارة الفتنة وتصديع الصف،وخلق الاضطرابات في صفوف الشعب• وحكم عليه بالسجن ستة شهور • الا انه،استأنف الحكم لدى محاكم اعلى ، وفي اثناء ذلك تألفت حكومة جديدة[21] ، تمثّل فيها حزب الجادرجي[22] وهو ما حدا الحكومة في النهاية على اسقاط الدعوى[23] • وبعد ان غادر العمري الحكم اطلق الجادرجي عليه لقب « دكتاتور

---

(١٩) الغاية الخفية وراء خطة الحكومة الحاضرة » للجادرجي ، «صوت الاهالي» (بغداد) ١٠ تموز (يوليو) ١٩٤٦، ص ١ و ٤ . راجع محمد حديد « الاوضاع في العراق » نيوستيتسمان (لندن) ٤ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٦ ، ص ١٨ .

(٢٠) راجع «صوت الاهالي» (بغداد) ١٥ و ١٨ تموز (يوليو) ١٩٤٦ .

(٢١) شكّل نوري السعيد حكومة جديدة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٦ .

(٢٢) تسلم محمد حديد ، نائب رئيس الحزب الوطني الديموقراطي ، وزارة التموين .

(٢٣) للاطلاع على الوثائق التي لها علاقة بهذه الدعوى راجع «محاكمة كامل الجادرجي» للجادرجي (بغداد) ١٩٤٦ .

الجَيْب » لأنه تظاهر بأداء دور دكتاتور ، وعجز عن تنفيذ الاوامر الدكتاتورية[٢٤] .

ولكن لم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي حاول الجادرجي ان يفضح فيها زيف شخصيات سياسية اعتبرها تافهة لا همّ لها الا اشباع آنانيتها ، فقد اشرنا من قبل انه لقب سامي شوكت ، موزلي العراق ، كما لقب نوري السعيد سَنْسَطس العراق ، وحجته في ذلك على الأرجح ان نوري كان حليف الامبراطورية البريطانية . واطلق ايضا القابا على عدة اشخاص آخرين مستخدما عبارات مهينة جعلته يبدو وكأنه لا يسعى الى القضاء على خصومه السياسيين بفضح زيفهم ، ولكن باغتيال سمعتهم[٢٥] .

---

(٢٤) سمع المؤلف الجادرجي يستعمل هذه العبارات في اكثر من مناسبة ، راجع للجادرجي «بعث الفاشية» ص ٥٢ ، و «بيان الحزب الوطني الديموقراطي بمناسبة استقالة وزارة العمري» و«صوت الاهالي» (بغداد) ٢٧ تشرين الثاني(نوفمبر) ١٩٤٧ . وللاطلاع على المعلومات عن وزارة العمري وردّ فعل البلاد حيالها ، راجع كتابي «العراق المستقل» ص ٢٥٦–٢٥٨

(٢٥) دفع انتقاد الجادرجي الساخر لرئيس تحرير «البلاد» وزميله في حزب سياسي سابق رفائيل بطي ، الى الرد على الجادرجي بسبع مقالات تضمنت عبارات قاسية بل مهينة في اكثر الاحيان تناول فيها فجر حياة الجادرجي السياسية . وللاطلاع على مقال الجادرجي عن بطي ، راجع «صوت الاهالي» (بغداد) في ١٣ كانون الاول(ديسمبر) ١٩٤٦ . اما بشأن رد بطي فراجع «البلاد» (بغداد) ٢٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٦ – ١٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٧ .

كان بعض كتابات الجادرجي وتعليقاته بنّاء ومؤثرا مع انه لم يكن دائما يلقى الترحيب من السلطات[٢٦] وكان ، خلال تعطيل جريدة « صوت الاهالي » يعمد الى نشر تعليقاته في صحف يومية اخرى او توزيعها مطبوعة في كراريس ونشرات[٢٧] • وكانت جميع كتاباته تقابل بالجد والاهتمام،كما كانت آراؤه مدار تعليق في الاوساط الرسمية وغير الرسمية •

كان «ديوان» الجادرجي ، الذي تردد عليه الاصدقاء والزوار ، منتدى يتناولون فيه بالنقد والتعليق قضايا الساعة ، وسرعان ما كانت تلك الانتقادات والتعليقات تخترق جدران منزله وتسبب في كثير من الاحيان ، احراجا لذوي الشأن والنفوذ • كان بعض ملاحظاته وصفا بارعا وذكيا تناول فيه شخصيات السياسيين وطباعهم ، الا ان بعضا من ملاحظاته الاخرى كثيرا ما غلب عليه طابع القسوة والتجني والقذف[٢٨] • وبقدر ما كان هجاؤه السياسي مصدر لهو وتسلية للزوار الاجانب فانه كان مصدر اثارة غضب مواطنيه ، عندما كانت ملاحظاته العدائية تتناول خصومه السياسيين •

---

(٢٦) راجع «صوت الاهالي» (بغداد) ٢ و ٢٠ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٦ ، ٩ و ١٢ شباط (فبراير) ١٩٤٧ ، ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٨ ، و «الحياد» (بغداد) ٢٨ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٣ •

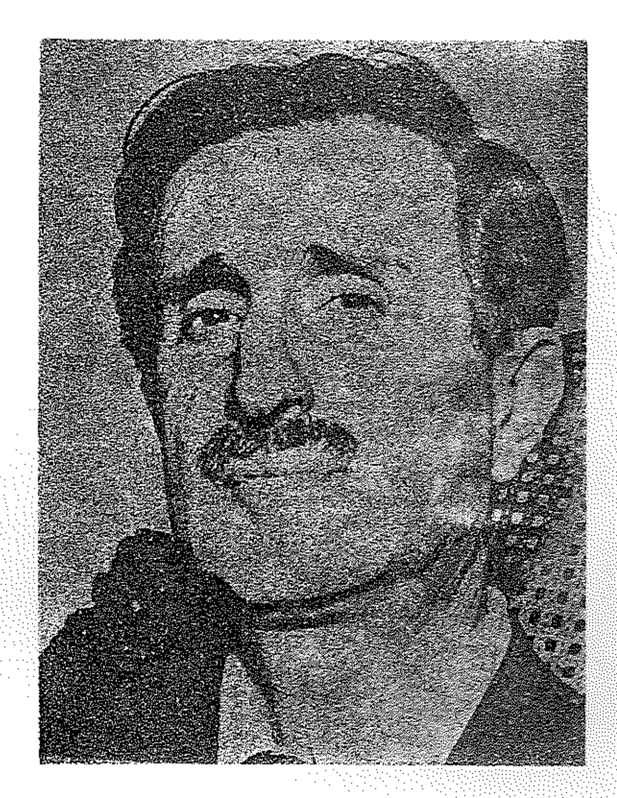
(٢٧) راجع كتابي «العراق الجمهوري» ص ٢٢٧ و ٢٣١ •

(٢٨) للاطلاع على الملاحظات عن الملك فيصل الثاني والزعيم قاسم راجع كتابي «العراق الجمهوري» ص ٤٦ و١٨٥ •

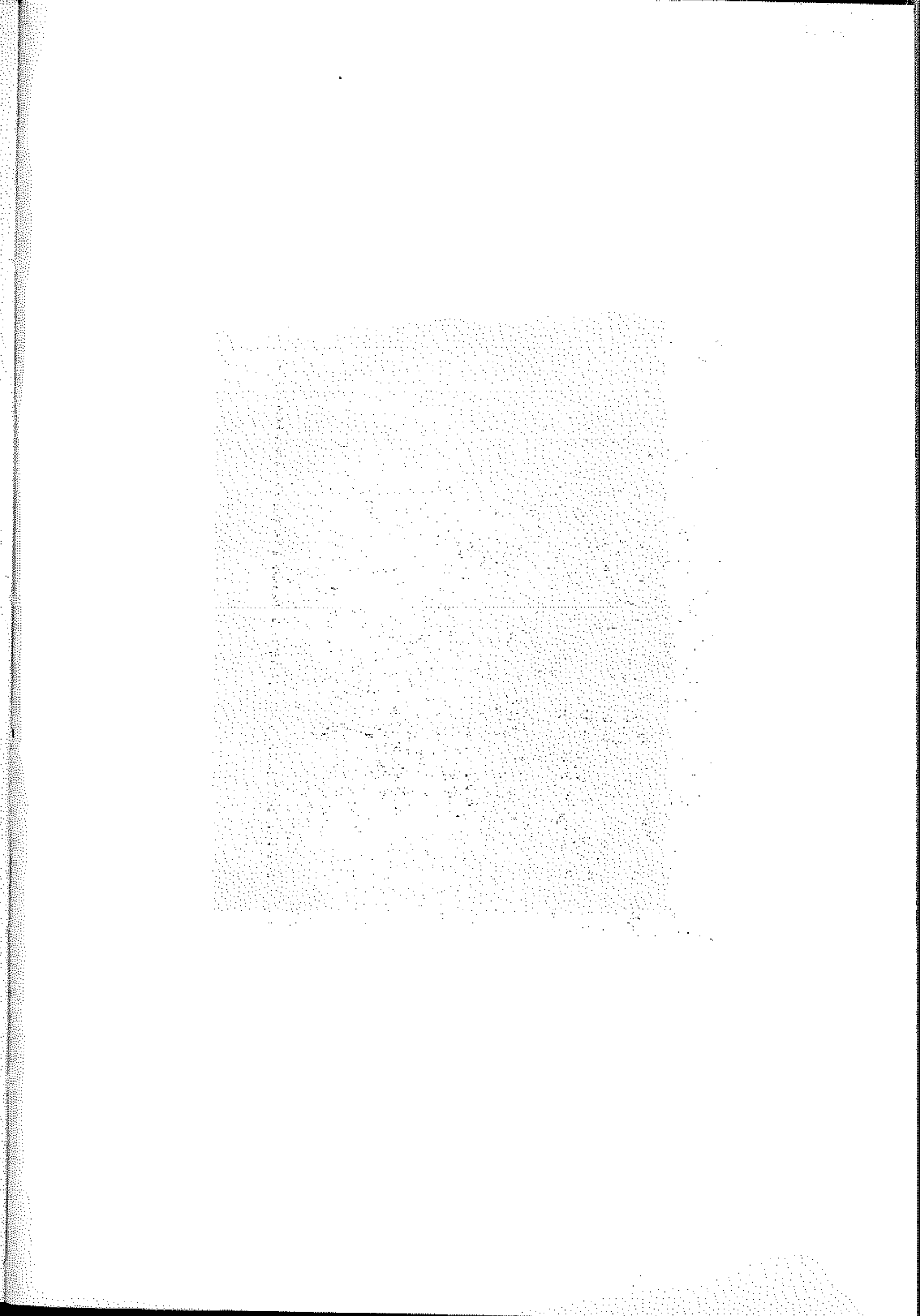
لم يكن الجادرجي يحب الظهور في المجتمعات العامة ليخطب في الحشود المجتمعة او يثير حماسة الجماهير ، برغم ما كان له من تأثير في الصحافة والنشرات السياسية • وقد قضى اكثر اوقاته في ايامه الاخيرة معتكفا ، واشار اليه بعض نقاده الى انه «يختل» في داره • صحيح أنه القى خطبا في مؤتمرات حزبية ، ولكنها لم تكن تتعدى كونها تقارير موجهة الى زعماء حزبيين يصعب معها اعتبارها خطبا تستهدف التأثير في الحضور ، بل ان الجادرجي لم يكن خطيبا شعبيا قط ، لهذا حاول التأثير في انصاره من خلال احاديثه الشخصية وليس عبر الخطابة في المجتمعات العامة •

ويؤثر عن الجادرجي انه لم يكن رجلا لين الجانب ، فمنذ الساعة التي انضم فيها الى جماعة «الاهالي» اخذ يصطدم مع آخرين • ورفض ان يضم الى حزبه زعماء احزاب سياسية اخرى حتى لو اظهروا استعدادهم للتعاون معه • ولو وافق الجادرجي على تشكيل منظمة سياسية اوسع ، لكان محتملا ان تعجز الاولغاركية الحاكمة عن قمع الاحزاب السياسية ، كما فعلت حين تناولت كل حزب على حدة • لكن الجادرجي ، الذي اراد المحافظة على انضباط حزبه والتشدد في تنظيمه وتسييره ، فضل العمل من ضمن منظمة اصغر حجما ، لكنها متماسكة متضامنة ، على العمل مع مجموعة كبيرة من الاتباع والانصار تشيع في صفوفهم الحزازات والخلافات • وهكذا فقد اقتصر تأثير الجادرجي ونفوذه على جماعة صغيرة نسبيا ، اما وصوله الى الحكم فلم يكن من المنتظر تحقيقه بأساليب سلمية • وفي لحظات من اليأس ، في وقت كانت فيه حريته

نفسها مقيدة،سمح لحزبه بالاشتراك في انقلابين عسكريين ، مرة في سنة ١٩٣٦ ومرة في سنــة ١٩٥٨ • أمــا الانقلاب الاول فقد اضعف مركز حزبه ، واما الانقلاب الثاني فقــد حطمه وقضى عليــه • ورغم ذلك ، فالمبادىء التي آمــن بها الجادرجي ، لا تزال حتى يومنا هذا ، شعار الفئــات المعتدلة والليبرالية • زد على ذلك كله ان استقامة خلقــه وقوة شخصيته واخلاصه لحزبه جعلته انسانا فريدا بــين السياسيين المحترفين من أقرانه • ولو ان الجادرجي كــان ليّن العريكة ، يتمتع بالقدرة على اجتذاب الجماهــير ، لاستطاع التغلب على انعزاليته ، ولقــاد حزبه عبر الطريق المؤدية الى التأييد الشعبي •



كمال جنبلاط



كمال جنبلاط

« وهذا المجتمع التقدمي الاشتراكي الذي يتركز على الظاهرة الجماعية للتطور التي تهدف في ما تهدف الى « القضاء على عوامل التفرقة والتشتيت والعداء غير المثمر في صلب المجتمع واوضاعه وخاصة الغاء نظام الطائفية السياسية » و « مكافحة الطبقية الاقطاعية والتمهيد لقيام القيادات الصحيحة وايقاظ الشعور بالتضامن والمسؤولية الاجتماعية » ، وهذا التضامن وهذه المسؤولية التي تتحقق وتبرز بشكل عملي عندما يعتمد الحزب انشاء تعاونيات الاستهلاك والانتاج ونظام «الخدمة الاجتماعية الاجبارية» •

جنبلاط

يشترك جنبلاط والجادرجي في صفات عديدة وفي الاتجاه السياسي الاساسي • فقد تلقى الاثنان الدعم السياسي في البداية ، من وضعهما العائلي • ولكنهما يختلفان اختلافا جذريا من حيث اتباعهما الاساليب السياسية • ولد جنبلاط ، كالجادرجي ، في عائلة ثرية • والواقع ان اسرة جنبلاط كانت

اغنى من عائلة الجادرجي بمراحل ، ولعبت في السياسة دورا اهم من الدور الذي لعبته عائلة الجادرجي • ولد جنبلاط في الشوف ، في وسط لبنان ، سنة ١٩١٧ • وينتسب اجداده الى جانبولاذ ، الذي صار يكتب جنبلاط ويلفظ جمبلاط • وقد جاؤوا الى لبنان من منطقة كلس وعينتاب في جنوبي آسيا الصغرى • والمعروف انهم من اصل كردي ، اعتنقوا المذهب الدرزي المتفرع من المذهب الشيعي الفاطمي قبل انتقالهم الى جنوبي لبنان بمدة طويلة • واما سكناهم لبنان فترقى الى ابعد من ثلاثة قرون ونصف القرن[٢٩] ولا يبعد ان يكونوا اخرجوا من ديارهم بسبب النزاع الطائفي ، الذي كان قائما آنذاك في اسيا الصغرى ، وذلك اما حين بدأ هذا المذهب الجديد ينتشر في تلك المنطقة ، او بعد ذلك ، حين بلغ نفوذ الامبراطورية العثمانية وسيطرتها شرقي آسيا الصغرى [٣٠] • ومع مرور الزمن اصبح لآل جنبلاط في وطنهم الجديد ، أملاك واسعة جعلتهم اسيادا اقطاعيين • واشتهر بعض افراد العائلة كزعماء روحيين ومدنيين • بل ان نفرا منهم حكموا البلاد ، اما بصفة ولاة

---

(٢٩) تدّعي عائلة جنبلاط الانتساب الى صلاح الدين ، المعروف تاريخيا بأنه كردي ، رغم ان الدروز عامة هم من اصل عربي . وللاطلاع على وصف مختصر لاصل الدروز ومذهبهم راجع ج.س. هوجسون «الدروز» « الموسوعة الاسلامية» المجلد ٢ (دون تاريخ) صفحة ٦٣١ — ٦٣٤ .

(٣٠) للاطلاع على تاريخ عائلة جنبلاط ، راجع «اخبار الاعيان في جبل لبنان» لطنوس الشدياق (بيروت ، ١٩٥٤) المجلد الاول ، ص ١٤٤ وما بعدها .

عثمانيين او امراء شبه مستقلين • ولا يزال كبار افراد هذه العائلة يتمتعــون حتى يومنـا هــذا ببعض الامتيـازات الاقطاعية [٣١] •

لم يعرف كمال جنبلاط ، شأنه في ذلك شأن الجادرجي ، الحرمان او التزعزع الاجتماعي ، بل لقد اعتمد في تحقيق طموحه السياسي على ثراء عائلته ومكانتها اكثر مما كان في مقــدور الجادرجي ان يفعل • ولما كان جنبــلاط يصغر الجادرجي بنحو عشرين سنة ، فقد اتيح له ان يــدرس في لبنان وباريس ، فتوفرت له بذلك ثقافة ارسخ وأوسع من ثقافة الجادرجي • وتولت والدة جنبلاط نظيرة ، التي كانت متعلقة بابنها تعلقا كبيرا ، تلقينه العلم في البيت بشكل غير رسمي • وبعد عشر سنين ارسلته الى مدرسة اللعازارية في عينطورة ، حيث يتلقى اولاد العائلات اللبنانية العريقــة علومهم • وفي سنة ١٩٣٦ ، سافر جنبلاط الى باريس لدرس الادب والفلسفة في السوربون ، رغم ان امه كانت ترغب في ان يدرس الحقوق • وفي سنة ١٩٣٨ استدعته امه الى وطنه ، خشية نشوب الحرب ، فالتحق بكلية الحقوق التابعة لجامعة القديس يوسف وتخرج منهـا سنة ١٩٤٢ ثم زاول مهنــة المحاماة متدرجا مدة سنة • الا ان عقله كان منصرفا الى الادب

---

(٣١) للاطلاع على طبيعة الاقطاعية والطائفية في لبنان راجع «الطائفة والاقطاعية في لبنان» لميشال غريب (الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٦٤) و «الروابط الاصلية والسياسية في لبنــان الدراسات الشرق اوسطية» المجلد ٤ (١٩٦٨) ، ص ٢٤٣ — ٦٩ •

والفلسفة • وكان لثقافته الشخصية في العلوم الانسانية ، اثرها الكبير في آرائه الاجتماعية والسياسية •

دخل جنبلاط معترك السياسة ، كالجادرجي ، اثر انتخابه عضوا في البرلمان سنة ١٩٤٣ • ولم يكن فوزه آنذاك في الانتخابات نتيجة آرائه السياسية الشخصية، لأن المنطقة التي مثلها كانت دائما تنتخب احد افراد عائلة جنبلاط ، وكان ابن عمه حكمت جنبلاط ، الذي دأب على تمثيل الشوف في البرلمان ، قد توفي سنة ١٩٤٣ ، فانتخب كمال جنبلاط خلفا له • ولعب جنبلاط ، مدة قصيرة ، دورا سياسيا مستقلا دون ان ينتمي الى أي حزب من الاحزاب السياسية القائمة، الا انه كان من حين الى آخر يتعاون مع بعض الجماعات السياسية • واستمر يحتفظ بمقعده البرلماني بفضل مركز عائلته التقليدي وما تتمتع به من زعامة الدروز • ترشح جنبلاط للنيابة في جميع الدورات الانتخابية العامة ، فأعيد انتخابه في سنة ١٩٤٧ و ١٩٥٣ ، ولكنه هزم سنة ١٩٥٧ بسبب معارضته كميل شمعون • ثم عاد الى البرلمان سنة ١٩٦٠ كما فاز في الدورتين التاليتين ، مرة في سنة ١٩٦٤ ومرة اخرى في سنة ١٩٦٨ • وأول مرة اشترك فيها جنبلاط في الحكم كانت سنة ١٩٤٦ حين عين وزيرا للاقتصاد الوطني• وقد تولى بعد ذلك الوزارة مرارا ، فشغل منصب وزير الزراعة ثم التربية ثم الاشغال العامة ثم التصميم ثم الداخلية مع حكومات مختلفة متعاقبة ، بعضها كان ائتلافيا والآخر تكتليا ، تضامنا مع رئيس الوزراء ضد عهود سابقة •

وفي سنة ١٩٤٩ ، اسس جنبلاط الحزب التقدمي

الاشتراكي واصدر جريدة الحزب الرسمية «الانباء» . ولم يعبّر برنامج هذا الحزب ، بما ينتظمه من اهداف اجتماعية وسياسية ، عن مبادىء جنبلاط السياسي فحسب ، بل عن ميوله السياسية والادبية ايضا ، لانه كثيرا ما يكتب للصحافة . ومهما كان من امر فان الكتابة عن جنبلاط السياسي تفرض التطلع الى ابعد من نشاطه الحزبي وكتاباته السياسية[٣٢] .

لم يرتبط جنبلاط ، قبل ان ينشىء حزبه السياسي سنة ١٩٤٩ ، بأي حزب معين ، رغم انه كان يؤمن بمبادىء بعض الاحزاب التي ربما راودته فكرة الانضمام الى احدها . وفي اكثر من مناسبة ، انحاز الى بعض المجموعات ، كما رضي بالتعاون مع بعض كبار السياسيين ، لكنه برهن في نهاية الامر انه انسان يؤثر الانفراد ، ففضل تأسيس حزبه الخاص بعدما ادرك ان ايا من الاحزاب القائمة لا يشاركه آراءه التي لن تلقى التأييد الشعبي الكافي لتشكيل حكومة الا بالائتلاف .

تبنى جنبلاط ، وبتأثير من الاتجاهات الاجتماعية والسياسية التي انبثقت بعد الحرب ، مبادىء الاشتراكية والديموقراطية الممزوجة بالقيم الدينية والاخلاقية ، التي استوحاها من قراءته المؤلفات الدينية الاوروبية منها

---

(٣٢) للاطلاع على وصف موجز لنشاط جنبلاط السياسي ، راجع «الاحزاب اللبنانية في ١٩٥٩» للوسيان جورج وتوفيق المقدسي (بيروت ، ١٩٥٩) و «الاحزاب السياسية في لبنان» م.و. سليمان (ايتاكا ، ١٩٦٧) ص ٢١٣ ــ ٢٧ .

والشرقية ، حتى ان بعض افكاره ، كالجماعية مثلا ، والتي راجت رواجا عظيما ، اقتبسها من الفكر الاوروبي • أما آراؤه في الاخلاق والدين فقد استمدها من دراسته للديانتين الهندوسية والبوذية وغيرهما من الديانات الشرقية• وقبل انشاء حزبه بثلاث سنين او اربع ، اخذ يطبق مبادئه الاشتراكية بتوزيع بعض اراضيه على الفلاحين،دون الالتفات الى احتجاجات امه وهذا العمل ، سواء اكان بقصد الدعاية ام بقصد التعبير عن ايمان صادق بالعدالة الاجتماعية ، جعل اسم جنبلاط يدور على كل شفة ولسان ، كما اسهم الى حد بعيد في التأييد الذي لقيه حزبه من الفلاحين في بعض المناطق الريفية ، ومن رجال الفكر في القرى الكبيرة والمدن •

يرتبط الحزب التقدمي الاشتراكي، الذي انشأه جنبلاط، ارتباطا وثيقا بشخصية جنبلاط وزعامته • وبوصفه زعيم الحزب فانه يتمتع بنفوذ واسع وسلطات كبيرة ، فهو الذي يعين في الواقع جميع موظفي الحزب ، ويشرف على اعمالهم، ويتحمل مسؤولية ما يقومون به من نشاطات • ورغم ان جنبلاط يسترشد عادة بقرارات مجلس مدراء الحزب ، الا انه كثيرا ما يمارس سلطات مطلقة ، وتنفذ اوامره دون استشارة سابقة لبقية زعماء الحزب •

يؤيد جنبلاط عدة تعاليم وعقائد مستوحاة من انظمة اجتماعية وسياسية مختلفة ، ليس من السهل او المتيسر التوفيق بينها دائما • ويصرح بأن الزعم القائل بأن الفرد هو موضع اهتمام جميع المنظمات الاجتماعية والسياسية مرده الى الفلسفة الفردية • ويؤكد ان المجتمع ليس سوى وسيلة تمكن الفرد من النمو والتطور • ولتحقيق هذا الهدف لا

بد من ان يكون المجتمع ديموقراطيا حتى تتوافر للفرد فيه عناصر السلام والحرية والرفاهية والامن • الا ان هذه الفلسفة الليبرالية ــ كما يقول جنبلاط ــ يجب ان تضبطها مبادىء اجتماعية تحول دون استغلالها من قبل فئة قليلة همها جني المرابح • وهكذا ، فالاشتراكية في رأي جنبلاط ليست مبدأ مسيطرا ، بل هي مبدأ اصلاح وتصحيح ، انها وسيلة لغاية وليست غاية بحد ذاتها ، مع ان الغاية احد المبادىء الاساسية • ويدل هذا الخليط من المبادىء الفردية والجماعية ، على شخصية حيوية نشيطة غير متحجرة • ولا يبعد ان تتغير المبادىء وتتطور وفقا لمتطلبات الفرد وتوقعاته المتزايدة • لهذا السبب وسم جنبلاط فلسفته الاجتماعية بالتغير المستمر ، وسمى حزبه «تقدميا» تمييزا له عن بقية الاحزاب النظرية والعقائدية ، الشيوعية منها وغير الشيوعية[٣٣] •

ولكن هذا ليس كل شيء • فقد حاول جنبلاط ان يغرس في فلسفته الاجتماعية ، وبالتالي في تعاليم حزبه ، قيما روحية ودينية معينة ، مدللا بذلك على اهتمامه الشخصي بالقضايا الدينية • وتشهد كتاباته على طول باعه في الامور الدينية ، وهو كثيرا ما يستشهد بأقوال النبي محمد واقوال علماء الغرب والشرق [٣٤] ولعل هذه النفحات الروحية

---

(٣٣) راجع « ميثاق الحزب التقدمي الاشتراكي » (بيروت ، ١٩٤٩) •

(٣٤) من بين الكتاب المسيحيين الغربيين يقتبس جنبلاط كثيرا عن دوشاردان الذي يبدو انه جذب جنبلاط الى مؤلفاته، هذا فضلا عما طالعه من الابحاث عن الديانة الاسلامية والديانات الشرقية الاخرى •

تهدف الى معالجة الناحية المادية في الفردية والاشتراكية العصريتين،ومع هذا فليس من الواضح في ما اذا كانجنبلاط على استعداد لاخضاع المبادىء العلمانية للمبادىء الروحية.

اما افكار جنبلاط فيتعذر العثور عليها مصنفة بانتظام في أي بحث مستقل . فهي موزعة هنا وهنالك في عدد من الخطب والابحاث . ويبدو انها لم تتطور بعد الى نظام مترابط متماسك . فجنبلاط لا يلتزم دائما ببعض المبادىء الاساسية . فقد راح يؤكد ، في بعض مقالاته ، على الحرية الفردية والديموقراطية والقيم الروحية، وفي مقالات اخرى، اخذ يتذمر من عجز اساليب الديموقراطية عن تحقيق التقدم، وجعل ينادي بالحد من الحرية الشخصية . ويسود هذا التناقض كتاباته وخطبه العامة،ولعل مرد بعض هذا التناقض الاجواء التي تخلقها المناسبة والحالة النفسية التي يكون عليها جمهور الحاضرين[٣٥] .

ولنسأل الآن ، ما هي اهداف جنبلاط وأساليبه ؟

يميل جنبلاط في معظم كتاباته الى صياغة آرائه عن الفرد والمجتمع بعبارات تجريدية غير تطبيقية ، ولكن ما من شك في انه يفكر في اعماق نفسه ، بوجوب تطبيق هذه الآراء على مشاكل المجتمع اللبناني العملية. وهو اذ يبحث مشاكل

---

(٣٥) ردد جنبلاط فيابحاثه المنشورة وفياحاديثه الخاصة، ايمانه بالديموقراطية وبغيرها من المبادىء الليبرالية ، ولكنه تشكى من عدم توافر الشروط اللازمة لتحقيقها .

لبنان فلا يبحثها في عزلة عن غيرها بل يتناولهـا من حيث ارتباطها بجارات لبنان من الدول العربية ، ثم مـن حيث ارتباطها بالعالم كله • وكثيرا ما اعرب عن رأيه في لبنان من حيث وضعه الاقليمي ، وذلك ادراكا منه لضعف مركز لبنان كدولة صغيرة ، ولاعتماده على رضا الدول الاخرى، وخاصة العالم العربي ، والدول الكبرى • واعلن أن لبنان ، رغم كونه مجتمعا سياسيا منفصلا له صفته المميزة ، هو بلد عربي يشارك البلاد العربية الاخرى التراث الحضاري ، والاماني القومية • وقال جنبلاط ان الدول العربية تدرك ايضا انها اعضاء في جامعة اكبر للامم وان بقاءها يعتمـد على حفظ السلام والاستقرار والتعاون المتبادل في ما بينهـا لتحقيق المصالح القومية • الا انه ، بصفته سياسيا يعمل على تحقيق اهدافه في وطنه ، سعى اولا الى تغيير المجتمع اللبناني وفقا لاهدافه ، قبل ان يتطلع الى خارج حدود لبنان ، مع انـه حاول ، في اكثر من مناسبة ، ان يربط بين نشاطه السياسي في لبنان والحركات السياسية في الدول المجاورة[٣٦] •

لم يعتبر جنبلاط حزبه السياسي ، منذ انشائه ، مجرد تنظيم سياسي يسعى الى أن يكون ممثلا في المجلس النيابي والحكومة ، بل اعتبره كذلك اداة لتحقيق الاصلاحـات الاجتماعيـة من خلال المؤتمرات والمهرجانـات والترويج لافكاره وآرائه • و لايحصر جنبلاط همه في طبقة او طائفة

---

(٣٦) راجع «في مجرى السياسة اللبنانية» لكمال جنبلاط (بيروت ، دون تاريخ) .

معينة ، بل يتناول جميع فئات الامة ، غير انه يوجه أهتماما خاصا الى اهل الفكر والجيل الطالع • ولا شك بأن مناداته بالحرية والاشتراكية والديموقراطية والتشدد فيها أثر في الشباب أيما تأثير ، ومع انه لم يعد الوحيد الذي ينـادي بهذه الشعارات ، الا ان صوته ما زال الاكثر اقناعا ، ذلك لانه كان واحدا من الزعماء الذين تحدثوا باخلاص عن هذا الموضوع في السنين الاولى التي تلت الحرب •

تمكن جنبلاط ، بصفته مفكرا وكاتبا ، من التأثـير في شباب وطنه اكثر من أي سياسي آخر • وأثبت ، في الكتب والكراريس والخطب العامة التي تبحث في القضايا السياسية النظرية والعلميـة • ثم انه عميق التفكير وخطيب مثـير للاعجاب ، وخاصة في المواضيع الدولية والمحلية • ورغم الغموض الذي يكتنف اسلوبه احيانا عند تناوله المواضيع المجردة ، فانه ، بشكل عام جليّ ونيِّر • ثم انـه يكتب باللغتين العربية والفرنسية وبوسعه ان يخطب بالانكليزية في حشد من الناس لغتهم هي الانكليزية[٣٧] •

لقد استطاع جنبلاط ، باشتراكه في حملات انتخابيـة ومناقشات برلمانية وفي الشعبة التنفيذية الحكومية التأثير في السياسة والقضايا السياسية ، التي كانت له بها علاقـة مباشرة • كما انه لم يتردد في الاشتراك في عمليات ثورية ،

---

(٣٧) اسعدني ان قدمت جنبلاط في حفلة الى جمع مـن الاميركيين خلال زيارته واشنطن سنة ١٩٥٤ حيث القى خطابا بالانكليزية ، ثم اجاب عن اسئلة تناولت لبنان والعالم العربي •

عندما كانت السياسة العامة تتعارض مع معتقداته ومبادئه ، بل انه سعى الى التحالف مع احزاب مناوئة من اجل الوصول الى السلطة بالقوة والعنف • وبلجوئه الى هذه الاساليب ، لم يرتفع جنبلاط عن مستوى بقية السياسيين المحترفين ، الذين يخضعون المبادىء للمصالح(٣٨) •

ان هدف جنبلاط الاساسي ، اذا اتيح لتعاليمه بلوغ نهايتها المنطقية ، هو اقامة نظام حكم جديد ينفذ افكاره الاجتماعية والسياسية تنفيذا تاما • ورغم ان جنبلاط غالبا ما يتكلم بعبارات عامة مطلقة ، دون الاشارة الى بلد معين ، فان المحك لمبادئه هو في مقدار انسجامها مع بلده ، لبنان • بيد ان لبنان في الواقع ليس مجتمعا متماسكا يستطيع المرء ان يجري فيه اختبارات بسهولة منظورة • فلبنان مجموعة من الطوائف ، تؤلف بينها وشائج محلية واقطاعية وطائفية، متداخل بعضها في بعض • وقد أدرك جنبلاط ، انه اذا كان له ان يوجد نظاما جديدا ، فعليه اولا ان يغير النظام الاجتماعي التقليدي في لبنان ، ويخلق نظاما جديدا • من اجل هذا راح ينادي بالغاء قواعد البنيان السياسي المعمول بها ، وهي قواعد في مجملها عرفية غير مكتوبة • وعلى وجه

---

(٣٨) للاطلاع على كتابات جنبلاط السياسية ، راجع «الديموقراطية الجديدة» (بيروت ، ١٩٥٠) و «اضواء على حقيقة القضية القومية الاجتماعية السورية» (بيروت ، دون تاريخ) ، و «حقيقة الثورة اللبنانية» (بيروت ، ١٩٥٩) ، و «في مجرى السياسة اللبنانية ، ثورة في عالم الانسان» (بيروت ، ١٩٦٧) ، و «في ما يتعدى الحرف» (بيروت دون تاريخ) .

التحديد ، لقد طالب جنبلاط بوضع حد للطريقة التي يتم فيها اختيار وانتخاب كل من رئيس الدولة والحكومة والبرلمان ، فضلا عن المناصب الاخرى في النظام السياسي ، وان يتم ذلك كله وفق النظم العلمانية بدل اعتماد الاسس الطائفية المعمول بها حاليا ، ليتسنى لجميع المواطنين اشغال المناصب العامة ، بغض النظر عن مذهبهم ومقامهم •

تبدو آراء جنبلاط الاساسية ، نظريا آراء معقولة مستحسنة ، وفي الواقع يبدو ان اكثر الزعماء السياسيين يتقبلونها من حيث المبدأ ، الا ان العديد من المواطنين لم يرضوا بالاساليب التي حاول تنفيذها بها •

لقد ولج جنبلاط معترك السياسة كما سبق ان اشرنا ، معتمدا على عادات تقليدية ، اقطاعية وطائفية ، قبل ان يكون شخصية وطنية معروفة ، حتى في بيئته• وكان تجديد انتخابه وإشغاله مناصب وزارية أيضا مرتبطا في الاساس بمؤثرات تقليدية ، حتى بعد ان اصبح زعيم حزب سياسي وشخصية وطنية مرموقة • وهكذا ، لو حوسب جنبلاط على اقواله ، لكان عليه ان يتبع اساليب تنسجم مع مبادئه المعلنة وبرنامج حزبه ، بدلا من تعقب الاهداف السياسية بالاساليب التقليدية • ولعل هذه هي نقطة الضعف الاساسية في زعامة جنبلاط ، أي التناقض بين اقواله واعماله ، بين النظرية والعملية •

مع هذا كله فقد يقال بأن جنبلاط مضطر ، قبل ان يتمكن من تحقيق التغيير الاساسي في النظام الاجتماعي ، انيلجأ الى الاساليب التقليدية والاستمرار في المعترك السياسي

مشاركا فيه على الصعيد البرلماني او حتى الحكومي ، في سبيل تحقيق اهداف قريبة لا تستغني عنها اهدافه البعيدة • اما ضعف هذه الحجة فيكمن في ان دعوة جنبلاط الى الاصلاح لا يمكن الاخذ بها جديا الا اذا التزم هو نفسه بمبادئه المعلنة • والواقع ان لجوءه الى الاساليب التقليدية دفعه الى التعاون مع زعماء لا يربط بينه وبينهم أي رابط مشترك اللهم الا الرغبة بالتغلب على خصم او خصوم متربعين في كراسي الحكم • وقد تركت هذه الاساليب انطباعا في ان جنبلاط لا يختلف الا قليلا عن غيره من السياسيين المحترفين ، الذين اتهمهم هو بالانتهازية وباستعدادهم لاخضاع المبادىء لمناهج يكتنفها الشك •

لم يجهل جنبلاط ان هذا الوضع المتداخل بعضه في بعض سيظل وضعا مربكا اذا اراد هو الاستمرار في الكفاح وترجمة اقواله الى افعال بالطرق السلمية • ولذلك فانه كثيرا ما تكلم عن الحاجة الى تغيير ثوري يقضي على المواثيق التقليدية ، وخلق مواثيق اخرى جديدة تتفق مع عقائده الاجتماعية والسياسية • ولم يكتف جنبلاط ، من حيث المبدأ ، بتأييد التغيير الثوري ، بل ذهب الى حد الاشتراك الفعلي في انتفاضتين شعبيتين ، واحدة في سنة ١٩٥٢ والاخرى في سنة ١٩٥٨ ـ لجأ خلالهما الى القوة لتحطيم « انظمة قديمة » ، كي تحل محلها انظمة جديدة ترسخ مواثيق جديدة • الا ان جنبلاط بسلوكه هذه الطرق فشل في اجتذاب تأييد البلاد له • وكثيرا ما عاد فانحاز الى سياسيين محترفين كان قد اتهمهم في الماضي بالفساد والانانية ، وبهذا

يكون هو نفسه قد شوّه جهوده ، سالكا بذلك نفس الطرق التي كان يسلكها الآخرون •

وهكذا لم يبق امام جنبلاط الا اداة واحدة هي قيادة حزب سياسي يستطيع من خلالها الاسهام في السياسة على الصعيد الشعبي ، والدعوة الى تأييد برنامج يشتمل على آرائه الاجتماعية والسياسية • صحيح ان سلوك هذا الطريق ، في بلد لم يتطور فيه الرأي العام تطورا كافيا بعد ، هو طريق غير فعال لتحقيق الاصلاح المنشود، ولكنه الوسيلة الديموقراطية الوحيدة التي تنسجم والافكار التي عرضها جنبلاط على الشعب • ويمثل حزب جنبلاط في البرلمان اللبناني المؤلف من تسعة وتسعين عضوا نواب يتراوح عددهم عادة بين ثلاثة وخمسة • ولكن حتى انتخاب هؤلاء النواب لا يتم كله على اساس حزبي ، الامر الذي يدل على ضعف حزب جنبلاط بالنسبة لخصومه[٣٩] • وغني عن القول ان وجود نظام تعدد الاحزاب في أي بلد يجعل من الصعب جدا على أي حزب التمتع بأكثرية برلمانية دون الانحياز الى احزاب اخرى والتكتل معها • الا ان خطأ جنبلاط يكمن في كثرة تغيير انحيازاته وتكتلاته مع غيره •

---

(٣٩) بين خصوم جنبلاط ، يحتل نواب كتلة بيار الجميل تسعة مقاعد ، وكميل شمعون ، ولعله اقوى زعيم بينهم ، ثلاثة عشر مقعدا ، من مقاعد مجلس النواب الحالي . اما عدد اعضاء الحزب نفسه فلا يتجاوز ثمانية او تسعة آلاف عضو الا قليلا ، رغم ان جنبلاط يدعي ان عدد اتباعه يزيد عن هذا العدد كثيرا .

ولكي ينال حزبه ثقة شعبية ، كان على جنبلاط ان يقنع مواطنيه بتقبل منهاج حزبه ، وهذا عمل يتطلب الجهد المتواصل على مدى طويل ، الا ان جنبلاط ، كما يبدو ، لا يتمتع بالصبر الذي تتطلبه هذه العملية البطيئة المملة ، التي قرر قرينه العراقي اتباعها • من اجل ذلك لم يستطع جنبلاط ادخال الكثير من التحسين على مهارات بقية السياسيين المحترفين ومناهجهم •

لقد اتيح لجنبلاط ان يتلقى ثقافة ارسخ واحدث من ثقافة الجادرجي • كما انه يملك مؤهلات فكرية يمكن ان تضعه في مصاف السياسيين المفكرين، بيد ان الجادرجي، رغم بعض حدود آفاقه الفكرية ، كان اشد ثباتا من جنبلاط في اعماله، وقد آثر ان يطلع الشعب على الصورة كما هي ، وذلك باخضاع المكاسب الفورية للاهداف البعيدة المدى • صحيح ان الجادرجي لم يستطع وضع منهاج تفصيلي مصقول كما فعل جنبلاط، الا انه اثبت بشكل عام ، انه كان اشد اخلاصا لافكاره التي كان يعلنها على الملأ ، لانه كان ينفذها بعيدا عن الشاذ من الاعمال • لقد سبق ان ذكرنا بأن الجادرجي أيد حركات ثورية ، وهو ما كان يتعارض مع مبادئه ، الا انه كان على استعداد لان يتراجع لو جاءت النتائج غير مرضية، اما جنبلاط فلم يبد أي استعداد للتوقف ، حتى لو ادت اعماله الى نتائج سلبية تؤثر في اخلاصه لمبادئه •

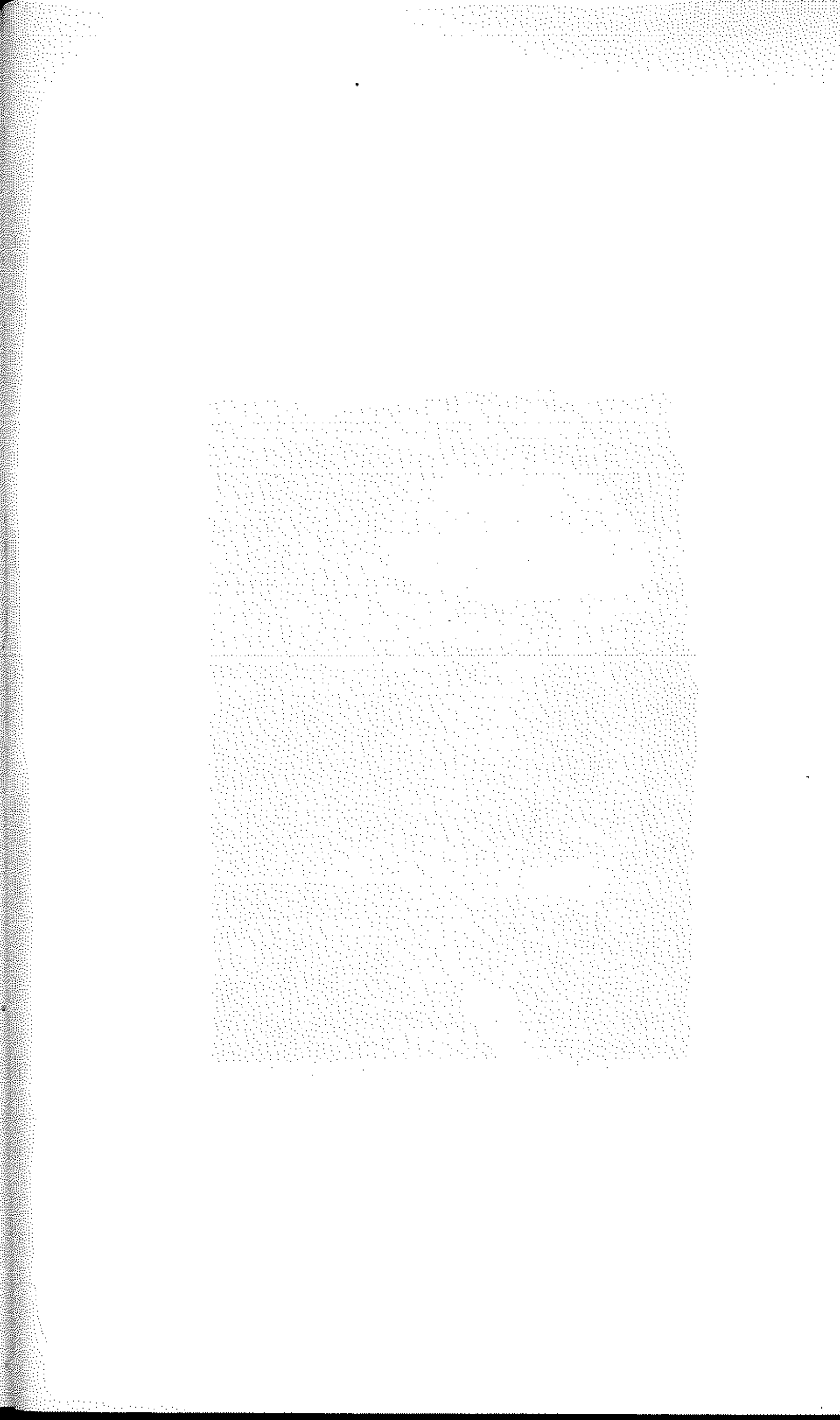
ومع هذا فان جنبلاط كان اكثر مرونة من الجادرجي في علاقاته مع الزعماء الآخرين كما اثبت مقدرة اكبر في ميدان القيادة بابقائه اعضاء الحزب متعاونين في العمل ، وذلك

بالطبع من اجل كسب المزيد من المؤيدين لحزبه • اما الجادرجي فقد ادت خصوماته الشخصية مع قادة حزبه الى انسحابهم من الحزب او الى احداث انشقاقات داخلية • وهكذا يمكن اعتبار جنبلاط زعيما اكبر من الجادرجي ، رغم ما اثارته مرونته من الشبهات بالنسبة الى بعض القيم الرفيعة،مخلفة وراءها انطباعا بأن جنبلاط يهتم اكثر بكسب المؤيدين من اهتمامه بالسعي وراء اهدافه الاساسية •

ورغم تعدد الاهواء والتقلبات ، فقد اظهر جنبلاط من الشجاعة الخلقية واليقظة والصمود في النضال من اجل تحقيق الاهداف، اكثر من جميع خصومه السياسيين تقريبا، بل انه في بعض هذه الخصال يتفوق على قرينه العراقي • أما بالنسبة الى الفطنة والقدرة على التعبير عن افكاره وامتلاك ناصية الكثير من اللغات فان جنبلاط لا شك يبزّ الجادرجي في ذلك كله • واما من حيث قوة الشخصية والتفاني في سبيل القضية التي يعمل لها فان جنبلاط قد لا يستطيع مباراة الجادرجي بهما •



خالد بكداش



الفصل التاسع
المدرسة الفكرية العقائدية
خالد بكداش الراديكالي المتطرف

« نحن نطالب للشعب بالسلم والخبز والحرية » •

خالد بكداش

يمثل خالد بكداش مدرسة مستقلة ، حاول الموالون لها ايجاد الحل للمشكلات العربية ، وذلك بالارتباط ذهنيا وفكريا بحركة دولية ، وبالسعي بالحاح وتصميم الى تغيير اساس المجتمع العربي من جذوره ، بمقتضى الاهداف والاساليب الايديولوجية لتلك الحركة • والحقيقة ان بعض الاراء الاجنبية والاجراءات الاصلاحية استهوت معظم الزعماء ولكن بدرجات متفاوتة وعلى الاخص اولئك الذين حاولوا العمل وفقا لنظام اشتراكي ما • بيد ان هؤلاء الزعماء سعوا الى تكييف او تعديل المفاهيم الدولية لتفي بالحاجات الضرورية المحلية • على ان الشيوعيين العرب ، وقفوا موقفا مغايرا لذلك ، باتفاقهم الضمني على اخضاع القيم المحلية للقيم الدولية • كما انهم كانوا مصممين على

تعديل الاهداف والاساليب المباشرة ، كما تقتضي الاحوال السائدة • غير ان المبادىء الضمنية ما برحت تمثل وحدة سليمة ملتحمة •

فخالد بكداش الامين العـام للحزب الشيوعي لاربعين سنة خلت ، هو الزعيم الشيوعي العربي الاول بلا منازع ، لما عرف عنه من مناقب شخصية ، ولما اتصف به من اخلاص وتفان في تحقيـق الاهداف المثالية الايديولوجية طبقـا للاستراتيجيـة السوفياتية وتوجيهـاتها • لم تكن الآراء الجماعية جديدة على العرب ولم تكن شيئا مستحدثا ، بل انها تغلغلت فيهم رغم ردود الفعل المعاكسة ومقاومتهـا بأساليب وطـرق لا يجوز نسبتها برمتهـا الى التقاليـد المحلية[1] • غير ان طلائع الشيوعيين ، خلافا لغيرهم مـن القادة ، ابدوا نشاطا حركيا ، واظهروا من ضروب النظـام وحسن التدبير ما أثار دهشة العرب الذين لم يعهدوا شيئا كهذا من قبل• فبكداش قدم مثلا رائعا للاساليب الشيوعية، محاولة منه لتسلم زمام السلطة ، رغم ان الطريق المؤدي الى هذا الهدف الرئيسي كان طريقا طويلا تتخلله العقبات وتكتنفه العراقيل •

ولد خالد بكداش عام ١٩١٢ في اسرة لم تكن بعد قـد امتصها المجتمع العربي • فوالداه من اصل كردي عاشا في حي الاكراد ــ الذي عرف بحي المهاجرين في دمشق وفيه

---

(١) انظر كتابي « الاتجاهات السياسية في العالم العربي » (الدار المتحدة للنشر ، بيروت ١٩٧٢) الفصل الخامس .

اقام معظم الاكراد • لم تتميز عشيرة بكداش بأي نشاط وطني او اجتماعي ، رغم ان والد خالد خدم في الجيش العثماني ، ثم في الجيش العربي خلال حكم الملك فيصل القصير الامد سنة ١٩٢٠ • وهكذا ترعرع خالد في بيئة اجتماعية قاست من الحرمان والقلق مما يبيّته الغيب وتسفرعنه الايام ، اذ لا اسرة له تدعمها اصالة او حسب . رغم ادعائه في ما بعد ان اباه خدم في الجيش العثماني بتفوق[٢] • بيد ان خالد منذ نعومة اظفاره عرف بدماثة الخلق ، والذكاء والنشاط ، وهذه صفات تمكن أي شاب في عنفوان شبابه من شق طريقه في المجتمع ، والتغلب على الحرمان ، واسدال ستار كثيف على الماضي الذليل •

وكسائر الاحداث الذين كانوا في سنه ، تعلم بكداش في المدارس الحكومية التي رعتها حكومة الانتداب الفرنسية واعادت تنظيمها بعد سقوط الحكم العربي • وفي غضون السنين العشر التالية ، أنهى تعليمه الابتدائي والعالي ، ولكنه لم يتمكن من متابعة دراسة القانون في كلية الحقوق؛ إما لاخفاقه في التقدم للامتحانات (على حد قول احدهم) واما لانه أقصي عقابا له على نشاطه السياسي كما زعم آخرون • وفي اثناء وجوده في المدرسة الثانوية ، أولع بالسياسة ، فانكب على المؤلفات السياسية التي كان لها تأثير كبير في قضايا الساعة يومذاك • ومنذ انهيار الحكم العربي

---

(٢) انظر قدري القلعجي «تجربة عربي في الحزب الشيوعي» (بيروت ، ١٩٦٠) ص ١٥٤ .

سنة ١٩٢٠ ، ولغاية سنة ١٩٣٥ دأب الزعماء الوطنيون على تحريض الشعب لمناوءة الانتداب الفرنسي • وكان الطلبة من أهم العناصر التي اشتركت في تظاهرات الاحتجاج قاطبة • وقد انجذب بكداش في شرخ شبابه ، ليس بصفته طالبا بل بصفته مكافحا ، الى صفوف المجتمع السياسي خلال سني المقاومة • ولما كان قادة الكتلة الوطنية هم المسيطرون على الموقف ، فقد انضم بكداش اليهم ، وبذل معهم جنبا الى جنب جهدا لشق طريقه في مجال السياسة • ومع انه ما زال يومها حدثا الا انه بدأ يحس بعجز الزعامة التقليدية وضعفها ، وفشلها الذريع في تحقيق الاماني الوطنية •

انضم بكداش عام ١٩٣٠ الى الحزب الشيوعي ، الا ان الغموض ما زال يكتنف السبب الذي من اجله انشق عن الزعماء الوطنيين الذين كان على وفاق معهم كما بدا يومذاك • قد يكون السبب كامنا في اصله الكردي ومكانته الاجتماعية التي لم تزايل مخيلته قط ، وكلا السببين جعله يدرك انه لن يستطيع ان يكون في عداد الساسة المحترفين ، الذين يمثلون الثراء والاسر العريقة • كما ان هؤلاء لم يعملوا من اجل مجتمع ديموقراطي يمكن ان يفسح للشباب اصحاب الفكر المتحرر مجال الاسهام في العمل الوطني المحلي ، بل حرصوا على الظهور بمظهر الزعامة العربية لا الزعامة السورية • غير انه كانت هناك فئات قليلة دينية وغير دينية ازدرت اتجاه هؤلاء الزعماء وآثرت عليه اتجاها وطنيا اقليميا يضعها على قدم المساواة مع المواطنين الاخرين ، لا اتجاها وطنيا متحدرا من اغوار التاريخ والدين • ولما كان بكداش كرديا متحرر

الفكر فانه لم يشعر في صميمه بأنــه ينتمي الى القوميــة العربية ، بل احس بأنه اقرب الى اولئك الساســة الذين يؤثرون العمل في المجال الدولي والاخلاص له على العمل الضيق في مجال القومية والتقليد المحدود •

وهناك سبب آخر اغرى بكداش بالانضمام الى الحركة الشيوعية • فمنذ فجرهــا لم تصادف الحركة الشيوعيــة الاقبال في سوريا ولبنان الا من الاقليات الدينية ، وخاصة المسيحية منها والارمنية • اما المسلمون فقد اعرضوا عنها ، ولم ينضم اليها الا افراد معدودون كان العطف حافزهــم الاول • ولهذا السبب كان واضحا أنه ما لم يتسلم المسلمون القيادة ، فستبقى الحركة مقصورة على تلك الاقليات[٣] • ويقال ان هذا الوضع نبه اليه زعيم سوفياتي في اثناء زيارته لدمشق في سنة ١٩٣٠ • وقد اكتشف في بكداش السجايا التي تؤهله للزعامة،فيسَّر له زيارة موسكو ومتابعة دراسته فيها لاعداده لتزعم الحزب الشيوعي السوري • وبعد ان انضم بكداش الى الحزب الشيوعي عام ١٩٣٠ ، اعتقــل مرتين بتهمة اثارات سياسية كانت الاولى في سنــة ١٩٣١ والثانية في سنة ١٩٣٣ ، وحكم عليه في المرة الاولى اربعــة اشهر قضاها في السجن ، اما في المرة الثانية فقــد فر اثر

---

(٣) لقد تناوب على قيادة الحزب الشيوعي كل من يوسف يزبك وفؤاد الشمالي وكلاهما مسيحي لبنــاني ، ثم ارتئي ضرورة اسنادها الى مسلم سوري ، حتى تنتشر الحركة في سوريا وتكسر الحواجز الدينية .

اعتقاله • وفي تلك الاثنـاء عكف على ترجمة « البيـان الشيوعي » وكانت تلك اول ترجمة بالعربية تنشر في عـام ١٩٣٣ ، ثم لم يمض زمن طويل حتى سافر الى موسكو طلبا للعلم (٤) •

يبدو ان بكداش درس الشيوعية نظريا وتطبيقيا في اكثر من معهد في الاتحاد السوفياتي ، الا انه يتعذر معرفة جميع اسماء المعاهد التي انتمى اليها ، وفي ما اذا كان انتسب اليها بصفة طالب مواظب اسوة بالطلبة الآخرين ، ام بصفة طالب مستمع • لقد قيل انه التحق اول الامر بمعهـد لينين في موسكو ، ثم بجامعة طشقند • وقد تعلم اللغة الروسية حتى صار يتكلمها بطلاقة الى حد ما ، كما قرأ الكثير من الادب الروسي • اما نشاطه في موسكو فلا نعرف الكثير عنـه ، سوى ان اسمه كان بين أسماء رؤساء الوفود التي اشتركت في المؤتمر السابع للكومنترن في سنة ١٩٣٥ • ثم عاد الى دمشق ، إما عام ١٩٣٥ او عام ١٩٣٦ •

اصبح بكداش حتى قبل ذهابه الى موسكو ، امينـا للمجموعة السورية في الحزب الشيوعي السوري اللبناني • وبعد عودته من موسكو شرع اولا في تعزيز مركزه كي

---

(٤) لا يعرف على وجه التأكيد متى سافر بكداش الـى موسكو لطلب العلم،فبعض الكتاب يقول بأنه سافر سنة ١٩٣٠ ورجع سنة ١٩٣٢ . انظر قدري قلعجي «تجربات» صفحة ٥٧ وسـامي ايوب الخوري «الحزب الشيوعي في سوريـا ولبنان» صفحة ٧٠ ـ ٧١ ويقول بعض الكتاب المعتمدين انه سافر الى موسكو في طلب العلم سنة ١٩٣٣ وعاد بعد سنتين.

يتسلم زعامة الحزب كأمين عام • وبعد انضمامه الى الحزب عام ١٩٣٠ تحالف مع رفيق رضا وهو مسلم من طرابلس ، ثم مع ارتين مادويان ، وهو زعيم ارمني ناشط ، اللذيـن وافقا على اسناد الامانة العامة الى بكداش • وحينما انضم المسيحيان اللبنانيان فرج الله الحلو ونيقولا شاوي الـى الحزب وترأسا المجموعة اللبنانية ، أيدا هما الآخران زعامة بكداش ، وكانت النتيجة أن حل بكداش دون صعوبة محل فؤاد الشمالي احد رؤساء النقابات الذي اختير امينا عامـا في سنة ١٩٢٨ عقب انسحاب ابراهيم يزبك من الحزب •

وحين ألفت الجبهة الشعبية الحكومة في فرنسا في عام ١٩٣٦ ، وهي الجبهة التي يؤيدها الشيوعيون الفرنسيون برئاسة ليون بلوم ، تجلى نشاط بكداش في دمشق ، في تأييده قادة الكتلة الوطنية الذين قرروا بالاتفاق مع حكومة بلوم ، التفاوض من اجـل الوصول الى معاهـدة ينتهي بموجبها الانتداب الفرنسي ويعلن استقلال سوريا • ولـم يكتف بذلك بل توجه الى باريس ليضمن تأييـد الحزب الشيوعي الفرنسي لهذه المفاوضات • وبفضل مساعيه اجتمع الاقطاب السوريون الى موريس توريز الامين العام للحزب الشيوعي ، كما التقوا عددا من أعضاء المجلس النيابي الذين اعربوا عن استعـدادهم للضغط على حكومـة بلوم كي تتعاطف مع الاماني السورية الوطنية • وقوبلت المعاهدتان الفرنسية السورية، والفرنسية اللبنانية الموقعتان سنة ١٩٣٦ واللتان نصتا على استقلال سوريا ولبنان بالحماس والابتهاج، واعتبرتا نصرا مبينا ، وقـد كان لبكداش دور فعـال في

ابرامهما • وما ان عاد الى دمشق حتى سافر الى باريس عضوان بارزان من أعضاء الحزب الشيوعي ـ اولا رفيق رضا ، ثم فؤاد قازان ، ليتصلا بالحزب الشيوعي الفرنسي ويضمنا مؤازرته المستمرة للحكومة السورية (٥) •

ولما ان كانت الشيوعية قد لعبت دورا هاما في المفاوضات السورية واللبنانية على الاستقلال فقد سمح لبكداش ان يروّج للدعاية الشيوعية • وهكذا بدأ تنظيم دعايته بالباسها ثوب التحرر الوطني • كما استمر يكيل المديح لفرنسا الديموقراطية من عام ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ ، ويشيد بمحاسن الاستقلال والحرية وفضائلهما • وهكذا استغل هو واتباعه الحرية التي منحت لهم الى ابعد حد في نشر دعوتهم على نطاق لم يتهيأ لهم من قبل • وفي سنة ١٩٣٧ ظهرت لاول مرة جريدة تنطق باسم الحزب الشيوعي هي جريدة «صوت الشعب» فنشرت خطابات بكداش والنشرات الشيوعية دون ان تمر على الرقابة•وتبدلت الصورة بالنسبة لبكداش فبعد ان كان ثائرا يعمل في الخفاء ، اصبح وطنيا لم يقتصر نشاطه على تحرير الفلاحين والعمال بل اخذ ينادي بالحرية الوطنية ، والوحدة والاستقلال ، وبذلك امتد نفوذه فتجاوز المشرق ونودي به زعيما غير منازع •

ابرمت سوريا ولبنان معاهدتي الاستقلال بعد اشهر قليلة

---

(٥) انظر خالد بكداش «في سبيل حرية الشعب والوطنية والديموقراطية» (دمشق ١٩٣٧) و «في سبيل نجاح الحكم الوطني» (دمشق ١٩٣٧) .

من توقيعهما في سنة ١٩٣٦،ولكن مجلس الشيوخ الفرنسي رفض اقرارها بعد سقوط حكومة ليون بلوم في سنة ١٩٣٧ • ولم يمض طويل وقت حتى بدأ الوطنيون السوريون يدركون ان لا أمل هناك بتصديق فرنسا على المعاهدة رغم استعدادهم لاعادة النظر في جميع المسائل المتعلقة بالدفاع وحقوق الاقليات ، تلبية للمطالب الفرنسية • واستقال رئيس الجمهورية السورية في سنة ١٩٣٩ احتجاجا على تخلف فرنسا عن ابرام المعاهدة فاغتنم المفوض الفرنسي هذه الفرصة وحل البرلمان ، ثم عين وزارة ادارية مسؤولة امامه مباشرة • وظل هذا الوضع حتى عام ١٩٤١ حين دخلت القوات المتحالفة بالتعاون مع القوات الفرنسية الحرة بقيادة الجنرال ديغول سوريا ولبنان •

وعلى الرغم من هذه الصعوبات والمحن ، ظل بكداش ينادي بتعاون سوريا مع فرنسا لانه كان يرى ان السبب في تخلف مجلس الشيوخ الفرنسي عن اقرار المعاهدة بعد سقوط بلوم ، يعود الى المناورات الفاشية وكان يأمل ان تعود العلاقات الفرنسية السورية الى حالتها الطبيعية فور اندحار القوات الفاشية • وعندما هاجم هتلر الاتحاد السوفياتي في شهر حزيران (يونيو) سنة ١٩٤١ ، اوعز بكداش الى اتباعه بتأييد الاتحاد السوفياتي وحلفائه الغربيين ، وبعد ان دخلت القوات البريطانية والقوات الفرنسية الحرة سوريا ولبنان في شهر آب (اغسطس) سنة ١٩٤١ منحت الحرية لجميع العناصر التي عارضت السلطات الفرنسية السابقة في المشرق والتي كان الشيوعيون يصفونها

بالفاشية • وهكذا اخذ الشيوعيون والوطنيون يدعون العرب الى تأييد الديموقراطيات • وفي اوائل سنة ١٩٤٢ عادت الى الصدور جريدة «صوت الشعب» التي كانت عطلت في سنة ١٩٣٩ • واخذت الدعاية الشيوعية تنتشر على نطاق واسع ، ليس في سوريا ولبنان فحسب ، بل في العالم العربي بأسره • وهنا عمد بكداش الذي اوقف نشاطه موقتا الى تنسيق الاحزاب الشيوعية في البلدان العربية •

وفي سنة ١٩٤٣ وقعت ثلاثة احداث يمكن القول بأنها تركت أثرا كبيرا في بث الدعوة الشيوعية في العالم العربي فالحدث الاول وقع في التاسع من حزيران (يونيو) سنة ١٩٤٣ حين أعلن حل الكومنترن (المكتب الشيوعي الدولي) • هذا الاجراء الذي أنقذ الشيوعيين من اتهامات الوطنيين لهم بأن نشاطهم كان موحى به من الخارج ، اعطى بكداش الفرصة ليتحدث بلسان الحزب الشيوعي السوري كحزب وطني يعمل من اجل الوحدة والاستقلال وليصرح بأنه اصبح حزبا مستقلا عن اية سيطرة اجنبية (دولية) • واما الحدث الثاني فكان فوز بكداش في المرحلة الاولى من الانتخابات ومع انه سقط في المرحلة الثانية التي يتقرر فيها مصير المرشحين ، فان انتصاره في المرحلة الاولى ، وهو انتصار كان الاول في تاريخ حزبه ، اعتبر دليلا مشجعا بالنسبة الى احتمالات الفوز في الانتخابات في المستقبل • وكان التأييد الحماسي الذي لقيه بكداش في دائرته الانتخابية — الحي الكردي — هو الذي اقنعه بخوض المعركة في انتخابات لاحقة • اما الحدث الثالث فكان مؤتمرا

وطنيا عقده الحزب الشيوعي من ١٣ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٤٣ الى ٢ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤٤ ، الذي يشار اليه بالمؤتمر الوطني الثاني وفيه اعيد النظر في اهداف الحزب واساليبه وكان من نتيجة هذا المؤتمر ان وضعت اللجنة التنفيذية ميثاقا وطنيا نادت فيه بالمبادىء الوطنية والديموقراطية بدلا من المناداة بالمبادىء الشيوعية ، فضلا عن استبعاد الطريقة الثورية كوسيلة الى تسنم السلطة ، والاستعاضة عنها بالوسائل السلمية والدستورية[٦] • وفي سنة ١٩٤٤ اعلن الحزب الشيوعي السوري في بيان مشترك مع الحزب الشيوعي اللبناني ان كلا من الحزبين بات مستقلا عن الآخر وفقا لمبادىء السير في خطوط العمل الوطنية الا انهما سيواصلان التعاون الوثيق في العمل • ومع ان هذه التطورات لم تحدث أي تغيير في المبادىء الشيوعية الاساسية ، فانها اتاحت للاحزاب الشيوعية فرصة رسم صورة وطنية لها كالاحزاب الاخرى • وبالرغم من ان الاهداف التي تضمنها الميثاق الوطني كانت اهدافا عابرة غير نهائية ، فان بكداش راح يعرب عن وجهات نظر معتدلة ويبدي استعدادا للتعاون مع العناصر الديموقراطية • وكانت النتيجة ان مجموعة من المثقفين وممن يعطفون عليه منحوه تأييدهم السريع •

وبعد الحرب بدأ بكداش يجري اتصالات اوثق بين حزبه

---

(٦) للاطلاع على نص الميثاق الوطني راجع سامي الخوري ـ «الحزب الشيوعي السوري» (ص ١١٨ ـ ١٢٦) .

والاحزاب الشيوعية الاخرى ، وعلى الاخص مع الاحزاب الاوروبية ، كما بدأ يشترك في مؤتمرات دولية • وفي سنة ١٩٤٦ توجه ومعه فرج الله الحلو زعيم الحزب الشيوعي اللبناني ، الى لندن لاجراء محادثات مع الزعماء الشيوعيين البريطانيين • وحضر ، وهو في طريقه الى لندن ، اجتماعات شيوعية سرية عقدت في شمالي ايطاليا حيث اطلع على النشاط الشيوعي الايطالي ، وظل كذلك على اتصال بنشاط الشيوعيين في البلدان العربية الاخرى ، وعلى الاخص في الهلال الخصيب الذي كان يمارس بعض النفوذ عليه • وفي سنة ١٩٤٧ حضر المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي البريطاني كمندوب رسمي ، وكان من هذا النشاط في الخارج ان تعززت مكانة بكداش في بلاده وغدا زعيما معروفا في المجالس الشيوعية الدولية ، وبالتالي فقد عينه الكومينفورم في سنة ١٩٤٨ مديرا للحزب في الاقطار العربية • وعاد الحزبان السوري واللبناني فاندمجا في حزب واحد هو الحزب الشيوعي السوري اللبناني الذي اختار بكداش امينا عاما على الرغم من انهما ظلا مستقلين في الظاهر • كما انشئت لجنة مركزية لتنسيق نشاط الحزبين بقيادة بكداش • وبين سنة ١٩٤٧ وسنة ١٩٤٩ ، حين ثارت ثائرة العرب ضد تقسيم فلسطين وحين اندلعت الحرب العربية الاسرائيلية الاولى امتدت الاصابع الى الشيوعيين تتهمهم بتأييد السياسة السوفياتية التي تنادي بالتقسيم • فقام بكداش بزيارة سرية لحيفا حيث عقد محادثات مع الزعماء الشيوعيين الاسرائيليين تتناول خططا جديدة لمواجهة الانفجارات الشعبية ، وربما ليحث هؤلاء

الزعماء على انتهاج سياســة يتنصلون فيها من الدولــة الاسرائيلية الجديدة • ولا شك في ان تأييد السوفيــات لتقسيم فلسطين ثم اعترافهم باسرائيل اثر تأثيرا معاكسا في الدعاية الشيوعية في العالم العربي كما لم يؤثر فيها أي شيء من قبل • بيد ان هذا الوضع لم يدم طويــلا كما اظهرت الاحداث اللاحقة •

ولعلنا نسأل الآن ماذا كانت اساليب بكداش وأهدافه ؟

اظهر بكداش بشكل عام وبصفته رجلا يؤمن بمبادىء ستالين ثباتا ملحوظا في محاولته نشر التعاليم الشيوعيــة وتنفيذها في الاراضي العربية طبقا للاستراتيجية السوفياتية واساليبها • وكان الهدف الاساسي للاستراتيجية السوفياتية من الناحية النظرية هو الاستيلاء على الحكم في بلد عربي او اكثر عبر ثورة بروليتارية ، ثم ربطهذه البلدان ببلدان اخرى او دمجها بالكومنولث السوفياتي • ولكن الواقع اثبت ان هذه الاهداف تتنافى مع التقاليد الوطنية والدينية العربية،كما انها لا ريب تتنافى مع التقاليد الوطنية في اقطار اخرى كثيرة ـ مما جعل الزعماء السوفيات يدركون حالا انه لا مناص من تغيير اساليبهم حتى يتحاشوا كل مقاومة • وفي سنة ١٩٢٨ بحث رسميا في المؤتمر السادس للكومنترن ما يسمى بمشكلة الاستعمار ووضعت استراتيجية جديدة تحث الاحزاب الشيوعية في البلدان المستعمَرة على التعاون مع المنظمات الوطنية التي تكافح ضد الطبقــات الحاكمة وتسعى للحرية الوطنية [٧] • الا ان بكداش ، لاعتبارات

---

(٧) للحصول على بحث واف لهذه الاستراتيجية الجديدة

محلية خالصة ، لم يبدأ تطبيق الاستراتيجية الجديدة فورا بعد عودته الى دمشق .

ترى ما الذي منع بكداش من اتباع الاستراتيجية الجديدة ؟

لقد كانت هناك اسباب شخصية واخرى ظرفيه حالت دون ذلك . اولا : لم يكن الحزبان الشيوعيان السوري واللبناني يتمتعان الا بتأييد أقليات دينية وعرقية دفعتها معارضتها للمنظمات الوطنية التي تميل الى التمييز العرقي والديني السبب الرئيسي الى اعتناق الشيوعية . ولكن بعض زعماء هذه الاقليات (وخاصة المسيحيين) اختاروا ان يكونوا وطنيين على ان يكونوا شيوعيين في زي وطنيين ، ذلك لان الوطنيين العرب كثيرا ما كانوا يطلبون الى المسيحيين الانضمام الى صفوفهم . وثانيا لأن خالد بكداش ، على الرغم من أنه مسلم ، ومطلع اطلاعا واسعا على الثقافة العربية ، كان كرديا يتكلم اللغة الكردية ويعتمد في نشاطه السياسي على تأييد الأكراد له . صحيح انه اندمج بالقوميين حين كان طالبا في الصفوف الثانوية وأيد الكتلة الوطنية ، غير ان نسبه الكردي والاساليب البالية التي كان يتبعها الزعماء الوطنيون آنذاك اغرته بالانضمام الى الحزب الشيوعي . لهذه الاسباب لم يندفع بكداش بحماس نحو

راجع كتابي «الاتجاهات السياسية» ص ١٢٨ (الترجمة العربية من اصدار الدار المتحدة للنشر بيروت ، ١٩٧٢) .

مصادقة الهيئات الوطنية [8] . ويجب ان لا يغرب عن البال أن الحزبين الشيوعيين السوري واللبناني كانا يتلقيان التوجيهات والتأييد من الحزب الشيوعي الفلسطيني أولا ، ثم من الحزب الشيوعي الفرنسي، قبل ان بدأ بكداش يتلقى التوجيهات والارشادات من موسكومباشرة . ثم لم يعتمد الحزب الشيوعي السابق الذي كان يمارس نفوذا متزايدا لدى الاحزاب الشيوعية في المشرق الشعارات الوطنية الا عند تشكيل الجبهة الشعبية في سنة ١٩٣٦ التي منحها الحزب الشيوعي الفرنسي تأييده في محاولة لمواجهة مد الفاشية المرتفع .

وعندما ادرك بكداش صعوبة بل استحالة استيلاء الشيوعيين على الحكم دعا الى تحقيق حكم ديموقراطي واجتماعي صادق بالوسائل السلمية والدستورية . وكان في حل الكومنترن والظروف التي خلقتها الحرب العالمية الثانية ما برر من جديد تأكيد الشعارات الوطنية في المؤتمر الذي عقده الحزب سنة ١٩٤٣ . وفي الانتخابات العامة التي جرت في سنة ١٩٤٣ وفي سنة ١٩٤٧ القى بكداش خطبا اوضح فيها انه لن يتقدم بمطالب متطرفة ولا يريد غير اصلاحات اجتماعية معتدلة ونظام ديموقراطي صحيح . ولم

---

(٨) للاطلاع على آراء بكداش في العقائد الشيوعية واساليبها قبل اعتماده الشعارات الوطنية راجع «طريق الاستقلال» بقلم خالد بكداش او «طريق الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي» ص ٢٠٣ ــ ٢١٦ .

يتطرق في خطبه الى المطالبة بأية تغييرات جذرية او ثورية • ودعا ، كغيره من اعضاء الاحزاب الوطنية الاخرى ، الى الحرية الوطنية والوحدة والديموقراطية • وهكذا استطاع بكداش عبر هذا البرنامج المعتدل ولاول مرة ، كسب تأييد وطني كاد يحمله الى البرلمان •

ولعل بكداش وجد بعد الاستقلال ان الابقاء على تحالف مع الوطنيين بات اصعب من قبل ، ذلك لان المطالب الوطنية التي كانت أساس التعاون بين الوطنيين والشيوعيين تحققت • ولكن قد يكون ثمة سبب اهم من ذلك ونعني به التأييد السوفياتي لمشروع تقسيم فلسطين ، وهو المشروع الذي اسفر عن انشاء دولة اسرائيل • فقد كان الموقف السوفياتي مخيبا لآمال العرب بحيث أثار على الفور النزاع بين الوطنيين والشيوعيين • وليس هذا فحسب ، بل ان الكثير من العرب الذين كانوا اعضاء في الحزب الشيوعي انسحبوا منه وعادوا الى صفوف الوطنيين ثم راحوا يتهمون بالخيانة كل من ظل في المعسكر الشيوعي • اما الشيوعيون العرب الذين ايدوا التقسيم فقد فعلوا ذلك بعد ان افهموا بأن سيطرتهم على دولتين جديدتين في فلسطين اسهل منها على دولة فلسطينية واحدة خاضعة لزعامة عربية تقليدية وان الصراع العربي ـ الاسرائيلي سيفقد معناه حين تصبح كل من الدولة الاسرائيلية والدولة العربية الفلسطينية دولتين شيوعيتين[٩] • ومع هذا

---

(٩) راجع كتاب مصطفى الزين « خمس سنوات مع الشيوعية » (دمشق ١٩٥٩) ص ٧٦ ـ ٨٤ .

فان الفلسطينيين العرب لم يوافقوا على انشاء دولة منفصلة كما ان الدولة الاسرائيلية لم تكن دولة شيوعية كما توقع الشيوعيون ، بل على العكس ، فقد كان رد فعل الوطنيين العرب ضد الشيوعيين عنيفا حتى انهم رفضوا أية تسوية معهم • وهكذا فان الانظمة القديمة ـ الانظمة التي كان يسيطر عليها زعماء بورجوازيون متحالفون مع الغرب كما كان يعتبرهم الشيوعيون ـ لم تندثر ليحل محلها الشيوعيون وانما حلت محلها تدريجيا دكتاتوريات وطنية كانت اعنف في مقاومتها للمبادىء الشيوعية • لقد حدث هذا اولا في سوريا سنة ١٩٤٩ ، ثم في مصر سنة ١٩٥٢ ثم في بلدان اخرى متعددة في اوقات لاحقة • الا ان هذه العملية الثورية لم تصل بعد ذروة تطورها [١٠] •

لم يتجاهل بكداش مدى الاخطاء الاستراتيجية السوفياتية حيال المسألة الفلسطينية ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يفعل شيئا في البدء لتغييرها • ثم اتضح له بعد وقت قصير ان الشيوعية اذا ارادت ان تحقق أي تقدم في الاقطار العربية فلا مناص من ان يتبنى الشيوعيون سياسة عربية تجاه اسرائيل • بل ان بعض الشيوعيين ذهب الى المناداة بتأييد سوفياتي فوري للعرب ، ولكن استجابة الزعماء السوفيات كانت بطيئة لان معظم الزعماء العرب كانوا يميلون الى التعاون مع الدول الغربية •

---

(١٠) للاطلاع على بحث اوفى لطبيعة هذه العملية واندفاعها راجع كتابي «الاتجاهات السياسية» (الترجمة العربية ـ الدار المتحدة للنشر بيروت ١٩٧٢) •

اما التحول في الاستراتيجية السوفياتية ازاء الصراع العربي الاسرائيلي فسببه مخططات الغرب الدفاعية في الشرق الاوسط • فقد قبلت تركيا واليونان بصفتهما الدولتين الاكثر تعرضا للخطر السوفياتي مبدأ ترومان كاجراء للدفاع عن النفس ، ولكن الدول العربية التي تفصلها عن الاتحاد السوفياتي حواجز غير عربية،شعرت بأنها اكثر تعرضا لخطر اسرائيل منها لخطر الاتحاد السوفياتي،ولذلك رفض العراق في سنة ١٩٤٨ مشروع بورتسموث للدفاع المتبادل مع بريطانيا • ورفضت مصر في سنة ١٩٥٣ مشروع الدفاع الرباعي (بريطانيا والولايات المتحدة وتركيا ومصر) وعلى الرغم من قبول العراق لحلف بغداد في سنة ١٩٥٥ فانه عاد فتخلى عنه في سنة ١٩٥٨ كما رفض الاردن الدعوة الى الانضمام اليه في سنة ١٩٥٦ • وتوصلت مصر الى اتفاق مع بريطانيا حيال قاعدة السويس في سنة ١٩٥٤ ولكنها ما فتئت ان الغته في سنة ١٩٥٦ • لقد اظهرت هذه العروض وغيرها من العروض الاخرى رغبة الغرب في ان يعود فيثبت اقدامه في مواقع رئيسية عسكرية تعتبر حواجز تعترض التغلغل السوفياتي في العالم العربي • وحاولت اسرائيل في البدء الا تنحاز الى أي من الجانبين في الصراع بين الشرق والغرب ، ولكنها حين كان عليها ان تختار فقد وجدت ان مصالحها تقضي بالاعتماد على المساعدة الاميركية لا المساعدة السوفياتية • وكانت هذه الاسباب وغيرها من لأسباب ما حفز الاتحاد السوفياتي على تأييد العرب ضد المطالب الاسرائيلية • وهنا لا شك ان يكون بكداش قد

تنفس الصعداء لدى رؤيته اهداف حزبه تعود لترتبط بالاهداف الوطنية العربية والدعوة الى رفض مشاريع الدفاع الغربية في العالم العربي[١١] .

وما ان عُرفت الرغبة السوفياتية في تأييد العرب ضد اسرائيل حتى فتح الباب على مصراعيه امام التعاون بين الشيوعين والوطنيين، ودخل حزب البعث والشبان الوطنيون في تحالف مع الشيوعيين ، واقاموا بينهم اتحادا وطنيا كان هو المطلب الذي يصبو اليه الشيوعيون في محاولة لاسقاط نظام حكم الشيشكلي ، ثم مقاومة الضغوط الغربية بما في ذلك تأييد الغرب لاسرائيل . وبعد سقوط الشيشكلي في سنة ١٩٥٤ استمر التعاون بين الشيوعيين والوطنيين لاسباب كانت تدعو الى التعاون بين الشيوعيين والبعثيين : فقد كان كل من الحزبين يعتبر نفسه يساري النزعة ، ويعارض الحزب القومي السوري ويدعى رسميا الحزب القومي الاجتماعي الذي كان الشيشكلي يؤيده على ما يبدو. وكان بكداش سريعا في الافادة من التحالف الجديد ، فراح يعد نفسه لانتخابات سنة ١٩٥٤ القادمة . وفي غضون ذلك ، وعندما رفضت سوريا المعونة الفنية الاميركية ، تقدم الاتحاد السوفياتي بعرض كان مبعث غبطة كبيرة في نفس بكداش ، يقدم بموجبه مساعدات عسكرية واقتصادية

---

(١١) لمعرفة وجهة نظر بكداش في هذه المسائل راجع خالد بكداش «في سبيل احباط الحلف التركي ـ العراقي وجميع الاحلاف الاستعمارية» (دمشق ١٩٥٥) .

وبشروط سهلة • وكان لاشتراك الاتحاد السوفيـاتي في معرض دمشق الدولي بشكل خاص وعرضه امكاناته الفنية أثر عميق في نفوس السوريين جعل الحزب الشيوعي يشعر بأنه قوي الى درجة تؤهله للاشتراك في انتخابات سنـة ١٩٥٤ •

ولدى افتتاحه حملته الانتخابية في ١٠ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٥٤ القى بكداش خطابا في جمهور قدر عدده بحوالى ٢٠٫٠٠٠ شخص احتشدوا في الحي الكردي معقلـه في دمشق ، شرح فيه برنامجه ، واستهله بالعودة الـى الوراء سبع سنوات ، يوم وقف في سنة ١٩٤٧ وفي المكان ذاتـه مرشحا نفسه للانتخابات • وقال ان هذه السنوات السبع ، او على الاقل الخمس الاخيرة منها ــ كانت كما يقول بعضهم سنوات عجافا ، ولكنها كانت بالنسبة اليه سنوات خصبة ، سنوات تجارب ومحن في ظل حكم عسكري ، خرج منهـا السوريون بخبرات لا تقدر بثمن • ثم مضى بكداش يوجز برنامجه ، وتساءل ما الذي تريده سوريا ؟ واجاب ، تريد سوريا وطنا ديموقراطيـا يؤمّن الحرية للجميـع ويوفّر الخبز للعمال والارض والماء للفلاحين ، والصحة والتعليم للاطفال • واضاف ان سوريا في حاجة الى نتاج وطنـي متزايد ــ صناعي وزراعي على السواء ــ وحماية للمؤسسات الصناعية الصغيرة ، واحياء للتراث الثقافي العربي • وهنـا التفت الى المستمعين كمن يريد ان يرسخ في اذهانهم قوله : وان سوريا لتنتظر من نوابها الجدد تحقيق هذه الاهداف كلهـا •

ثم انبرى للحديث عن السياسة الخارجية ، فقال ان سوريا التي حققت استقلالها واجلاء القوات الفرنسية والبريطانية عن اراضيها لا تريد ان تقع تحت السيطرة الاميركية او ان تصبح قاعدة عسكرية اميركية • وبنبرات حازمة قاطعة قال ، ان سوريا تفتقر الى نواب يستطيعون ان يقفوا في وجه كل من يرغب في فرض مشاريع دفاعية على البلاد او يمد نفوذه الاستعماري اليها ويقولوا «لا» • ثم مضى ليحض ابناء بلده على عدم المبالاة بالامبريالية الاميركية أو التخوف منها ما دامت الامبريالية تتخذ موقف الدفاع « وهناك الآن قوى تعمل ضدها هي قوى السلام والديموقراطية والاشتراكية التي يمدها بالقوة ٨٠٠ مليون شخص منتشرين في تلك المنطقة الشاسعة الواسعة الممتدة من بكين الى برلين بزعامة الاتحاد السوفياتي بلد العمال والفلاحين ، ومعقل الاشتراكية وصديق العرب الكبير » •

وتساءل بكداش ترى ماذا يمثل الاتحاد السوفياتي ؟ واجاب انه يمثل اشتراكية اين منها سائر الاشتراكيات • « انها الاشتراكية العلمية التي تتعهد بمراقبة وسائل الانتاج، وتوزيع السلع بين الناس على اساس الحاجة لا على اساس المنفعة الشخصية • وعلى كل فرد ان يعمل قدر طاقته فيثاب بمقدار ما قدمت يداه دون النظر الى أي اعتبار آخر » • ثم ليس لانسان ان يستغل انسانا آخر ، وليس له ان يظلم انسانا آخر • بل يجب ان يعيش الناس جميعهم في سلام ووئام ورخاء ومساواة • وتساءل : ترى هل سوريا مؤهلة لهذا النوع من الاشتراكية ؟ » واجاب « لا ، فعلينا اولا ان

نحرر سوريا ومواردها من الاستعمار والاقطاع قبل ان نحقق الاشتراكية » وعلى سوريا أن تجتاز مرحلة انتقال في التحرر الوطني والحرية الديسوقراطية والسلام قبل ان ترسي على الاشتراكية • وقال بكداش ، ان المرحلة الاولى ـ مرحلة التحرر الوطني ـ هي الهدف القومي لجميع الاحزاب «ونحن الشيوعيين مستعدون للتعاون مع الآخرين لتحقيق هذا الهدف » • وزاد قائلا « ونحن لا نعتزم ان نتقدم بأية مطالب اخرى[١٢] » • وكان من قوة هذا البرنامج المعتدل الذي ردده في البرلمان في وقت لاحق ان انتخب بكداش اول شيوعي يحتل مقعدا نيابيا في أي بلد عربي • لقد كان خطابه بيانا سياسيا صريحا ذكر فيه تكرارا المبادىء الاساسية الواردة في الميثاق الوطني لسنة (١٩٤٣) ومختلف البيانات والتصريحات التي صدرت منذ الحرب ، كما كرر موقفه نفسه من الشؤون الداخلية والخارجية • وحدد الاهداف الشيوعية خلال الانتقال الى الهدف الاساسي الحاسم ـ الدولة الاشتراكية •

ولا يعود فوز بكداش في الانتخابات الى مجرد كونه شيوعيا ، فهناك عوامل اخرى اسهمت في هذا الفوز بينها اصله الكردي الذي جعل جميع الناخبين الاكراد يؤيدونه ، وبينها انتصار الشبان الوطنيين له ، الذين كانوا يومها متحالفين مع الكتل اليسارية ، فضلا عن مؤهلات بكداش

---

(١٢) خالد بكداش ـ خطاب خالد بكداش (١٠ ايلول (سبتمبر) ١٩٥٤م (دمشق ، ١٩٥٤) •

الشخصية ومكانته التي اسهمت الى حد غير قليل في فوزه.
لقد عمل بكداش في المجلس النيابي بامتياز ، اذ أصبح عضوا في عدة لجان بينها لجنة الشؤون الخارجية ، ومع ذلك فانه يحضر اجتماعات هذه اللجان بصورة منتظمة . وكثيرا ما يتحدث عن الشؤون الداخلية والخارجية،ويرتجل كلماته حين مناقشة المجلس لقضية ما . وقد كان لي شرف حضور جلسة برلمانية في ٩ تموز (يوليو) سنة ١٩٥٥ خطب فيها بكداش ببلاغة مؤيدا مشروع قانون للبلديات. وعندما طلب الحديث مرة ثانية خلال المناقشة علق ناظم القدسي ، رئيس المجلس قائلا ان بكداش اكثر من يتكلم في قاعة المجلس .

ولعل نفوذ الشيوعيين بلغ ذروته خلال الفترة التي كان فيها بكداش نائبا من سنة ١٩٥٤ الى سنة ١٩٥٨ . فقد تغلغل الشيوعيون في كل دائرة من الدوائر الحكومية واحتلوا مناصب عسكرية رفيعة . فارتقى عفيف البذرة المعروف بـ (عفيف البزري) الناطق العسكري باسمهم من رتبة عقيد الى رتبة عميد في سنة ١٩٥٧ ثم رئيسا للاركان ، ومع ان البزري لم ينضم رسميا الى الحزب الشيوعي الا ان اعماله ، ان لم تكن احاديثه الخاصة ، دلت على انه شيوعي قلبا وقالبا . وبصفته زعيما للحزب الشيوعي زاد بكداش من نشاطه في الاوساط الرسمية وغير الرسمية ، فأكثر من زيارة الرئيس القوتلي مطالبا بوجوب الاعتراف رسميا بحزبه ، فضلا عن زياراته المتعددة لموسكو وحضوره الحفلات التي تقيمها المفوضيات الشيوعية في دمشق . ولقد

حاول الشيوعيون مرتين الاستيلاء على الحكم ، مرة في سنة ١٩٥٦ ومرة سنة ١٩٥٧ ولكنهم باءوا بالفشل وأثارت هذه الحركات فزع الزعماء الوطنيين الذين رأوا ان السلطة تفلت تدريجيا من ايديهم • ولما كان الوطنيون والشيوعيون يتحدثون عن الوحدة العربية شعر حزب البعث بأنه اخذ يفقد مكانته فراح يضغط في سبيل الوحدة مع مصر بغية استرداد نفوذه • ورغم ما حققه الشيوعيون من كسب ، فانهم لم يكونوا في وضع يمكّنهم من رفض مبدأ الوحدة، لكنهم طالبوا بأن تكون وحدة اتحادية فدرالية بدلا من وحدة مركزية وحدوية • الا ان عبد الناصر ، الناطق الجديد باسم الوحدة العربية ، والذي لم يكن متعاطفا كثيرا مع الشيوعيين رغم علاقاته الودية مع الاتحاد السوفياتي لم يوافق على الوحدة مع سوريا الا بعد ان قبلت جميع الاحزاب السياسية في سوريا ان تحل ذاتها ، الا الحزب الشيوعي الذي ابى ان يحل نفسه • ولهذا السبب حين صوت البرلمان السوري في ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٥٨ موافقا على الوحدة كان بكداش في طريقه الى براغ ، وكان مقعده في البرلمان المقعد الوحيد الخالي عندما وافق النواب بالاجماع على قرار الوحدة •

اقام بكداش في براغ من سنة ١٩٥٨ وطوال المدة التي لم يستطع خلالها الحصول على اذن بالعودة الى دمشق • ومع ذلك فانه زار سوريا سرا عدة مرات ، وقيل انه في مرتين لم يسمح له بمغادرة الطائرة حين حاول الهبوط في مطار دمشق ، مرة في سنة ١٩٦١ ومرة ١٩٦٢ • ثم زار

دمشق في سنة ١٩٦٤ واجتمع الى عدد من قادة حزبه. وحضر خلال اقامته في اوروبا عدة مؤتمرات شيوعية دولية كما زار الصين وكوريا الشمالية والهند . وبعد ان امضى ثماني سنوات في المنفى عاد دونما ضجة الى سوريا في سنة ١٩٦٦، الا انه لم يحاول استئناف دور فعال في الشؤون السياسية. ويبدو ان بكداش لم يتمكن بعد من التغلب على النكسة التي مني بها في سنة ١٩٥٨ . غير انه قد يعود فيستأنف نشاطه السياسي اذا ما عادت الظروف الملائمة . وغني عن القول ان امام بكداش دائما مجالا للعودة للنشاط السياسي ما دام التوتر الداخلي في الاراضي العربية قائما ، وما دامت الاحزاب المتنافسة تحاول ربط المطالب الوطنية بالاهداف العقائدية العالمية [١٣] .

يقول عمر فاخوري ، وهو كاتب شيوعي لبناني « انني لم اعرف اين ينتهي الحزب ... واين يبدأ بكداش[١٤] ».

---

(١٣) اعرب بكداش خلال تغيبه طوال ثماني سنوات عن رأيه في عدة مسائل داخلية وخارجية ، تراوحت بين انتقاد موقف عبد الناصر من الشيوعيين والصراع السوفياتي ـ الصيني . راجع مقابلة بكداش الصحفية التي نشرت في صحيفة الاخبار (بيروت) وعدة صحف اخرى في شهر كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٥٨ . راجع كذلك «الوثائق العربية» ١٩٦٥ ص ٣٢ والقلعجي « التجربة » ص ١١٧ ـ ١١٨ . ولمعرفة آرائه في المسائل الدولية راجع وورلد ماركسيت ريفيو (المجلة الماركسية العالمية) كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٦٥ ص ١٦ ـ ١٩ وحزيران (يونيو) ١٩٦٨ ص ٣٩ ـ ٤١ وآب (اغسطس) ١٩٦٤ ص ١٦ ـ ١٨ ونيسان (ابريل) ١٩٧٠ ص ٩٢ ـ ٩٧ .

(١٤) القلعجي «التجربة» ص ١٥٢ .

وليس القصد من هذه الملاحظة اللغز مدح بكداش بل تأنيبه لانه وضع سلطته ومكانته فوق سلطة الحزب ومكانته • بيد أنها قد تؤخذ على انها مديح لزعيم اراد ان يجعل مكانته الشخصية رهنا بمكانة الحزب ، ما دامت مصلحة الحزب في النهاية تقضي بأن ترتفع مكانة زعيمه وصورته في عيون الجماهير ، ولا يبدأ الحزب بالتعرض للنكسات الا عندما يُخضِع زعيمه المصالح العامة للمصالح الخاصة ، ويتخذ قرارات تعسفية تناقض استراتيجية الحزب او مبادئه الاساسية •

يتمتع بكداش بسجايا معينة اهلته لزعامة حزبه ، فهو بالاضافة الى امتشاق قامته وقوة بنيته ، وجميل صورته وبهاء طلعته ، فانه يتمتع بالشجاعة الادبية والاندفاع واليقظة والمثابرة • وشخصيته هذه تلائم الدور الذي ندب اليه ، فهو رجل ودود ، انيس المعشر ، له ذوق فني رفيع ، بارع في الاجتماعات العامة قادر على اثارة مستمعيه والتلاعب بعواطفهم ، حتى لو لم يكونوا مقتنعين بحجته • وهو كثيرا ما يستشهد في خطبه المرتجلة بالشعر ورواية القصص مما يجعل هذه الخطب اكثر تأثيرا وفعالية في نفوس المستمعين من خطبه المكتوبة • ومع ان اتباعه لم يحبوه دوما وانما احترموه ، فان الجميع ، صديقا كان ام عدوا يعترفون له بالكفاءة والانضباط •

لقد اشتهر عن بكداش رقته في تعامله مع موظفي الدولة وحذقه في تضليل رجال الشرطة وفراره من البلاد قبل اعتقاله • اما المرات التي هرب فيها من السجن فقد تجاوزت

في عددها المرات التي هرب فيها من السجن أي زعيم آخر يعمل سرا ، ومع ذلك فانه امضى في السجن فترات قصيرة • ثم ان بكداش كرجل اداري يمتاز بالكفاءة والدأب على العمل • وهو مع شدة حرصه على سلطاته ، وعدم تخويله احدا من اتباعه هذه السلطات ، فانه لم يتهرب من المسؤولية ولم يتخلف عن عمل ما في وسعه لتنفيذ دقائق المهام الادارية • ومع هذا فقد انتقد لتفرده في اتخاذ اجراءات وقرارات دون علم اللجنة التنفيذية للحزب او استشارتها • وفي ما تترك الخلافات المنهجية او المشكلات الشخصية أثرها السيء في جميع الاحزاب والمنظمات العربية ، فان رفاق بكداش كثيرا ما يؤنبونه بسبب خلافات مصدرها نزوات عابرة او سوء تدبير في معالجة مسائل شخصية • ولما كان الشيوعيون يتشبثون بالاوامر ويعانون الصعاب في تنفيذها فانهم بالمقابل يتوقعون من زعمائهم تقديرا وتفهما اكبر لمشكلاتهم الشخصية ، وليس معاملتهم بقسوة واحيانا بظلم • وقد تسبب بكداش بتصرفاته الفظة وعنجهيته في ان ينفض من حوله عدد من الرفاق الذين تفانوا في خدمة الحزب الشيوعي والاخلاص له •

وأذا ما تحدث بكداش عن الحرية والديموقراطية فبأسلوب كان يغري كثيرين من الشبان بالانضمام الى الحزب سعيا وراء هذين المبدأين ، ولشد ما تكون دهشتهم حين يكتشفون ان ليس للحرية ولا للديموقراطية وجود تحت قيادة بكداش • والواقع ان بكداش كان فظا مستبدا ، مما حمل كثيرين من الاعضاء على ترك الحزب زد على ذلك

الاساءة التي كثيرا ما يوجهها الى المثقفين الذين تفانوا في خدمة الحزب والاخلاص له • ولما كان الحزب الشيوعي لا يستطيع حتى الآن الادعاء بأنه حزب بروليتاري،فان المثقفين والشبان في المعاهد العليا والكليات لا يزالـون يشكلون عموده الفقري • وقد ادى احتقار بكداش للمثقفين ، وهو احتقار قد تكون اسبابه خلافات شخصية ، الى خسـارة مفكرين وكتاب كثيرين كانوا سيستمرون في تأييد الحزب في ظل زعيم اكثر عناية وتسامحا [١٥] •

كما لم يفت الناقدين نزوع بكداش الى الاباحية وحياة الترف النسبي التي يعيشها ، حتى قالوا ان ذلك لا يليق بزعيم الكادحين والفلاحين • وتساءل بعضهم كيف يتأتى له ان ينفق على منزل وخدم في دمشق وعلـى منزل آخر في بيروت وعلى منازل اخرى في اماكن مختلفة فضلا عن سيارتين او اكثر وليس له غير راتبه المتواضع عن عضويته في البرلمان السوري ، او من زعامته للحزب الشيوعي ؟ والمعروف عن بكداش انه رجل غاية في الاناقة يتردد على النوادي الليلية ويفرط في التدخين واحتساء الخمور ، وهي صفات قلمـا احبها في العالم العربي الاتباع الذين يتوقعون ممن هم في مراكز المسؤوليـة ان يعيشوا حياة كريمة تتميز بالزهـد والتقشف [١٦] • وكان اكثر ما عرض سمعة بكداش للهدم شائعات تقول بأنه زير نساء ، وهذا امر يثير الحساسية في

(١٥) القلعجي «التجربة» ص ١٥٦ ـ ١٥٩ الزين «خمس سنوات مع الشيوعية» ص ٣٠ ـ ٣٣ .

(١٦) للمقارنة بين عادات بكداش وعفلق الذي ترك اثرا عميقا لدى اتباعه بتقشفه راجع الصفحة ٣٨٥

البلدان العربية ، كما كان مصدر انتقادات قوضت سمعة الحزب في مجتمع محافظ ، ومنذ سنة ١٩٤٩ غدت تصرفات بكداش الاجتماعية مصدر قلق لبعض الاعضاء ، وعلى الاخص بعد عودته من موسكو في سنة ١٩٣٦ ، فقد اشيع انه تزوج في موسكو حين كان طالبا فيها وانه عاد الى دمشق مخلفا وراءه زوجة وابنة،وليس هذا فحسب بل ان علاقته مع فتاة كردية تدعى «وصال فرحة» اثارت الانتقاد•ولم يستطع بكداش وضع حد لهذا الانتقاد الا بزواجه منها في سنة ١٩٥١ • ومهما كان من امر فقد اثبت هذا الزواج انه كان مصدر قوة للحزب لان زوجته باتت داعية نشيطة للشيوعية بين النساء • ولكن على الرغم من زواجه فالشائعات عن علاقاته بالنساء ما انفكت تلوكها الالسن وهي تهمة مقصودة بولغ فيها كثيرا بغية تقويض زعامته وهدمها •

لقد اظهر بكداش مرونة ملحوظة واستعدادا لتغيير اساليبه اذا ثبت ان هذه الاساليب كانت مغلوطة ، او انها تركت اثرا مضرا في الحزب•غير أنه لم يكن من السهل دائما استرداد الاصدقاء الذين جرحوا في الصميم ، ومع هذا فان بكداش ، بكياسته وبراعة اسلوبه يمكن أعتباره زعيما ناجحا•وبعد فليس من السهل التوفيق بين المطالب المتضاربة وارضاء الحساسيات في مجتمع انفرادي ومع ذلك فقد تمكن بكداش بوجه عام من الاحتفاظ نسبيا بعلاقات حسنة مع اتباعه وأنصاره •

اما في تأييده للحركة الشيوعية الدولية فان بكداش اظهر التزاما ثابتا ملحوظا في اقرار الاهداف والمخططات السوفياتية،ولكنه لم يتورع عن انتقاد آراء كبار الشيوعيين، سواء اكانوا من السوفيات ام من غيرهم ، في المؤتمرات الدولية التي كانت تطرح فيها على بساط البحث المبادىء والاساليب[١٧] . وعلى الرغم من انه يدرك مدى اعتماده على التأييد السوفياتي ، فقد اعلن عدم موافقته على الدعم السوفياتي لمصر في ظل عبد الناصر ، لاعتباره مصر معادية في الاساس للشيوعية ، واذا حدث ان اشاد بعبد الناصر قبل وفاته المبكرة فانما كان ذلك على كره منه[١٨] .واما بوصفه سياسيا محترفا فقد خدم بكداش الحزب الشيوعي بمهارة ، كما خدم الحركة الشيوعية كاتبا وخطيبا ، وبعد ، فقليلون هم الذين يشكون في انه زعيم من الطراز الاول .

---

(١٧) راجع خالد بكداش «حركة التحرر الوطني والشيوعية» وورلد ماركسيت ريفيو كانون الاول (ديسمبر) ص ١٦ــ١٩ .

(١٨) راجع خالد بكداش «مصر وفشل الجمهورية العربية المتحدة » الاخبار (بيروت ٣٠ نيسان (ابريل) ١٩٦١) .

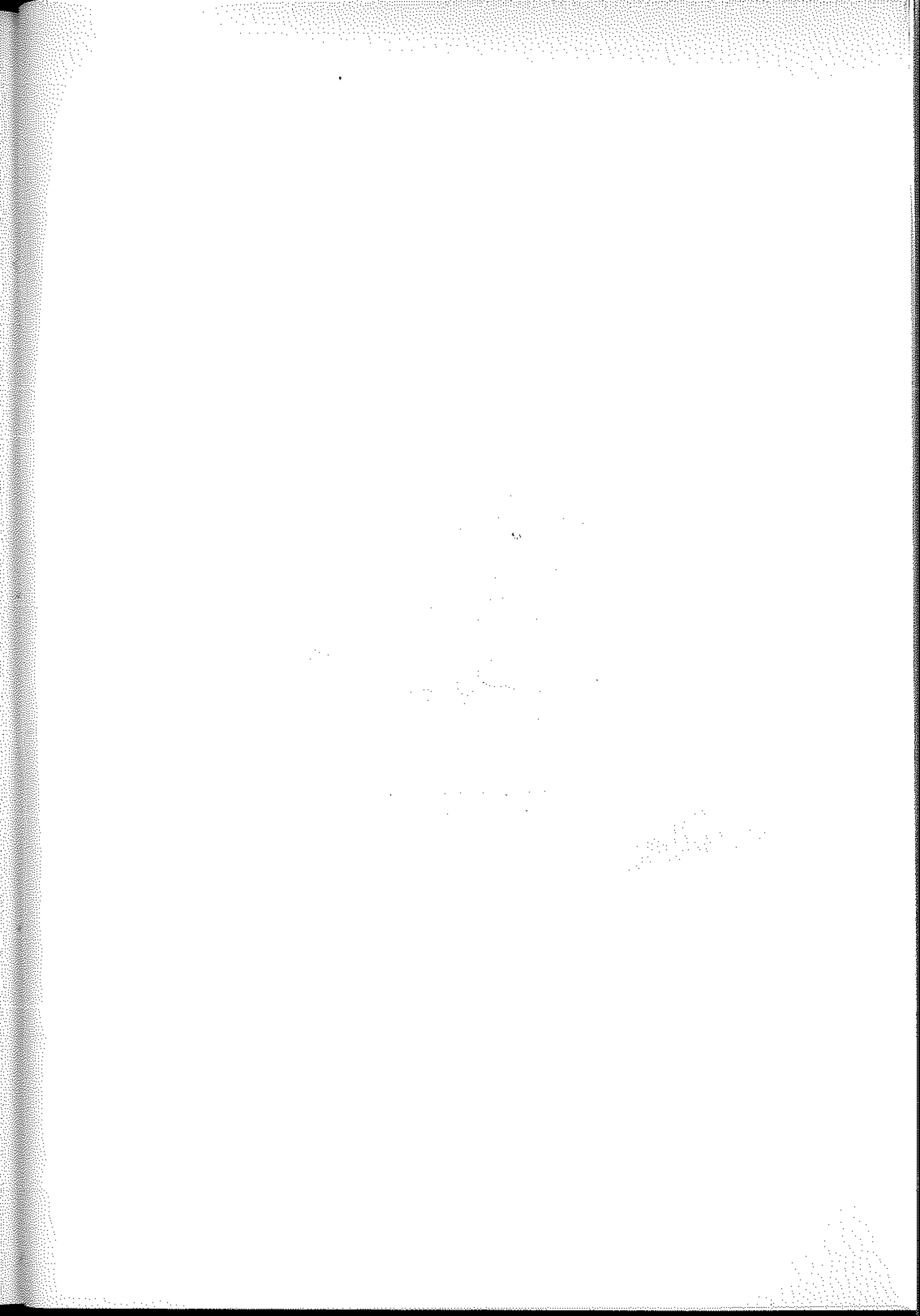
الباب الثالث

رجل القلم

السياسي المثقف

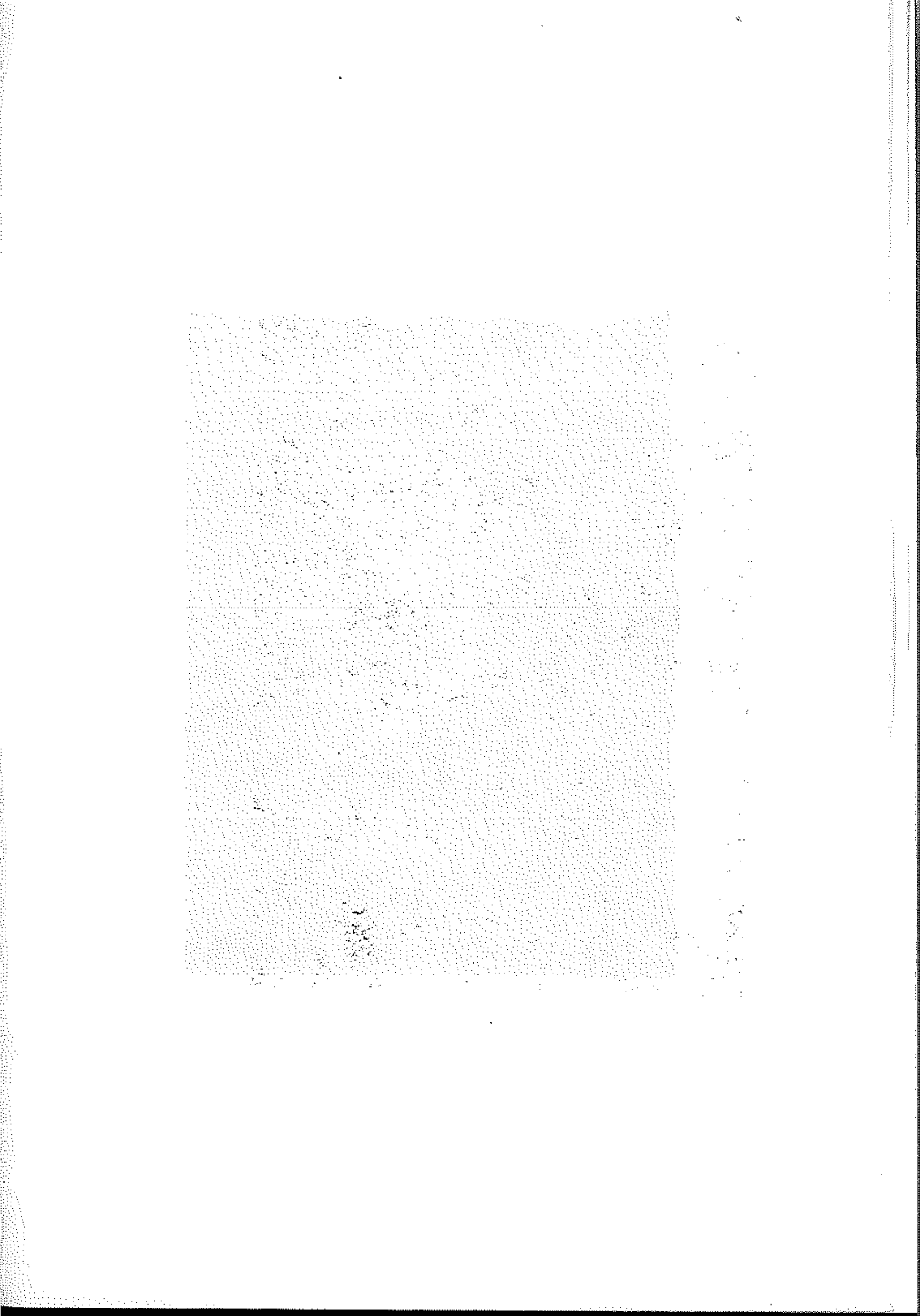
الرأي قبل شجاعة الشجعان
هو أول وهي المحل الثاني

المتنبي (توفي ٣٥٤هـ/٩٦٥م)





احمد لطفي السيد



الفصل العاشر

المدرسة المثالية

احمد لطفي السيد

لو كنا نعيش بالخبز والماء لكانت عيشتنا راضية . ولكن غذاءنا الحقيقي الذي به نحيا ومن اجله نحب الحياة ليس هو اشباع البطون الجائعة...هو ارضاء العقول والقلوب ، وعقولنا وقلوبنا لا ترضى الا بالحرية ؟

احمد لطفي السيد

ان مهمة السياسي المثقف اصعب واكثر تعقيدا من مهمة العسكري او السياسي المحترف ، لانه يحاول ان يتفهم بصورة أعمق طبيعة التغير الاجتماعي،ويحاول اعداد اهدافه التي يسعى من ثم لتحقيقها عن طريق خوض المعترك السياسي ، بغض النظر عن الزمن الذي تستغرقه العملية . وهذا يتطلب مزيدا من المؤهلات قل ان تتوفر في فرد واحد، مؤهلات رجل الفكر الذي يستطيع اعداد الاهداف ومؤهلات رجل العمل الذي يستطيع وضعها موضع التنفيذ . وقل ان وجد في التجربة البشرية رجال ــ كقيصر وجفرسون ولينين، ولنستشهد فقط بثلاث شخصيات فريدة ــ توفرت فيهم

اسمى مؤهلات الفكر الخلاق والعمل الابـداعي وتركوا بدرجات متفاوتة آثارا لا تمحى إما في مجرى الاحـداث في بلدانهم او في مصير البشرية جمعاء •

ويمكن اختيار ثلاثة انواع من السياسيين المثقفين لهذه الدراسة يمثل كل نوع منها مدرسة فكرية تختلف عـن الاخرى • فهناك اولا السياسي المثقف الذي يبدي اهتماما بأهداف مثالية ويرفض التساهل فيها باخضاع هذه المثل للحقيقة والواقع • ولما كان يدرك ان الاهداف المثالية لا يمكن تحقيقها في المستقبل القريب فانه يسعى الى اعـداد نخبة جديدة تستطيع من خلال اشتراكها في المعترك السياسي تنفيذ هذه الاهداف • ويمثل لطفي السيد الملقب باستـاذ الجيل مدرسة الفكر المثالي • وهناك ثانيا السياسي المثقف الذي يقوم باعداد الاهداف الاقرب الى الحقيقـة والذي يسعى لتنفيذها عبر الاشتراك المباشر في المعترك السياسي •

ويمثل محمد حسين هيكل ، وهو كاتب وصحفي وزعيم حزب سياسي ، مدرسة الفكر الواقعي•وهناك ثالثا السياسي المثقف الذي يسعى لاحداث تغييرات وفقا لاهداف عقائدية ويحاول تنفيذها بوسائل ثورية ، وميشيل عفلق وهو كاتب ومؤسس حزب عربي اشتراكي يمثل مدرسة الفكر العقائدية•

عندما دخل لطفي السيد ميدان الحياة العامة في اواخر القرن التاسع عشر كانت مصر قد حققت تقدما اجتماعيـا واقتصاديا ملحوظا في ظل الحكم البريطاني ، ولكنهـا لم تحقق تقدما سياسيا وثقافيا موازيا • ويقول بعض النقاد ،

ان المعتمد البريطاني ــ اللورد كرومر ــ تعمد في سياسته اضفاء اهتمام خاص على الاصلاح الاقتصادي ، لتمكين مصر من دفع ديونها الاقتصادية ، كما تعمد اهمال كل تقدم سياسي وثقافي ، بغية الابقاء على الاحتلال البريطاني • وفي اوائل القرن العشرين وبعد ما يقرب من عشرين سنة من السيطرة البريطانية بدأت تظهر في البلاد دلائل تململ • واشتدت الدعوة الى انهاء الاحتلال البريطاني في الصحف وفي الاوساط السياسية •

وكان اكثر الناس جهرا بمقاومة الاحتلال كتلتين هما : اصحاب الدعوة الى الجامعة الاسلامية والوطنيون • ودعت الكتلتان الى العودة الى وضع مصر قبل الاحتلال البريطاني سنة ١٨٨٢ حين كانت جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية العثمانية ، يحكمها الخديوي نائبا عن السلطان • وعلى الرغم من ان الوطنيين كانوا ينادون بشخصية مصرية وطنية فانهم ايدوا اصحاب الدعوة الاسلامية في تأكيد سيادة السلطان، بغية حمل العثمانيين على ممارسة ضغط على بريطانيا واقناعها بانهاء الاحتلال •

وعمد الخديوي ، الذي حوله اللورد كرومر الى مجرد رئيس صوري الى تشجيع الوطنيين سرا بزعامة مصطفى كامل ، على شن حملة على الاحتلال داخل البلاد وخارجها • ووجدت الدعوة الوطنية التي صاغها مصطفى كامل بعبارات بليغة مليئة بالعاطفة وقنعَها، وعلى الاخص في نفوس الشبان لانها اثارت فيهم حب وطنهم حبا بطوليا • كما اثارت حملاته على بريطانيا عطف الاوساط التحررية في اوروبا بتركيزه

في تلك الحملات على ظلامات معينة • ولكن تحريضه انحصر بوجه عام في معارضته الاحتلال البريطاني واخفق في توفير القناعة الايجابية للوطنية التي كان يدعو لها • وطالب باسناد السلطة العليا على مصر الى السلطان ، وبذلك لم تختلف آراؤه كثيرا عن آراء اصحاب الدعوة الى الجامعة الاسلامية الذين كانوا يؤيدون سلطة الخلافة العثمانية لاعتبارات دينية • ولم يرض الاقباط ، وهم سكان مصر المسيحيون ولا المفكرون الذين تعصبوا لشخصية مصر المستقلة عن الروابط العثمانية بل كانوا قانعين بالصورة الغامضة التي رسمها مصطفى كامل للوطنية •

اجتذبت دعوة مصطفى كامل في البدء كثيرين من الشبان ودعاة الوطنية ؛ ولكن لم يمض وقت طويل حتى بدأ بعضهم ينفض من حوله وينضوي تحت لواء قوى اخرى بعد ان اكتشف ان مصطفى كامل كان يعمل في الاساس على تأييد الخديوي ضد كرومر ، بغض النظر عن ميوله الاستبدادية ، اذ أنه لم يقل شيئا عن حق الشعب في المشاركة في الحكم • وكانت هناك كتلة اخرى صغيرة ولكنها ذات نفوذ قوي استرشدت بالافغاني ومحمد عبده ، وتعاطفت مع حركة احمد عرابي او اشتركت فيها • وكثيرا ما يشار الى هذه الكتلة بأنها كتلة محمد عبده (حزب الامام) وكانت تتألف من رجال لهم مركزهم كسعد وفتحي زغلول ، وقاسم امين ولطفي السيد ، الذين كان الخديوي ينظر اليهم نظرة ريبة وجفاء لعطفهم على دعوة عرابي • وعندما فشلت ثورة عرابي تخلى محمد عبده ومن تتلمذ عليه عن نشاطهم الثوري

وركزوا جهودهم في الاصلاحـات الاجتماعية الرئيسيـة بوصفها افضل وسيلة لاعداد البلاد لتولي المسؤولية العامة عند انتهاء الاحتلال • وكان اللورد كرومر قبـل مغادرته مصر بقليل قد اعجب باعتدال هذه الكتلة ، وراح يشجعها على تأسيس حزب الامة بغية مجابهة نفوذ اتباع مصطفى كامل من الوطنيين •

وفي هذا الوسط الاجتماعي والسياسي بدأ احمد لطفي يلعب دورا في سياسة بلاده • ففي بادىء الامر انجذب الى مصطفى كامل ، ولكن لم يمض طويل وقت حتى اعرض عنه وانضم الى حلقة محمد عبده مظهرا تخوفا كبيرا من رغبـة الخديوي في ممارسته سلطات استبدادية • وفضل ، شأنه في ذلك شأن محمد عبده ، اتباع الوسائل السلمية لا وسائل العنف ، وذهب الى حد تفادي اثارة الجماهير أو اللجوء الى أي نوع من الديماغوجية • ورأى ان دوره يقتصر مبدئيا على اعداد الشعب لتحمل المسؤولية عنـد انتهاء الاحتلال وتحريره من عبوديته وايقاظه من سباته •

ولد احمد لطفي السيد في عائلة ثرية في سنة ١٨٧٢•وكان والده عمدة احدى قرى الدلتا ومن وجهائها • وهكذا لم يعان لطفي منذ صغره هموم المادة التي كانت كثيرا ما ترغم مثقفين آخرين على اتخاذ مواقف تناقض معتقداتهم • بل انه كثيرا ما استقال من عمله اذا رأى ان هذا العمل يضعه في مكان غير مناسب ويعـود الى منزله في الريف حتـى يستدعى لاستئناف العمل وفق شروطه الخاصة •

وحقيقة اخرى عن لطفي السيد هي اهتمامه الشديـد

بالعلم منذ صغره ، فقد حفظ القرآن في كتّاب وهو في سن سن العاشرة قبل ان ينتقل الى مدرسة حكومية ، وفي سنة ١٨٨٥ وبعد ان امضى ثلاث سنوات في المدرسة الاعدادية في القضاء ، انتقل الى المدرسة الخديوية في القاهرة حيث التقى عبد العزيز فهمي،شريكه في المحاماة بعد ذلك وصديقه الحميم • كان لطفي السيد على اطلاع واسع في الأدب العربي قبل تخرجه ، والتحق بعد ان اتم دراسته الثانوية بمدرسة الحقوق حيث زامل رجالا كتب لهم ان يصبحوا قادة مصر السياسيين في المستقبل • واجتمع كذلك الى محمد عبده الذي يبدو انه شجعه على العلم • كما اظهر اهتماما خاصا بالصحافة فحرر بالاشتراك مع عبد الخالق ثروت واسماعيل صدقي،اللذين اصبحا في ما بعد من رؤساء الوزراء ، مجلة التشريع التي كانت تتضمن تعليقات على احكام قانونية في ذلك الحين • وحمله اهتمامه بالصحافة على زيارة رؤساء تحرير صحف القاهرة ومجلاتها النافذة واصبح بالتالي على اتصال بكبار المثقفين والمفكرين •

وفي سنة ١٨٩٣ أي قبل سنة من تخرجه ، امضى اجازة الصيف في اسطنبول•ولا بد ان تكون هذه الزيارة للعاصمة العثمانية قد تركت في نفسه انطباعا عكسيا ، لانه شاهد عن كثب رقابة الباب العالي على الصحف ومراقبة الشرطة كذلك ، مما جعله يحذر بعد ذلك من اعتماد مصر على رحمة السلطان[١] ، وتردد خلال وجوده هناك على منزل جمال

---

(١) لطفي السيد (قصة حياتي) القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٣—٣٤

الدين الافغاني الذي يبدو انه ترك اثرا في نفسه بطلاقته في الحديث وقوة حجته ، وهما صفتان تجلتا في لطفي السيد نفسه في احاديثه مع تلاميذه . وكان ينصرف في اوقات فراغه الى قراءة كتب الادب والفلسفة وخاصة مؤلفات كونت وميل وسبنسر الذين ظهر تأثيرهم بوضوح في كتاباته .

بعد ان اتم دراسته في الحقوق شغل منصبا حكوميا مدة سنتين ثم مارس المحاماة سنة واحدة . وقد تعلم خلال هذه السنوات الشيء الكثير عن الحياة العامة وعن مساوىء البيروقراطية ، وما ان تحرر من خدمة الحكومة ، حتى بدأ يهتم بالسياسة . وفي سنة ١٨٩٦ اسس مع عبد العزيز فهمي زميله في الدراسة جمعية سرية كان هدفها الاساسي العمل ضد الاحتلال البريطاني . واتصل مصطفى كامل ، الذي كان على علم بالجمعية ، بلطفي السيد كي ينضم الى جمعية سرية اخرى ينتمي اليها الخديوي ، وتعمل من اجل الهدف ذاته . واشير على لطفي بأن يمضي سنة في سويسرا للحصول على الجنسية السويسرية التي ستمنحه حماية بموجب الامتيازات الاجنبية فيتولى رئاسة تحرير صحيفة تنشر آراء معادية للاحتلال البريطاني . ولكن هذا التدبير لم ينجح وعاد لطفي الى القاهرة دون الحصول على جنسية سويسرية ، ثم اخذت علاقاته مع الخديوي ومصطفى كامل تفتر ، وربما كان ذلك بسبب صداقته آنذاك لمحمد عبده الذي لم يكن يتمتع بثقة الخديوي . هذه التجارب عززت اعتقاده بضرورة تحديد سلطات الحاكم المطلقة قبل تحقيق الاستقلال ، كما دفعته الى العمل في محافل سياسية اخرى .

وكان الحدث الخطير التالي هو قرار لطفي السيد العمل في ميدان الصحافة حين شجعته ظروف ملائمة على انشاء صحيفة يستغلها وسيلة لنشر آرائه في الاصلاح الاجتماعي. هنا كانت شقة الصراع بين الخديوي واللورد كرومر قد اتسعت وراحت الصحافة الوطنية تهاجم السياسة البريطانية دون تمييز . وعندما وقع حادث الاصطدام بين بريطانيا وفرنسا على فاشودا كان من الطبيعي ان تنتصر الصحافة لفرنسا . ولما طالب الباب العالي بالعقبة لم يدهش اللورد كرومر ان يرى الوطنيين في مصر يهبون الى تأييد الباب العالي لا لسبب الا سبب معارضتهم بريطانيا ، رغم ان بريطانيا كانت تحاول حماية المصالح المصرية .

كانت السلطات البريطانية تعتقد ان الذين يؤلبون الشعب ضد الاحتلال هم اولئك المتحدرون من اصل عثماني (أي الخديوي وحاشيته في القصر) او الشبان الذين انساقوا وراء مصطفى كامل بينما الملاكون المصريون وافراد الطبقة الموسرة الذين يملثون « المصالح الحقيقية » في البلاد ، لا يتحدثون في الشؤون السياسية.وفي محاولة لحمل الطبقات الارستقراطية على ممارسة نشاط سياسي راح لطفي السيد يناشدهم الدفاع عن مصالح البلاد الحقيقية التي يجب ان توضع فوق المصالح الشخصية ، بغض النظر عن سياسات الاحزاب المتنافسة . وعقد اجتماع للاعيان المصريين تقرر فيه تنظيم حزب الامة ، واصدار صحيفة « الجريدة » . وسيطرت العائلاتالثرية والارستقراطية المصرية علىالحزب الذي عهد في رئاسته اسميا الى محمود سليمان باشا .

واصبح لطفي السيد وهو نفسه ممثل المصالح الحقيقية ، رئيسا لتحرير «الجريدة» [٢] وامينا للحزب . واعلن ان هدف الحزب هو تحقيق الاستقلال المصري والمطالبة باعلان الدستور وبعدم انتماء مصر الى أي من الباب العالي او بريطانيا . ويبدو ان هذه الاهداف لقيت ارتياحا في نفس اللورد كرومر ، لانها اتفقت ، من حيث المبدأ ، مع الهدف الرئيسي للاحتلال ولسياسة بريطانيا ، ولانها جاءت مناهضة للحركة المناصرة للخديوي والباب العالي .

وقف لطفي السيد معظم وقته بين سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩١٤ على التفكير مليا في اوضاع المجتمع المصري ، مطالبا بشكل خاص بالتحرر من الحكم المطلق . وعلى الرغم من ان آراءه كانت واضحة للطبقة المتعلمة فانها اخفقت في التأثير في جماهير لا تتجاوب الا مع الشعارات الثأرية الملتهبة والخطب الحماسية العاطفية . وتذمر زعماء حزب الامة من تحرير صحيفة «الجريدة» لان الصحيفة لم تجتذب غير فئة صغيرة من المثقفين ، وفشلت في منافسة صحف اخرى تحظى باقبال شعبي اوسع . غير ان لطفي السيد ظل بفضل تأييد عدد من البيوتات الارستقراطية ، يشرف على الصحيفة الناطقة بلسان الحزب .

وفي شهر تموز (يوليو) ١٩١٤ وحين اعلنت بريطانيا الحرب على المانيا زاد نشاط لطفي السيد في الدوائر الحكومية

---

(٢) صدر العدد الاول من جريدة «الجريدة» في ٩ آذار (مارس) ١٩٠٧ ، ونظم الحزب رسميا في ٢١ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٠٧ .

العليا واخذ ينادي بوجوب استغلال هذا الحدث المهـم لمنفعة مصر كما زار حسين رشدي رئيس الوزراء ، وحثـه على تقديم اقتراح للحكومة البريطانية يطلب فيه اعترافها باستقلال مصر اذا دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا • وذهب الى حد القول بأن مصر ستدفع ثمن الاستقـلال باشتراكها في الحرب الى جانب بريطانيا اذا ارادت بريطانيا ذلك • ثم زار عدلي يكن وزير الخارجية المصرية فحدثه في الموضوع نفسه كما حدث رونالد ستورس السكرتير الشرقي في مكتب المقيم البريطاني، ورونالد غراهام المستشار البريطاني لوزارة الداخلية المصرية • ولم يكن موقف غراهام مشجعا لدعوة لطفي السيد اذ ابلغه بكل صراحة ان مصر اذا أعلن استقلالها فان حكومتها قد تكون مرغمة على تأييد الامبراطورية العثمانية ضد بريطانيا وليس العكس ، لان الرأي العام ، كما هو ظاهر ، يعطف على الخلافة ويعادي بريطانيا العظمى اما ستورس فكان اكثر تفاؤلا ، ووعد لطفي السيد بعرض المسألة على السلطات العليا ، وعندها اجتمع حسين رشدي وعدلي يكن ولطفي السيد وستورس ليضعوا مجموعة من المقترحات تمنح بريطانيـا حق حماية مصالحهـا في مصر آنذاك ، في مقابل الاعتراف باستقلال مصر بعد الحرب • ولما عرض رشدي هذه المقترحات على ريجنالد وينغيت المقيم البريطاني بالوكالة في مصر لدراستها فانه لم يظهر كثيرا من التفـاؤل ، ولكنه وعد بنقلهـا الى الحكومـة البريطانية • ويبدو ان الرد البريطاني كان سلبيا ، فقد نمي الى رشدي ويكن ، ان بريطانيا غير مستعدة للبحث في طلب مصر الاستقلال • بل ان ما فعلته بريطانيا كان العكس ، فما

ان دخل السلطان العثماني الحرب الى جانب المانيا في شهر تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩١٤ حتى اعلنت بريطانيا مصر بلدا خاضعا لحمايتها،مما خيب امل لطفي السيد وجماعته[٣] . وبعد ذلك بسنة ، أي في سنة ١٩١٥ ، استقال لطفي السيد من منصب رئيس تحرير «الجريدة» بسبب عناء العمل تحت الرقابة المشددة على الصحف واعتكف في منزله في الريف . وفي لحظة يأس اعلن يقول « لقد قررت ان اكسر قلمي ، وان انسحب من المعترك السياسي[٤] » . وقنع بالعمل مديرا لمكتبة الخديوي التي اصبحت تعرف بعد الحرب بدار الكتب المصرية ، وامضى معظم وقته في المطالعة وفي ترجمة كتاب «علم الاخلاق» لارسطو الى العربية .

وعندما وضعت الحرب اوزارها في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨ عاد لطفي السيد الى المعترك السياسي ، محاولا مرة أخرى مع سياسيين آخرين الحصول على استقلال بلاده . وشكل هو واربعة آخرون ، هم سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي ومحمد محمود وفدا كان نواة ما سمي في ما بعد بحزب الوفد ، وبدأوا

---

(٣) لطفي السيد «قصة حياتي» ص ١٦٢ ــ ١٦٦ . كتب رونالد ستورس في مذكراته يقول ان الحكومة البريطانية كانت تفكر في «ضم» مصر الى الامبراطورية البريطانية ،وان اعلان «المحمية» الذي تم بناء على اقتراح الوكالة البريطانية في القاهرة كان حلا وسطا بين المصالح المصرية والمصالح البريطانية (راجع ستورس « توجيهات » (لندن ١٩٤٩) ص ١٣٦ ــ ١٤٠ .

(٤) لطفي السيد «قصة حياتي» ص ١٦٥ .

بقيادة سعد زغلول المطالبة بعقد مفاوضات مع بريطانيا لتحقيق الاستقلال . وتوجه زغلول واثنان من الوفد اولا لمقابلة وينغيت بغية المطالبة بالاستقلال . وعندما جوبهوا بالصد قرروا التوجه الى باريس وعرض مطلبهم على مؤتمر الصلح ، مستندين الى مبدأ تقرير المصير . وطوال السنتين التاليتين ، أي من سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٢١ لعب لطفي السيد دورا نشيطا في المجال السياسي . ولكنه قرر بعد ذلك الانسحاب من معترك السياسة لسببين[٥] : الاول استنتاجه بأن بريطانيا ليست مستعدة لانهاء الاحتلال والاعتراف باستقلال مصر ، وان المفاوضات قد تستمر الى الابد دون تحقيق نجاح ملموس ، والثاني انه كان يعرف منذ بدأ النشاط الوطني بعد الحرب ، أن هناك صراعا سياسيا بين الزعماء ، وعلى الاخص بين سعد زغلول وعدلي يكن ، وقد رأى في هذا الصراع خطرا كبيرا على البلاد ، لان المصالح الشخصية كانت تطغى على المصالح الوطنية ، وكانت بريطانيا هي المستفيدة الوحيدة من ذلك كله .

وخلص الى انه لا يمكن تحقيق الاهداف التي يصبو اليها عن طريق الاشتراك بصورة مباشرة في الشؤون السياسية ، وقرر ان يقف ما تبقى من حياته على أعداد صفوة مختارة من الشباب تقود الامة نحو تحقيق الاهداف الوطنية .

---

(٥) هذه الاحداث يرويها بأسلوب مشرق عبد العزيز فهمي صديق لطفي السيد وشريكه في كتابه «هذه حياتي» (القاهرة ١٩٤٤) ص ٧٢ — ١١٧ . راجع كذلك «قصة حياتي» لطفي السيد ص ١٧٨ — ١٨١ .

ورأى ان اصلاح المجتمع رهن باصلاح افراده • ولهذا السبب وقف معظم وقته على النشاط الثقافي والتعليمي دون النشاط السياسي ، على الرغم من ان تيار السياسة جرفه اكثر من مرة لاعتبارات شخصية في جوهرها ، كي يتولى منصبا وزاريا [٦] •

نظر لطفي السيد نظرة بعيدة في محاولته تحقيق الاهداف الاجتماعية • وقد اراد كغيره من السياسيين استرجاع استقلال بلاده الذي فقدته قبل زمن طويل بسبب تعاقب السيطرة الاجنبية • ولكن هذا لم يكن بالنسبة الى لطفي السيد غير خطوة واحدة في الكفاح الوطني ، لان هدفه الاساسي كان تحرير الفرد من الاضطهاد والخنوع للحكام وطنيين كانوا او اجانب • وعلى الرغم من انه كان يدرك ان مواطنيه قلما تمتعوا بالحرية الشخصية في الماضي ، فقد رأى ان لا مندوحة عن هذه الحرية للمواطنية الصالحة التي تعتبر بدورها ضرورة لا بد منها قبل انتقال السلطة من ايدي الاجانب الى أيدي المواطنين • وذهب الى حد

---

(٦) عرض عبد الناصر في سنة ١٩٥٤ رئاسة الجمهورية على لطفي السيد ولكن هذا اعتذر متذرعا بكبر سنه ، على الرغم من انه سر بالعرض وبارك نظام الحكم الجديد في مصر . واذا اخذنا بعين الاعتبار مقت لطفي السيد للعنف ، فيمكن القول ، انه ما كان ليشترك في الشؤون السياسية مع ضباط استولوا على الحكم بالقوة . للاطلاع على حياة لطفي السيد وافكاره راجع كتاب «مصر وكرومر» لعفاف لطفي السيد (لندن ١٩٦٨) الفصل ٨ وكتاب «لطفي السيد الانسان – مجلة «حوار» (بيروت) الجزء الرابع (١٩٦٣) ص ١٤ – ٢١ .

القول بأنه يجب تحرير الفرد من الظلم والطغيان قبل تحقيق الحرية الوطنية • وربما كان اهتمامه بحرية الفرد هو المشكلة الاساسية التي ابعدته عن مصطفى كامل الذي كان همه انهاء الاحتلال دون المبالاة بما ستكون عليه العلاقة بين الحاكم والمحكومين بعد مغادرة البريطانيين البلاد •

ولكن كيف يمكن تحرير الفرد من الحكم التعسفي المطلق؟ يرى لطفي السيد ان الفرد يمكن ان يكون حرا اذا حددت سلطات الحاكم بضمانات دستورية واذا شارك الشعب الحاكم سلطته • ودعا الى اعلان دستور مكتوب يحدد صلاحيات السلطة التنفيذية ويثبت حقوق الشعب في المشاركة في الحكم عن طريق تمثيله في مجلس الامة • وهذا يعني بكلمات أخرى ، انه اراد اقامة نوع من الحكم النيابي ، وتنظيم احزاب سياسية ينطق ممثلوها في البرلمان باسم الشعب • ورأى كذلك ان الديموقراطية البرلمانية هي افضل انواع الحكومات التي توصل اليها الانسان لضمان حرية الفرد •

واذا اردنا الا نسيء فهم لطفي السيد علينا ان نتذكر ان دعوته الى الديموقراطية والحرية كانت كما تصورها ، دعوة الى الحد من الحكم المطلق والتعسفي • ولم يكن مبدؤه السياسي ، اذا جاز القول انه وضع مبدأ سياسيا ،ديموقراطية شعبية وانما ديموقراطية برلمانية تتزعمها صفوة مختارة من المتعلمين ممن أشربوا حب الوطن وتميزوا بأفكار نيرة هدفها التقدم والخير والاخلاق • اما آراؤه بالنسبة لمهمات الدولة فانه كان ينادي بحرية الفرد والعمل الحر بحيث لا

تتجاوز سلطة الدولة في الشؤون الداخلية حدود مهمات القضاء والشرطة والجيش وتترك مجالات الحياة الاخرى في المجتمع للافراد .

وقبل ان تصبح المؤسسات الديموقراطية قادرة على العمل لا بد من وجود شعب مستنير وصفوة مختارة تستطيع قيادة الشعب وتمثيله في الحكومة بالانتخابات العامة . وعندما دخل لطفي السيد الحياة العامة لم تكن البلاد قد شهدت بعد مؤسسات تمثيلية ، كما أن الشعب لم يكن متعلما ، وكانت اكثريته الساحقة من الجهلة الذين لا يستطيعون التعبير عن رأي في الشؤون العامة . وكان يدرك تماما ان الديموقراطية البرلمانية لا يمكن خلقها بين عشية وضحاها ، ولذلك راح يدعو الى تبني المؤسسات الدستورية التمثيلية تدريجيا والى اعداد صفوة مختارة من الناس تتولى قيادة الشعب [٧] .

اما اهتمام لطفي بالحرية على انها هدف اجتماعي اساسي فقد نبع من خبرة شخصية ومن الفكر الاوروبي التحرري.

---

(٧) لمعرفة آراء لطفي السيد في الحرية راجع لطفي السيد في كتاب «تأملات» (القاهرة ١٩٤٥ ص ٥٥–٦٠) و«المنتخبات» (القاهرة – طبعة جديدة) الجزء الاول ص ٢٩٦ – ٢٩٨ – و ٢٩٩ – ٣٠٢ ، والجزء الثاني ص ٦٠ – ٦٣ . و «المبادىء في السياسة والآداب والاجتماع» القاهرة ١٩٦٣) ص ٣٨ . وللاطلاع على افكار لطفي السيد بصورة عامة راجع البرت حوراني في كتاب «الافكار العربية في العصر التحرري» (لندن ١٩٦٢) ص ١٧١ – ١٨٢ واحمد «الاسس الفكرية للقومية المصرية» (لندن ١٩٦٠) ص ٨٤ .

وعندما دخل الحياة العامة موظفا حكوميا في دائرة العدل ، ثم محاميا يمارس مهنته ، اكتشف ان لا وجود للحرية في اصول نهج القضاء في مصر ، بالنظر للسلطة المطلقة التي كانت طابع الحكومة المصرية آنذاك وتدخلها في القرارات القضائية ، ولعدم توفر الاخلاص والتفاني في العمل لدى القضاة والمحامين ولاخضاعهم الاعتبارات المهنية لاعتبارات شخصية وسياسية[٨] . ولم يمض وقت طويل حتى اكتشف ان هذه النزعات موجودة في دوائر حكومية اخرى . صحيح انه مارس حرية نسبية في الصحافة في عهد كرومر ، حين كان هو نفسه رئيسا لتحرير جريدة «الجريدة» ولكن هذه الحرية لم تكن موجودة قبل كرومر ولم تستمر بعده [٩] ، فما ان نشبت الحرب العالمية الاولى حتى تلاشت حرية الصحافة وحلت محلها رقابة صحفية مما جعل لطفي السيد يعتزل رئاسة التحرير .

وازداد حب لطفي السيد للحرية بدراسته للفكر الاوروبي وعلى الاخص فكر القرن التاسع عشر التحرري في مؤلفات ميل ، وسبنسر واوغست كونت وغيرهم . وكانت فكرة الحرية كما صورها القرن التاسع عشر هي التي ترددت اصداؤها في كتاباته . وعندما بدأ ترجمة مؤلفات ارسطو

---

(٨) لطفي السيد «المنتخبات» الجزء الاول ص ٤١ — ٦٣ و ٢٩٠ — ٢٩٢ راجع ايضا لطفي السيد في «قصة حياتي» ص ٣٩ وعبد العزيز فهمي في «هذه حياتي» ص ٥١ — ٥٤ .

(٩) لطفي السيد في «قصة حياتي» ص ٥٨ — ٨٧ .

ادرك مدى اعتماد هؤلاء المفكرين الاوروبيين على الفكر اليوناني ، كما ادرك مدى الحاجة الى دراسة المؤلفات اليونانية الكلاسيكية وترجمتها • وتعلم من المفكرين الاوروبيين المعنى الاعمق للحرية ومفاهيم غربية اخرى ، ولكن علاقة هذه المفاهيم بالمجتمع ، كما شرحها في كتاباته ، كانت نتاج تأملاته واختباراته الشخصية • وقد استقى افكاره عن المجتمع المصري من تحليله لنقط ضعف الفرد المصري وتسامحه وخنوعه للحكام وخوفه من السلطة • وقال ، صحيح ان التسامح قد يعتبر فضيلة اذا اقترن بقوة الخلق ، ولكنه لاحظ أن التسامح في مصر ينبثق من الاستسلام والاستكانة ، ولذلك فانه تسامح يعكس ضعفا وجبنا[١٠] • ومضى في قوله ليوضح ان هذه العناصر الضعيفة كانت نتاج تاريخ طويل من الحكم التعسفي المطلق ، واشار الى ان المستوى العام للاخلاق في مجتمع ما ، يميل الى التدهور والانهيار في ظل حكم مطلق • وقال ان استمرار الظلم ، يرغم الفرد على ان يتخذ موقف الدفاع ، حتى لو كان في سره يمقت الحكام • وقد اصبح هذا الاستسلام الظاهر هو شكل المسلك التقليدي في مصر ، انتقل من جيل الى جيل وخلق نوعا من الولاء المرائي للسلطة[١١] •

ومع ان الضعف هو السبب في موقف الفرد الاستسلامي

(١٠) لطفي السيد في «المنتخبات» الجزء الاول ص ٤٩ — ٥٦ و ١٠٧ — ١٠٨ •
(١١) المرجع نفسه ١٠٤ — ٦ و ١٠٧ — ٩ •

ازاء السلطة ، فانه كذلك نتاج الحكم المطلق • وغني عن القول ان هذا الوضع خاق حلقة مفرغة ، وان كسر الحلقات المفرغة كما قال لطفي السيد ليس سهلا • ولكنه لاحظ مع ذلك ان لا بد للأمة «التي ولَدت الحضارة مرتين من ان تحطم القيود التي أذلّتها» • وسيتعلم الشعب في نهضته الجديدة كيف يعيش في العالم الحديث • ولم يشك لطفي السيد مطلقا في قدرة ابناء بلده على تحقيق التقدم وقال : ان كل ما نحتاج اليه هو الاستمرار في التعلم ـ واكبر اعداء التقدم اثنان : اليأس والكسل (١٢) •

وتحول لطفي السيد من شرح وجهة نظره في الفرد الى شرح رأيه في الامة • وكانت فكرته في الامة ، كما استقاها من الفكر الاوروبي ، اقليمية لا اسلامية ولا عالمية • وقال ان مصر تتألف من جميع الافراد الذين يعيشون على ارضها ، مسلمين واقباطا يتقاسمون المنافع المشتركة والقيم بغض النظر عن الفوارق الدينية • ولاحظ ان اصحاب الجامعة الاسلامية وانصار مصطفى كامل من الوطنيين كانوا يؤكدون إما على الناحية الدينية او الهوية العثمانية ، وهكذا ابعدوا الاقباط عن الصورة لأسباب دينية • ورفض لطفي السيد الآراء التقليدية في الولاء ، ونادى بهوية مصرية وطنية تستند الى تاريخها المتواصل الذي لم يكن الحكم الاسلامي فيه الا مجرد فصل واحد ، والى الاوضاع الاقليمية

---

(١٢) لطفي السيد في «المنتخبات» الجزء الثاني ص ١٠٤ـ ١٠٧ و «تأملات» ص ٦٥ ـ ٦٧ •

والاجتماعية والاقتصادية التي جسدت ولا تزال تجسد حياة الشعب المصري • ولم تكسب دعوة لطفي السيد الى الوحدة الوطنية تأييد الاقباط فحسب ، ولكنها اكتسبت كذلك تأييد المثقفين الذين اجتذبتهم الصورة الحديثة للوطنية(١٣) • ولم تكن فكرة الوطنية المصرية جديدة ، لأن عرابي في سنة ١٨٨٠ نادى بشعار «مصر للمصريين» ولكن لطفي السيد اكد على العناصر العلمانية لا العناصر الدينية ، واعترف بأن الاسلام هو دين الاكثرية المصرية ، ولكنه اضاف ، ان هناك ديانات أخرى لها احترامها وتقديرها في نفوس اناس آخرين يعيشون في مصر ، مؤكدا ان الدين يجب ان لا يتعدى كونه شيئا يخص ضمير الفرد (١٤) •

ان تأكيد لطفي السيد على العلمانية واحالة الدين الى ضمير الفرد، اثار النقاد الذين نددوا به واتهموه بالالحاد(١٥) •

---

(١٣) لطفي السيد «تأملات» ص ٦١ ــ ٦٤ و ٦٥ ــ ٦٧ و ٦٩ ــ ٧١ • لمعرفة اثر تعاليم لطفي في الاقباط راجع كتاب سلامة موسى « تربية سلامة موسى » (القاهرة ١٩٤٨) ص ٦٠ ــ ٦٢ و ٦٨ ــ ٧٥ الذي ترجمه ل.و. شومان الى الانكليزية (ليدن ١٩٧١) ص ٤٢ ــ ٤٤ و ٤٨ ــ ٥٢ •

(١٤) لطفي السيد «صفحات مطوية» (القاهرة ١٩٤٦) ص ٩٦ ــ ١٠١ و ١٠٢ ــ ١٠٣ و «قصة حياتي» ص ٧٥ـ٧٧

(١٥) اخبرني عبد الرحمن الرافعي المحامي المؤرخ مرة ان لطفي السيد كان شيخ الملحدين «ولكن عبد الرزاق السنهوري الذي سمع هذه الملاحظة » قال « ان شيخ الملحدين هو شبلي شميل وليس لطفي السيد» على الرغم من ان لطفي نفسه من الملحدين • وقال الرافعي ، ان لطفي كمدير للجامعة المصرية ، دافع عن ملحدين آخرين كطه حسين ومنصور فهمي وحسين هيكل •

ولكن آراءه في الدين ، كما هو ملاحظ ، لم تظهر في كتاباته وانما عرفت من احاديثه الخاصة مع تلامذته واصدقائه • وقد سنحت لي الفرصة فاجتمعت الى السيد ولاحظت انه كان يعمل جاهدا ليطبع في اذهان الناس بأنه يحترم آراءهم الشخصية في الدين ، ولا ينتقص من قيمة أي معتقد او عرف او تقليد • ومع هذا فقد قال لي مرة في سياق الحديث ان الشريعة الاسلامية ، وهي في حالة ركود منذ زمن بعيد ، لم تعد تتفق والاوضاع الجديدة للحياة وانه لا بد من تطويرها تطويرا جذريا • وقال لي السنهوري وهو صديق حميم للطفي السيد ان لطفي اثار شكوكا جدية في المعتقدات الدينية التقليدية ، واضاف «ان الانسان عندما يبلغ الكبر ، يميل في طبعه الى تفادي اثارة الشك في المعتقدات الدينية ، لكن لطفي السيد اعرب عن شكوك خطيرة فيها » • وقد ظل مشككا حتى آخر حياته •

وانتقل لطفي السيد من الفكرة العلمانية للأمة الى الافتراض المنطقي الثاني ، وهو ان مصر ، كأية امة اخرى ، يجب ان تنال الحرية الوطنية • فقد كان يؤمن ان الحرية فطرية في الامة ، تنبثق من حق الشعب الطبيعي في ان يكون سيد نفسه[١٦] ، ولكنه لاحظ ان الشعب المصري يخضع منذ زمن بعيد لنفوذ حكام اجانب ، وانه بالتالي لا يستطيع تحقيق حريته الوطنية بسرعة • وبدأ الشعب المصري ، في

---

(١٦) لطفي السيد «تأملات» ص ٥٥ ــ ٦٠ ، و «المنتخبات» الجزء الثاني ص ٦٠ ــ ٦٣ و ٦٧ .

العصور الحديثة ، أي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، يفيق ويطـالب بحكم ذاتي ، ولكن ثـورة عرابي العسكرية ، ادت الى تدخل اجنبي وأتاحت الفرصة لبريطانيا لاحتلال البلاد . وعلى الرغم من ان لطفي السيـد تعرض للتأنيب ، لأنه انتقد عرابي الذي يعتبره كثيرون من المصريين بطلا قوميا ، فانه كان يعتقد ان ثورة عرابي عرقلت حركة وطنية نامية كانت ستنضج وتتحول الى حكومة دستورية نيابية . وقال ان ثورة عرابي هددت المصالح الاجنبيـة ، وسهلت لبريطانيا تثبيت حكم الخديوي المطلق الذي كانت الوكالة البريطانية تشارك فيه . الا انه لم ينكر ان الاحتلال البريطاني حقق الاستقرار والتقدم المادي ، ولكنه لم يساعد على انشاء حكومة برلمانية أو على تطوير طبـاع الشعب المعنوية والادبية . ولاحظ ان الامر كان على العكس من ذلك اذ إن الاحتلال ، كأي حكم اجنبي آخر ، زاد في مشاعر الاستسلام وفقدان الولاء العفوي للسلطة ، وان علاج هذا الوضع الشاذ لا يكون الا في الحرية الوطنية(١٧) .

ولكن كيف يتأتى لمصر تحقيق الحرية الوطنية ؟ فبريطانيا كانت قوية جدا بالنسبة الى مصر ، بحيث يتعذر اقناعهـا بالانسحاب او ارغامها عليه . وكان لطفي السيد على يقين من ضعف موقف مصر ، وكثيرا ما لام الوطنيين لمعـارضة بريطانيا معارضة لا طائل فيها ، فقد كان مقتنعا بأن التعاون

---

(١٧) لطفي السيد «المنتخبات» الجزء الاول ص ٢٥٢ ــ ٢٥٦ . راجع «صفحات مطوية» ص ٦٩ .

مع بريطانيا قد يعود ببعض الفوائد في تحسين اوضاع مصر الداخلية . وقال ان تحسين هذه الاوضاع ممكن اذا حُددت سلطة الحكام الوطنيين ومنح الشعب دورا فعالا في الحكومة . ولتحقيق هذه الغاية كان يرى ضرورة انشاء حكومة نيابية واحزاب سياسية ساعد هو في تنظيمها . كما كان يتطلع الى ان تتبنى مصر في النهاية مؤسسات نيابية ولا بد ان يأتي اليوم الذي تدرك فيه كل من بريطانيا ومصر ان احسن وسيلة لحماية مصالحهما المتبادلة على الوجه الافضل تكمن في انهاء الاحتلال [١٨] .

وبعد فماذا كانت اساليب لطفي السيد ؟

يبدو ان الوظيفة الحكومية وممارسة المحاماة كلتيهما اخفقت في اجتذاب لطفي حين دخل الحياة العامة ، كما ان دخوله الوزارة لم يثر اهتمامه ، لانه كان يفضل التأثير في الشؤون السياسية بصورة غير مباشرة على التأثير فيها بصورة مباشرة . وكانت الصحافة اقرب وسيلة الى قلبه لتحقيق اهدافه . حتى انه قبل تخرجه تعاون مع زميلين له ايام الدراسة على تحرير مجلة.وفي سنة ١٩٠٧ حرر صحيفة «الجريدة» التي كان يهدف من ورائها الى التأثير في الرأي

---

(١٨) لطفي السيد «صفحات مطوية» ص ٧ـ٢٤،«تاملات» ص ٤٦ ــ ٥٠ لم يهتم لطفي السيد بالحرية الوطنية في البلدان العربية الاخرى . وعارض فكرة اقتران حرية مصر بالبلدان العربية الاخرى (راجع فتحي رضوان في « عصر ورجال » (القاهرة ١٩٦٧) ص ٤٠٢ ــ ٤٠٣) .

العام • ولكنها كانت بالنسبة اليه هدفا ابعد مدى لنشر افكاره التي تتناول القضايا الاساسية والغايات الاجتماعية التي تداعب عقول قرائه • فكان يكتب برزانة مستخدما المنطق والعقل في عرض حجته ، كما كان يصيغ آراءه بعبارات منطقية دقيقة خالية من الحشو والتنميق الذي تميزت به كتابات معاصريه • لهذا السبب لم يتجاوب مع دعوته الا عدد محدود من القراء كما لم يتجاوز نفوذه اوساط المثقفين • وليس غريبا اذن ان يصاب مؤسسو صحيفة «الجريدة» الذين كانوا يأملون في توزيع صحيفتهم على نطاق أوسع بخيبة امل من رئاسته لتحريرها • فقد كانوا يتوقعون ان تؤثر الصحيفة الناطقة بلسان الحزب في الجماهير وتكسب تأييدهم ضد الوطنيين والمنادين بالجامعة الاسلامية • الا ان لطفي السيد لم يكن يجهل تلك الحقيقة ، ولكنه كان يتطلع الى المستقبل البعيد يوم تتمكن الصفوة الجديدة المختارة ممن تأثروا به ، من ايقاظ الامة لتلعب في الشؤون العامة دور المسؤول [١٩] •

كان لطفي السيد محدثا بارعا يجد لذة في الحديث الى الشبان الذين يشرح لهم آراءه في الحرية والديموقراطية وغيرها من الافكار التي لها علاقة بالمجتمع المصري • وكان هؤلاء الشبان يترددون على مكتبه او منزله او يجلسون اليه في المقاهي خلال الاجازات والعطل • وكان حين يشرح أفكاره ومثله العليا يفتن الجالسين بسعة اطلاعه واشراق

---

(١٩) لطفي السيد «قصة حياتي» ص ٤٦ ـ ٤٧و٩٠ـ٩١

ديباجته وقوة عارضته . لقد احترموه ووقروه لما كان يتمتع به من دماثة خلق ووفرة ادب. فلم يكن في مجالسه الا جليلا مهيبا محترسا ، مع انه ربما كان في الوقت ذاته متزمتا متقشفا . لقد لقبوه «استاذ الجيل» لا تملقا ولا تقربا ، بل لفرط ما كان يأسر مستمعيه حين يتحدث اليهم ، بمن فيهم مؤلف هذا الكتاب الذي اسعده الحظ بالتحدث اليه في سنواته الاخيرة .

وكان من اهتمام لطفي السيد باعداد النخبة ان انهمك هو نفسه في العمل في مؤسسات ثقافية واكاديمية بعد اعتزاله الصحافة ، فعمل فترة قصيرة مديرا لدار الكتب المصرية واسهم في انشاء الجامعة المصرية ، ثم اصبح اول مدير لها عند اعادة تنظيمها والحاقها بوزارة المعارف في سنة ١٩٢٣ . وبهذه الصفة ، شارك في نشر التعليم العالي ، وفتح ابواب الجامعة على مصاريعها امام الذكور والاناث على السواء .

امضى لطفي السيد معظم سنوات اعتزاله السياسة ، في ما عدا فترات قصيرة كان يعود فيها الى المعترك السياسي ، رئيسا لمجمع اللغة العربية الذي كانت مهمته الرئيسية ابتكار كلمات عربية للمفاهيم والافكار الجديدة . وحاول ، بصفته هذه ، تحقيق واحد من الاهداف الاساسية التي سعى لها في حياته ، وهي نقل ما انجزه الفكر الغربي الى اللغة العربية. لقد ادرك منذ بدء حياته ان عصره كان عصر ترجمة لا عصر خلق وابداع . كما ادرك المسافة الشاسعة التي تفصل اوروبا عن بلاده في الميدان الثقافي فدعا مواطنيه الى

ان يتعلموا اولا ما حققتــه أوروبا خــلال القرون القليلة الماضية ، قبل ان ينصرفوا الى العمل الخلاق ، وحثهم على ترجمة مؤلفات المفكرين الاوروبيين • ولما كان يؤمن بأن العلم الاوروبي الحديث يدين بالكثير الى الفكر اليوناني فانه خصص كثيرا من وقته الى ترجمة مؤلفات ارسطو الى العربية • ولم يكن ذلك لأن ارسطو كان مجهولا لــدى الفلاسفة المسلمين في الماضي ، بل لا ريب في انه كان موضع احترام كبير منهم حتى سموه المعلم الاول ـ ولكن الترجمات القديمة لمؤلفات ارسطو والتعليقات عليها فقدت • ولذلك رأى لطفي السيد من الضروري اعادة تعريف ابناء بلده بأرسطو الذي كان لطفي نفسه يدين اليه بكثير من آرائه في السلطة والحرية مما جعله يشجع تلاميذه على دراســة الفكر اليوناني • لقد نشر خلال عشرين سنة ترجمات لكتاب «علم الاخلاق» في سنة ١٩٢٤ وكتاب «الكون والفساد» في سنة ١٩٣٢ وكتاب «علم الطبيعة» في سنة ١٩٣٥ وكتاب «السياسة» في سنة ١٩٤٠[٢٠] • وعلى الرغم من ان هــذه المؤلفات ترجمت من الفرنسية وليس من اصلها اليوناني ، فقد اعترف النقاد بوضوح اسلوبها العربي واشراقه[٢١] • وهكذا فان دراسة الفكر اليوناني لم يكن لها اثرهــا في

---

(٢٠) لطفي السيد «قصة حياتي» ص ١٦٨ — ١٦٩ •

(٢١) انظر عرضا لبعض هذه الترجمات في كتاب حسين هيكل « في اوقات الفراغ » (الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٨) ص ١٥٢ ــ ١٥٨ وكتاب طه حسين «حديث الاربعاء» (القاهرة ١٩٦٢) الجزء الثالث ص (٤٧ ــ ٥٧) •

تفكيره العلماني وحسب ، بل في تفكير تلامذته[٢٢] •

ولما كان لطفي السيد ينظر نظرة بعيدة في تحقيق اهدافه الاجتماعية فانه لم يكن يتوقع نتائج عاجلة من مشاركته في في السياسة • فمنذ ان دخل الحياة العامة لم يلعب دورا ملحوظا في حزب الامة ، كما انه لم يظهر اهتماما بنشاط الاحزاب السياسية بعد الاستقلال • ويبدو انه ادرك تمام الادراك ان اهدافه الاجتماعية متروك امرها للمستقبل وان غيره من زعماء الشباب سيحققها • وليس ادل على تفاؤله المستمر ، من وضع ثقته ورجائه في جيل المستقبل الذي سيحقق اهدافه الاساسية • هذا التفاؤل هو احدى سجاياه البارزة التي كانت مصدر وحي واثارة لطلابه •

يبدو ان لطفي السيد ، لدى مشاركته في السياسة بعد الحرب العالمية الاولى ، كان عمليا يتنكر او على الاقل يتجاهل ما كان ينادي به نظريا • فكان ، من حيث المبدأ ، يحبذ الانظمة الدستورية والديموقراطية البرلمانية ، ولكنه تجاهل هذه المبادىء حين تولى منصبا وزاريا في سنة ١٩٢٨ في حكومة برئاسة محمد محمود عمدت الى تعليق الدستور والى الحكم بموجب مراسيم اشتراعية • واشترك مرة اخرى في سنة ١٩٣٠ في حكومة اسماعيل صدقي التي أبدلت بدستور سنة ١٩٢٣ دستورا آخر ، يمنح الملك

---

(٢٢) انظر كتاب محمد كامل حسين «متنوعات» ص ١١١ـ ١١٧ . بذّ حسين معلمه فترجم مباشرة من عيون الادب اليوناني وجمعها في كتاب بعنوان «من الادب التمثيلي اليوناني» (القاهرة ١٩٢٣) كما ترجم كتابا بعنوان «نظام الاثينيين» لارسطو .

والسلطة التنفيذية صلاحيات تتجاوز صلاحيات البرلمان والهيئة التمثيلية • ولم تكن هاتان الحادثتان الاخيرتين او مما فرضتهما ظروف استثنائية، لأن لطفي السيد عاد فاشترك في الحكم مع رئيس الوزراء ذاته في سنة ١٩٣٧ وسنة ١٩٤٦ مما يظهر استعداده لتجاهل المبادىء الديموقراطية التي كان يدعو لها في كتاباته •

وليس هذا كل شيء في حياته ، فلطفي السيد كان يتعالى على ابناء الشعب ، وقلّ ان حاول الاختلاط مع عامة الناس حتى حين كان يرشح نفسه لعضوية مجلس الشورى او الجمعية التشريعية قبل الحرب العالمية الاولى • وقد فشل في احد الانتخابين وفاز بالثاني حين انسحب خصمه من المعركة احتجاجا على اعمال شاذة ارتكبها مؤيدو لطفي السيد ومناصروه [٢٣] • اما بعد الحرب العالمية الاولى فانه لم يرشح نفسه لأي منصب ، ولم يشترك في اية انتخابات عامة في ظل الديموقراطية البرلمانية • وعلى العكس من ذلك فقد اقتصرت اتصالاته مع الشعب على حلقة اضيق تضم اصدقاءه وتلامذته الذين كانوا يترددون على منزله او يزورونه في مكتبه •

ويقول بعض النقاد أن الطبقة الارستقراطية الغنية التي كان لطفي السيد ينتمي اليها هي المسؤولة عن تصرفه الشخصي ، وان دعوته الى ضمانات دستورية وديموقراطية

(٢٣) راجع كتاب عبد العزيز البشري «في المرآة» (القاهرة ١٩٤٧) ص٣٩ـ٤٣ وكتاب رضوان «عصر ورجال» ص٣٩٣ .

برلمانية قبل الحرب العالمية الاولى انما كان يقصد بها الحد من سلطات الخديوي وتمكين طبقته من حكم البلاد . وفي ذلك الوقت طالب حزب الامة الذي كان يمثل الطبقة الغنية التي كان لطفي يسميها «المصالح الحقيقية» (يعني المصالح الخاصة) بحكومة نيابية تحكم البلاد بالنيابة عن الشعب . وبعد الحرب العالمية وحين انشئت الديموقراطية البرلمانية وحمل حزب الوفد لواء قضية الشعب عمدت الطبقة الارستقراطية الثرية الى تنظيم حزب جديد هو حزب الاحرار الدستوريين الذي كان يتمتع بتأييد القصر والمصالح الخاصة . وعلى الرغم من ان لطفي السيد لم ينضم رسميا الى الحزب فقد اقترن اسمه به واشترك في حكومات كان اعضاؤها ينتمون اليه .

وقد لا يعزى تفسير هذا التناقض الظاهر في لطفي النظري ولطفي العملي الى التركيب الطبقي وحده . فلطفي كان بطبعه ونشأته يفضل الانطواء على نفسه واعتزال الناس . ولعل ثروة عائلته التي كانت له سياجا ضد العوز قوّت فيه مثل هذه النزعات ، كما انها وفرت له كذلك الحماية من الاعتماد على الوظائف الرسمية التي ربما كانت سترغمه على المساومة في آرائه . ولو كان لطفي منفتحا على الخارج غير منطو على نفسه ، لكان اكثر استعداداً للكفاح في سبيل ما يؤمن به ، ولاستطاع على الارجح اجتذاب عدد أكبر من الاتباع الذين ربما كانوا ساعدوه في تحقيق اهدافه على نحو اسرع وبفعالية اكثر . ولكنه بصفته رجلا منطويا على نفسه فضل اتخاذ موقف الدفاع وحاول جاهدا عدم الاساءة

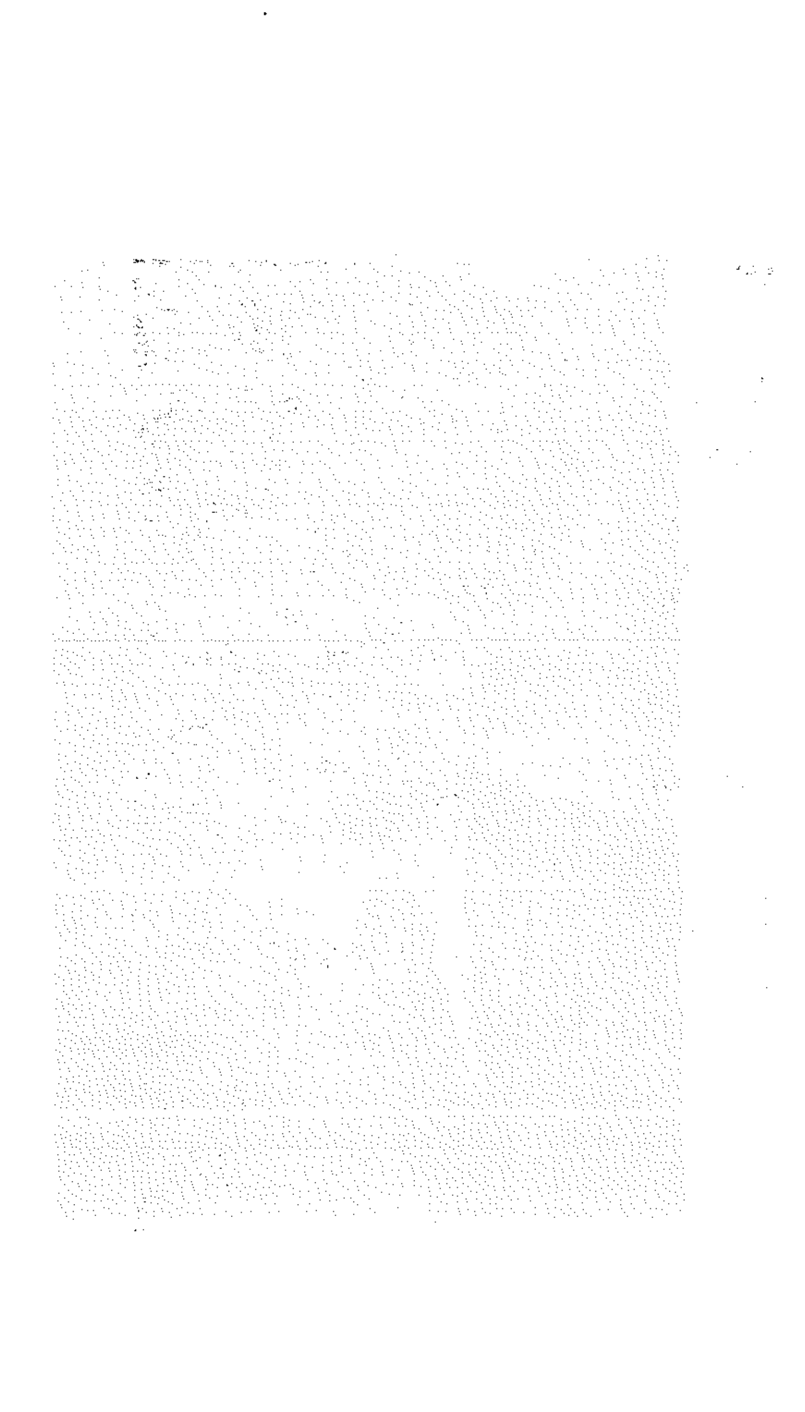
الى الآخرين او المبادرة الى الكفاح من اجل قضايا قد تجرح كبرياءه •

وبوصفه مؤمنا بالقيم الاساسية للحرية والديموقراطية وبمبادىء تحررية اخرى اعرب عن امله في ان يأتي يوم يستطيع فيه أبناء بلده الافادة من محاسن هذه المبادىء • ولا بد ان يكون لطفي ، كرجل درس كتاب «السياسة» لأرسطو قد فكر مليا في قول هذا الفيلسوف انه يجب تثقيف المواطن وفق روح الدستور الذي يعيش في ظله • ولهذا دعا اولا الى تبني المؤسسات النيابية تدريجيا حتى يفسح امام الشعب مجال التعود عليها • وادرك لطفي بعد بدء العمل بالديموقراطية البرلمانية وفق دستور سنة ١٩٢٣ ان الشعب لم يكن مؤهلا بعد لممارسة الحرية الكاملة التي ينص عليها الدستور فأيد حكومتي صدقي ومحمد محمود في محاولاتهما تنفيذ اصلاحات داخلية قبل منح البلاد الحريات الديموقراطية • ولذلك فانه يجب الا يعتبر نشاط لطفي السياسي محاولة لتحقيق الاهداف الاساسية وانما يجب اعتباره خطوة لاعداد الشعب لممارسة حقوقه • وكان كلما تقدمت به السن كلما ازداد اقتناعه بضرورة تحقيق تلك المهمة فراح يشدد على التطوير الاخلاقي والثقافي وعلى اعداد نخبة مختارة من الناس تتولى قيادة الامة والسير بها على طريق التقدم • لقد عاش لطفي السيد محاطا بالاحترام والتقدير وبقي كذلك حتى آخر رمق من حياته والفضل في ذلك يعود الى ثباته طوال حياته على مواقفه الادبية والفكرية، فقد كان مثالا مدهشا للسياسي المثقف الذي يصر على اعمال العقل والفطنة عند معالجة شؤون البلاد الخاصة والعامة •





محمد حسين هيكل



الفصل الحادي عشر
المدرسة الواقعية

محمد حسين هيكل

« فالذي يحكم في الامور السياسية ، ومنها المسائل الدستورية ، هو الرأي العام واستعداده لرد الفعل ضد ما يراه اعتداء على حق يؤمن به . الزعماء السياسيون هم الذين يوجهون هذا الرأي العام . فاذا اختلف هؤلاء الزعماء في ما بينهم ، وبلغ الاختلاف حد الخصومة العنيفة ، وتناول المبادىء الاساسية التي لا يجوز الاختلاف عليها ، انقسم الرأي العام وتنازعت طوائفه فأغرت المصالح الشخصية والمنافع العاجلة كل طائفة وصرفتها عن التفكير في المبادىء وعن الاغراض القومية »

هيكل

كان هيكل تلميذا للطفي السيد ومن اكثر الناس اعجابا به . وظل على اتصال وثيق به ، حتى دخل معترك الحياة العامة حين بدأ يسلك الطريق نحو أهدافه الخاصة به . وقد

تعرضت بعض افكاره واهدافه لتغييرات في وقت لاحق ، مما يدل على ان هيكل اخذ يقيّمها وفق الاعتبارات العلمية التي لم يستطع لطفي تقديرها . ثم حاول خلال سنوات نضجه ان يوازن بين الغاية والوسيلة ــ فاختار السير وراء اهداف بدت له محتملة التحقيق . واصبح ، كالسياسي المحترف ، شديد الاهتمام بالوسائل ، ولكنه كرجل مثقف مفكر ، لم يحول نظره ابدا عن اهدافه . اما كفاحه من حيث ربطه الاهداف بالظروف فيجب الحكم على ذلك في ضوء تجاربه وفشله .

ولد محمد حسين هيكل في عائلة غنية نسبيا سنة ١٨٨٨ . وكان والده عمدة في احدى قرى دلتا النيل ، انهمك في شؤون عائلة كبيرة لم يتمكن معها من العناية عناية خاصة بكل ولد من اولاده . ولم يبلغ هيكل الثامنة او التاسعة من عمره حتى كان ابوه قد تزوج من امرأة ثانية مما وفر له عددا من الاطفال من زوجتيه . وهكذا ، لم يعد هيكل الصغير يحظى باهتمام ابيه ، بل يبدو انه امتعض من موقفه الاستبدادي المتعنت [١] ، فنما وترعرع على خلاف ما نما عليه لطفي السيد ، الذي كان كما يبدو يتمتع بمحبة ابيه ورعايته ، واذن كان هيكل منذ صغره يعاني من شعور عدم الاطمئنان،وهو شعور كثيرا ما انعكس في شكه في الآخرين،

---

(١) يبدا هيكل مذكراته بحياته في المدرسة مفضلا عدم التعرض لتجاربه المبكرة الكئيبة (راجع كتابه «مذكرات في السياسة المصرية» (القاهرة ١٩٥١) الجزء الاول ص ٢٤ . وسيشار الى الكتاب بعد الآن ب «المذكرات» .

ولعل هذا الشعور هو الـذي كان يدفعه للتساهل امـام الواقع • كما قد يكون اهمال والده اياه من ناحية ثانية ، دفع به الى الاعتماد على نفسه ، فعزز فيه روح الاستقلال والاتكال على النفس •

اول ما تلقى هيكل العلم كان في كتّاب في القضاء تعلم فيه مبادىء القراءة والكتابه ثم انتقل في سنة ١٩٠٥ الـى القاهرة حيث أكمل دروسه الابتدائية وتعليمه الثانوي،ومن ثم التحق بمدرسة الحقوق بناء على اقتراح لطفي السيـد الذي كان كما يبدو على علاقة طيبة مع والد هيكل •
ومن خصائص روابط الاسرة ، وعلى الاخص في الريف ، انها تخلق شعورا عميقا بالاخلاص الشخصي والتضامن بين ابناء المنطقة الواحدة ، وكثيرا ما تجلى ذلك في رغبتهم في التعـاون ومساعدة احدهم الآخر اذا ما انتقلوا الى القرى الكبيرة او المدن • لهذا كان ابان اقامته في القاهرة يكثر من زيارة لطفي طالبا توجيهه وارشاده•وهكذا غدا لطفي المرشد والناصح الامين والرجل الذي ترك في هيكل اعظم ما يتركه انسان من أثر في آخر • لقد اجتذبته الافكار المتحررة فقرأ جون ستوارت ميل وهربرت سبنسر اللذين اثرا فيه كثيرا ، فأيد في اول مقال له في صحيفة «الجريدة» دعوة قاسم امين الى تحرير المرأة • وقرر بعد ان تخرج من مدرسة الحقوق في القاهرة في سنة ١٩٠٩ متابعة دراسة الحقوق في باريس بناء على اقتراح لطفي ايضا •

وفي فرنسا تلقحت افكار هيكل بقوة دافعة جديدة ، فقد وصل الى باريس عشية ١٤ تموز (يوليو) وهو يوم عيـد

فرنسا الوطني الذي يعرب فيه الفرنسيون عن فرحتهم الاجتماعية والعاطفية دونما قيد ولا حد • ويقول هيكل في مذكراته ان هذا الاعراب عن الحرية الفردية والوطنية بدا مليئا بالحياة امام عينيه اذ شاهد تجارب لم يشاهدها أبدا في بلده[٢] • واثبتت الحياة الباريسية لهيكل الآراء التي تحدث عنها نظريا لطفي السيد في القاهرة ، والتي بات في استطاعته ان يراها بأم عينه الآن ويلمس أمكانية ممارسة الحرية في جميع مرافق الحياة • لقد درس اللغة الفرنسية والفلسفة والآداب ، فتعلم بذلك اساليب النقد الادبي وتحليل المشاكل بصورة ايجابية ، كما تعلم وسائل البحث عن الحقيقة ، وخالجه الشك في معتقداته الدينية التي كان يراها ابدا امرا مفروغا منه ، كما دوّن ذلك في سطور لم تنشر من مذكراته ، واضحت نظرته الفكرية بعد ذلك اكثر علمانية، مع ان ايمانه بالله ظل قائما،رغم ما كان يراوده من شك بين حين وآخر • ووجد مصدر الهام كبير في كتابات جان جاك روسو الذي جمع بين القيم الروحية (التي رأى هيكل انها تحتوي روحا شرقية) وبين حب الحرية ، والذي وضع كتابا عنه في وقت لاحق •

وعلى الرغم من تشوق هيكل الى انتهال العلم ، وانجذابه الى بعض النشاط الثقافي والاجتماعي في باريس ، كان كثيرا ما يراوده الحنين الى الوطن وعلى الأخص الى الريف مسقط رأسه • الا انه وجد ما يفرّج عنه حنينه باشتراكه في

---

(٢) هيكل في «المذكرات» الجزء الاول ص ٤٠

الجمعية المصرية التي انشأها شبان مصريون كانوا يتلقون العلم في الخارج ، وفي حضوره مؤتمرا في بروكسل عقد برعاية الحزب الوطني المصري ، طرحت فيه القضية المصرية على بساط البحث . وكتب كذلك قصة بعنوان «زينب» وصف فيها الحياة في الريف خلال طفولته ، وقد اوحت له بكتابة هذه الرواية زيارته للريف الفرنسي ، ومطالعته الروايات الفرنسية التي يتجلى أثرها في حبك رواية «زينب» .

وفي سنة ١٩١١ عاد هيكل الى مصر لجمع المواد اللازمة لأطروحة الدكتوراه ، فطلب اليه في تلك الاثناء تولي رئاسة تحرير صحيفة «الجريدة» لان لطفي السيد اختلف مع زعماء «حزب الامة» بشأن ثلاث مقالات كتبها ونادى فيها بحياد مصر في الحرب الايطالية ـ التركية سنة ١٩١١ ـ ١٩١٢ . الا ان حسين هيكل وافق لطفي السيد على آرائه من حيث المبدأ ، ودافع عن حقه في التعبير عن آرائه ، ولكن مقالات هيكل التي ظهرت في «الجريدة» تميزت بعطف على الباب العالي احتراما منه للرأي العام ، فأعطى بذلك المثال المبكر على استعداده للتساهل امام الواقع . وفي سنة ١٩١٢ عاد الى باريس حيث نال درجته العلمية وكان موضوع اطروحته « الدَّيْن المصري العام » عزز ايمانه بحق مصر في الحرية الوطنية كما عمق في نفسه مشاعر الوطنية .

بعد ان اتم هيكل دراسته عاد ليمارس مهنة المحاماة في المنصورة ، احدى المدن الرئيسية في دلتا النيل الا انه لم ينقطع عن زيارة مصر ولا الكتابة في جريدة «الجريدة» . وان اتصاله الوثيق بلطفي السيد جعله يتابع معه باهتمام

كبير المناقشات المثيرة في المجلس التشريعي حول مسائل كانت موضع تعليق في «الجريدة» ، ذلك لأن لطفي وهيكل على السواء ، كانا يؤيدان انشاء مؤسسات نيابية تمثيلية • واستمر هيكل في اوقات فراغه يحاضر ويكتب في مواضيع تحررية ، ويبدو أنه كان قانعا بحياته كمحام ناجح ، وناقد مرموق ، مع انه لم تكن قد ظهرت بعد اية بوادر تشير الى انه سيكون الزعيم السياسي المرتجى •

وعندما اندلعت نار الحرب العالمية الاولى في سنة ١٩١٤ اعلن هيكل رأيه في موقف مصر من الحرب • ورأى ان مصر يجب ان تظل على الحياد ، حتى لو كانت تحت السيطرة البريطانية ، ذلك لأن الرأي العام كان يؤيد الباب العالي ويعادي بريطانيا • ولكن لطفي السيد الذي كان يحث حسين رشدي رئيس الوزراء وعدلي يكن وزير الخارجية على المطالبة بالاستقلال لقاء تأييد مصر لبريطانيا ضد الامبراطورية العثمانية ، اشار على هيكل بألا ينادي بالحياد الى ان تظهر على الاقل نتائج المفاوضات بين مصر وبريطانيا • وعندما رفضت بريطانيا اقتراح الاستقلال واعلنت الحماية على مصر في ١٨ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩١٤ راح هيكل ينشر مقالات في «الجريدة» يمكن تأويلها بمعاداة بريطانيا رغم استمرار لطفي السيد في التحذير من ان انتقاد بريطانيا ليس في مصلحة مصر[٣] • الا ان هذا الخلاف بين المعلم والتلميذ لم يؤثر في علاقتهما وظلا على وئام حتى

---

(٣) المرجع نفسه ص ٦٧ •

نهاية الحرب • وبعد ان عطلت «الجريدة» علق كلاهما نشاطه السياسي ، فاعتزل لطفي في منزله في الريف وعاد هيكل الى ممارسة مهنة المحاماة • وفي غضون ذلك بدأ يكتب عن حياة جان جاك روسو ، فنشر الجزء الاول في سنة ١٩٢١ والجزء الثاني في سنة ١٩٢٣ (وقد اعيد نشر هذين الجزئين وجزء ثالث في مجلد واحد سنة ١٩٥٦) ••

وما ان وضعت الحرب اوزارها حتى عاد هيكل ، فغزا معترك السياسة بتعاون وثيق مع لطفي ، وكانت آراؤهما في البدء واحدة بالنسبة الى حرية الصحافة واستقلالها ، غير انه لم يمض طويل وقت حتى بدأت آراء هيكل في الديموقراطية البرلمانية والرأي العام تختلف عن آراء لطفي• فبينما اكد هيكل ان القرارات الحاسمة يجب ان تكون من حق الشعب عبر ممثليه في البرلمان اعتبر لطفي النهج البرلماني مجرد وسيلة للحيلولة دون الحكم المطلق [٤] • واختلفت آراء هيكل ، الذي تأثر بجان جاك روسو ، في الملكية الفردية والمشاريع الحرة عن آراء لطفي • فرأى ان الملكية الفردية يجب ان لا تغفل العناية برفاهية الشعب وهو المبدأ الذي ايده لدى انضمامه الى الحزب الديموقراطي[٥] • اما آراؤه بالنسبة لما يتعلق بالحرية الوطنية والسيادة ، فكانت اكثر تطرفا من آراء لطفي ، اكتسبها من اشتراكه في نشاط

---

(٤)راجع الصفحة اعلاه « ومذكرات هيكل » الجزء الاول ص ٣٩ — ٤١ •

(٥) راجع مذكرات هيكل الجزء الاول من ص ٨٠ — ٨١ ومقدمة هيكل لكتاب جان جاك روسو من ص ٢٠ — ٢١ •

ابناء جيله من الشبان من جهة،ومن دراساته الخاصة للتاريخ المصري الحديث من جهة ثانية [٦] •

واختلف هيكل في مسألة اخرى مع معلمه • فلطفي رأى ان عصره عصر ترجمة للفكر الاوروبي لا عصر خلق وابداع، بينما جمع هيكل ، الذي اثبت انه كاتب قدير ، ما بين الكفاءة في النقل والابداع في الخلق • ولم يترجم هيكل مؤلفات الكتاب الغربيين ترجمة حرفية ، باستثناء مقالات قليلة ، ولكنه بث نتاج الفكر الاوروبي في كتبه ومقالاته ، موضحا بأنه كان يلخص آراء بعض مفكري الغرب او يتبناها مع ادخال تعديلات عليها ، الامر الذي يجعل من حقه ادعاء التأليف [٧] • لقد كان كاتبا مكثرا يتجلى في بعض مؤلفاته عن الحضارة المصرية ، عمق التبصر والقدرة على الابداع •

وبعد ان وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها تابع هيكل مرة اخرى ممارسة مهنة المحاماة في المنصورة مدة سنتين او ثلاث قبل أن ينغمس كلية في السياسة • وكان في اثناء اقامته في المنصورة يزور القاهرة بانتظام مرة كل اسبوع ليحاضر في الجامعة المصرية ، كما كان على اتصال دائم بأقرانه من الشبان الذين اسسوا الحزب الديموقراطي ،

---

(٦) مذكرات هيكل الجزء الاول من ص ٤٢ـ٤٣ و ٥٢ـ٥٤

(٧) راجع ترجمة هيكل لمقدمة ليفي برول لكتاب عن اوغيست كونت في «السياسة الاسبوعية» (القاهرة ٢ ايلول (سبتمبر) و ٩ ايلول (سبتمبر) ١٩٢٧ التي اعيد نشرها في كتاب هيكل «الايمان والمعرفة والفلسفة» (القاهرة ١٩٦٤) الفصل الثاني.

وبلطفي السيد الذي قدمه الى عدلي يكن وثروت ومحمد محمود الذين قيّض لهم ان يتزعموا في المستقبل حزب الاحرار الدستوريين ، كما قدمه الى غيرهم من رجال السياسة الذين شجعوه على الاشتراك في شؤون بلده السياسية . وهكذا دخل هيكل المحافل السياسية العليا حيث استقبل استقبالا طيبا ، فضلا عما كان يتمتع به من شهرة كبيرة بوصفه ناقدا معروفا وكاتبا مكثرا ، يكتب في الصحف عن قضايا الساعة ، وكلها مزايا جعلته يبدو شخصية لها مستقبل مرموق في عالم السياسة .

وفي ٢٨ شباط (فبراير) سنة ١٩٢٢ انتهت الحماية على مصر واعلن الاستقلال ، وعين ثروت ، الذي اصبح رئيسا للوزراء ، لجنة دستورية كان هيكل عضوا فيها لوضع مسودة الدستور . واتاح له العمل في هذه اللجنة مجال التعبير عن بعض آرائه في الديموقراطية البرلمانية وتبادل الافكار مع عدد من زعماء البلاد البارزين[٨] . واصبح في الوقت ذاته وبناء على توجيه من لطفي رئيسا لتحرير صحيفة « السياسة » الناطقة بلسان « حزب الاحرار الدستوريين » الذي كان قد تأسس حديثا . وقد ضم الحزب الذي كان برئاسة عدلي يكن ، ثروت ، الذي كان آنذاك رئيسا للوزراء ومحمد محمود واسماعيل صدقي وغيرهم ممن كانوا ينادون بديموقراطية برلمانية وانتخابات حرة . وبوصفه رئيسا للتحرير ، اظهر هيكل مواهبه في

---

(٨) للاطلاع على عمل هيكل في اللجنة الدستورية راجع مذكراته الجزء الاول الفصل الثالث .

كونه كاتبا له تأثيره وناطقا بلسان حزبه له قوته • واستمر في رئاسة التحرير زهاء خمس عشرة سنة ، حتى سنة ١٩٣٧، حين اصبح وزيرا في حكومة محمد محمود الزعيم الجديد لحزب الاحرار الدستوريين •

وقبل ان يصبح هيكل وزيرا ، تجلى دوره في الشؤون السياسية في مجالين مختلفين من النشاط وان بدوا متصلين• فبالاضافة الى توليه رئاسة تحرير «السياسة» الناطقة بلسان الحزب ، ترأس تحرير صحيفة «السياسة الاسبوعية» التي وقفت نفسها على المواضيع الادبية والثقافية • وكانت هذه الصحيفة الاسبوعية بمثابة منبر للمفكرين الاحرار ، حيث استحدث هيكل مع طه حسين ومجموعة اخرى من الكتاب اطلقوا على انفسهم لقب «المجددين» مدرسة فكرية جديدة تنادي بالعلمانية والتجديد ومعالجة القضايا بالنقد والتوجيه معالجة جديدة متصدين بذلك لمجموعة «القدماء» الذين كانوا يمثلون الفكر التقليدي[٩] • وكان منتظرا ان يؤثر «المجددون» باشراف هيكل وتوجيهه في الرأي العام فيؤيد حزب الاحرار الدستوريين • ثم نشر هيكل ، بصفته مؤلفا

---

(٩) لمعرفة دور هذه المجموعة وآرائها راجع كتابي «الاتجاهات السياسية في العالم العربي» (الدار المتحدة للنشر بيروت ١٩٧٢) ص ٢١٩ . لمعرفة آراء هيكل الادبية راجع الرسائل المتبادلة مع طه حسين في السياسة الاسبوعية (القاهرة) ٢٥ حزيران (يونيو) سنة ١٩٢٧ ص ١٠ـ١١ و ٢ تموز (يوليو) سنة ١٩٢٧ ص ١٠ـ١١ و ١٣ آب (اغسطس) سنة ١٩٢٧ ص ١٠ـ١١ .

ورئيس تحرير ، عددا من الكتب والمقالات تناولت مواضيع مختلفة كما انشأ لنفسه ـ خلافا للكتاب الاحرار الآخرين ـ مدرسة فكرية خاصة به [١٠] .

وبالاضافة الى ذلك لعب هيكل دورا في الشؤون السياسية عبر نشاط حزب الاحرار الدستوريين بصفته عضوا في الحزب وكاتبا . وحين تعرض الحزب لتحقيق رسمي تناول ميادين نشاطه دافع عنه واصبح ناطقا بلسانه في الاجتماعات مع زعماء الاحزاب الآخرين . ليس هذا وحسب بل ان كل ماكان يكتبه هو نفسه في مصلحة الحزب اصبح خاضعا للرقابة . لقد خدم هيكل الحزب في جميع ميادين النشاط بكل طاقته وباخلاص وتجرد فكري ، وكان ابدا مستقيما في آرائه واعماله بل كثيرا ما اضطر الى التهديد بالاستقالة مفضلا ذلك على المساس بمبادئه . واستطاع خلال السنوات العشر الاولى من عمله السياسي ، ان يحافظ على توازن نسبي بين معتقداته الشخصية والوسائل المتوافرة،ولعل كفة معتقداته الشخصية كانت الراجحة .

لكن هيكل بدأ بعد ما يقرب من عشر سنوات من النشاط

---

(١٠) نشر هيكل قبل ان يصبح وزيرا الكتب التالية : «زينب» (القاهرة ١٩١٤) «جان‌جاك روسو» (القاهرة ١٩٢١ـ ١٩٢٣) «في اوقات الفراغ» (القاهرة ١٩٢٣) . «عشرة ايام في السودان» (القاهرة ١٩٢٧) . «تراجم» (القاهرة ١٩٢٩). «ولدي» (القاهرة ١٩٣١) . «ثورة الادب» (القاهرة ١٩٣٣) . «حياة محمد» (القاهرة ١٩٣٥) «في منزل الوحي» (القاهرة ١٩٣٧) .

السياسي يحوّر بعض آرائه واهدافه . وليست التغييرات في وجهات نظر المرء امرا غير طبيعي ، انها كثيرا ما تعكس نضجا في التفكير وعمقا في الفهم كما يقول شيشرون . وخلال فترة قصيرة لم تتجاوز عشر سنوات ، انهمك في عدة نشاطات سياسية ، فعمل عضوا في اللجنة الدستورية التي شكلت سنة ١٩٢٣ ولعب دورا نشيطا في حزب الاحرار الدستوريين ، وترأس تحرير صحيفته كما شارك في نشاطات اخرى ، فروّج لمرشحي الحزب (ولنفسه ايضا) في الانتخابات العامة ، وكتب خطابات ومقالات كي يضمن فوز حزبه وتعزيز برنامجه الذي كا نينادي به ويؤيده . ولكن ثمرة جهوده ، والقضايا التي كافح في سبيلها لم تصمد دائما امام امتحان التجربة ، ودارت في ذهن هيكل عدة اسئلة : هل كانت آراؤه واهدافه مغلوطة من حيث المبدأ ، ام هل كانت تناقض الواقع ولا تنسجم معه ؟ ام كانت تسبق زمانها ؟ وبدأ هيكل يعيد النظر في تعديل وتجديد بعض اساليبه واهدافه .

هناك ثلاثة احداث رئيسية ربما اثرت الى حد بعيد في حياة هيكل،ويبدو ان هذه الاحداث حملته تدريجيا وبصورة لا شعورية تقريبا على تعديل أفكاره واساليبه الاساسية . الاول هو انه بعد اعلان دستور سنة ١٩٢٣ ، وتحديد موعد للانتخابات العامة ، بدأ حزب الاحرار الدستوريين وحزب الوفد على السواء يعدان للانتخابات المقبلة . وكان الاحرار الذين اسهموا الى حد بعيد في اقامة الديموقراطية البرلمانية يتوقعون بالطبع الفوز في هذه الانتخابات وتشكيل اول وزارة في ظل النظام الدستوري الجديد . ولكن بدلا من ذلك فاز

حزب الوفد بأكثرية ساحقة بفضل المبادىء التحررية التي تضمنها الدستور ، ومع ذلك فقد ندد حزب الوفد بدستور سنة ١٩٢٣ ووصفه بأنه يتنافى والمطالب الوطنية • ثم شن زعماء حزب الوفد حملة عنيفة على الاحرار بمن فيهم عدلي يكن وثروت ومحمد محمود محشوة بكلمات جارحة طعنت في نزاهتهم ووطنيتهم • وتضمن احد شعارات حزب الوفد العبارة التالية : «اننا نفضل الحماية (الاجنبية) بقيادة سعد زغلول (زعيم حزب الوفد) على الاستقلال بقيادة عدلي (زعيم الاحرار) • واثبت الوفد الذي فاز بأكثرية ١٩٥ مقعدا في مقابل ١٩ مقعدا للاحرار الدستوريين انه هو الذي افاد من المبادىء التي بذل هيكل والاحرار جهودا شاقة في سبيل تضمينها دستور سنة ١٩٢٣ • واظهرت تجارب هيكل في هذا الانتخاب وغيره من الانتخابات اللاحقة التي كان مصيره فيها الفشل ايضا ، ان البلاد وفق تقديره ، ليست مهيأة بعد للمبادىء والاهداف التي ينادي بها الاحرار الدستوريون•

اما الحدث الثاني فهو ان المنافسة بين الاحزاب اشتدت كثيرا بعد تحقيق الديموقراطية البرلمانية الى حد لم يكن فيه همّ الاحزاب وهدفهم بلوغ السلطة في البرلمان ، بل التنديد بخصومها واسقاطهم عبر الغوغائية والتحريض ، حتى لو كانت النتائج تناقض المصلحة العامة • وكثيرا ما انهمك الزعماء السياسيون في تبادل الشتائم والسباب والمهاترات ، متهمين بعضهم البعض بالخيانة والنفاق مما ادى الى زعزعة ثقة الناس بجميع الزعماء الى حد كبير • وبدأ هيكل يدرك ان النظام الحزبي ، كما بدا له خلال حياته على الاقل ،

لم يكن ملائما لخدمة مصالح البلد ، فراح يدعو الى التعاون ورصف القوى بين الاحزاب وعلى الاخص بين الكتل المنشقة، وعلى الرغم من استمراره في اخلاصه لحزبه حتى نهاية النظام القديم فانه فقد الثقة في النظام الحزبي وحاول السير وراء اهدافه بوسائل اخرى .

والحدث الثالث هو ان محمد محمود تجاهل دستور ١٩٢٣ عندما شكل حكومة في سنة ١٩٢٨ ، مع ان حزبه كان يدافع ابدا عن الدستور ، فعطل البرلمان مدة ثلاث سنوات حكم خلالها البلاد بمراسيم اشتراعية . وفي سنة ١٩٣٠ وعندما شكل اسماعيل صدقي ، وهو عضو سابق في حزب الاحرار الدستوريين ، الوزارة ، ابدل بدستور سنة ١٩٢٣ دستورا آخر منح الملك سلطات وامتيازات واسعة النطاق . وعلى الرغم من ان الاحرار ، يؤيدهم الوفديون ، انتقدوا عمل صدقي ودعوا الى اعادة دستور سنة ١٩٢٣ — وقد اعيد فعلا في سنة ١٩٣٦ — فان النظام الدستوري بكامله اصبح اسما دون مسمى .

ومن هنا كانت ثمة مبررات كثيرة امام هيكل لاعادة النظر في اهدافه وغاياته السياسية وتعديلها ، وفقا لحاجات بلاده العاجلة . وجاءت عملية التعديل بطيئة جدا وكانت التغييرات اكثر وضوحا في بعض الاهداف منها في اهداف اخرى . الا ان اكثر التغييرات عمقا كان موقفه من الدين ، بيد انه في الوقت ذاته عدل بعض آرائه السياسية ، وعلى الاخص ما تعلق منها بالانتخابات الحرة والنظام البرلماني . وبدأ يدرك ان بعض مثله العليا كانت مستحيلة التنفيذ، وانه

لا بد من تعديل يجري على المثل العليا الاخرى اذا اريد لها ان تتحقق •

وفي شهر كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٢٥ فقد هيكل ولده ، ويبدو ان هذا الحدث المفجع خلف حزنا عميقا في نفسه واثر في حياة اسرته ، فلم تستطع زوجته التغلب على الصدمة الا بعد عدة سنوات ، كما قام هو بثلاث رحلات الى اوروبا في محاولة منه لاسدال ستار على ذكرى ولده • ثم بدأ يجد تعزية في التأمل في الدين الذي لم يكن ليعيره التفاتا في الماضي قط [١١] • وفي سنة ١٩٢٦ كتب هيكل ثلاث مقالات في مجلة «السياسة الاسبوعية» من (١٢ حزيران (يونيو) الى ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٢٦) بعنوان «الدين والعلم» صرح فيها ان ليس هناك من نزاع جوهري بين العلم والدين اذا اخذ الدين على انه تحديد للمثل العليا وان العلم هو وصف للحقائق والامور الواقعية • ومضى يقول ، ليس من نزاع بين العلم والدين وانما النزاع هو بين رجال العلم ورجال الدين واشار الى ان هذا النزاع قائم منذ العصور القديمة[١٢] • والرأي القائل ان الخلاف بين الدين والعلم هو في الاساس خلاف بين اللاهوت والعلم ليس جديدا ، ولكن هيكل نقله الى مصر حين طبقه على الدين الاسلامي

---

(١١) دوّن تفصيل الرحلات الى اوروبا واثرها في السيدة هيكل في كتاب «ولدي» الذي قصد به تخليد ذكرى ابنه الذي فقده . ولاهمية الحادث راجع فتحي رضوان في كتاب «عصر ورجال» (القاهرة ١٩٦٧) من ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦ و ٥٢٠ ـ ٥٢٢

(١٢) اعيد طبع مقالات هيكل في كتاب «الايمان» ص٩ـ٤٠ .

متبعا بذلك الطريقة الحديثة لتفسير الاسلام التي سلكها الافغاني ومحمد عبده • وفي سنة ١٩٢٧ نشر هيكل مجموعة اخرى من المقالات عن المعتقدات الدينية كرر فيها الفكرة القائلة ان لا خلاف هناك بين العلم والدين • ولعل اهم ما في الموضوع انه بدأ الان يقول ان القيم الاخلاقية والروحية في حياة الامم اهم من الامور المادية • وقال انه ادرك هذه الحقيقة ادراكا تاما خلال احدى رحلاته الى « الاقصر » حيث شاهد معابد فراعنة مصر القدماء فاقتنع بأنه لا يمكن لأية حضارة ان تخلد الا اذا كانت تستند الى نوع من الايمان • ورأى ان الايمان بالنسبة الى الحضارة البازغة سيكون في المستقبل مزيجا من نتاج ما يكتشفه العلم والدين [١٣] •

ولكن هيكل ، لم يكن الوحيد الذي غير رأيه في الديموقراطية البرلمانية ، فقد سبق لزعماء حزب الاحرار الدستوريين ان توصلوا الى النتيجة القائلة بأن عليهم ان لا ينادوا بالحرية والديموقراطية البرلمانية قبل ان يرفعوا مستوى العيش ويحسنوا الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية وهكذا عندما شكل محمد محمود زعيم الاحرار حكومته في سنة ١٩٢٨ بدأ بتنفيذ برنامج لتحسين الاحوال المعيشية بما في ذلك انشاء الطرق والجسور وتجفيف المستنقعات بدلا من التركيز على حرية الصحافة وحرية الانتخابات • وراح هيكل من جانبه يزيد في انتقاد الخصوم متوسلا

(١٣) المصدر نفسه ص ٨٦ ــ ١١٤ .

بذلك الدفاع عن اعمال حزبه • وفي سنة ١٩٣٠ شن هيكل، يسانده كتاب آخرون ، حملة على حكومة صدقي • وفي الوقت ذاته كانت الصحف قد ذكرت ان مبشرين مسيحيين يحاولون اقناع بعض المسلمين باعتناق المسيحية واقترن اسم الجامعة الاميركية في القاهرة بهذا الموضوع واغتنمت صحف المعارضة الفرصة لتشن حملة على صدقي رئيس الوزراء ، الذي تلقى نفسه تعليمه ابان صغره في مدرسة يسوعية ، لأنه ابدى عزوفا عن القضاء على نشاط هؤلاء المبشرين ووضع حد لما زعم عن الارتداد عن الدين • وايد هيكل بصفته عضوا في لجنة تابعة لجماعة الاخوان المسلمين تألفت لمكافحة التبشير ونشاط المبشرين اقتراحا يدعو الى ممارسة ضغط على الحكومة لحملها على وقف هذا النشاط• ولكنه حاول ككاتب استخدام قلمه باسلوب ايجابي،لانقاذ الناس من الاستسلام للدعاية التبشيرية • وبدأ بنشر مقال في صحيفة «السياسة» عن حياة النبي محمد استمد مادته من كتاب وضعه اميل ديرمنغام ، وهو مستشرق فرنسي كتب باعجاب عن حياة محمد(١٤) • واستقبل المقال استقبالا حسنا في الاوساط الدينية،واشتدت المطالبة بكتابة مقالات أخرى عن الموضوع ، مما دعا هيكل الى دراسة المصادر الاصيلة عن حياة محمد التي شغلته طوال السنوات الاربع التالية • وفي سنة ١٩٣٥ طبع كتاب «حياة محمد» الذي كان اكثر كتبه رواجا (١٥) • وكان جزاء هيكل غير المنتظر

---

(١٤) راجع السياسة (القاهرة) ملفايلول(سبتمبر) ١٩٣٣
(١٥) هيكل «حياة محمد» (القاهرة ١٩٣٥) •

على هذا الكتاب ، التقدير المقرون بالاحترام فضلا عن العائدات المالية التي زادت على جميع ما ناله من مؤلفاته السابقة مجتمعة . وفي السنة التالية ادى هيكل فريضة الحج،وفي سنة ١٩٣٧ وضع كتابا ضمنه انطباعاته عن الزيارة الشريفة كما ضمنه تجاربه في مهد الاسلام [١٦] . وعلى الرغم من أن حياة هيكل الخاصة لم تتأثر بهذه الطقوس الدينية فان صورته المطبوعة في اذهان الناس اخذت تتغير تغيرا كبيرا . فبعد ان كان الداعية الى التفكير الحر اصبح المدافع المنافح عن الايمان . وليس من المبالغة ان يقال ان كتاب «حياة محمد» رفع مؤلفه الى منصب الوزارة ، الا ان هيكل كان قبل ذلك يتسلق معارج الارتقاء الى السلطة في هرم حزب الاحرار الدستوريين ، وكان الوقت قد حان لمكافأته بمنصب وزاري ، وجاء كتاب «حياة محمد» ليعزز مركز الحزب في الاوساط الدينية ويبرر المكافأة . ودفع النجاح الكبير الذي حققه هيكل في كتاباته عن الاسلام كتّابا آخرين من الشبان الى الاقتداء به ، مما اسهم الى حد بعيد في ايقاظ الروح الدينية على نطاق اوسع خلال الثلاثينات . واذا نظر المرء الآن في مؤلفات هيكل عن الاسلام مستعيدا احداث الماضي ، يجد انها لم تكن مجرد مبررات يدافع بها عن المحافظين التقليديين ، لأن كاتبها كان مجددا ، حاول فيها التوفيق بين العقل والايمان ، ونجح في ذلك الى حد بعيد . ولو ان هيكل استهل عمله الكتابي

---

(١٦) هيكل «في منزل الوحي» .

متناولا المواضيع الدينية لقال عنه المجددون انه دفع بأفكار محمد عبده خطوة الى الامام ولكن بما انه بدأ حياته مفكرا متحررا فان اهتمامه الجديد بالمواضيع الروحية والدينية لم يؤخذ على انه تغيُّر قلبي صادق ، وانما اعتبروه خطوة سياسية املتها عليه الظروف (١٧) .

وكان من ابتعاد هيكل عن الفكر المتحرر ، ان خلق ازمة في ضمير المفكرين الاحرار كما كان سببا في القضاء على الكثير من سحر العلمانية والتحررية . صحيح ان مفكرين احرار آخرين ، وعلى الاخص طه حسين ، بدأوا ينشرون ابحاثا عن الاسلام كانت تلقى رواجا كبيرا ، غير ان هذه الابحاث والدراسات ، لم يكن ينظر اليها نظرة الجد في الاوساط الدينية لأن احدا لم يكن ليصدق ان واضعيها كتبوها بوحي من ايمان صادق(١٨) . بيد ان دراسات هيكل ومؤلفاته استقبلت بتقدير كبير وحماسة فائقة ، بل ان هيكل نفسه ترك انطباعا يستشف منه انه كان يجد راحة نفسية في دفاعه عن المعتقدات والقيم الدينية .

---

(١٧) لمعرفة راي الكتاب المعاصرين في كتاب «حياة محمد» راجع السياسة ١٥ ايار (مايو) ١٩٣٥ وهي آراء اسهم بها اصدقاء هيكل والمعجبون به . راجع ايضا كتاب «مصر تبحث عن اسرة سياسية» بقلم ن. سفران (كامبردج مساتشوستس ١٩٦١) ص ١٦٩ ـ ١٧٥ . ولتقدير كتابات هيكل في الاسلام من جانب كاتب محافظ راجع رضوان في كتاب «عصر ورجال» ص ٥٩٢ ـ ٥٩٧ .

(١٨) راجع كتابي «الاتجاهات السياسية » ص ١٨٢-١٨٣ و ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

ولكن هل كان هيكل حقا يستشعر راحة في ضميره ، وهل كان يحترم المعتقدات الدينية في حياته الخاصة ؟..
ليس سرا ان نقول أن هيكل لم يكن يؤدي فريضة الصلاة اليومية او يصوم رمضان او يمارس الشعائر الدينية الاخرى ، واذا صلى فانما في المناسبات الرسمية حين يكون وزيرا . اما زياراته لمكة والمدينة فلم تخرج عن كونها مظهرا دينيا ، كان يدرك انه يمده بالاحترام والتقدير . وظل علمانيا في حياته الخاصة حتى مماته ، فكان يتردد على المسارح ويشارك مجالس الانس والشراب (الكوكتيل) ، بل انه كان يعاقر الخمر حتى عندما كان منكبا على تأليف كتابه «حياة محمد» ومؤلفاته الاخرى عن الاسلام .

لا بد ان يكون هيكل قد مر في قرارة نفسه بأزمة ضمير، قبل ان بدأ يتظاهر امام الناس بالخشوع والورع ؛ بينما هو في حياته الخاصة كان ينهج نهجا متناقضا كل التناقض ، على ان هذا التناقض لا يعني خلو حياة هيكل من المبادىء الاخلاقية ، لانه عند مقارنته ببعض السياسيين المحترفين فانه كان يتمتع بمستوى عال رفيع من الاستقامة والنزاهة ، كما كانت عنده المناعة ضد مغريات السياسة المادية او غيرها من مفاسد المهنة ، اما الدافع الى هذا الرياء ، فكان سياسيا خالصا لانه اراد ان يجلو صورته على احسن وجه في مجتمع متدين في أساسه ، ويربح تأييد الزعماء الدينيين ويستميلهم للوقوف الى جانب حزبه . اما مسلكه الشخصي فلم يكن موضع ريبة قط من حيث اتصاله بالامور الخلقية ، وان تحسسه بالعدل وولاءه للحزب واخلاصه لاصدقائه واحترام

آراء الآخرين كلها مزايا شخصية استحق من اجلها كـل احترام وتقدير [١٩] •

لقد استخدم هيكل قلمه كأداة طبيعية للسياسي المفكر ، الذي كان يفتقـر الى خصال معينـة يتمتع بها الساسـة المحترفون • ولو كان زعيما شعبيا في حزب الوفد ، الذي كان له نفوذ كبير في الجماهير ، لما شعر بالحاجة الى اثارة المشاعر الدينية لتحقيق أهداف ومطـامح • ولكن حزب الاحرار الدستوريين الذي التزم به هيكل كان حزب اقلية يحتاج الى التأييد القوي من قلمه بقدر مـا كان هيكل يحتاج الى ذلك القلم لتحقيق اهدافه • واذن لماذا انضم هيكل الى حزب الاحرار الدستوريين دون حزب الوفد ؟

لعل الامر الذي فرض على هيكل هذا الخيار ، ارتباطه في مطلع حياته بلطفي السيد الذي اوصى بتعيينه رئيسـا لتحرير صحيفة الاحرار • اما السبب في بقاء هيكل مرتبطا بالحزب ، فكان التزامه منذ البدء بمبادىء التحرر التي كان حزب الاحرار الدستوريين ينادي بها،ولما كان حزب الاحرار الدستوريين بمثابة خلف لحزب الامة الذي كان لطفي السيد

---

(١٩) كان هيكل حتى بالنسبة الى خصومه في المعـارك السياسية رزينا نزيها بعد المعركة . ومما يسجل له انه عندما دعي ليشهد ضد خصم سياسي له هو سراج الدين سكرتير حزب الوفد امام محكمة عسكرية في سنة ١٩٥٤ ادلى بشهادة دقيقة ونزيهة دون اي تجن ، على الرغم من ان خصمه كان مع آخرين وراء عملية فقدان هيكل منصب رئيس مجلس الشيوخ عندما شكل الوفد حكومة في سنة ١٩٥٠ .

يجتذب اليه المثقفين من الشبان قبل الحرب العالمية الاولى ، فقد اصبح كذلك حزب الطبقة المثقفة بعد تلك الحرب • والواقع ان الذين اسسوه كانوا من الساسة الاغنياء الذين يمثلون بيوتات أرستقراطية ، وكان بعضهم على جانب عظيم من الثقافة بفضل ما تلقوه من علوم في معاهد اوروبية • وكان لطفي السيد نفسه ، وهو محور المفكرين ، ينتمي الى عائلة ارستقراطية ، وبديهي اذن ان يؤيد بقوة حزب الاحرار الدستوريين كجهاز للفئة المثقفة والطبقة الارستقراطية على السواء • ولما كان هيكل تلميذا للطفي،ومثقفا ملتزما بالفكر التحرري ، فمن الطبيعي الا ينضم الى حزب الوفد ، وانما الى حزب الاحرار الدستوريين • فقد كان هذا الحزب هو الذي تبنى اعادة الدستور التحرري واعلانه ، كما كان الحزب الذي نادى بحرية الكلام وبانتخابات حرة وبمبادىء تحررية اخرى •

وعندما اصبح دستور سنة ١٩٢٣ نافذ المفعول ، كان حزب الوفد الذي كان يمثل العامة من الشعب هو المستفيد من هذا الدستور فدافع عنه ، بينما تجاهل زعماء الاحرار مبادئه عمليا ولم يأتوا الى الحكم نتيجة فوزهم في الانتخابات ، وانما نتيجة تحالفهم مع رجال البلاط الملكي وائتلافهم مع احزاب اخرى صغيرة • ولذلك فان محمد محمود عندما شكل حكومتين واحدة في سنة ١٩٢٨ والاخرى في سنة ١٩٣٧ عمد الى تعليق دستور سنة ١٩٢٣ واخذ يحكم وفق تدابير قمعية كي يحول دون حزب الوفد والوصول الى الحكم في انتخابات حرة او نتيجة ضغط

شعبي • وكان على هيكل ان يحزم امره ويقرر ما اذا كان مكانه مع الاحرار ومع الوفد • وجاء قراره مؤيدا وجهة النظر الاولى ، لانه كان يمقت المناورات الانتخابية والاختلاط بالشعب ، على اقل بالطريقة التي كان ينهجها زعماء الوفد ، ويفضل اساليب الارستقراطية التي يتبعها الاحرار الذين كان يشاركهم كثيرا من القيم بفضل نشأته وثقافته • ولذلك شعر بأنه ملزم باخضاع الاهداف للمصالح ، وبتكييف المثل العليا مع الواقع ، ما دام يبغي الاستمرار في اداء دوره في مجال السياسة •

وما ان حل منتصف الثلاثينات حتى غدا هيكل شخصية وطنية مرموقة ، يتمتع باحترام كبير كصحفي وكاتب كما اصبح له نفوذ كبير في حزب الاحرار الدستوريين ، ولذلك فان تسلمه سدة الوزارة كان مرتقبا في كل مرة يشكل فيها زعيم حزبه حكومة • وحلت اللحظة المناسبة حين شكل محمد محمود حكومة في سنة ١٩٣٧ اثر سقوط الوفد ، ومنذ ذلك الوقت والى ان استولى العسكريون على الحكم في سنة ١٩٥٢ كان هيكل قد اشترك في خمس وزارات شغل فيها منصب وزير المعارف ، بينها ثلاث مرات في وزارات شكلها محمد محمود ، ومرتين في وزارتين ائتلافيتين تعاون فيهما الاحرار والسعديون الذين انشقوا عن حزب الوفد • وبعد وفاة محمد محمود في سنة ١٩٤٢ اصبح هيكل زعيما لحزب الاحرار ورئيسا لمجلس الشيوخ من سنة ١٩٤٥ حتى سنة ١٩٥٠ • وكان على وشك أن يؤلف الحكومة حين اغتيل احمد ماهر رئيس الوزارة الائتلافية

التي تعاون فيها الاحرار والسعديون في سنة ١٩٤٥ • وبناء على نصيحة هيكل ، دعا الملك النقراشي ، وهو سعدي ، الى تشكيل حكومة جديدة ، أيدها هيكل على امل ان يخلف النقراشي في رئاسة الوزراء •

واستطاع هيكل عندما كان وزيرا للمعارف تحقيق الرقابة الادارية وتوزيع العمل وتنسيقه واستنباط سياسة عامة للدائرة التي ترأسها بكفاءة فائقة • واشرف كذلك على تحرير صحيفة «السياسة» وعلى شؤون الادارة واكتسب تقدير جميع الذين عملوا تحت ادارته • ورغم ان الساسة المحترفين في العالم العربي بل في بلدان أخرى كثيرة هم عرضة دائما لأن يسقطوا ضحية للرشوة والتحيز ، الا ان هيكل ظل يتمتع بالمناعة ضد امثال هذه المغريات على الرغم من انه كان يستسلم لضغوط في بعض الاحيان ، فينقل موظفا من مكان الى آخر لاعتبارات سياسية • ولقد اظهر بشكل عام مقدارا كبيرا من النزاهة واحتفظ بعلائق صحيحة سليمة مع مرؤوسيه ، اشاد بها الجميع ، حتى الناقدون •

لم يكن هيكل زعيما شعبيا ، كما انه لم يكن من السهل عليه الاختلاط بعامة الناس ، ولكنه استطاع أن يربح كثيرا من الاصدقاء الذين ايدوه كل التأييد وكان ، كرئيس لمجلس الشيوخ ، هادئا صريحا قوي الحجة ، ولكنه لم يكن خطيبا مفوها يستطيع السيطرة على الجمهور والتحكم به ، الا انه كان موضع أحترام كبير لما كان يتحلى به من اخلاص وشجاعة ادبية ودأب على العمل لا يعرف الكلل ، وهي صفات حببت فيه اتباعه ، الا انها لم تخلق منه زعيما شعبيا

يستطيع كسب اصوات لحزبه في انتخابات عامة • اما في عمله السياسي فقد بلغ اعلى منصب في حزبه ، ولكنه اخفق في ان يصل الى منصب رئيس الوزراء ، وهو كما يبدو كان اعز مطامحه وامانيه رغم انه صارح الملك فاروق مرة بقوله ، انه يفضل ان يمضي وقته في القراءة والكتابة ، على ان يكون رئيسا للوزراء [٢٠] • وعندما سنحت له الفرصة لان يوقف وقته كله على قلمه بعد الثورة ، احس بأنه كان مكرها على الانسحاب من المعترك السياسي قبل الاوان ، فلجأ الى القراءة والكتابة كوسيلة تعزية وحسب [٢١] •

وبعد الثورة طلب العسكريون الى زعماء الاحزاب الذين يريدون الاسهام في السياسة تطهير احزابهم من العناصر الفاسدة ، وهنا قام هيكل بمحاولة اخيرة للاشتراك في السياسة في ظل العهد الجديد،غير انه لم يمض وقت طويل، حتى اتضح ان العسكريين لا يعتزمون وضع السلطة في ايد مدنية وهنا بدأ هيكل يدرك ان الحكم البرلماني في ظل العهد القديم قد انتهى ، وان تطوير الديموقراطية البرلمانية الحقة كما كان يتخيلها ، لم يكن الا وهما • لقد تمكن بفضل ماضيه الناصع من الانسحاب من المعترك السياسي دون ان يمس بأذى او تلطخ سمعته ، بيد ان بعض زملائه من السياسيين المحترفين اعتقلوا او زج بهم في السجن ، بتهمة الفساد وغيرها من الاتهامات • ولا ريب في ان

---

(٢٠) راجع هيكل في المذكرات ــ الجزء الثاني ص ٣٢٩ ــ ٣٣٠ •

(٢١) راجع رضوان في «عصر ورجال» ص ٤٧٢ ــ ٤٧٣ •

انسحاب هيكل الالزامي من معترك السياسة كان خيبة امل كبيرة بالنسبة اليه ، ذلك لان ايا من اهدافه لم يحظ بقبول العسكريين ، وما ان الغيت جميع الاحزاب السياسية حتى تلاشى كل امل له في الاشتراك في السياسة ، وظل قلمه يعمل في ميدان التأليف وحسب ، حتى آخر نسمة من حياته ، حين قضى وهو في الثامنة والستين •

وسألت هيكل في حديث لي معه في سنة ١٩٥٥ ، أي قبل عام واحد من وفاته ، عن الاسباب التي يعتقد انها ادت الى فشل الديموقراطية البرلمانية في العهد الماضي ، فأجاب بأن مصر ، على الرغم من استقلالها ، لم تكن قط حرة بالمعنى الصحيح كي تطور نظاما ديموقراطيا صحيحا ، كما ان الضغط والتدخل الاجنبيين في الشؤون الداخلية حالا دون ترسيخ النظام البرلماني في البلاد • واضاف بأن النظام البرلماني ظهر في بلدان قطعت اشواطا كبيرة في مضمار التقدم • بيد ان بلدانا اخرى تبنته ولما تزل في وضع لا يسمح لها بممارسته قط • وكان على مصر ، رغم اختيارها تبني هذا النظام ان تعدل نظامها البرلماني قبل سنة ١٩٥٢ بمدة طويلة بحيث يتفق مع تقاليدها واوضاعها الاجتماعية الداخلية ، كما كان عليها كذلك ان تعدل نظامها البرلماني بوسائل السلم لا بوسائل العنف ، الى ان يصبح هذا النظام ملائما لمتطلباتها وتوقعاتها • وقال ، ان استبدال النظام العسكري بالنظام البرلماني لا يضمن انشاء نظام افضل ، وفي رأيه ان الديموقراطية هي افضل نظام حكم طوره الانسان حتى الآن ، واعرب عن امله بأن تتبنى مصر في

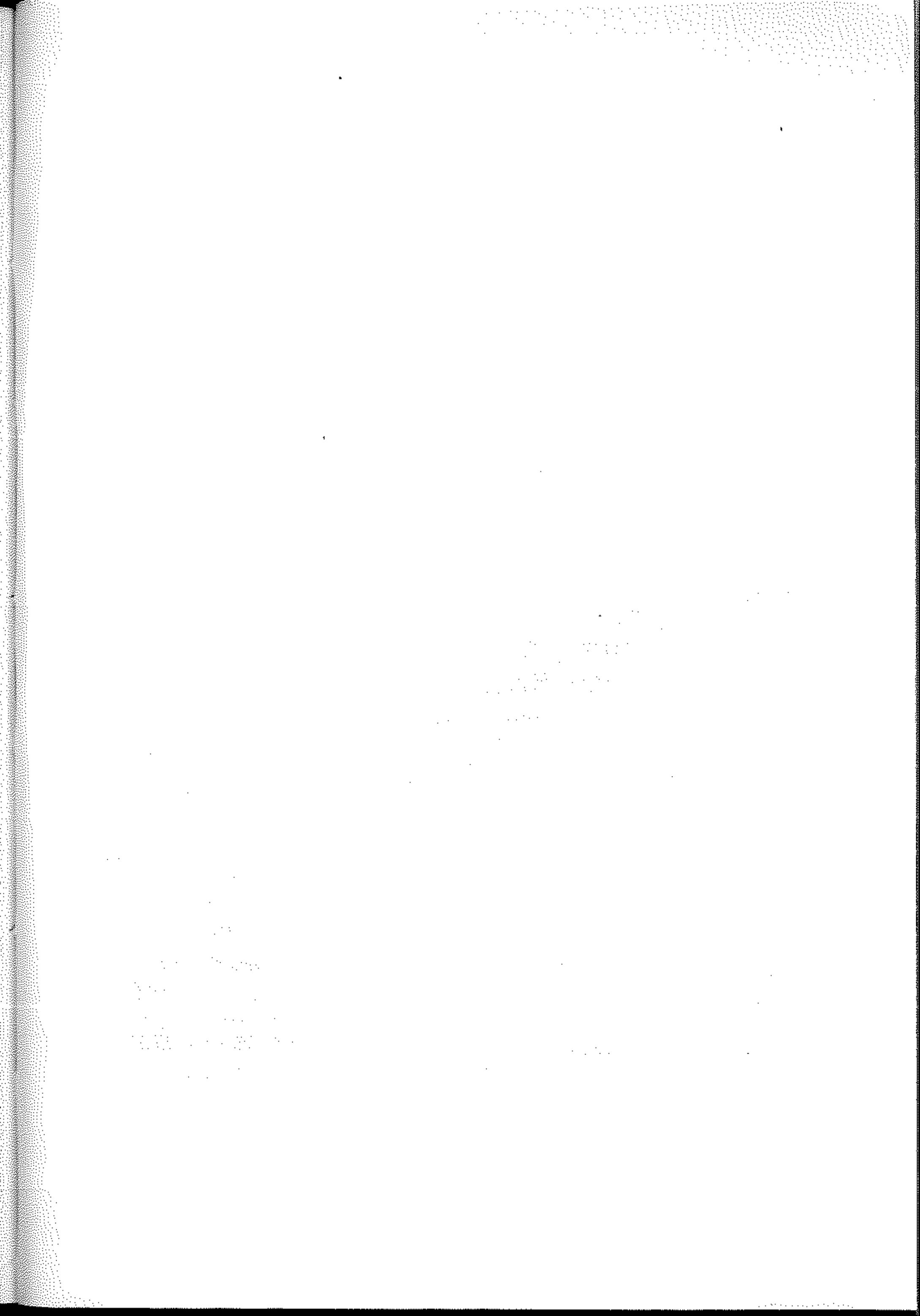
النهاية نظاما ديموقراطيا ، لانه السبيل الوحيد المأمون الى التقدم والاستقرار ، واردف بأنه لا يرى دليلا يشير الى ان الزعماء العسكريين يهيئون البلاد للديموقراطية ، وادرك انه اذا تعذر اقناع العسكريين او ارغامهم على نقل السلطة الى ايد مدنية ، فقد يمر وقت طويل قبل ان تعود مصر فتسلك الطريق الذي تنمو فيه المؤسسات السياسية طبيعيا .

لقد وقف هيكل منذ اعتزاله السياسة والى حين وفاته في سنة ١٩٥٦ معظم وقته على الكتابة والقاء المحاضرات في مصر وخارجها . فنشر الجزء الثاني من مذكراته السياسية ، ولكن الاجل وافاه قبل ان يتم الجزء الثالث . وكتب كذلك قصة طويلة اخرى بعنوان « هكذا خلقت » نشرت في سنة ١٩٥٥ وصف فيها تجارب دينية مرت بها امرأة عجوز تذكره بتجاربه نفسه . ونشر كذلك دراسات ثانوية قليلة في تاريخ الاسلام وحضارته لا يزال بعضها ناقصا [٢٢] . وادرك هيكل قبل وفاته بقليل ان خلوده قد يتوقف الى حد بعيد على مؤلفاته هذه ، وبعضها لا شك اسهم اسهاما له شأنه في الثقافة الحديثة لمصر، وحين يذكره قومه فسيذكرونه بالدرجة الاولى رجل قلم ، لا رجل سياسة [٢٣] .

---

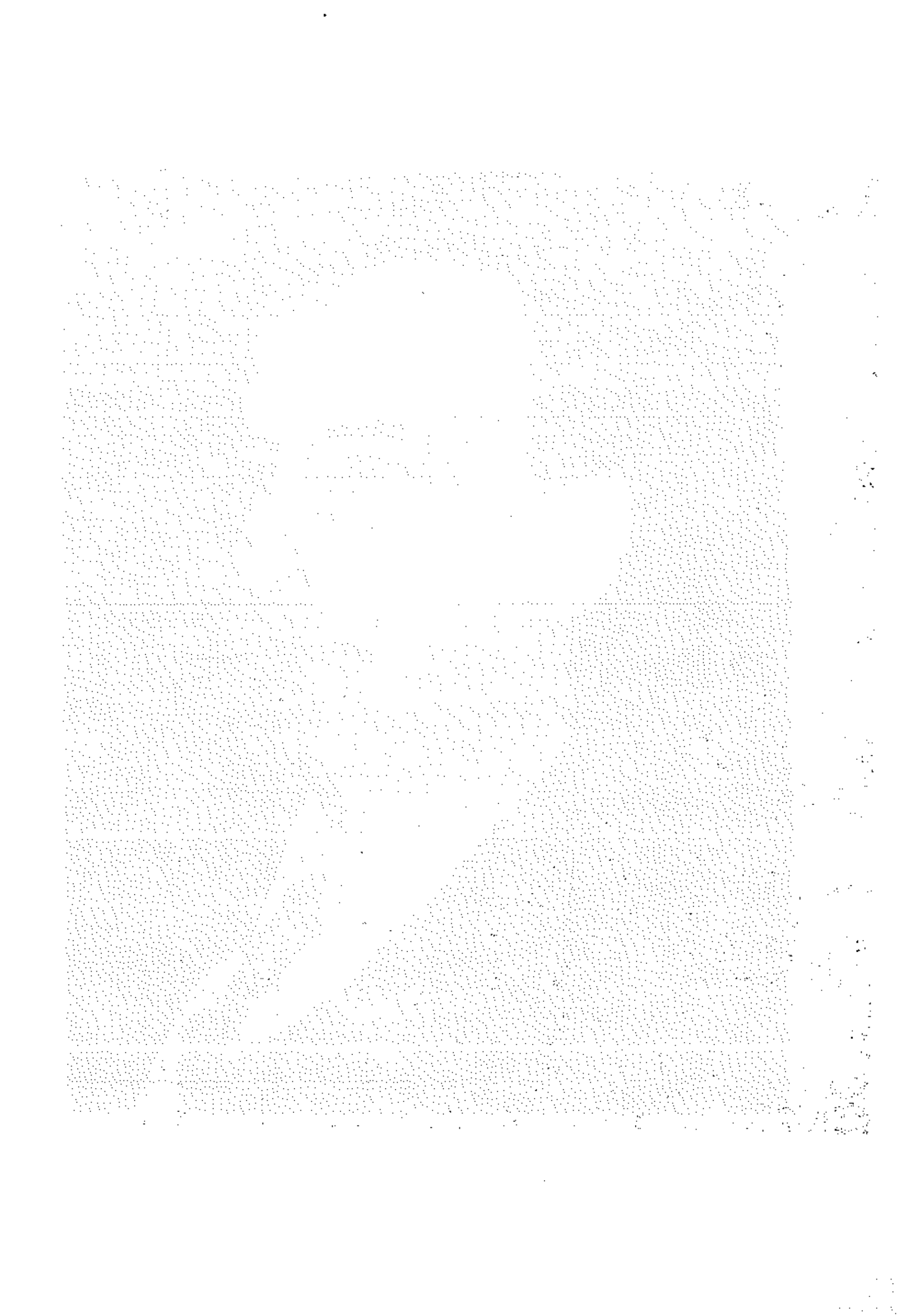
(٢٢) ينهمك الآن احمد نجل هيكل في جمع هذه المقالات التي سبق ان طبع بعضها .

(٢٣) تقديرا لهيكل واخلاصا له عمد زملاؤه واعضاء المجمع اللغوي العربي الى وضع ابحاث والقاء خطب عنه نشرت في مجلد بعنوان «الدكتور محمد حسين هيكل» ، اشرف على تحريره احمد لطفي السيد (القاهرة ١٩٥٨) ولمزيد من الدراسة النقدية راجع كتاب بابر جوهانسن «محمد حسين هيكل» (بيروت ١٩٦٧) .





ميشال عفلق



الفصل الثاني عشر

المدرسة العقائدية

ميشال عفلق

امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة

عفلق

نادى لطفي السيد وهيكل ، على الرغم من اختلاف الاسلوب ، بديموقراطية دستورية وبرلمانية ، وسعيا الى تحقيق أهدافهما بوسائل سلمية وتدريجية . وكان الاثنان يعارضان اللجوء الى العنف ، لأن هذا الاسلوب كان يناقض روح مبادئهما الاجتماعية والسياسية . ولكن ميشال عفلق، خلافا للطفي وهيكل ، تعمد تأييد وسائل العنف والثورة لأنه كان يشعر بأن مجال نجاح آهدافه الاجتماعية نادرا ما يتحقق الا اذا أطيح بأنظمة الحكم القديمة بانقلاب عسكري، ثم يتولى الحكم صفوة مختارة من الناس يعملون على تطوير أنظمة حكم جديدة وفقا لأفكار ومثل عليا جديدة . ومع ان عفلق لم يمنح موهبة الخطابة ، فانه راح يختلط بالجيل الطالع ، ويطيل الحديث مع جماهير الفتيان ويشترك في مظاهرات شارعية .

ترى، ما الذي أثر في عفلق فدفعه الى السير وراء اهداف واساليب تختلف جذريا عن اهداف واساليب لطفي السيد وهيكل، اللذين لم يكونا بالمعنى الصحيح للعبارة سياسيين مفكرين تقليديين ؟

ولد عفلق في سنة ١٩١٠ في عائلة ثرية نسبيا وان لم يكن ثراء حتى بالنسبة الى المقاييس المحلية • أما والده فكان تاجر حبوب، ودخله من تجارته كان في بعض الاحيان كبيرا ، الا ان هذا الدخل لم يكن كافيا لتأمين عيش العائلة بالمعنى الصحيح • أما من حيث الدين فهو ينتمي الى المذهب الارثوذكسي ، نشأ وترعرع في حي الميدان الذي يعتبر مركز الحركة الوطنية في دمشق ، وهاتان الحقيقتان امدّتا عفلق الشاب بتجارب مهدت له الطريق لخوض غمار السياسة صغيرا • وكان العرب يعتبرون الكنيسة الارثوذكسية كنيسة وطنية لا كنيسة مسكونية لما امتاز به ابناؤها من الاسهام في النشاط الوطني • ولم يشذّ والدا عفلق عن القاعدة فأبديا اهتماما كبيرا بالشؤون السياسية ، وأثر عن والده اشتراكه في نشاط وطني واعتقاله لمعارضته الانتداب الفرنسي على سوريا • وهكذا شب عفلق في عائلة كانت تعنى بالقضايا الوطنية وتتداول بالشؤون السياسية ، واذن لا بد من ان يكون عقله قد ازداد اتقادا بفعل الاضرابات السياسية والمظاهرات التي شاهدها عن كثب في الحي الذي كان يسكنه •

وفي المدرسة ، حيث تمتزج الوطنية عادة بالتعليم ، تلقى عفلق مزيدا من التثقيف السياسي قبل ان يسافر لمواصلة

دراسته في الخارج • ولما كان بطبيعته خجولا منطويا على نفسه ، فانه قل ان اشترك في أي من ميادين النشاط الاجتماعية ، ولكن مواهبه ومثابرته مكناه من الحصول على منحة دراسية حكومية في سنة ١٩٢٨ ، اتاحت له قضاء السنوات الاربع اللاحقة في باريس • وهناك في جامعة السوربون تخصص في التاريخ ، الا ان اهتمامه الشخصي شمل مواضيع عديدة ، وعلى الاخص الادب والفلسفة • ويظهر انه اولع كثيرا بأناتول فرانس واندريه جيد ، بيد انه تأثر بشكل خاص بماركس ونيتشيه كما قرأ لدوسيوفسكي وتولستوي وبيرغسون • ولقد فتنته آراء هؤلاء الكتاب كما فتنته كذلك اساليبهم الادبية • ومن اساليبهم المختلفة استنبط اسلوبه الخاص المليء بالحيوية ، وان تميز في بعض الاحيان بالتجريدية الرومنطيقية•ولكن وراء هذا الاهتمام بالادب والفلسفة تقبع روح جياشة وجدت التعبير عن ذاتها اول الامر في قصص قصيرة،ثم في خطب ودراسات سياسية•

بدأ عفلق الاشتراك في نشاط الطلاب السياسي حين كان في باريس حيث التقى طلابا عربا من بلدان اخرى شاركهم امانيهم الوطنية ، وظلاماتهم ضد الحكم الاجنبي ، وانشأ اتحادا للطلاب العرب ، ينادي باستقلال الوطن العربي ووحدته • وعلمته تجاربه مع الطلبة العرب ان المشكلات السياسية التي تعانيها بلاده هي في اساسها المشكلات التي تعاني منها بلدان عربية اخرى • واوحت له هذه التجارب ضرورة تنسيق اهداف كل بلد عربي ونشاطاته السياسية مع اهداف البلدان الاخرى ونشاطاتها السياسية • امـا

تعشقه الحرية ــ وكان في بعضه نتاج الفكر الفرنسي،وبعضه الآخر نتاج تجاربه الشخصية في احاديث مطولة مع غيره من الطلاب ــ فقد تطور الى مبدئين من المبادىء الاساسية لعقيدة البعث ــ حرية ووحدة عربية •

ولكن باريس تركت اثرا مهما آخر في عقل عفلق • فقد اغراه الشيوعيون ، حين كان لا يزال طالبا ، بحضور بعض اجتماعاتهم وبالتالي التعرف الى آثارهم الادبية • ومع انه لم ينتسب الى الحزب الشيوعي الا انه كما يبدو ، افتتن بماركس ، بل لعله غدا ماركسيا من الناحية النظرية لا العملية • واكثر من هذا كله تأثره بالانضباط والتماسك الشيوعي اللذين علماه عن كثب الاساليب العملية التي يتبعها حزب سياسي رائع التنظيم • وقد تكشفت هذه الاختبارات والتجارب عن قيمتها النفيسة عندما بدأ هو نفسه تنظيم حزب سياسي • لقد تقبل انتقاد ماركس للاوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، ولكن يبدو انه كانت لديه تحفظات فكرية معينة بالنسبة للطابع الدولي الذي يغلف النظرية الماركسية ، فقد بقي في قرارة نفسه قوميا متحمسا ، ولم يظهر قط انه كان نصيرا للشيوعية ، حتى بعد ان ايد الحزب الشيوعي لدى عودته الى سوريا[1] • ويبدو ان بعض وجهات النظر المتضاربة بين الماركسية

---

(١) اخبرني بعضهم ان تأييد عفلق للحزب الشيوعي في الثلاثينات ترك انطباعا بأنه كان نصيراً للشيوعية ولكنه لم يكن كذلك في قرارة نفسه .

والقومية اثارت قلقه قبل أن يقرز احتمال دمج العقيدتين في عقيدة واحدة هي الاشتراكية العربية •

بعد ان اتم عفلق دراسته التحق سنة ١٩٣٢ بمدرسة التجهيز في دمشق ، وهي احدى المدارس العليا في وطنه ، ليبدأ فيها مهنة التعليم • ومنذ ايام الدراسة انشأ علاقة شخصية وثيقة مع صلاح الدين البيطار ، الذي ينتمي الى اسرة مسلمة تميزت بالعلم وبميولها القومية ، والذي كثيرا ما بحث معه قضايا الساعة السياسية • وخلال السنوات الاربع التالية اعتنى هو والبيطار بمصادقة الطلاب والتداول معهم في شؤون سياسية ، وغدا هؤلاء الطلاب المؤيدين المرتقبين لحزب البعث القادم • وفي الوقت نفسه بدأ عفلق والبيطار بمصادقة الزعماء السياسيين المعروفين بآرائهم الوطنية الصريحة • ومهد لهما نشاطهما الوطني ذاك خارج قاعات التدريس دخولهما خضم السياسة في سنة ١٩٤٢ حين استقالا من مهنة التدريس احتجاجا على الاعتداء على حرية المعاهد العلمية ، لقد كانا في البدء ، حتى قبل استقالتهما ، على اتصال مع الفئات الوطنية ثم مع الفئات اليسارية ، ولكنهما في جميع تلك المساعي والمحاولات كانا يتحدثان بالنيابة عن الشباب ويسعيان للحصول على تأييدهم • وبدخول عفلق والبيطار معترك السياسة ازداد تورط الشبان في النشاط السياسي ، مع ان الكثيرين منهم كانوا قد انغمسوا في السياسة بتشربهم العقيدة القومية •

لم يقتصر نشاط عفلق والبيطار على الشبان وحدهم ، بل شاركا ، رغم عدم انضمامهما الى أي حزب وطني ، في نشاط

مثل هــذه الاحزاب وناصرا بشكل خــاص حزب الكتلــة الوطنية ــ الذي كان يضم سياسيــين تألقت أسماؤهم في حركة الاستقلال التي اعطت ثمارها خلال الحرب • وعــاد الاثنان الى نصرة الوطنيين في الانتخابات العامة سنة ١٩٤٣، وتقدم عفلق بترشيح نفسه للنيابة ففشل ، ولعل السبب في ذلك يعود الى عدم تأييد الزعماء الوطنيين له • ولم يمض طويل وقت حتى زايله وهم الافتتان بالوطنيين ، وبدأ ينتقد أساليبهم الباليــة • وفي سنة ١٩٤٧ سعى لتأييد الفئــات اليسارية في الانتخابات العامة ولكنه هو نفسه فشل مرة ثانية في الانتخابات ، ثم حاول مرة ثالثة خوضها في سنــة ١٩٤٩ مرشحا عن حزب البعث الذي كان قد اسسه من عهد قريب ولعل فشله هذه المرة سببه معارضة الحكومة تمثيل حزب البعث في البرلمان،على الرغم من انه كان وزيرا للتربية في الحكومة التي اشرفت على الانتخابات البرلمانية • وهكذا فان فشله ثلاث مرات في الانتخابات البرلمانية اثبت له عقم الوسائل الديموقراطية بتحقيق اهدافه ، مع ان سبب هزيمته في مرة او اثنتين كان تلاعبه بالانتخابات • وبعدها لم يرشح نفسه قط لأي مركز انتخابي بل راح علنا يحبذ استخدام العنف من اجل تحقيق تغيير اجتماعي وسياسي •

كان لا بد لعفلق ، نتيجة نشاطه السري ، من ان يتعرض للمزعجات المنغصات اذ لم يكن مستهجنا في البلدان العربية، ان يتعرض من يجهرون بانتقاد الحكومة،للابعاد او السجن• وعلى هذا فقد اعتقل عفلق عدة مرات،بيد ان جسمه الناحل لم يكن دائما ليقوى على تحمل المصاعب ــ والواقع ان

عفلق كان يعاني على الدوام من هذا المرض او ذاك ــ مما دفعه مرة الى توجيه رسالة الى حسني الزعيم ، الذي قام بأول انقلاب عسكري في سنة ١٩٤٩ ، يسترحمه ويطلب فيها منه العفو ، وأعدا بالانسحاب من الميدان السياسي(٢) خلافا لما يتمتع به الابطال الوطنيون من عزة وكبرياء وكرامة. ولم تكن هذه المرة الاولى التي يسجن فيها عفلق ، فقد سجن قبل ذلك مرتين ، الاولى سنة ١٩٣٩ والثانية سنة ١٩٤٨ ، الا ان السلطة كما قيل هددته هذه المرة بالتعذيب أو انها عذبته فعلا . لكنها لم تكن المرة الاخيرة التي سجن فيها عفلق ، فقد عاد وسجن فترات قصيرة في سنة ١٩٥٢ وسنة ١٩٥٤ في عهد الشيشكلي الدكتاتوري ، الذي ما ان اطيح به في سنة ١٩٥٤ حتى افرج عن عفلق ليخرج من السجن بطلا . لقد زادت هذه المحن والتجارب من مركز عفلق ومكانته لان النفي والسجن كانا يعتبران نوعا من الكفاح البطولي ضد الانظمة التي لا تتمتع بتأييد الشعب، وهو كفاح كثيرا ما اسهم ولو بصورة غير مباشرة بالاطاحة بتلك الانظمة .

لم يختبر عفلق الحكم الا مدة قصيرة حين دخل الوزارة

---

(٢) للاطلاع على نص رسالة عفلق للمشير الزعيم ، راجع كتاب محمود عبد الرحيم في كتاب «قيادة حزب البعث المرتدة» (القاهرة طبعة جديدة) ص ٦ ــ ٧ . اما في ما يتعلق باحتمال تزوير الرسالة او توقيعها من قبل عفلق تحت التهديد فراجع سامي الجندي في كتاب «البعث» (بيروت ١٩٧٠) ص ٥٤ــ٥٥

في سنة ١٩٤٩ ، ليبقى فيها مدة لم تتجاوز ثلاثة اشهر ، ادرك بعدها انه لم يخلق للمراكز التنفيذية ، وهكذا فانه لـم يشغل بعد ذلك أي منصب رسمي. ويبدو انه قرر في النهاية ان لا يتعـدى دوره في المجال السياسي اعداد الاهـداف وتزويد قادة الحزب بالنصح والتوجيه دون تحمل المسؤوليات المباشرة ، وبالتالي فقد آثر ان يدعى مؤسس حزب البعث وفيلسوفه وليس زعيمه ، مع انه اتضح في ما بعد انه لعب دورا اهم من دور الفيلسوف وحده ، اذ كثيرا ما تولـى رئاسة القيادة القومية عند غياب زعيم منفذ للحزب ، كما لعب دور الحكَم والمنسّق بين الزعماء المتنافسين ، تاركا تنفيذ برامج الحزب لأتباعه [٣] .

قبل ان بدأ عفلق يُعد اهداف حزبه وغاياته ، كان قـد امضى عدة اعوام خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها يتأمل ويدرس، كما كتب عدة مقالات شرح فيها افكاره وانطباعاته عن الشؤون الاجتماعية والسياسية آنذاك . اما بوصفـه كاتبا ، فقد انتهج أسلوبا ادبيا خاصـا به ، وكتب قصصا

---

(٣) كان عفلق يفضل ان يسمى رسميا الامين العام لحزب البعث ، وبصورة غير رسمية فيلسوف الحزب . وعلى الرغم من انه استحق اللقب الثاني فانه حاول ان يلعب دور زعيم الحزب وفيلسوفه في آن واحد ، ولكنه فشل في الدور الاول. وللاطلاع على نبذة موجزة عن حياة عفلق راجع مطاع الصفدي في كتاب «حزب البعث» (بيروت ١٩٦٤) وك.س. ابو جابر في كتاب «حزب البعث العربي الاشتراكي» (سرقوسه ١٩٦٦) الا انه حتى الان ، لم يوضع كتاب يتناول حياة عفلق بالنقـد والتحليل .

قصيرة انتقد فيها النظام الاجتماعي والمقاييس والتقاليد البالية . وكان محور هذه القصص في اكثرها يدور حول حياة الشبان الذين عانوا حالات من الشدة والتوتر تمخضت عن ثورة مفاجئة ، إما على البيروقراطية او التسلط العائلي او على تقصيرهم الذاتي وعلى حياة القحط والفراغ التي يعيشونها . فاذا ما تحرر هؤلاء الشبان من القيود التقليدية استطاعوا بدء حياة جديدة تحقق ما يصبون اليه من امنيات . ووصف عفلق في جميع هذه القصص ، عقم الاساليب البالية الرتيبة التي قد تتسبب دائما في خلق حالات من التوتر والبلبلة في المجتمع العربي ، كما نادى بضرورة تحقيق تغيير جذري في حياة الانسان عبر عملية ثورية لا عبر عملية التطور والارتقاء [٤] .

نشر عفلق في الوقت ذاته مقالات ورسائل انتقد فيها بصورة خاصة الحرمان والفقر والبؤس ، ودعا الى تبني الاشتراكية كعلاج ناجع لهذه الامراض الاجتماعية . بيد انه يقول ، ليس القصد من الاشتراكية تلبية الحاجات المادية وحدها ، لأن تلبيتها امر مفروغ منه . واخذ ينادي بنوع من الاشتراكية تهتم بالقيم الروحية قبل اهتمامها بأي شيء آخر . وفي رأيه ان مثل هذه الاشتراكية لا تدعو الى الاسراع

---

(٤) نشرت معظم قصص عفلق في صحيفة الايام وفي مجلة «الطليعة» الدمشقيتين . وللاطلاع على موجز لهذه القصة راجع شاكر مصطفى في كتاب «محاضرات عن القصة في سوريا» (القاهرة ١٩٥٨) ص ٣٠٥ وما بعدها .

في الانتاج وحسب ، بل الى اشباع الحياة وتثميرها • وقد تناول هذا الموضوع في كثير من مقالاته التي كان ينشرها هنا وهناك في الصحف والمجلات [٥] •

تميزت كتابات عفلق الاولى ، سواء المقالات والرسائل ام القصص القصيرة بكونها وصفا للبؤس والتناقضات الداخلية للحياة الاجتماعيـة وتحليلا انتقاديا للقوى التي ولـّدت هذه التناقضات وذلك البؤس • وقال مرة : « لا يقدر على تفهم شكاوانا الا اولئك الذين مروا بالتجارب التي مررنا بها ذاتها • ولا يستطيع انقاذ الفرد من الشـدة والحرمان الا تغيير أسلوب الحياة التقليدي واقتلاعه من جذوره » • وقال ان الطريق الى هذا التغيير الجذري لا يكون الا من خلال ثورة تحقق نمطا جديدا للعيش ، هـو الاشتراكية العربية •

لقد عرضت للقارىء في كتاب آخر نقدا لآراء عفلق في الاشتراكية العربية التي هي خليط من الوطنية والاشتراكية والديموقراطية [٦] • الا اننا لا نخرج عن الموضوع اذا قلنا كلمة في الاهمية النسبية لهذه العناصر الثلاثة التي تؤلف في نظر عفلق ، الاشتراكية العربية • سألت عفلق في حديث

---

(٥) ميشال عفلق في كتاب «ثروة الحياة» مجلة الطليعة (دمشق) الجزء الثاني (حزيران (يونيو) ١٩٣٦) . للاطلاع على موجز راجع شاكر مصطفى في كتاب «محاضرات» ص ٣٠٨ .

(٦) راجع كتابي «الاتجاهات السياسية في العالم العربي» (الدار المتحدة للنشر ، بيروت ١٩٧٢) ص ١٦٥ ــ ١٧١ و ٢٠٦ ــ ٢١٠ .

معه ما هي الصلة بين الوطنية والاشتراكية في رأيه ؟ فأجاب: ان الاشتراكية في محاولتها تحرير الفرد من الحرمان ، ليست الا الوسيلة ، بيد ان القومية ، في تطبيقها القيم الروحية ، هي الغاية . ثم اردف قائلا ، لكن الديموقراطية ، بوصفها شكلا من أشكال الحكومة ، لا يمكن توطيدها الا بعد ان يصبح المجتمع اشتراكيا . اما القومية ، ولأمور قاهرة ، فتأتي في المرتبة الثالثة ، ذلك لان التطور الاجتماعي يجب اولا ان يتم من خلال الثورة قبل ان يصبح في الامكان اجراء تغييرات سلمية بالوسائل الديموقراطية .

الا ان القومية هي المبدأ الذي يحتل المرتبة الاولى في مخطط عفلق ، فهي « مصير » الحياة العربية اليوم ، وغايتها استعادة مكانة العرب ادبيا وماديا ، بحيث يحتلون المركز اللائق بهم بين دول العالم . واول ما يجب عمله بالنسبة للامة العربية الممزقة المنحلة ، هو اعادة احيائها وتوحيدها بحيث تكوّن او تعيد تكوين أمة بالمعنى الحديث للكلمة . ولذلك فان الاشتراكية والوحدة العربية ــ حركة توحيد العرب في امة واحدة ــ هما الوسيلتان المباشرتان اللتان قد يلعب العرب من خلالهما دورهم كأمة عظيمة في الهرم القومي .

لقد صيغت آراء عفلق ــ أي ايديولوجية البعث في مجملها ــ بعبارات غامضة مجردة ، تلقى من حيث المبدأ ، قبولا لدى الشبان الذين تشربوا المثالية ، بيد ان هذه الآراء لم تنشر قط كبرنامج حزبي . قد يكون عفلق على حق عندما قال انه بوصفه فيلسوف الحزب ، وضع المبادىء العامة وحسب ــ الاطار العقائدي لبرنامج الحزب ــ وان

من واجب قادة الحزب وضع برنامج مفصل • كانت القيادة القومية وقوامها ممثلون من مختلف القيادات القطرية ، قد تشكلت اصلا لاعداد الاهداف ، ووضع الاستراتيجية والخطوط التوجيهية العامة • لكن ما دام عفلق هو رئيس القيادة القومية وما دام منهمكا الى حد بعيد في قيادة الحزب، فليس هناك ما يحول دون اعتباره مسؤولا عن الفشل في وضع برنامج مفصل • وكانت النتيجة نزاعا شق الحزب الى احزاب راح كل منها يقدم تفسيره الخاص للمبادىء العامة • وهكذا لم يعد حزب البعث اليوم حزبا واحدا •

ترى ماذا كان دور عفلق كسياسي مفكر ؟

بدأ عفلق نشاطه السياسي بالقاء محاضرات على طلابه تناول فيها المبادىء الاجتماعية والسياسية• فلما كان استاذا كان يتحدث اليهم في المدرسة ، ولما استقال اخذ يتحدث اليهم في منزله وحيثما تيسرت له اماكن الاجتماعات • وكان الطلبة العرب في سوريا وغيرها قد انغمسوا في السياسة الى حد بعيد وعلى الاخص بعد الحرب العالمية الثانية ، وأبدوا رغبة في سماع الفئات الايديولوجية التي كانت تتصل بهم ليضمنوا مساعدتهم في تنظيم الاضرابات والتظاهرات الشارعية • وبوصفه مفكرا ، وجد عفلق في رفقة الطلبة ما يوافق هواه ، لما لمسه فيهم من اندفاع لم يستنكفوا معه الجلوس عند قدميه والاستماع بشغف الى شرح مفصل وواضح لأفكاره وآرائه الشخصية عن اوضاع بلدهم • الا انه لم يكن متحدثا طلق اللسان ، بل كثيرا ما يتوقف متأنيا قبل ان يتم جملته ، ولكن هذا لا يمنع من القول بأنه عندما يعبر عن آرائه فانه ينتقي كلماته ويختار جملا قصيرة

مقتضبة تحمل في طياتها معاني الحزم والاقناع • وكثيرا ما يتحدث كما يتحدث الاستاذ ، والقوم من حوله صاغون كأنما هم طلبة على مقاعد الدراسة • ولا يفتأ التلاميذ ان يحملوا كلمات معلمهم لينشروها بين عدد اكبر من السامعين، ثم اخيرا بين الجماهير • لقد لعب الطلاب والشبان الذين يشكلون نواة انصاره ، دور الطليعة في حركته السياسية • والواقع ان قوته السياسية اعتمدت على هؤلاء متخذة منهم وسائل لنشر آرائه السياسية •

وبوصفه مفكراً مسيحيا ، لم يستطع عفلق التأثير الا في الشبان المسلمين الذين طغى ولاؤهم للوطن على ولائهم للدين ، اما الكهول ، الذين لا يزال المقام الاول عندهم للدين ، فان تأثرهم بهذه الآراء لم يكن سهلا ، رغم تودد عفلق للاسلام والاشادة به على انه عنصر روحي لا غنى للقومية العربية عنه • كذلك لم يكن عفلق الخطيب المفوه الذي يستطيع بفصاحته وتدفقه ان يؤثر في الجمهور ويلهب مشاعره ، كما كان يفعل فارس الخوري الزعيم المسيحي الذي اصبح رئيسا للوزراء بعد الحرب العالمية الثانية • كان عفلق بطبيعته انسانا انعزاليا منطويا على نفسه ، اذا تحدث فانما الى فئات قليلة ، واذا مارس السلطة والنفوذ فمن وراء ستار،مع انه حاول اول الامر ان يشترك في اكثر من مظاهرة شارعية • وبعد ان تأسس حزب البعث اخذ عفلق يعتمد على بعض الاعضاء وخاصة البيطار الذي كثيرا ما تولى زعامة الحزب عند القيام بالاعمال التنفيذية وغيرها من المهمات • ولكن لا البيطار ولا غيره من بقية الاعضاء كان

يتمتع بالمزايا والمؤهلات التي تتطلبها الزعامة ، وعلى الاخص تلك التي تجتذب بالناس • وهكذا ظل عفلق يؤدي دور «الزعيم الروحي» بينما قلة من الاعضاء الذين كان يوجههم ويرشدهم بلغوا مرتبة المفوضين المسؤولين في مختلف ميادين العمل الحزبي • وبعد تأسيس حزب البعث رسميا في سنة ١٩٤٧ حاول عفلق ضبط الحزب عبر مبدأ القيادة الجماعية • ويتجسد هذا المبدأ في قيادة قومية مؤلفة من ممثلين عن بلدان عربية مختلفة ، تشرف على كل واحدة فيها قيادة قطرية [٧] • وعمل عفلق اسميا امينا عاما للقيادة القومية ، ولكنه في الواقع فشل في السيطرة الحقيقية على الحزب عندما نشبت الخلافات بين زعمائه • وبرغم إحكام تركيب القيادة المركزية ، فانها كانت تفتقر الى التماسك والتنسيق الفعال •

وفي اوائل سنة ١٩٥٤ اندمج حزب البعث في الحزب الاشتراكي ، الذي كان يتزعمه اكرم الحوراني الشاب السياسي المحترف ، غير ان الحوراني ، برغم نشاطه وقدرته على الخطابة ، لم يستطع فرض احترامه على زعماء الحزب البعث ، ولذلك بقي الحزب مفتقرا الى قيادة فعالة • الا ان هذا النمط من القيادة التي تجتذب الجماهير والتي كان حزب البعث في حاجة اليها لاثارة الشبان العرب ، نبتت في مكان آخر — في وادي النيل ، حيث اطل جمال عبد الناصر بطلا شعبيا في اعقاب صفقة الاسلحة الناجحة التي عقدها مع

(٧) المصدر نفسه ص ١٦٩ — ١٧٠ •

الاتحاد السوفياتي في سنة ١٩٥٥ • وتعززت مكانته عندما أمم قناة السويس وعندما قاوم الهجوم الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ • ورأى عفلق في عبد الناصر الزعيم المنشود الذي يفتقر اليه حزبه ــ رأى فيه رجلا يتمتع بمزايا الزعامة وبموهبة اجتذاب الجماهير • كما رأى ان الاتحاد بين عبد الناصر وحزب البعث سيمنح الامة العربية بما هي في امس الحاجة اليه ــ بحزب عقائدي يتمتع بقيادة فعالة • اما عفلق فكان يتمنى ان يظل يلعب دور فيلسوف الحزب وحكيمه •

وتم هذا الاتحاد في سنة ١٩٥٨ • واسهم زعماء حزب البعث الى حد بعيد في تحقيق الوحدة السورية ــ المصرية[٨] • ولكن التجربة ، خلافا لكل التوقعات ، جاءت كارثة حلت بحزبهم • فعبد الناصر ، الذي تعاون في البدء مع الزعماء البعثيين ، لم يبال في قليل او كثير بايديولوجيتهم • ويبدو ان اهتمامه بالبعث لم يتجاوز كونه وسيلة للسيطرة على سوريا • وهكذا انقلب بعض زعماء البعث ، وعلى الاخص البيطار والحوراني على عبد الناصر ، وايدوا انفصال سوريا عن مصر في سنة ١٩٦١ • لقد تسببت هذه الحركة ، التي يبدو ان الاكثرية عارضتها ، في انقسام خطير بين زعماء الحزب ، لم يتمكن عفلق من الحيلولة دون وقوعه او ترميمه • وهكذا فقد عفلق السيطرة على هؤلاء الزعماء

(٨) دراسة تأسيس الجمهورية العربية المتحدة وانحلالها هو موضوع اطروحة للدكتوراه يعدها روبرت ميرتز في معهد جون هوبكنز للدراسات الدولية العالمية •

وظل الانقسام في الحزب قائما [٩] • واليوم اخذ كل جناح بما فيه جناح عفلق نفسه يدعي بأنه يمثل المبادىء الحقيقية للايديولوجية البعثية ، كما ان بعض اعضاء الحزب تخلوا عنه بحجة ان عبد الناصر لم يعد يثق بحزب البعث • واثبت عفلق في عجزه عن مزاولة قيادة فعالة ، انـه لم يكن موطن الضعف الرئيسي في الحزب وحسب ، بل الصخرة التي تحطم عليها كيان الحزب كله • وهكذا لم يعد حزب البعث اليوم حزبا واحدا ، بل بات عدة مجموعات متنافسة •

وفي سنة ١٩٦٤ وبعد ان فقد كل سيطرة على الحزب غادر عفلق سوريا الى اوروبا اولا ، ثم عاد الى سوريا في زيارة قصيرة تخلى فيها عن منصبه كأمين عام لمنيف الرزاز ثم سافر الى البرازيل ليعيش هناك مع أقاربه نحو سنتين• ولما نشبت الحرب العربية الاسرائيلية في حزيران (يونيو) سنة ١٩٦٧ كان عفلق لا يزال في البرازيل ، وعلى الرغم من الهزيمة في الحرب ، ظل الضبـاط العسكريون يسيطرون على حزب البعث ، مع أن القيادة ظل يتناولها الضبـاط العسكريون ضابطا عن ضابط • ولما كان القادة المدنيون لا تستهويهم

---

(٩) وقعت الانقسامات الرئيسية في سنة ١٩٥٩ وسنـة ١٩٦١ . فقد استقال اولا عبد الله الريماوي ثم فؤاد الركابي لينظما فئات وطنية اشتراكية مستقلة بزعامة عبد الناصر . وفي سنة ١٩٦٢ استقال اكرم الحوراني لينظم حزبه الاشتراكي، وفي سنة ١٩٦٤ استقال علي صالح السعدي ، لينظم جماعته الثورية الراديكالية راجع «الاتجاهات السياسية» ص ١٨٢ — ١٨٦ .

السيطرة العسكرية على الحزب ، اخذ فريق منهم ينسحب وفريق توقف عن تأييده له •

لقد قيل ان الاذلال الذي لحق بسوريا خلال حرب الايام الستة كان سببه فشل العسكريين في الصمود امام التحدي وفي القرارات التي اتخذت باسم حزب البعث دون موافقة القادة المدنيين واستشارتهم ، وهكـذا أحست القيـادات القطرية في البلدان العربية بأنها مرغمة على العمل كل على حدة ، مما زاد في الشعور بضرورة اعـادة تعيين عفلق في منصب القيادة الذي كان يحتله في السابق • الا ان عفلق لم يبد رغبة في ترك البرازيل الا بعد ان استولى قادة البعث العراقي على السلطة في سنة ١٩٦٨ وراحوا يحثون البعثيين في البلدان الاخرى على الاعتراف بسلطة عفلق على القيادة القوميـة •

اخذ عفلق وهو لما يزل في البرازيل يعد العدة للرجوع الى قيادة الحزب • اما هزيمة العرب في سنة ١٩٦٧ والتي يُعتبر الزعماء البعثيون مسؤولين عنها الى حد ما فقد هزت كيان عفلق هزا ، ورأى بأن واجبه يحتم عليه احياء الثقة في نفوس التابعين والمريدين وحثهم على استئناف الكفاح وازالة آثار الهزيمة • وفي حزيران (يونيو) سنة ١٩٦٧ وبعد حرب الايام الستة مباشرة بعث برسالة الى احد اتباعه يقول فيها :

« آن نقطة البداية في تصحيح آثار المرحلة السابقة ، كما يبدو لي ، هي نفسها نقطة بداية العمل قبـل ربع قرن : الرجوع الى ينبوع القوة الحقيقي الرجوع الى الشعب ومصارحته بالحقائق وتحميله مسؤولية النضال والعمل معه

جنبا الى جنب • مصارحته بالحقائق وان كان بعضها يشكل نقدا محرجا للحزب » •

« ان هذا اللقاء الصريح مع الشعب ، ومع فئاته الوطنية التقدمية ، ان هذا الانفتاح يشكل بالنسبة الى الحزب اكثر من اتجاه في ممارسة الديموقراطية الشعبية كمبدأ يؤمن به الحزب • انه سبيل الخلاص من التفرد والعزلة والتقوقع وسياسة التنافس السلبي التي تطبع المرحلة السابقة للنكبة » [١٠] •

حاول عفلق في هذه الرسالة وفي غيرها من الرسائل الرجوع الى اعضاء البعث متجاهلا قادته ، وعلى الاخص اولئك الذين كانوا يمارسون الحكم في سوريا ، بغية احياء النشاط البعثي على الصعيد الشعبي • وبعد ان استولى القادة البعثيون العراقيون على الحكم في شهر تموز(يوليو) سنة ١٩٦٨ عاد عفلق الى العالم العربي ، ولعل ذلك كان بناء على دعوة من الرئيس العراقي احمد حسن البكر ، ليتولى منصب الامين العام للحزب[١١] •وانهمك عفلق منذ عودته ،

---

(١٠) ميشال عفلق في «نقطة البداية : احاديث بعد الخامس من حزيران (يونيو) » (بيروت (١٩٧١) ص ٤١ — ٤٢ .

(١١) في شهر حزيران (يونيو) سنة ١٩٦٨ وخلال زيارتي للعراق اسعدني الاجتماع الى بعض الزعماء البعثيين بمن فيهم احمد حسن البكر الذين كانوا حينذاك منهمكين في الاعداد لانقلاب عسكري اوصلهم الى الحكم في الشهر التالي . وقد ذكرت اسم عفلق خلال حديث لي مع البكر فقال انه يأمل ان يوجه اليه قريبا دعوة لزيارة بغداد .

في النشاط السياسي وحاول اجتذاب تأييد القوى الشعبية للوقوف الى جانب الزعماء العراقيين ، مما اثار عليه حفيظة الزعماء البعثيين السوريين وغضبهم الى حد الحكم عليه غيابيا بالاعدام في سنة ١٩٧١ .

كان عفلق خلال سنوات تكوين الحزب ، يلتفت الى الشبان بصفتهم «طليعة» حركة البعث ، اما الآن فقد اخذ يلتفت كذلك الى العمال بصفتهم الطبقة الكادحة في المجتمع مذكرا اياهم بأن الازمة التي يمر بها العالم العربي من اخطر الازمات ، اذ انها كفاح من اجل الحياة او الموت (١٢) . وقال ايضا ، يجدر بالبعثيين ان يثبتوا انهم قادرون على التحدي وان باستطاعتهم وبتأييد من الشعب ، تحويل الهزيمة الى نصر (١٣) . كما دعا الى التعاون مع الماركسيين وغيرهم من الفئات اليسارية ، وحذر من الوقوف موقف العداء من الاتحاد السوفياتي ، لانه اليوم النصير الاكبر للقوى الاشتراكية التقدمية ، واعظم مؤيد للعرب منذ حرب الايام الستة (١٤) . لقد كرر عفلق في جميع هذه النداءات وبكل حزم انتصار المبادىء القومية للحرية والاشتراكية والديموقراطية ، وزاد بأن العرب اليوم في حاجة ماسة الى هذه المبادىء مع مظاهرها الدكتاتورية اكثر منهم اليها في أي وقت مضى ، وعلى الاخص حاجتهم الى الوحدة القومية التي يجب تحقيقها بالاساليب الثورية . وكثيرا ما ردد قوله

---

(١٢) عفلق في «نقطة البداية» ص ٤٢ ، ٤٨ ، ٧٧ — ٨١ .
(١٣) المصدر نفسه ص ٤٣
(١٤) المصدر نفسه ص ٥١ — ٥٣ .

بأن البعث لا يستطيع تصحيح اخطاء الماضي واستئناف المسيرة العربية نحو التقدم الا بالسعي وراء هذه الاهداف [١٥] .

كان التجاوب الاولي مع نداء عفلق ايجابيا ، مما اثبت ان حركة البعث لم تمت بعد ، وان المبادىء التي تنادي بها ، وعلى الاخص في غمرة الحرب العربية ـ الاسرائيلية ، لا تزال رائجة عند الشبان الذين يرون ان ضعف العرب نحو اسرائيل ليس الا نتيجة للانقسام والمشاحنة بين زعماء العرب من اجل السلطة . ومهما يكن من آمر فمن المشكوك فيه ان يتمكن عفلق من توفير قيادة اكثر اليوم فاعلية منها في الماضي والتوفيق بين الفئات المتنافسة داخل الحزب . ومع هذا فانه لا يزال كما يبدو يتمتع باحترام بعض الفئات المتنافسة وولائها . ولكن اكثر هذه الفئات آثرت البقاء منفصلة ، ورفضت الاندماج في حزب واحد مدعية كل منها انها هي التي تمثل المبادىء البعثية الاساسية اكثر مما تمثلها غيرها . وقصارى القول ان الحاجة الى القيادة الفعالة لا تزال قائمة، رغم الجهود التي بذلها عفلق من جديد في سبيل التنسيق [١٦] .

---

(١٥) قال عفلق على العرب ان يعتبروا انفسهم في حالة حرب متواصلة حتى يحققوا اهدافهم الوطنية (المصدر نفسه ص ٦٠) .

(١٦) وافق عفلق بعد ممانعة ، على تولي منصب الامين العام لحزب البعث ولكن يظهر انه ابدى بعض التحفظات على تصرفات الزعماء العراقيين . اما تفضيله العيش في بيروت على العيش في بغداد رغم ما يقوم به من زيارات بين آونة واخرى للعاصمة العراقية فيترك انطباعا بأنه لا يقر البعث في العراق على نشاطه في شتى الميادين .

ان عفلق ، خلافا للطفي السيد وحسين هيكل ، هــو السياسي المفكر بكل ما في الكلمة من معنى ، فهــو يتمتع بالقدرة على اعداد الاهداف والعزم على تنفيذها . فهــو يشبه لطفي من حيث تفانيه واخلاصه للحزب ، ولا شك في انه ذهب الى ابعد مما ذهب اليه لطفي مــن حيث تأييــده الاساليب الثورية من اجل خلق الاوضاع المطلوبة لتحقيق اهداف حزبه . اما هيكل فيقف وسطا بين لطفي وعفلق،لانه حاول ان يربط بين الاهداف والحقائق ويخفف من القواعد الاساسية ، بينما لم يوافق أي من لطفي وعفلق على تغيير المبادىء بغية تحقيق الاهداف . ويختلف عفلق عن لطفي وهيكل في انه الزم نفسه بالمبادىء الثورية، والاستعداد لان يدمر بالقوة الحواجز التي قد تحول بينه وبين اهدافه. بينما كان لطفي بشكل خاص يفضل الانسحاب من معترك السياسة على استعمال العنف سعيا وراء اهدافه ، حتى لــو كانت الاوضاع تشجع على تحقيقها . صحيح أن عفلق اخفق في محاولته تحقيق معظم اهدافه رغم محاولته ذلك طاقة جهده. لقد وهب المقدرة على تهيئة الاهداف ، ولكنه افتقر الى القدرة على تنفيذها ، واما هيكل فكان صاحب عزم ، الا انه اخفق في تحقيق معظم اهدافه رغم تأييده التام بعض المشاريع الحرة وحرية الصحافة ونظام تعدد الاحزاب وغيرها كثير . ولا حاجة الى القول بأن هذه المبادىء ليس لها صلة اليوم بنظام الحكم القائم في بلاده ، ولكنها لا تزال موضع تقدير واحترام ، ولا يبعد ان تعود فتطبق ، اذا قدر للبلاد ان تعود الى الحكم المدني .

ولما كان عفلق لا يزال في الميــدان وحزب البعث (او

احزابـه) لا تزال تعمل في بعض البلدان العربيـة ، فمن الصعب جدا تقييم دوره واصدار حكم قاطع على انجازاته. ولعل تقييم دور كل من لطفي وهيكل اقل صعوبة،فالرجلان رحلا عن هذا العالم ، ومع ذلك فان قصر المدة التي انقضت على وفاتهما تحول دون رسم صورة صحيحة للدور الذي لعبه كل منهما . لقد عرفت عفلق معرفة حميمة دونها معرفتي بلطفي وهيكل ، ومع هذا فانهما اقل غموضا منه من حيث الطبع والشخصية . فعفلق يحيا حياة متواضعـة ، تتميز بالاقتصاد في الانفاق (وعلى الاخص قبل الزواج) كما يترك انطباعا عن زهده في السلطة — ويمكن الحكم على ذلك من رفضه غير مرة تولي مناصب سياسية — بيد ان المرء قـد يشك في ان وراء هذا الحياء والعزوف عن المناصب الرسمية تكمن رغبة في ممارسة نفوذ سياسي . الا ان عفلق لم يرغب قط في ان يصبح رئيسا للوزراء ، بل كان دائما يحث البيطار على تولي هذا المنصب ، لانه ، وان لم يسيطر عليه سيطرة مباشرة ابان وجوده في كرسي الحكم ، الا انه كان يؤثر فيه تأثيرا ملحوظا . وهو بذلك يشبه ام الملك التي لا تتظاهر بالحكم بينما هي تمارس السلطة من وراء العرش . ومع انه في الاساس انسان مفكر،الا انه لا يخلو من طموح سياسي، فبصرف النظر عن تفانيه واخلاصه للحزب فانه كان في تصرفه عرضة للاتهام بالتدليس والدجل.ومع ذلك فانه لم يستخدم نفوذه او نفوذ حزبه من اجل الحصول على منافع مادية . ولو كان عفلق يتمتع بصفات الزعيم الموهوب ، لتمكن على الارجح ، من ان يلعب دورا بناء اكبر في السياسة العربية. وها هو الآن وقد تجاوز الستين يعيش في ما يشبه العزلة ،

الا ان عمله السيـاسي لم ينته بعـد ، لانه ما زال يبعث توجيهاتـه الى اتباعه ويبدي استعدادا لتقـديم النصح والارشاد لاي سياسي يتوسم فيه تنفيذ اهداف حزبه بالوسائل السلمية او الثورية • ويظهر ان عفلق يتمتع بعنصر المغامرة الذي ليس بالضرورة نتاج انتهازية سياسية او افتقار الى الصدق والاستقامة ، بل لعله نتاج المبدأ الثوري الذي يرى فيه ضرورة لا غنى عنها لتحقيق الاهداف • وقصـارى الحديث فان عفلق سياسي مفكر ، ولكنه من الطراز الحالم الرومنطيقي ، الذي لا يعدم ان يكون له مكان في المجتمع العربي •

الفصل الثالث عشر

الخاتمة

« والمملكة تحرس بالسيف وتدبر بالقلم ، واختلفوا في السيف والقلم ايهما افضل واولى بالتقديم . فقوم يرون ان يكون القلم غالبا للسيف ، واحتجوا على مذهبهم بأن السيف يحفظ القلم ، فهو يجري معه مجرى الحارس والخادم ، وقوم يرون أن يكون السيف هو الغالب ، واحتجوا بأن القلم يخدم السيف لانه يحصل لاصحاب السيوف ارزاقهم فهو كالخادم له . وقوم قالوا هما سواء ولا غنى لاحدهما عن الاخر » .

ابن الطقطقى ــ كتاب « الفخري » (١٣٠٢ م)

رأينا ان الشخصيات الاثنتي عشرة التي هي موضوع هذه الدراسة ، انجرفت الى المعترك السياسي ، اما لأنها تعمدت السير في نهج سياسي ، او لان الاحداث دفعت

بها عرضا الى المسرح لتلعب دورا سياسيا • وسواء أكان الانهماك في السياسة عرضا ام اختيارا فلا بد للمرء اذا اراد البقاء زعيما سياسيا ، من انيتمتع بصفات ومؤهلات تتطلبها لعبة السياسة • فهل تعتبر المؤهلات او الظروف مسؤولة عن انجراف الانسان الى خضم السياسة ليلعب دورا بناء ؟•

اختلف الكتاب العرب ، كأندادهم الغربيين ، في هذه المسألة وفي الاهمية النسبية للعوامل التي تنطوي عليها واي هذه العوامل يحتل المكانة الاولى • ويؤكد كتاب سير حياة العظماء التقليديون ، ان مؤهلات الزعيم تأتي في المكان الاول ، فالنبي محمد ومعاوية ، وصلاح الدين قديما ، وعبد العزيز آل سعود ، وعبدالناصر حديثا ، هم بعض الذين شاركوا في أحداث عظيمة في العالم العربي ، بفضل قوة شخصياتهم ، وتركوا اثرا تجاوز العوامل والقوى الظرفية • ومن ناحية ثانية ، يرى المحللون والخبراء الاجتماعيون في العصر الحديث ، ان الرجال العظماء هم نتاج قوى اجتماعية تتفاعل منذ زمن بعيد • ويقول اصحاب هذا الرأي ، انه عندما تنضج هذه القوى لتولد حركة ما يصبح الرجل الذي يثبت انه قادر على ركوب موجة المد هذه ، الزعيم العظيم في عصره • وقد تلقي اختبارات الرجال الذين تناولتهم هذه الدراسة ، بصفتهم نماذج عن الزعماء ضوءا على هذه المسألة •

لقد ظهرت في العالم العربي ، كما يحدث في اصقاع اخرى كثيرة ، وفرة في الزعماء السياسيين خلال فترات الأحداث المثيرة ، بينها انبعاث الشعور بالقومية ، وحربان عالميتان ،

وفورات اجتماعية وسياسية • واتاحت هذه الاحـداث الفرص لأناس كثيرين الانجراف في خضم السياسة ، ولكن القليلين كانوا على مستوى الاحداث ليلعبوا ادوارا بناءة• لقد فشل الكثيرون منهم ، اما لأن آراءهم لم تكن منسجمة مع الظروف القائمة ، او لانهم افتقروا الى المزايا التي تتطلبها الزعامة • فالمثاليون ، مثلا ، الذين رفضوا اخضاع المثل العليا لوقائع الحياة ، اما فضلوا الانسحاب من المعتـرك السياسي كعزيز علي ولطفي السيد ، أو استمروا في اللعبة السياسية دون نجاح كالمفتي والجادرجي • وحاول الزعماء العقائديون من ناحية ثانية تغيير الاوضاع من خلال العنف، حتى يتسنى لهم وضع مثلهم العليا موضع التنفيذ ، ولا شك انهم في كثير من الاحيان نجحوا في تغيير الاوضاع ، ولكنهم اخفقوا في تحقيق اهدافهم • وقليلون هم الزعمـاء ذوو المؤهلات المطلوبة ، الذين نجحوا في لعب ادوار بنـاءة ، لان الظروف التي دخلوا فيها المعترك السياسي أثبتت انها كانت ملائمة • فنوري السعيد ومحمد حسين هيكل ، وفيصل وبورقيبة مثلا ، اربعة زعماء بارزون لعبوا ادوارا بناءة بالنظر الى الظروف الملائمة التي اعقبت حربين عالميتين• فقد ظهر الاول والثاني بعيد الحرب الاولى ، وظهر الآخران بعدالحرب الثانية •

ومن هنا نجد أن المؤهلات والظروف عوامل لازمة لنجاح الزعيم ، ولكن يجدر بالمرء التساؤل عمن يأتي في المقـام الاول اخر المطاف ، اهم الرجال ام الظروف ؟ اما في مـا يتعلق بالرجال الاربعة الذين استشهدنا بهم فقد يعطون

الدليل على ترابط القوى العاملة في الرجال والاحوال • فنوري وهيكل ، وهما زعيمان على جانب عظيم من الكفاءة والقدرة، نجحا في الاحوال الملائمة خلال سنوات ما بين الحربين ، ولكنهما فشلا في الاحوال المتغيرة بعد الحرب • بيد ان الحال كان عكس ذلك ، بالنسبة الى فيصل وبورقيبة اللذين لا يقلان ، من حيث مؤهلات الزعامة ومزاياها ، عن نوري وهيكل ، الا انهما لم يسجلا أي نجاح في السنوات غير الملائمة بين الحربين ، بينما نجحا بعد الحرب العالمية الثانية والى مدى لم يتوقعاه ، لأن سنوات ما بعد الحرب كانت في جانبهما • ومن هنا يتضح ان المرء او الظروف لا يستطيع اي منهما وحده صنع دور الزعامة البناءة ، بل الذي يصنع هذا الدور هو التقاء المؤهلات المطلوبة الصحيحة • وبعبارة اخرى ان الزعامة البناءة لا تصنعها الظروف وحدها او الانسان وحده ، انما الانسان والظروف معا • فمبقدار ما ترتفع نقطة الالتقاء في ميزان الرجل والظروف ــ تتعاظم انجازات الزعيم وتسمو •

وبين الزعماء السياسيين الاثني عشر ، ثلاثة ينتمون الى مدرسة مثالية هم عزيز علي المصري والمفتي ولطفي السيد ، والثلاثة اخفقوا في بلوغ اهداف نادوا بها ، ومرد ذلك في الاصل ، الى ان هذه الاهداف اما انها كانت مفرطة في التقدمية او لم تكن منسجمة مع الظروف والتقاليد القائمة • وقرر اثنان هما عزيز علي ولطفي ، الانسحاب من على المسرح مظهرين عدم قدرتهما او عدم استعدادهما لاخضاع المثل العليا للواقع • وبعبارة اخرى فانهما كانا

مثاليين صادقين • اما المفتي فتابع اللعبة السياسية على الرغم من فشله ، لانه يتمتع بمهارة السياسي المحترف وبراعته، وهكذا فانه لم يكن مثاليا اصيلا في مثاليته ، ذلك لانـــه كرس مثله العليا لبقائه السياسي •

اما الذين يسمون مثاليين ، فقد ظهـروا علـى المسرح السياسي عند بدء القرن العشرين وكان كل منهم يمثل في بلاده مدرسة معينة ، وهم بهذه الصفة كانوا روادا في المجال المجهول لمحاولاتهم السياسية ، اذ لم يسبقهم زعيم سياسي تمرس بأفكار واوضاع مشابهة كي يترك لمن يأتي بعده مــا يسترشدون به ويسيرون على هديه •

تعلم الجيل الذي خلف المثاليين الاوائل ، أن النجاح رهن بتكييف الاهداف وفق الاوضاع • وهذه المجموعــة من الزعماء كانت تنتمي الى المدرسة الواقعية • صحيح ان نوري وبورقيبة وهيكل ، كانوا بطبيعتهم رجالا عمليين ، الا أنهم تميزوا بالفطنة والذكاء حين سارعوا الى اكتشاف اخطــاء من سبقهم وعقم نضالهم من اجل تحقيق اهداف مستحيلة• وهكذا فان المدرسة الواقعية مشت منطقيا على خطى مدرسة مثالية سابقة • على ان هذا لا يعني أن جميع الزعماء الذين خلفوا المثاليين كانوا ينتمون الى مدرسة واقعية • فلا شك ان هناك عددا من الزعماء الذين لم يهتموا للعبر التي خلفها اسلافهم بل اعتمدوا واقعيتهم التي استخلصوها من تجاربهم الخاصة • حتى لو كان الزعيم واقعيا فلا بد من اخضــاع اهدافه دوما للتجارب اذا كان ينشد البقاء •

وبرز جيل ثالث من الزعماء الشبان لم يرضوا عن انصاف الحلول والاساليب البالية التي ينتهجها الواقعيون فاتجهوا نحو اهداف راديكالية • وقد سعت هذه المدرسة الجديدة التي انبثقت من السياسات العربية بعد الحرب ، الى اقتلاع الانظمة القديمة بواسطة العنف لتحل هي محلها • وحاول هؤلاء الزعماء الذين ينتمون الى مدرسة ايديولوجية ، اقامة مجتمع جديد بوسائل ثورية • وعلى الرغم من ان بعض الزعماء العقائديين دخلوا المسرح السياسي ، فان احدا منهم لم يتمكن من الوصول الى السلطة دون التحالف مع ضباط الجيش ، ولكن مثل هذا التحالف جاء كارثة على الزعماء العقائديين ، اذ لو ظلوا على ولائهم لايديولوجياتهم ، لكان عليهم ان يتخلوا عن السياسة ، واذا ارادوا الاستمرار في المعترك السياسي لكان عليهم ان يرضوا العسكريين وبالتالي ان يصبحوا واقعيين • وقد سنحت لنا فرصة دراسة ثلاثة زعماء ايديولوجيين ـ عبد الناصر الضابط الذي تبنى ايديولوجية تضفي شرعيته على الحكم العسكري ، وبكداش وهو زعيم مدني رفض اخضاع ايديولوجيته للحكم العسكري ، وعفلق الزعيم العقائدي الذي وصل الى السلطة او بالاحرى وصل حزبه اليها ـ لانه اتفق مع العسكريين • وليس بين هؤلاء من استطاع اخضاع العسكرية للايديولوجية •

يلاحظ ان تقسيم الزعماء السياسيين الى فئات وفقا لاهدافهم ـ مثالي وواقعي وعقائدي ـ والوسائل التي دخلوا معها معترك السياسة قد تداخلت بعضها في بعض • وهذا يظهر ،

ان الوسائل السياسية لا تصبح بالضرورة عقبات تفرض قيودا على الزعماء السياسيين ، او تعيقهم عن متابعة الاهداف التي ألزموا انفسهم بها ، على الرغم من القول الشائع ان الساسة المحترفين يميلون الى اظهار مرونة في تجاوز العقبات اكثر من تلك التي يظهرها العسكريون والسياسيون المفكرون • وبين السياسيين المحترفين الستة ، الذين شملتهم هذه الدراسة ، اثنان التزما بنظرة متطرفة وراديكالية حالت دون قبولهما حلولا وسطا ، هما المفتي (التقليدي المتطرف) وبكداش الشيوعي • والتزم ثلاثة بأهداف معتدلة أثرت بدرجات متفاوتة في تصرفاتهم ومسلكهم ، هم فيصل (التقليدي المعتدل) والجادرجي وجنبلاط (الاشتراكيان الديموقراطيان) وواحد فقط هو بورقيبة ــ اظهر استعدادا لقبول ترضية او مساومة واتبع اساليب مرنة لتحقيق الاهداف التي لها صلة بالواقعية •

من المعروف ان الرجال الذين نشأوا في ظل تدريب عسكري او فكري تكون اعمالهم محدودة عندما يصبحون زعماء سياسيين • فعزيز علي المصري ولطفي السيد مثلا ، حيل بينهما وبين العمل المباشر في السياسة لانهما رفضا اخضاع المبادىء للمصلحة • فأصر الاول على اتباع مقاييس عسكرية مجردة وتطبيقها على مرافق الحياة الاخرى ، بينما كره الثاني ان يستبدل بالمثل العليا انصاف الحلول • غير ان نوري السعيد الذي تثقف في العلوم العسكرية وهيكل الذي تثقف في مبادىء فكرية ، كانا على استعداد تام لتعديل اهدافهما ومثلهما العليا وفقا للظروف والاوضاع القائمة •

وقد ادرك الرجلان ان السياسة تتطلب اساليب تختلف عن اساليب المهن الاخرى التي تحتل فيها المقاييس الصحيحة مقاما رفيعا • وكانا بالتالي مستعدين لاخضاع مقاييسهما للمصلحة السياسية ، حتى يستطيعا الاستمرار كزعيمين سياسيين • ومع ذلك فقد تسكن كلاهما من الحفاظ على نزاهتهما والتحصن ضد الفساد الذي كان مستشريا بين الزعماء السياسيين المحترفين •

والسياسة في اساسها فن ، ولكي يمارسها الناس بنجاح ، عليهم ان يتعلموا ذلك واقعيا ، لا تقيدهم فيها الوسائل التي يحققون بها اهدافهم • ولا شك ان التعهد بالتزامات اساسية نحو متطلبات البلاد وامانيها ، يجب ان يعتبر مسألة مبدأ فضلا عن كونه سببا للصمود سياسيا ، الا انه لا مناص من تكييف هذه الالتزامات في ما بعد وفق الحقائق السياسية • وقد اظهرت تجارب الزعماء العرب انهم اضطروا ، بغض النظر عن الطريقة التي دخلوا بهامعترك السياسة ، الى اخضاع النظام والاهداف لحقائق الحياة • وكانت التجارب التي شاطر فيها الزعماء بدرجات متفاوتة في جميع البلدان الاخرى تقريبا موضع انتقاد وتأنيب من الكتاب قديما وحديثا • فقد قال شكسبير على لسان بروتوس :

« مما لا يحتاج الى برهان ، كون الخسة سلما لطموح الشباب يتطلع اليها الصاعد بناظريه . ولكن ما ان يحقق بلوغ القمة ، حتى يدير الى السلم ظهره شاخصا بناظريه

نحو السحب محتقرا تلك الدرجـات التي
ارتقى السلم بواسطتها»(١) .

يتطلع العرب بشوق الى زعماء سياسيين اقويـاء حتى يتولوا مصيرهم • فاذا برهن هؤلاء الزعماء عـن نزاهـة واستقامة ومتانة اخلاق مال الشعب اليهم ومنحهم تأييـدا مطلقا وثقة عمياء ولا يبعد ان يستمروا في المعترك السياسي مدة طويلة • ومع هذا فان كثيرا من الرجال الاكفاء الذيـن يتمتعون بالعزم والمؤهلات اللازمة للزعامة لم يستطيعـوا الحصول دوما على ثقة مواطنيهم ، اما لانهم حاولوا دخول المسرح السياسي عبر طرق اعتبرت مخالفة للتقاليد ، أو لان وجهة نظرهم جاءت مناقضة لمتطلبات البلاد وأمانيها •

ثم ان الزعماء السياسيين حسب التقاليد الاسلامية امـا يختارهم الله بواسطة ملائكته او يتلقون الوحي من قـوة عليا ، فضلا عن الاوامر الالهية التـي تحض الناس على الطاعة « ••• واطيعوا الرسول وأولي الامر منكم » (٢)• ووفقا لهذه التعاليم أقر الناس بالنبي محمد زعيما لهم بعد ان قدم نفسه نبي الله المصطفى • غير ان النبي لم يضـع قبل وفاته انظمة للخلافة باستثناء ذلـك المبدأ القائـل « ••• وأمرهم شورى بينهم » •

---

(١) يوليوس قيصر الفصل الثـاني ـ المشهد الاول ـ السطر ٢٢ ـ ٢٨

(٢) للاطلاع على النصوص المتصلة بالموضوع راجع القرآن ـ السورة الثالثة الآيتان ٣٢ و ١٣٢ والسورة الرابعة الآية ٥٩ والسورة الخامسة الاية ٩٢ والسورة الثامنة الايات ١ و ٢٠ و ٤٧ والسورة الرابعة والعشرين الآية ٥٤ وغيرها كثير .

لقد كانت الزعامة العربية قبل عهد القومية في ايـدي حكام تسنموا السلطة بالاحتكار السياسي ، او في ايدي جماعات متنافسة متناحرة استولت على السلطة بالعنف • ويشير ابن الطقطقى ، من كتاب القرن الرابع عشر ، الى هذين الاسلوبين فيقول بأنهما الاسلوبان السياسيـان للسيف والقلم [٣] • والمتبع في الاسلوب السياسي للسيف ان يبادر قائد عسكري فينشيء في اعقاب انقلاب سلالة جديدة من السلاطين او الملوك تزول بدورها ليحـل محلها قادة عسكريون اخرون • وكان رجال الدين في جميع الحالات تقريبا يميلون الى تأييد من هم في السلطة ، وحجتهم القوية المبدأ القائل : عندما يسود الهدوء البلاد يعم الخير جميـع الناس • اما الحقيقة فهي ان اصحاب المصالح وحدهم هم الذين كانوا يفيدون من هذا الوضع •

ثم ان الضغوط والافكار الاجنبية احدثت تغييرا في اشكال الزعامة التقليدية • فكثيرا ما كان القادة العرب يسيرون في ركاب المعتدين الاجانب بدلا من ان يلفظوهم وينبذوهـم الامر الذي ادى الى خلاف بـين الزعماء والمواطنين • ولما عجزت القوى الدينية والقبلية عن تقديم قيادة بديلة قابلة للحياة ، تمكنت المداخلات الاجنبية المهيمنة في النهاية مـن سحق تلك القوى •

وبظهور القومية بزغ نوع جديد من الزعامة ، غير ان هذه الزعامة لم تتمكن حتى الان من ان تنسخ الاساليب التقليدية

---

(٣) راجع ما ورد من مقتطفات في مطلع الفصل •

على انواعها • وبعد دمج مقومات التجارب التقليدية بالاوروبية ، كما فعلت شخصيات هذه الدراسة الاثنتا عشرة ، حاول الزعماء المعاصرون بشتى الوسائل تحقيق اهداف مستمدة من حاجات المواطنين وامانيهم • واليوم يجتاز الزعماء العرب تجارب في دروب السياسة تتراوح بين وسائل تقليدية متطرفة ووسائل راديكالية حديثة ، الا انه ليس هناك حتى الآن طريق واحد يرضى به الجميع • ومتى تم انشاء نظام عربي مستقر في المجتمع العربي ، او انظمة ، فان الزعماء العرب قد يطورون اساليبهم السياسية الخاصة بحيث يعتمدون في بعضها على تقاليدهم وفي بعضها الاخر على الخبرة الغربية • واذا ظهرت في النهاية ديموقراطية اجتماعية ، كما اشرت الى ذلك في كتاب آخر (٤) ، من نتاج الخبرة العربية في مجالات الانظمة السياسية المتضاربة ، فانه لا بد من ظهور شكل جديد من الزعامة تعمل وفقا للاوضاع السياسية الجديدة •

لقد رأينا كيف ان الزعماء التقليديين الذين عارضوا تغلغل الافكار والضغوط الاجنبية لم يحيدوا عن اتباع اساليب جامدة وكيف حاول من يسمون بالزعماء الثوريين انتهاج اساليب الدكتاتورية والعنف في تنفيذ التغيير الاجتماعي المطلوب • ويبدو ان أيا من الاسلوبين لا يوحي

---

(٤) راجع « ديموقراطية اجتماعية جديدة » في كتابي « الاتجاهات السياسية في العالم العربي » الفصل العاشر (الدار المتحدة للنشر ، بيروت ١٩٧٢) •

بالثقة او يضمن التقدم والتطور • واذا كان لا بد من ظهور نوع جديد من الديموقراطية الاجتماعية تكتب له الحياة ، فلا بد من ظهور نوع جديد من الزعامة ، ولا بد بالتحديد ، من ان تكون لدى الزعماء الجدد مؤهلات تضمن بقاء النظام الناشيء ، هي المرونة والاعتدال والشعور بالواقعية • واستقرار النظام يفترض مسبقا طرقا سياسية تنفق والعملية السياسية ، واذا لجأ الزعماء الى العنف والانقلابات العسكرية فان الرأي العام المتنور لا بد وان يندد بهم ، فهو جهاز ضروري لمقاومة النزعات الدكتاتورية في النظام السياسي المتطور •

لقد قيل ، اننا اذا راجعنا تاريخ البشرية ، وجدنا وفرة في العظماء بين العلماء والعسكريين ، وعظماء في كل مجال من مجالات الحياة ، ولكن كم هي الشخصيات السياسية العظيمة ؟ يمكن الاستدلال على صحة قلة عدد الساسة العظماء النسبية في التجربة العربية ، اذا حاولنا اولا ايضاح معنى كلمة « عظيم » ثم ذكرنا الشروط المطلوبة التي بموجبها يصبح الرجال عظماء •

بعد الحرب العالمية الاولى ، حين بدأت تتبلور مرحلة جديدة في الوجود القومي العربي ، انجرف كثير من الشخصيات السياسية الى المسرح السياسي ، كما لاحظنا آنفا • ولكن كم من هؤلاء ـ او بالاحرى كم من الشخصيات الاثنتي عشرة التي تناولتها هذه الدراسة ـ يمكن اعتبارهم عظماء حقا ، اذا كنا نعني بالعظماء اولئك الذين تميزوا بالارادة والعزم على ممارسة الزعامة ، والقدرة على تحقيق

الاهداف التي تتفق وظروف بلدانهم • (وهذا لا يعني بالضرورة الايحاء بأن عندنا عظماء ظهروا في مجالات غير مجال السياسة العربية ، وعلى الاخص اذا قورن هؤلاء بعظماء عالميين اخرين) • بل حتى لو كان ساستنا يتمتعون بصفات العظمة ، فهل كانوا معروفين لدى العالم الخارجي؟

لنترك اعتراف العالم جانبا ولنتفحص شخصياتنا الاثنتي عشرة من حيث استحقاقهم العظمة ضمن اطار وسطهم القومي • فبين هؤلاء الرجال الاثني عشر ، ستة كانوا في الاساس سياسيين محترفين ، واما الستة الاخرون فقد كانوا قبل دخولهم المعترك السياسي قادة عسكريين او رجال فكر • ترى كم من الساسة المحترفين يمكن تصنيفهم رجال دولة عظماء ، وكم من الستة الباقين من يتمتع بالمستوى ذاته من العظمة في المجال السياسي او غيره من المجالات الاخرى • فاذا كانت الصفات القيادية والقدرة على تحقيق الاهداف القومية هي الحد الادنى لمستوى العظمة فقد لا يكون بين هؤلاء من هو اهل للعظمة • ومهما يكن من امر فان هناك واحداً او اثنين من الساسة المحترفين الستة ـ فيصل وبورقيبة ـ يمكن ، طبقا لهذا المقياس ، ان يستحقا نصيبا متواضعا من العظمة • وبين العسكريين الثلاثة اثنان ، هما عزيز علي المصري وعبد الناصر احتلا منزلة رفيعة من حيث انضباطهما العسكري ولعلهما كانا يستطيعان ان يضفيا العظمة على نفسيهما لو انهما لم يحاولا تحقيق اهداف قومية بالاعتماد على سلاح مهنتهما ، ومع هذا فما من شك بأن الذين عاصروا عزيز علي كانوا يعتبرونه الجندي المثالي • اما

الثلاثة المفكرون – لطفي السيد وهيكل وعفلق – فقد تميزوا جميعا بأنهم نسبيا كتاب عظماء حظيت كتاباتهم بتقدير كبير ، وقد تركت كتابات احدهم – لطفي السيد اثرا باقيا في بلاده ، لانه اعد جيلا جديدا من صفوة الناس واستحق لقب « استاذ الجيل » رمزا لتأثيره الفكري • ومع هذا فليس لاي من هؤلاء الثلاثة ان يدعي انه سياسي عظيم ،اذ لا شك في ان كلا منهم كان يفتقر الى صفة او اكثر من صفات الزعامة المطلوبة ، فضلا عن اخفاقهم في تحقيق الاهداف المنشودة • وليس بين رجال السيف والقلم الستة غير نوري السعيد ، الذي يمكن ان يصنف رجل دولة عظيما – بالحكم على ذلك من خلال منجزاته على الاقل – ذلك لانه كان يتمتع بمؤهلات السياسي المحترف رغم انه لم يكن زعيما محبوبا ورغم ان حياته انتهت بانهيار نظام حكم ساعد هو على بنائه (٥) • اما عبد الناصر ، الذي تخطت شهرته شهرة نوري في العالم الخارجي ، فقد يدخل اسمه في تاريخ بلاده كزعيم أعظم من نوري ، ومع هذا فان علماء المستقبل قد يصدرون على انجازاته حكما حاسما مختلفا (٦) •

---

(٥) لا يكمن ادعاء نوري العظمة في تأييده للملكية (التي اطيح بها في شهر تموز (يوليو) ١٩٥٨) بقدر ما يكمن في تحقيق استقلال بلاده وفي مشاريع الاعمار بعد الحرب التي ظلت قائمة بعد ثورة تموز (يوليو) .

واذا كانت التجارب العربية تميل الى تأكيد الندرة في رجال الدولة العظماء ، فهل توضح في الوقت ذاته السبب الذي جعل اولئك الرجال الذين يختارون السياسة مهنة لهم ، يكتشفون ان تحقيق العظمة بالنسبة اليهم اكثر صعوبة من تحقيقها بالنسبة الى رجال اخرين يعملون في مرافق اخرى من مرافق الحياة ؟ لقد رأينا من خلال دراستنا الشخصيات الاثنتي عشرة ان السياسي اذا اراد ان يلعب دورا بناء ، لا بد له من ان يتحين ظروفا ملائمة معينة بصرف النظر عما يتمتع به من مؤهلات الزعامة . ثم ليست المؤهلات وحدها ، ولا الظروف وحدها هي التي تقرر نجاح زعيم سياسي ، ذلك لان مصير هذا السياسي لا شك يكمن في سعادة الالتقاء بين المؤهلات والظروف . اما في ميادين علمية بشرية اخرى كالعلوم والاداب ، وهي ميادين تتحقق فيها الانجازات بفعل الموهبة والاجتهاد ، فان الظروف ليست على هذا المقدار من الاهمية . ومع ان الظروف الملائمة قد تجلب الشهرة للعلماء والادباء ، الا انها ليست ضرورية للابداع في مجال اختصاصهم . ثم لنضرب مثلين فقط ، لطفي السيد وعزيز المصري ، وكيف اصبحا ، كما لاحظنا ، شخصيتين مرموقتين في مجال عملهما الا انهما اخفقا لدى ولوجهما المعترك السياسي بسبب الظروف المعاكسة وبسبب رفضهما اخضاع الاهداف للظروف . اما رجال العلوم والاداب فلا حاجة بنا الى القول بانهم ليسوا ليبالوا بظروف معاكسة ، ذلك لأن انجازاتهم هي في جوهرها نتاج عبقرية ومواهب طبيعية ، بيد ان العبقرية وحدها لا تضمن نجاح

السياسي • فالظروف التي تبتسم لزعيم سياسي ناشيء كثيرا ما تفلت حتى من دهاء رجل مثل نابوليون وبعزمه ، فضلا عن السمعة الطيبة او الشعبية التي اكتسبها • وقليلون حقا هم الرجال الذين يستطيعون ان يصبحوا رجال دولة عظماء ، فقد قال سينيكا ، ان الطريق الى النجوم ، بالنسبة اليهم ، ليست سهلة •

ملحق

دراسة السياسة المتضاربة لزعيمين عربيين ازاء دول المحور [1]

قد لا يوجد سياسي عربي في العصر الحاضر انتهج سياسة خارجية تميزت بصداقة ثابتة نحو بريطانيا العظمى نظير ما انتهجه نوري السعيد . فمنذ ان انضم الى الثورة العربية ضد الاتراك في سنة ١٩١٦ كحليف لبريطانيا حتى مصرعه في سنة ١٩٥٨ ، لم يتخذ أي قرار مهم مناقض للمصالح البريطانية . فقد كان يؤمن ايمانا راسخا بأن القومية العربية تحتاج الى عطف بريطانيا وتأييدها وهما امران اسدتهما بريطانيا دون تردد منذ الحرب العالمية الاولى .

غير ان وثائق السياسة الخارجية الالمانية التي ضبطتها الدول الغربية خلال الحرب العالمية الثانية ، والتي اصبحت

---

(١) اعيد طبع هذا البحث الذي ظهر بعنوان « مغازلة الجنرال نوري لدول المحور » كما نشرته صحيفة « ذي ميدل ايست جورنال» في عددها السادس والعشرين (صيف ١٩٦٢) ص ٣٢٨ ــ ٣٣٦ مع ادخال تعديلات طفيفة عليه .

الآن في متناول الباحثين والمؤلفين[٢] تدل على ان نوري نفسه ، اجرى حين كان خصومه السياسيون منهمكين في التفاوض مع دول المحور ، اتصالات سرية مع ممثلي دول المحور في العراق تناقض السياسة التي نادى باتباعها تجاه بريطانيا العظمى • ويمكن ايجاز الرواية المتعلقة باتصال نوري مع المحـور كما وردت في الوثائق الالمانية علـى الشكل التالي :

في خريف سنة ١٩٤٠ حين كان نوري وزيرا للخارجيـة في حكومة رشيد عالي الكيلاني اشتـد القلق في الدوائر الوطنية ازاء مستقبل العراق نتيجة للانتصارات الالمانيـة الكاسحة ، وبدأ قلة من الزعماء ينادون بتحالف مع المحور بصرف النظر عن المعاهدة البريطانية ـ العراقية • وشكل الحاج امين الحسيني، الذي وصل الى بغداد في شهر تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٣٩ لجنة عربية بدأ يجري باسمها اتصالات سرية مع ممثلي النازية • واظهر نوري قلقا على مستقبل العراق وبدأ في اوائل شهر ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٤٠ يعرض التعاون مع العناصر المؤيدة للنازية ، فاتصل بجمال الحسيني وموسى العلمي ، وكانا زعيمين فلسطينيين تربطهما صداقة بنوري ، وعرض العمل مع المفتي شرط ان تحصل الحكومة العراقية على تعهد بالاستقلال من دول

(٢) نشرت الوثائق الاساسية في وزارة الخارجية الاميركية بعنوان «وثائق عن السياسة الخارجية الالمانية» ١٩١٨ ـ ١٩٤٥ ولكن المادة المتعلقة بعرض نوري التعاون مع المحور لم تنشر بعد .

المحور • غير ان عرضه ، الذي اقترن بتوصية حارة لدى تقديمه الى المفتي،رفض بحجة ان نوري مرتبط مع البريطانيين ومتورط معهم منذ زمن بعيد • واعلن المفتي ان عرض نوري انما يهدف الى معرفة تدابير المفتي السرية مع المحور ، حتى ينقلها الى السلطات البريطانية •

وعلى الرغم من هذا الموقف غير المشجع فقد لجأ نوري الى غابريلي ، الوزير الايطالي في بغداد ، وعرض عليه تعاونه•ويبدو ان الكونت شيانو وزير الخارجية الايطالية، ابدى اهتماما جديا بالمسألة اول وهلة ، وظن ان في الامكان استغلال تعاون نوري لفائدة ايطاليا • غير ان تقرب نوري من ايطاليا كان قصير الاجل،اذ عندما وصلت انباء اتصالاته مع غابريلي الى فون بابن [٣] السفير الالماني في انقره الذي كان المفتي يجري معه مفاوضات سرية بالنيابة عن العرب ، حذر حكومته فورا من تعامل ايطاليا مع نوري • وفي ١٤ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٤٠ كتب فون بابن الى وزارة الخارجية الالمانية يقول ، انه يقوم باتصالات مع المفتي بواسطة ناجي شوكت وزير العدل العراقي ، وان شوكت ابلغه ان نوري يعتبر «خائنا» في نظر العرب • وفي الثاني من شهر تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٤٠ عاد فون بابن فحذر وزارة الخارجية واوضح ان تعاون ايطاليا مع نوري

---

(٣)سمع فون بابن الاخبار من وزير المستعمرات الايطالي الذي اجتمع الى الدكتور شميث في ميونيخ وابلغه اتصال نوري مع غابريلي. وقد نقل شميث المعلومات الى فون بابن.

سيكون مخيبا لآمال الوطنيين العرب واشار الى ان مثل هذا التعامل لن يظل طي الكتمان امدا طويلا • ونقل فون ريبنتروب هذا التحذير الى الكونت شيانو الذي كتب بدوره الىغابريبلي طالبا اليه التوقف عن التعامل مع نوري •

لم يكن هذا كل شيء ، اذ يبدو ان نوري اوعز الى عدد من الزعماء العرب المقربين الى المفتي بأنه مستعد للتعاون مع دول المحور • وفي سنة ١٩٤٠ اعلن للمفتي بحضور جميل مردم وهو رئيس وزراء سوري سابق كان في بغداد في ذلك الحين ، ان على العراق ان يسعى الى تحالف مع دول المحور، وانه مستعد للعمل مع المفتي لتنفيذ مثل هذه السياسة ، غير ان المفتي لم يبد أية حركة توحي بتشجيع نوري •

اجتمعت الى المفتي في القاهرة في ٨ ايار (مايو) سنة ١٩٥٨ وطلبت اليه ان يعلق على المعلومات التي تضمنتها الوثائق الالمانية عن عرض نوري التعاون مع المحور فأكد المفتي المعلومات المتعلقة بعرض نوري التعاون ، وقال ان الفريق طه الهاشمي كان اول من اتصل به [٤] • ومضى المفتي يقول ان طه قال له ، ان نوري مستعد للتعاون اذا سمح له بالاشتراك في مفاوضات المفتي مع المحور ، الا ان المفتي في رده على طه نفى ان تكون ثمة مفاوضات سرية

---

(٤) كان الفريق طه ، وهو من انصار نوري شخصيا مرغوبا فيه لدى الوطنيين بالنظر الى اشتراكه الفعال في لجنة الدفاع عن فلسطين . راجع كتابي «العراق المستقل» (الطبعة الثانية لندن ١٩٦٠) ص ٢٠٦ .

مع دول المحور وقال لي مبررا تصرفه انه لم يكن من الحكمة اطلاع الفريق طـه على المفاوضات السرية لانه كان سينقلها الى نوري • وقال المفتي بالاضافة الى ذلك ، ان نوري اشتكى له بعد زيارة لمصر (في صيف سنة ١٩٤٠) من ان الحكومة البريطانية ترفض اعطاء أي تعهد للعرب قد تكسبهم معه الى جانبها،على الرغم من ان الوضع العسكري في الصحراء الغربية كان خطرا ، وعلى هذا فان نوري ابدى استعدادا لتغيير موقفه من بريطانيا اذا رغب المفتي في التعاون معـه •

وعندما قابلت نوري السعيد في بغداد في السابع من حزيران (يونيو) سنة ١٩٥٨ ، أي قبل قليل من مصرعه ، حاولت التأكد من بعض المعلومات المتعلقة بتعامله مع المفتي• وتحاشيت ان اوجه اليه ذلك السؤال المحرج عن عرضـه التعاون مع المحور ، بل وجهت اليه السؤال بالصيغة التالية: «سمعت ان بعض اصدقاء المفتي حاولوا خـلال الحرب الماضية اصلاح الخلاف بينك وبين المفتي بحيث تتبع انت والمفتي سياسة خارجية واحدة» • ولم ينف نوري اتصالاته مع المفتي ، ورد بما عرف عنه من غموض بقوله،ان اتصالاته مع المفتي لم تنقطع ابدا • وقـال انه كان دائما يبحث في الشؤون العربية معه ، ولكنه (أي المفتي) كان في ذلك الحين يجري اتصالات سرية مع المحور ، وقد رفض اطلاعه عليها• ومضى نوري يقول ، انه حاول اصلاح العلاقات بينه وبين المفتي وبريطانيا العظمى ، حين بدأ الكولونيـل س•ف• نيوكومب ، الذي ذهب الى بغداد في شهر تموز (يوليو)

سنة ١٩٤٠ مفاوضات شبه رسمية مع الزعماء الفلسطينيين. وابدى المفتي استعدادا لقبول تسوية للمشكلة الفلسطينية، على اساس الكتـاب الابيض[٥] ، وهـي تسوية كانت في الواقع ستضع حداً لاماني الصهيونية بهجرة غير محدودة ، اذ كانت ستعلن بأن الوطن القومي اليهودي قد تحقق [٦] . وحاول الكولونيل نيوكومب معرفة الحد الادنى لمطـالب الزعماء الفلسطينيين التي قد تعتبرها الحكومة البريطانية اساسا لتسوية فلسطينية . وعقدت عدة اجتماعات في مبنى وزارة الخارجيـة العراقية حضرهـا فيمن حضر ، جمال الحسيني وموسى العلمي [٧] . واقترح مشروع لتسوية القضية الفلسطينية وحددت الفترة الانتقاليـة بمدة عشر سنوات . وعرض نوري ورشيـد عالي رئيس الوزراء ، اللذان حضرا الاجتماعات ، المشروع على مجلس الوزراء العراقي الذي اتخذ قراره في (آب (اغسطس) سنة ١٩٤٠)

---

(٥) قال المفتي لمؤلف الكتاب انه اوضح لنوري انه يجب الا ترتكز مهمة نيوكومب على الكتاب الابيض ولكن نوري لم يصغ اليه .

(٦) فلسطين : بيان سياسي (لندن ١٩٣٩) .

(٧) قال موسى العلمي للمؤلف في ١٨ حزيران(يونيو)١٩٦٢ انـه حضر الاجتماعـات بناء على طلب الكولونيل نيوكومب وليس ممثلا للمفتي . وادت وفاة والدة موسى في ٢٤ تموز (يوليو) سنة ١٩٤٠ الى انقطاع موسى عن حضور الاجتماعات، ولكنه عندما قابل الكولونيل نيوكومب قبل مغادرته بغـداد ابلغه الكولونيل انه سيتلقى رسالية مرضية ، ولكن مثل هذه الرسالة لم تصل ابدا .

ينص على ان تعلن الحكومة العراقية في مقابل مثل هذه التسوية ، الحرب رسميا على المحور وتضع نصف قواتها (نحو فرقتين) تحت تصرف قيادة الشرق الاوسط للعمل خارج العراق [٨] . ومضى نوري يقول ، انه ذهب الى القاهرة لينقل قرار الحكومة العراقية الى الجنرال ويفل . واحيلت المسألة بكاملها على لندن ، غير أن الحكومة البريطانية لم تبعث بأي جواب [٩] واردف قائلا ، منذ ذلك الحين ازداد عداء الزعماء العرب لبريطانيا العظمى [١٠] .

---

(٨) اكد رشيد عالي في مقابلة مع المؤلف في القاهرة (٥ نيسان (ابريل) ١٩٥٨) انه وافق مع ممثلي المفتي على المشروع الذي اقترح على الحكومة البريطانية بواسطة الكولونيل نيوكومب وقال ان الحكومة العراقية قررت وضع جميع قواتها المسلحة تحت تصرف الحكومة البريطانية ، الا ان الحكومة البريطانية رفضت العرض العراقي .

(٩) صدر في ٢٦ آب (اغسطس) سنة ١٩٤٠ اعلان بأن الحكومة البريطانية لا تستطيع الانحراف عن سياستها المعلنة في ما يتعلق بفلسطين . ورفض ونستون تشرشل ، الذي أختلف مع اللورد لويد وزير المستعمرات،مقترحات نيوكومب ورحب بطلب الصهاينة تزويدهم بالسلاح والعتاد للدفاع عن فلسطين . راجع ونستون س. تشرشل «الحرب العالمية الثانية» (لندن ١٩٥٠) المجلد الثاني ص ١٥٣ و ٥٥٩ و ٥٦٤ وراجع كذلك جورج كيرك «الشرق الاوسط خلال حرب ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥» (لندن ١٩٥٢) ص ٦٤ و ٢٣٧ ــ ٢٣٨ .

(١٠) للاطلاع على تفصيل مهمة نيوكومب راجع كتابي «العراق المستقل » ص ١٧١ ــ ١٧٢ وكتاب « فلسطين عبر ضباب الدعاية » لميشيل ف. ابيكاريوس (١٩٤٦) ص ٢١٢ــ ٢١٣ .

كانت اشارة نوري الى ممثلي المفتي جمال الحسيني وموسى العلمي ، اللذين حضرا المحادثات مع نيوكومب حافزا دفع مؤلف هذا الكتاب للاطلاع على وجهة نظر هذين الزعيمين الفلسطينيين . وسنحت لي الفرصة فقابلت جمال الحسيني خلال زيارتي للرياض في نيسان (ابريل) ١٩٥٥[١١] وتحدثت معه في مهمة نيوكمب ، فلم يضف أية تفصيلات ، ولكن موسى العلمي ، الذي أثرت معه مسألة اتصالات نوري مع دول المحور ، لفت نظري الى العلاقة بين فشل مهمة نيوكومب،وقرار نوري الاتصال بالمحور[١٢] وقال موسى ، ان الاتفاق الذي تم التوصل اليه بين ممثلي المفتي والكولونيل نيوكومب بشأن فلسطين ، أحيا عند نوري الامل في انه سيتمكن من كسب تأييد العرب لسياسته الموالية لبريطانيا . ثم سافر نيوكومب وبقي نوري وممثلا المفتي ينتظرون ورود دعوة من الحكومة البريطانية لتشكيل حكومة فلسطينية موقتة ، الا ان لندن لم تبعث بأي جواب، مما اقام الدليل على ان العاصمة البريطانية لا تفكر في ايجاد تسوية عادلة . وتوجه نوري الى القاهرة في شهر آب (أغسطس) سنة ١٩٤٠ ليبحث المسألة مع ريتشارد ج.

---

(١١) توجه جمال الحسيني بعد الحرب الى المملكة العربية السعودية واصبح مستشاراً في الشؤون السياسية للملك سعود .

(١٢) تمت مقابلات المؤلف مع موسى العلمي في واشنطن في ١٢ حزيران (يونيو) ١٩٦١ و١٨ حزيران (يونيو) ١٩٦٢ .

كيسي [١٣] وزير الدولة البريطاني لشؤون الشرق الاوسط غير انه عاد خاوي الوفاض • وعندها اقترح نوري على موسى العلمي بدء مفاوضات مع دول المحور بغية الحصول على شروط أفضل بالنسبة الى القضية الفلسطينية • ولكن موسى امتنع عن ذلك قائلا ، انه لا يستطيع تحمل مثل هذه المسؤولية الخطيرة ، واقترح الامير عادل ارسلان للقيام بالمهمة ، ولكن الامير اعتذر بدوره • وكان من هذا الفشل، في ايجاد رسول مناسب يجري اتصالا مباشرة مع دول المحور ان دفع بنوري الى ان يقترح على جمال الحسيني الاتصال بالمفتي بشأن عرضه التعاون مع دول المحور،وطلب اليه ان يشرح الاسباب التي حملته على مثل هذا التعاون ، غير ان المفتي تجاهل العرض • وربما كان عرض نوري التعاون مع المفتي صادقا نظرا الى خيبة امله بالحكومة البريطانية وتجاهلها المصالح العربية بكاملها ، كما ان رفضها عرض الحكومة العراقية الاشتراك في الحرب لقاء تسوية يرضى بها الزعماء الفلسطينيون اثار في نفسه اليأس والقنوط وادرك ان عدم استعداد بريطانيا لتسوية القضية الفلسطينية خلال الحرب قد قوض مركزه في العراق وعند سائر الزعماء العرب الناقمين على بريطانيا ومنذ تلك الساعة بدأ نوري يشارك هؤلاء الزعماء احاسيسهم ومشاعرهم [١٤] •

---

(١٣) قابل ذلك بقول نوري انه توجه لمقابلة الجنرال ويفل ص ٣٧٤ آنفا .

(١٤) افضى موسى العلمي بالتعليق التالي : كانت غاية نوري من اتصاله بالمحور رغبته في تسوية القضية الفلسطينية.

بتحليل التصريحات الآنفة ، المكتوبة منها والشفوية، يبدو ان البينة تثبت دون أي شك ، ان نوري حاول الاتصال بدول المحور، سواء مباشرة او بواسطة زعماء عرب آخرين• وتثبت كذلك انه كان حريصا على معرفة الشروط التي يستطيع هو او المفتي الحصول عليها من دول المحور لمصلحة العرب • والواضح ان نوري فشل فشلا ذريعا في انشاء ركيزة للتعاون العملي وان نجاحه المبدئي مع الايطاليين كان قصير الامد (١٥) لان زعماء دول المحور والمفتي على السواء لم يثقوا به •

وليس في الادلة المتوافرة ما يوضح الاسباب التي دفعت نوري الى السعي للتعاون مع دول المحور • فهل كان يريد الحصول على معلومات عن علاقات المفتي مع دول المحور فقط حتى ينقلها الى السلطات البريطانية كما يقول المفتي ؟ ام انه كان قد يئس من الحكومة البريطانية بعد رفض المقترحات العربية التي نقلها الكولونيل نيوكومب كما قال

وقد اقنع الزعماء الفلسطينيين بالاعتماد على بريطانيا في ايجاد تسوية عادلة ، غير انه عندما فشلت مهمة نيوكومب ابلغ هؤلاء الزعماء ان في استطاعتهم الاتصال بدول المحور بغية تحقيق حل مقبول لمشكلة بلدهم بعد ان فشل هو في تحقيق تسوية .

(١٥) لم يعرف بعد ما الذي جرى بين نوري السعيد والايطاليين لان وثائق الحرب الايطالية لم تنشر بعد اما الوثائق الالمانية فلا تذكر الا اتصال نوري بفبريالي دون ان تذكر تفصيلاتها او مادتها . ومما يؤسف له ان غبريالي توفي قبل ان يتمكن المؤلف من وضع ترتيبات لمقابلته في روما .

موسى العلمي ؟ ام انه سعى في لحظة قنوط الى الانقلاب على بريطانيا بغية حماية نفسه وحماية مصلحة بلده بدل ارتباطه مع فريق خاسر ؟

وقبل أن نحاول العثور على دليل ، ناهيك بالرد على هذه الاسئلة ، علينا ان نتذكر جو الحيرة وتضارب الآراء في اعقاب سقوط فرنسا الذي ترك زعماء البلاد يخبطون في تفكيرهم خبط عشواء • فالمبعدون السوريون وكذلك الفلسطينيون الذين كانت بلادهم ترزح تحت نير فرنسا وبريطانيا ، فرحوا بمحنة فرنسا ، بينما اصيبت العناصر المعتدلة في العراق بذعر لدى استنتاجها ان خسارة انكلترا الحرب قد تعني فقدان العراق استقلاله وكان الرأي السائد هو ان انكلترا آيلة الى زوال ، فيما راحت دعاية المحور تطلق تأكيدات سخية تعد بحياة اكثر اشراقا وازدهارا اذا ما كتب لالمانيا النصر في الحرب • ولم يكن القادة العرب ، وعلى الاخص كبار ضباط الجيش الذين كانت لهم ابدا كلمتهم في شؤون البلاد السياسية ، اكثر حكمة من اولئك الجنرالات الفرنسيين الذين نقلوا لرئيس حكومتهم بعد انهيارهم قولهم : «خلال ثلاثة اسابيع ستلوى رقبة انجلترا كما تلوى رقبة الصوص» •وقد اصبحت المعاهدة البريطانية — العراقية بالنسبة الى هؤلاء القادة عبئا جديدا عرضت وطنهم الى الخطر بدل ان تكون مصدر قوة • وهكذا تدهورت هيبة بريطانيا الى الحضيض ، ونصح الزعماء العراقيون باعادة النظر في علاقاتهم مع الحكومة البريطانية •

وفي شهر حزيران (يونيو) سنـــة ١٩٤٠ ، أي في الشهر ذاته الذي انهارت فيه فرنسا ، بعث المفتي الى فون بابن برسالة هي الاولى في سلسلة رسائل مع دول المحور • وفي شهـــر تموز (يوليو) حين بدأ الزعمـــاء العرب يتبرمون ويتململون ، وصل الكولونيل نيوكومب الى بغداد واظهر استعدادا لان ينقل الى الحكومة البريطانية مقترحات واضحة معينة تتعلق بتسوية فلسطينية ، وكان فشل مهمة نيوكومب ، كما قال نوري نفسه ، نقطة تحول انطلقت منها العناصر التي كانت لا تزال مترددة في الانفصام عن بريطانيا ، لتنضم الى الفريق المناصر للمحور • وفي هذه اللحظة الحرجة قد تكون افكار اخرى قـــد داعبت مخيلة نوري ولو بعض الوقت بالنسبة لعلاقات العراق مع بريطانيا ، فأوعز ، كما ثبت ، الى قلة من الاصدقاء المقربين الى المفتي ، بأنه يحبذ التعاون مع دول المحور(١٦) • ويقال ان السير باسير نيوتون السفير البريطاني في بغداد ابلغ حكومته بأن نوري نفسه فكر خلال سنة ١٩٤٠ كما يبدو بضرورة اتخاذ العراق خطوات لضمان مستقبله في معزل عن بريطانيا العظمى •

لعل نوري في تلك الظروف اراد معرفة طبيعة الوعود التي حصل عليها المفتي من دول المحور دون ان يكون في نيته نقل المعلومات الى السلطات البريطانية • وفي غضون ذلك اعترى نوري اليأس بسبب موقف الحكومة البريطانية من

---

(١٦) راجع مذكرات عثمان كمال حداد سكرتير المفتي التي وضعها بعنوان حركة رشيد عالي الكيلاني (صيـــدا ١٩٥٠) ص ١٦ — ١٧ •

العربيـــة الخاصـــة بتسوية القضيـــة الفلسطينيـــة وهـــي المقترحـــات التي أسهم رفضهـــا في تقويض مركزه عنـــد الزعماء العرب ، في وقت كان فيه على وشك الحصول على موافقتهم على الوقوف الى جانب بريطانيا • وهكذا فان محادثاتـــه مع موسى العلمي ، إثر فشله في كسب تأييـــد بريطانيا من اجل تفاهمه مع الزعماء العرب الى جانب قلقه على مستقبل العراق ، كانت تستهدف اطلاعه على طبيعـــة وعود دول المحور ، بغية تقييم التعاون مع المحور قبل ان ينقلب على بريطانيا العظمى •

ان تقرب نوري القصير الامد من عملاء المحور ادى الى اقناعه باعادة النظر في وضع بريطانيـــا وحظها في الصمود والبقاء ؛ وجاء قراره كما كان متوقعا الاستمرار في سياسة بلاده التقليدية نحو بريطانيا ، وهي السياسة التي عمـــل جاهدا على ترسيخها • وقد اوحى اليه بهذا القرار ما لمسه من مقدرة بريطانيا على مواصلة الكفاح وحدها قبل دخول الولايات المتحدة وروسيا الحرب • ويبدو انه راح يستعيد الرأي الذي كثيرا ما كان يستشهد به خلال السنة الاولى من الحرب والذي ترك مبدئيا انطباعا مقبولا في نفوس ضباط الجيش العراقي قبل سقوط فرنسا ، ويتلخص في ان معاهدة عدم الاعتداء بين الاتحاد السوفياتي والمانيا كانت معاهدة «غير طبيعيـــة» وانه لا بد من ان يدخل الاتحـــاد السوفياتي الحرب في النهاية الى جانب بريطانيا[١٧] •

---

(١٧) راجع كتاب صلاح الدين الصباغ «فرسان العروبة في العراق» (دمشق ١٩٥٦) ص ١١٤ .

ومن ناحية ثانية قد يكون نوري ، بعد ان اعمل تفكيره مرة ثانية قد توصل الى انه قد يتمكن في ظروف اكثر ملاءمة بعد الحرب من التأثير في أصدقائه البريطانيين وحملهم على تسوية القضية الفلسطينية لصالح العرب ، اذا هو تقدم بمقترحات جديدة تقبل بها الحكومة البريطانية . وقد جاءت الفرصة للأخذ بزمام المبادرة وعرض مقترحات جديدة بأسرع مما كان يتوقع . فما كاد يفضي انطوني ايدن ببيان في ٣٠ ايار (مايو) سنة ١٩٤١ يحبذ فيه الوحدة العربية حتى عرض نوري مجموعة من المقترحات على ريتشارد ج. كيسي الوزير البريطاني في الشرق الاوسط، تضمنت آراءه بالنسبة لشكل الوحدة العربية بما في ذلك تسوية قضية فلسطين(١٨) . واصبحت المقترحات التي عرضها نوري على ريتشارد كيسي ركيزة محادثات العرب الداخلية خلال الحرب تمخضت عن انشاء جامعة الدول العربية التي اريد بها معالجة القضية الفلسطينية بعد الحرب . وهكذا فان خيبة الامل التي اصابت نوري في سنة ١٩٤٠ بسبب فشل مهمة نيوكومب قد زالت مع أن الجامعة العربية فشلت فشلا ذريعا في الارتقاء الى مستوى مسؤولياتها بعد الحرب .

ومن المشكوك فيه ، حتى لو ان اتصالات نوري مع دول

---

(١٨) نوري السعيد في كتاب استقلال العرب ووحدتهم (بغداد ١٩٤٣) . للاطلاع على موجز لمقترحات نوري راجع الكولونيل س. ف نيوكومب في «نبوءة بالوحدة العربية» مجلة الجمعية الآسيوية المركزية الملكية ، العدد الحادي والثلاثون (١٩٤٤) ص ١٥٨ .

المحور قد لقيت تشجيعا من المفتي ، ان تتجـاوب اوساط المحور مع نوري ، ذلك لأنه لم يكن ، وهو الذي اعتاد من زمن بعيد تزعم العناصر الموالية لبريطانيا ، ليوافق على ان يكون الشريك الاصغر مع المفتي ، كما ان المفتي لم يكن ليبدي استعدادا ، كما تبين من خلافه في وقت لاحق مـع رشيد عالي ، للتخلي عن زعامة الفريق الموالي للمحور بحيث يترك هذه الزعامة لنوري • وكان من شأن المنافسة بـين هذين الرجلين القويين ان استقر نوري في المكان الذي كان فيه دوما ، وهو مكان الابن المفضل عند البريطانيين • ولم يقع في الظن ، ان يعود المفتي ايضا فيثق بنوري الذي كثيرا ما تجاهل توسلات المفتي حين كان يتكلم معه بالنيابة عن جميع العرب يوم كان نوري رئيسا للوزراء[١٩] • ولما كان نوري ابرع من المفتي كثيرا في المجال الدبلوماسي ، فـلا يبعد ان يكون اكتشف ضعف المفتي في مفاوضاته مع المحور ، فراح ينتقده لعدم حصوله على ضمان واضح لاستقـلال العراق او على اية منافع معينة للبلدان العربية الاخرى • كما لا يبعد في الوقت ذاته ان يكون المفتي قد حاول ، وهو يدرك مواطن الضعف هذه في نفسه ، اخفاءها عن نوري • ومهما كان من امر فان نوري ، كان سيكتشف عاجلا ام آجلا أن العرب لم يكونوا ليستطيعوا ان ينالوا من المحور اكثر مما كانوا قد نالوه او سينالونه في وقت لاحق مـن

---

(١٩) راجع عثمان كمال حداد في «حركة رشيد عـالي الكيلاني» ص ١٩ ـ ٢٠ •

بريطانيا العظمى • وما كان لنوري ان يبقى طويلا في اوساط المحور اذا لم يتأكد من ان توقعات المحور تبشر بالخير حقا •

لم تكن حالة نوري المضطربة ، بالنسبة للطريق الذي كان عليه ان يسلكه لانقاذ بلاده من وضعها العسير في سنة ١٩٤٠ ، حالة منقطعة النظير في حياة رجال وجدوا انفسهم في ظروف مماثلة • ويقال مثلا ان النبي محمدا اعترف ببعض الشيء لآلهة المكيين خلال كفاحه من اجل رفع كلمة الله ليقضي على الجفاء بينه وبين شعبه • ولم يمض وقت طويل حتى اكتشف انه كان يصغي الى وسوسة الشيطان لا الى كلمة الله التي كان يلقي بها اليه الملاك جبريل ، فتبرأ من خداع الشيطان ، انتصارا للحق [٢٠] ومر قبل النبي محمد انبياء آخرون ، نظير ناتان وداود ، بتجارب مماثلة عندما اصغوا الى صوت الشيطان ثم اضطروا في وقت لاحق الى التبرؤ من ذلك الصوت انتصارا للهدي الالهي وارشاده [٢١] • وهذا التشويش القائم بين خداع الشيطان وهدي الرحمن يعكس الصعوبات التي عاشها هؤلاء الحكماء الاقدمون خلال ازمات خطيرة • الا ان الانبياء كما يبدو كانت تحيط

---

(٢٠) راجع تاريخ الطبري (لندن ١٨٧٩) المجلد الاول ص١١٩٢ وسيرة ابن هشام . تحرير وستنفيلد (غوتنغهام ١٨٥٨) المجلد الاول ص ٢١٤ . ترجمة غيوم ص ١٦٨ . (مانشستر) ص ٣٨ ــ ٣٩ .

(٢١) صموئيل الثاني الاصحاح ٧ العدد ٨ و ١٢ و١٣ . ملوك الاصحاح ٥ العدد ٣ ــ ٥ . الاصحاح ٢١ العدد ١ ــ ٣٠ الاصحاح ٢٢ العدد ١ ــ ١٩ .

بهم الملائكة لتقويم أخطائهم ، بيد اننا في الزمن الحاضر ، نبدو وكأننا اعفينا الملائكة من اعبائهم ، ورحنا نطلب الى الذين يتمرسون بالمسؤولية ان يتحلوا بما تتحلى به الآلهة من حكمة ومعرفة لتأتي احكامهم صحيحة سليمة • وليس غريبا في الاوقات الحرجة ، ان يتأنى ذوو المسؤولية العامة ويتريثوا إما للتأمل في بعض ما اعتور تصرفاتهم الماضية من شك ، او ليلتقطوا أنفاسهم بغية الانطلاق من جديد • ان طبيعة القرار الذي يتخذ في هذه الحال يكشف قيمة الانسان وقيمة المبادىء التي تتحكم في تقديره وحكمه • وقد يبرهن من خلال ذلك ان كان مثاليا او مكيافيليا ، كما ان قراره قد يعود على وطنه بفوائد بعيدة المدى او قصيرته،ولا شك في ان المسؤولية ضخمة ، وان اقل خطأ في التقدير قد يؤدي الى كارثة • ومحظوظ حقا ، ذلك الانسان الذي يستطيع تقويم خطئه قبل ان يواجه كارثة مميتة •

فهرس الاعلام

ـ أ ـ

- ب -

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

- ح -

ـ خ ـ

ـ د ـ

ـ ر ـ

ـ ز ـ

ـ س ـ

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ط ـ

ـ ع ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

— ك —

— ل —

- م -

ـ ن ـ

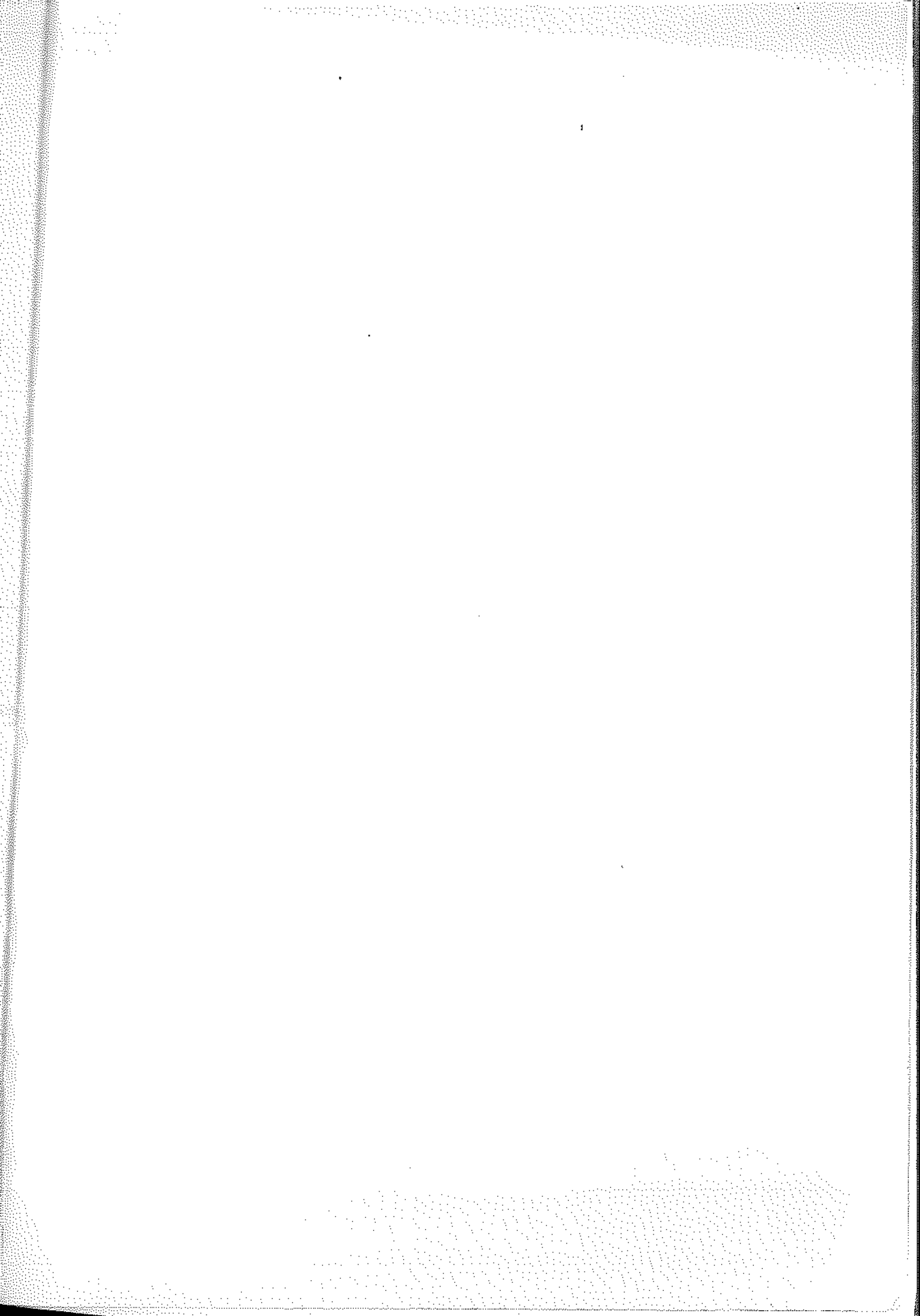
ـ هـ ـ

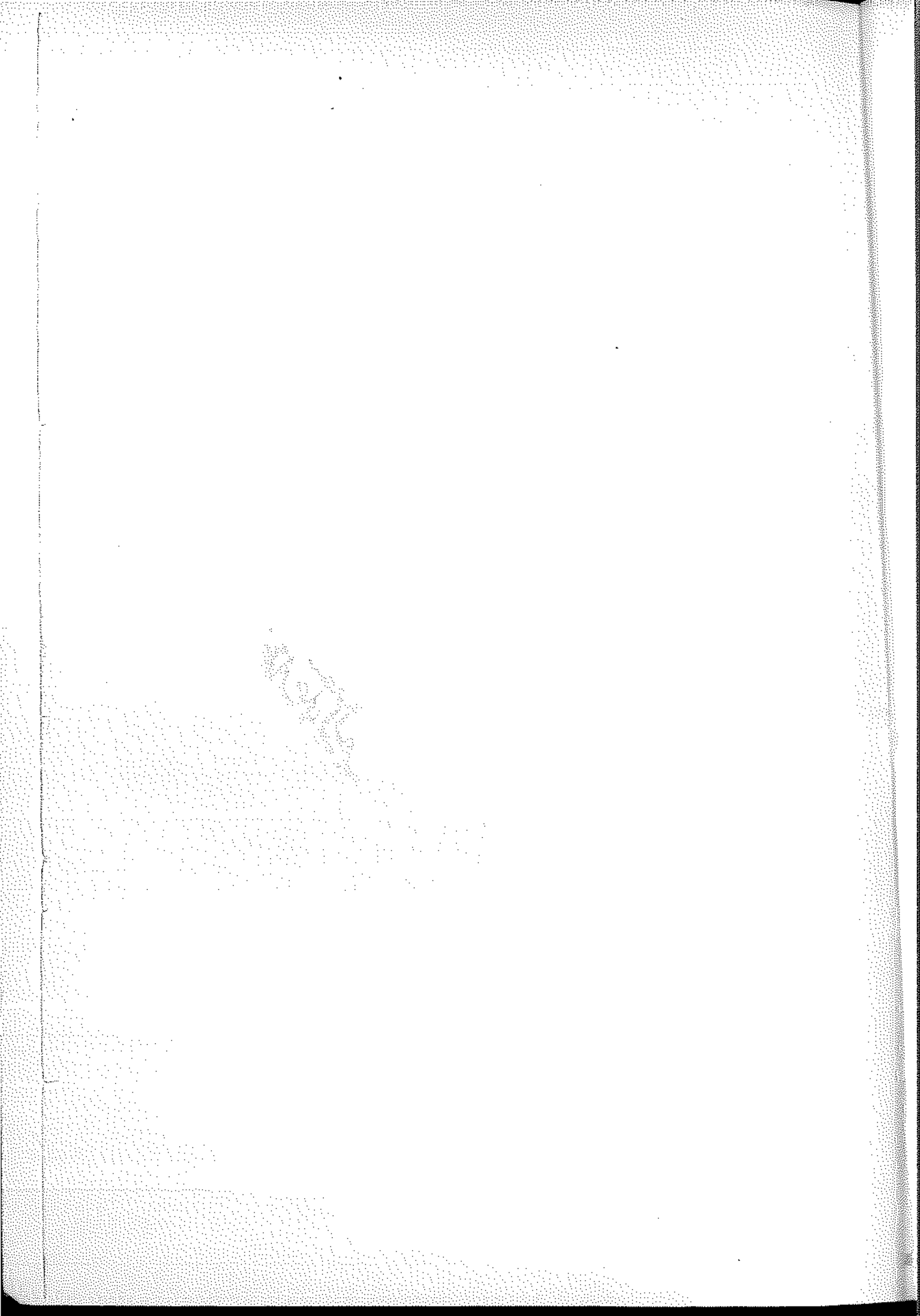
– و –

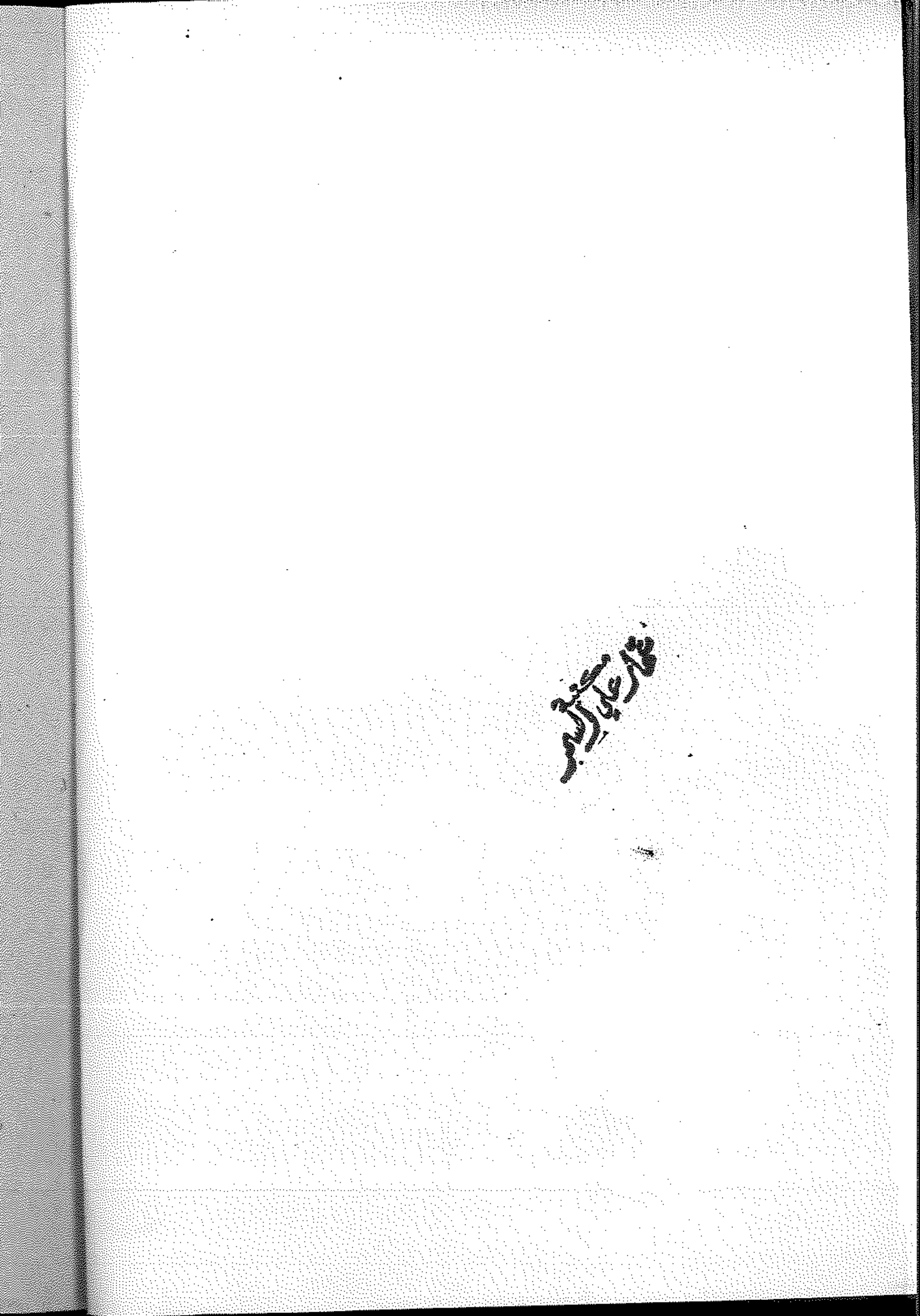
– لا –

– ي –

ـ انتهى ـ







كتب للمؤلف

الاتجاهات السياسية في العالم العربي

اصدار الدار المتحدة للنشر ١٩٧٢

عرب معاصرون

ادوار القادة في السياسة

اصدار الدار المتحدة للنشر ١٩٧٣

الحرب والسلم في شرعة الاسلام

اصدار الدار المتحدة للنشر ١٩٧٣

قانون الاسلام الدولي

اصدار الدار المتحدة للنشر (قيد الطبع)

بالانكليزية العراق المستقل

مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٦٠

العراق الجمهوري

مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٦٩

ليبيا الحديثة

مطبعة جونز هوبكنز ١٩٦٣

مطابع الدار المتحدة للنشر

١٤ ل.ل.